المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

رَدْيَارْدْ كِيْپلِنْج

كيم

(مغامرات صبى بحثا عن هويته فى الهند)

ترجمة وتقديم:

محمد عنانى

Card Nr 7817.
Name:
born 7.12.23. of Pruzany
profession:
last lodging at Pruzany
Nationality
D.P. Center Camp of Feldafing
Office for Passports
(Own hand signature)
Checking office

1825



سلسلة
الإبداع
القصصى



كــيم

مغامرات صبى بحثا عن هويته فى الهند

روايــة

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1825
- كيم: مغامرات صبى بحثا عن هويته فى الهند
- رديارد كيپلنج
- محمد عنانى
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة رواية:

Kim

By: Rudyard Kipling

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

كيم

مغامرات صبي بحثا عن هويته في الهند

تأليف: رديارد كيبلنج

ترجمة وتقديم: محمد عناني



2011

كبلخ، وديارد، ١٨٦٥ ـ ١٩٣٦ .
كيم: مغامرات صبى بحثًا عن هويته فى /
تأليف: وديارد كبلخ: ترجمة وتقديم: محمد عنانى.
ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١ .
٤٧٦ص ؛ ٢٤سم . ـ (المركز القومى للترجمة)
تدمك ٢ ٨٣٨ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
أ ـ عنانى، محمد. (مترجم ومقدم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٦٠/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -838 - 2
ديوى٨٢٣

المحتويات



تصدير

فى عام ١٩٦٥ بدأتُ الدراسة فى جامعة لندن للحصول على الماجستير فى الأدب الإنجليزى، وكنت كغيرى من الطلاب مُعْسِرًا أحتاج إلى المال لشراء الكتب والتوسع فى ثقافة اللغة التى أدرسها، فلجأت إلى كتابة الأحاديث التى قدمتها إلى القسم العربى فى هيئة الإذاعة البريطانية، فى الأدب والنقد بين العربية والإنجليزية، ورحب بها الأديب العظيم الطيب صالح – الذى كان يرأس قسم الدراما – وقَدَّمنى إلى مسز شرينجهام رئيسة قسم الأحاديث، فقالت لى إننا نحتفل هذا العام بالذكرى المئوية لميلاد الكاتب رديارد كيـبـلنج، أول أديب إنجليزى يفوز بجائزة نوبل فى الآداب، فلم لا تكتب عنه؟ ولم أكن أعرف عن كيـبـلنج إلا أنه 'شاعر الإمبراطورية' فقصدت إلى المكتبة وأتيت بمختارات شعـرية كان قد جمعهـا الشاعـر والناقد الفذ ت. س. إليوت، وكتب لها مقدمة، فاخترت منها ما رأيته يصلح لأسماع العرب، وكتبت الحديث. وعندما جاء موعد التسجيل سألنى الأستاذ سعيد العيسى، المسئول عن تقديم الأحاديث العربية، أين قصيدة "إذا؟" (If...) فقلت له إننى لم أجدها فى المختارات، فنهض وجاء بديوان الشاعر من المكتبة، وأرانى إياها وأصر على أن أدرجها فى 'الحديث' فانتحيت جانبًا وترجمت بعض أبياتها على الفور، وما زلت أذكر مطلعها:

إذَا اسْتَطَعْتَ الاحْتِفَاظَ بالرَّشَادِ بَعْدَ أنْ

يُجَنَّ كُلُّ مَنْ أَحَاطُوا بِكْ

وَبَعْدَ أنْ يَقُولُوا إنَّكَ المسئولُ عَنْ جُنُونِهِمْ... إلخ.

وسجلت الحديث، وبعد نحو أسبوع قابلت مسز شرينجهام مصادفة فقالت "الشعر لا بأس به، ولكننا نحب هذا الأديب لرواياته.. خذ مثلاً رواية **كيم**.." وقلت فى نفسى ما أجهلنى! وقصدت المكتبة فى كلية بدفورد، التابعة لجامعة

لندن، حيث كنت أدرس، وقضيت ساعات فى قراءة الرواية فلم أستطع أن أستوعب ما قرأت، فالرواية تقدم عَالَمًا غريبًا عنى، إذ تدور أحداثها فى الهند وفى القرن التاسع عشر، واللغة حافلة بالكلمات الهندية، وكان بعضها قد دخل اللغة الإنجليزية، والبعض لم يدخل لكنه يرد فى الإشارات إلى عادات الهندوس والبوذيين وطقوسهم ومفاهيم مذاهبهم الدينية، ولم أجد أن الجهد جدير ببذله، فعدت إلى دراستى للشعر الإنجليزى فى القرن التاسع عشر، نابذًا مشروع ذلك 'الحديث' المقترح.

وعندما كنت أشرف منذ أعوام على رسالة ماچستير عن شعر كيـــپـــلنج، عادت صورة رواية **كيم** إلى ذهنى، لكننى كنت لا أزال أسير انطباعى القديم، فلم أعبأ بالعودة إليها، وفى العام الماضى اختارت باحثة لدينا موضوعًا للدكتوراه يتضمن مقارنة بين شعر كيـــپـــلنج وشاعرين آخرين، فعكفت على ديوانه أقرؤه، فما زادنى إلا نفورًا منه. وفى فبراير ٢٠١٠ سألنى الصديق الشاعر فاروق جويدة إن كان أدب كيـــپـــلنج قد ترجم إلى العربية، بناء على استفسار الدكتور محمود محيى الدين، وزير الاستثمار آنذاك منه، فقلت له لم يترجم من شعره إلا شذرات قصيرة، وأسمعته مطلع قصيدة كنت أدرجتها فى حديثى عنه عام ١٩٦٥:

الشَّرْقُ هُـــوَ الشَّرْقُ
والغَرْبُ هُوَ الغَرْبُ
لَنْ يَلْتَقِـــىَ الاثْنَـــانْ
حتَّى يأتى الرَّحمنْ
بالأَرْضِ وبالأَكْوَانْ
يَوْمَ الحَشْرِ الأَعْظَمْ
لِحسَابٍ لا يَرْحَـــمْ!

وعدت – بطبيعة الحال – إلى الانشغال بهذا الأديب 'الخلافى'، ولم أكن أعجب لأن أدبه لم يترجم من قبل، فمن الطبيعى أن ينصرف من يعانون من الاستعمار البريطانى الغاشم عن كاتب يتحدث بلسان الإمبراطورية البريطانية، لكننى كنت أعجب لتجاهل هذا الشاعر والروائى هذا التجاهل التام، فإذا لم نكن نحبه – وهذا صحيح وله ما يبرره – فلماذا لم ننتقده أو نهاجمه؟ وعندها قررت أن أوليه اهتمامى، خصوصًا بعد أن قرأت **مقدمة** إدوارد سعيد (وهو من هو) لرواية **كيم**، فأرسلت أطلب كتبه من صديقى الأديب والمترجم ماهر البطوطى (من نيويورك) فأرسل لى عددًا منها، وطلبت من أخى العزيز المترجم الفذ أحمد صليحة ديوانه وقصصه القصيرة فأرسلها لى (من ڤيينا)، كما أمدتنى الباحثة أميرة سعد بسبعة كتب عنه، والباحثة رانيا الشباسى ببعض الكتب والمادة العلمية، وبعد أن هضمت ذلك كله أو جله وجدتنى مدفوعًا إلى تقديم هذه الرواية إلى القارئ العربى حتى يحكم بنفسه على هذا الأديب.

وبعد أن انتهيت من الترجمة التى راعيت فيها الأمانة المطلقة، حتى فى محاكاة أسلوب الكاتب، رأيت أن القارئ العربى من حقه أن يطلع على آراء نقاد العالم فى هذه الرواية، وأقصد النقاد الغربيين والشرقيين جميعًا، وخصوصًا ذوى الأصول الهندية والهنود لأنهم أعلم بشئون بلادهم، وهكذا قضيت الشهور التالية فى تنظيم أقوال هؤلاء، وأحكامهم ومذاهبهم، وتصنيف هذا كله حتى أقدمه فى صورة تمهيد لقراءة الرواية التى لا يكاد يعرف أحد عنها شيئًا، وإن كانت تطبع بانتظام ويعاد طبعها فى كل مكان فى العالم (وبلغات مختلفة) منذ أن صدرت أول مرة عام ١٩٠١.

وأخيرًا لا يسعنى وأنا أقدم هذا العمل إلا أن أتقدم بالشكر والتقدير للأصدقاء الذين أمدونى بالمادة العلمية، وأخص بالذكر ماهر البطوطى، وأحمد صليحة، وأميرة سعد، ورانيا الشباسى، وقبل كل هؤلاء وبعدهم أخى العزيز

وصديق عمرى العلامة النابه ماهر شفيق فريد، الذى جاءنى أيضًا بكتاب مهم فى موضوعى ثم قرأ الكتاب كله بعناية وأبدى تعليقات أخذت بها جميعًا.

وبعد فأرجو أن يجد هذا العمل قبولاً لدى القراء العرب، بما له وما عليه، فمن العسير تجاهل روائى وشاعر كان أول إنجليزى يفوز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٠٧.

محمد عنانى

القاهرة – أكتوبر ٢٠١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

١- هذا الكاتب

ارتبط اسم المؤلف ريدارد كيپلنج (Rudyard Kipling) بالإمبراطورية البريطانية فى أوجها، حتى أصبح يوصف بأنه شاعر الإمبراطورية، كما ارتبطت كتاباته النثرية، وخصوصًا رواياته وقصصه القصيرة بكل ما اتسم به العهد الاستعماري من مثالب، والاستعمار البغيض نفسه الذى عانت شعوب العالم الثالث ويلاته رَدَحًا طويلاً من الزمن، وتجرعت مصر نصيبها من هذه الويلات ما يربو على سبعين عامًا، فكان من الطبيعى أن تسوء سمعة ذلك الشاعر والروائى، وأن يُوَصَم كل ما كتب بوصمة الاستعمار، وأن ينصرف عنه الناس، حتى فى بلاده بناء على هذه السمعة، وأن يتسابق المحدثون من أرباب النقد الثقافى إلى ذمه والهجوم عليه، حتى عندما يبدع أدبًا عظيمًا من الناحية الفنية، وحتى حين تحول فى النصف الأخير من حياته فعدَّلَ من مواقفه بعض الشىء.

وهكذا فنحن نواجه عندما نقرأ أى شىء كتبه كيپلنج تراثًا هائلاً من العداء له قد يمنعنا من تذوق أدبه، ويكاد يقصر نظرتنا على موقفه الإمبريالى، ونشرع فى قراءته، إن قرأناه أصلاً، مستندين إلى أمثال هذه الأحكام المسبقة، ولا شك أن لبعضها ما يبرره، من دون أن نَفْصِلَ الفصل الذي تقتضيه الموضوعية بين فن الكاتب وأفكاره، وذلك انجرافًا مِنا فى تيار النقد الثقافى أو ما كان محمد مندور يسميه النقد الأيديولوجى. وأبدأ هنا بتقديم قصيدة أصبح عنوانها نفسه يمثل الفلسفة الاستعمارية التى تنبهت الشعوب لها منذ زمن طويل، ألا وهى أن الاستعمار واجب ملقى على كاهل الرجل الأبيض، وأن هذا الواجب يقضى بنقل الحضارة إلى الشعوب المستعمرة التى تعيش فى

’وحشية‘، وما دام ذلك واجبًا فهو عبء يتحمله الرجل الأبيض، ومن ثم أصبح عنوان القصيدة يمثل إدانة صريحة للفلسفة الاستعمارية الفاسدة، ناهيك بما يرد فى أبياتها من مغالطات يؤسفنى أن أقول إنها لم تُنْبَذْ إلى الآن نبذًا تامًّا فى عالم اليوم.

ففى عام ١٨٩٩ أرسل كيپلنج إلى صديقه الرئيس الأمريكى ثيودور روزفلت نسخة من قصيدة ’عبء الرجل الأبيض‘، قبل نشرها يوم ٤ فبراير من العام نفسه فى صحيفة **التايمز** البريطانية، ويخاطب فيها الولايات المتحدة فى أعقاب الحرب التى خاضتها عام ١٨٩٨ مع إسپانيا وأدت إلى احتلال كوبا والفلبين، وكانتا من الممتلكات الإسبانية. وتقول هذه القصيدة:

تَحَمَّلُوا عِبْءَ الرِّجَالِ البِيضْ!
وأَرْسِلُوا مِنْ خَيْرِ مَنْ رَبَّيْتُمْ
وقَيِّدُوا بالنَّفْيِ أَبْنَاءَكُمْ
كَيْمَا يُلَبُّوا حَاجَةَ الذين قَدْ أَسَرْتُمْ.
ولِيَحْمِلُوا أَثْقَالَ هذِهِ القُيودِ حَتَّى
يَخْدُمُوا الذين فى مَرَاتِعِ الوَحْشِيَّةْ
تِلْكَ الشُّعوبُ الجَهْمَةُ التى بِهَا ظَفَرْتُمْ
نِصْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ثُمَّ نِصفٌ نَزْعَةٌ طُفُولِيَّةْ.

تحمَّلوا عِبْءَ الرِّجَالِ البِيضْ!
وثَابِرُوا ثم اثْبُتُوا
لتَحْجبُوا التَّهْـديدَ بالإِرْهَـابْ
وتَكْبِتُوا مَظَاهِرَ الزَّهْو العُجَابْ

بل ابْتَغُوا البَسيطَ فـــى الكَـــلاَمِ والصَّرِيحْ
ولتَشْرَحُوا الأَلْفَاظَ حتى تَضْمَنُوا الوُضُوحْ
سَعْيًا لِنَفْعِ شَعْبٍ آخَرْ
وكَسْبِ شَعْبٍ آخَرْ.

تحمَّلُوا عِبْءَ الرِّجَالِ البِيضْ!
والحَرْبَ ضَارِيةً لِتَنْشُدُوا السَّلاَمْ
ولتَمْلأُوا أَفْوَاهَ جَوْعَاهُمْ هُنَاكَ بالطَّعَامْ
ولتُوقِفُوا زَحْفَ السِّقَامْ
ولتَرْقُبُوا إذا اقْتَرَبْتم مِنْ نَوَالِ ذلك المَرَامْ
مِنْ أَجْلِ إسْعَادِ أُنَاسٍ غَيْرِكُمْ
مَغَبَّةَ التَّرَاخِى عند حَمْقَى الوَثَنِيَّةْ.
وكيفَ يَنْهَارُ بِهَا كُلُّ الذى رَجَوْتُمْ!

تَحَمَّلُوا عِبْءَ الرِّجَالِ البِيضْ!
فَلَيْسَ ذاكَ حُكْمًا لِلْمُلُوكِ ذَا بَهْرَجَةٍ
لكنه جُهْدٌ كجُهْدِ العَبْدِ أو جُهُودِ كَنَّاسْ
وتِلْكَ قِصَّةٌ تَشِيعُ بين النَّاسْ
ولْتُنْشِئُوا بِسَوَاعِدِ الأَحْيَاءِ مِنْ رِجَالِكُمْ
وتَرْقُمُوا بِرُفَاتِ مَنْ يَمُوتُ مِنْكُمْ
تِلْكَ المَوَانِئَ التى لَنْ تَدْخُلُوهَا
أو الشَّوارِعَ التى لَنْ تَطَئُوهَا.

تَحمَّلُوا عِبْءَ الرِّجَالِ البِيضْ

واجْنُوا ثِمَارَهُ المَعْهُودَةْ

مِنْ لَوْمِ مَنْ يَقِلُّ عَنْكُمْ

وبُغْضِ مَنْ تَحْمُونَهْ

تَحَمَّلُوا صِيَاحَ كُلِّ حَشْدٍ تُسْعِدُونَهْ

(ولو بِبُطْءٍ) سَائِرِينَ نَحْوَ النُّورْ:

"ما بالُكُمْ حَرَّرْتُمُونَا مِنْ عُبُودِيَّةْ

ونَحْنُ أَحْبَبْنَا قُيُودَ لَيْلِنَا المِصْرِيَّةْ!"

تَحَمَّلُوا عِبْءَ الرِّجَالِ البِيضْ!

لا يَجْرُؤَنّ أحدٌ علَى الهُبُوطِ مِنْ هذى الذُّرَا

أوْ يَرفَع الصَّوْتَ الجَهِيرَ لِلحُرِّيةْ

سَتْرًا لمَا أَصَابَهُ مِنَ الكَلاَلَةْ

فهذه الشُّعوبُ الصَّامِتَاتُ المُكفَهِرَّة

غدًا تَقِيسُ بالذى هَتَفْتُمْ أو هَمَستُم

وكُلِّ ما فَعَلْتُمْ أو تَركتُم

منازلَ الأَرْبَابِ عِنْدَكُمْ وقِيَمَتكُمْ.

تَحَمَّلُوا عِبءَ الرِّجَالِ البِيض!

قد انقَضَى عَهدُ الطُّفُولَةِ القَدِيمْ

وكُلِّ إِكْلِيلٍ مِنَ الغَارِ الذى يَحُلُّ دونَ جُهْد

وأَيْسَرِ المَدِيحِ إنْ أَتَى بلاَ اعْتِرَاضْ

هذا أوَانُ مَا يَقُولُهُ أَقْرَانُكُمْ عَنْكُمْ

وتلكَ حِكْمَةٌ تُبَاعُ غَالِيًا وذَاتُ حَدٍّ بَارِد

فإنهـا اختِيَارٌ للمَـدَى الذى أَبْدَيتُمُوهُ مِـنْ رُجُـولَةْ

فى كُلِّ أَعْوَامٍ مَضَتْ ولَمْ تَنَالُوا شُكْرَكُمْ على البُطُولَة

وهذه القصيدة التى تحمل عنوان 'عبء الرجل الأبيض' أصبحت تغنى بعض الباحثين عن الخوض فى باقى إنتاجه الشعرى، فألفاظها صريحة، بخلاف الكثير من الفقرات الشعرية التى يوردها الكاتب فى مستهل كل فصل من فصول روايته، إذ لا تتمتع كلها بهذه الصراحة فى الحديث عن 'الواجب' أو 'العبء' الملقى - فى نظر الإمبرياليين - على كاهل الرجل الأبيض، ويقول إدوارد سعيد فى مقدمته لطبعة **كيم** عام ١٩٨٧:

أصاب چورچ أورويل قطعًا فى تعليقه على قدرة كيپلنج الفريدة فى إضافة عبارات ومفاهيم إلى اللغة، مثل "الشرق هو الشرق والغرب هو الغرب"، ومثل "عبء الرجل الأبيض"، ومثل "فى مكان ما شرقى السويس". كما أصاب فى قوله إن مشاغل كيپلنج، السوقية منها والدائمة، ذات أهمية ملحة. والواقع أن أحد أسباب قوة كيپلنج يتمثل فى أنه كان فنانًا ذا مواهب هائلة، وكان ما فعله فى فنه هو صوغه لأفكار كان يمكن أن يقل اتصافها بالدوام كثيرًا، على الرغم من سوقيتها، من دون فنه. ولكن السبب الآخر لقوته أنه كان يتمتع بالمساندة أيضًا (ومن ثَمَّ كان يستطيع الانتفاع) بالعُمُدِ التى تدعمها السلطة للثقافة الأوروبية فى القرن التاسع عشر. وكانت هذه الثقافة تُسَلِّم إلى حد ما بدونية الأجناس غير البيضاء، وضرورةِ تولى حضارةٍ أرقى حُكمَ هذه الأجناس، وجوهرِ الشرقيين المطلق الذى لا يتغير، وكذلك جوهر السود والبدائيين والنساء، أى إن ذلك كان من البديهيات التى لا تناقش فى الحياة الحديثة (ص ٣٢).

هذا الجو العام الذى يحيط بالنظرة النقدية إلى الكاتب لم يكن خاصًّا به وحده، لكننا درجنا على اختصاصه بالذم لأنه، كما يقول إدوارد سعيد، كان فنانًا عظيمًا، فتمكن بفنه من إحداث تأثير أوسع كثيرًا من تأثير غيره الذين لم يكونوا يتمتعون بمواهبه.

٢- هذه الرواية

ومن العسير على قارئ اليوم إذن تنحية الأفكار الشائعة عن الكاتب حتى يقرأ نصًّا من نصوصه قراءة موضوعية محايدة، وقد يصعب عليه الفصل بين الفن والأيديولوجية، واكتشاف ما يسميه إدوارد سعيد "امتيازها الجمالى"، إذ ما أيسر اكتشاف الأيديولوجية، خصوصًا عند كاتب يجمع بين التلميح وبين التصريح، وما أصعب دراسة العمل بمعزل عن هذه الأيديولوجية. ويزيد من تعقيد الصورة تفاوت الكتابات النقدية على امتداد القرن العشرين وحتى مطلع القرن الحادى والعشرين تفاوتًا شديدًا بين التمجيد والإدانة، من الاحتفاء 'بالمعرفة الكاملة' للهند فيها، ومواطن سحر الرواية باعتبارها حكاية للمغامرات العجيبة وملحمة ذات رؤية ثاقبة، أو بسبب نفعها كرواية رمزية للنزوح والتشرد وتقطع الجذور فى العصر الحديث، إلى إدانة موقفها الإمبريالى "الهمجى". وفى الفترة الأخيرة، منذ ثمانينيات القرن العشرين وحتى اليوم، كان جُلّ الدراسات النقدية يركز على ما تسميه زُهرة ب. سليفان (Sullivan) (٢٠٠٢) "النافذة التى فتحها كيبلنج" لمناقشة الهويات الثقافية والشخصية وهوية كل من الجنسين فى ظل الاستعمار، إلى جانب كوكبة من القيم السياسية المتناقضة التى تقع فى قلب المشروعين الإمبريالى والقومى.

والواقع أن التحول فى دراسات أدب كيبلنج بدأ منذ الستينيات، من المديح الذى أسبغه راندول چاريل (Jarrell) على كيبلنج واصفًا إياه بأنه "عبقرية عظيمة وعُصَابىٌّ عظيم، وكاتب محترف عظيم، من أمهر الكتاب الذى عاشوا بيننا" إلى النقاد الذى يصرون على قراءة كيبلنج باعتباره من

"علماء الاجتماع" قائلاً إنه ناقد ثقافيٌّ شاهد مجتمعًا "يتأرجح على حافة الهاوية سياسيًّا وعصبيًّا وماديًّا وروحيًّا" (مثل نويل أنان Annan). وأما الاحتفاء غير النقدى المبكر "بمعرفة الكاتب للهند" فقد تحول هو أيضًا باتجاه التيار النقدى القائم على ما يسمى 'التمثيل' – أىْ أىُّ جزء يمثل للكل، والاختيارات التى تبرر إصدار الأحكام العامة – وهو الاتجاه الذى لا يزال يغذو الأنثروبولوچيا، والتاريخ والدراسات الأدبية. ولقد كافح النقد خصوصًا فى الثمانينيات والتسعينيات، منذ كتابات چون ماكلور (McClure) وإدوارد سعيد، لتفهم أوجه تقاطع جماليات فن كيپلنج لا مع جراحه الروحية فقط، بل أيضًا مع تاريخ عصره ومساراته السياسية والأيديولوجية.

وتقول زُهرة ت. سليڤان إن هذه الرواية تجمع بين عدة أجناس روائية جمعًا غريبًا محيرًا، وهو ما يفسر طابعها 'التركيبى'، فهى رواية جاسوسية مثيرة، وكذلك قصة مغامرات من نوع البيكاريسك (انظر كتابى **الأدب وفنونه**) وقصة بلوغ النضج، (وهو ما نطلق عليه مصطلح bildungsroman) ورواية رومانسية تصور السعى فى طلب شىء. وتشرح الكاتبة ذلك قائلة إن مصدر إثارتها باعتبارها رواية جاسوسية يرجع إلى متابعتها بصورة متقطعة مشكلة نجاح كيم مع صديقه اللاما (الكاهن البوذى) فى إحباط مسعى الجاسوسين الروسيين، وباعتبارها قصة مغامرات من نوع البيكاريسك، تتبع مسار كيم فى أثناء ممارسته "اللعبة الكبرى" فى طريق العربات العظيم الذى يرمز لطريق الحياة، وباعتبارها قصة بلوغ النضج تعتبر تنويعًا على الثيمة المألوفة فى القرن التاسع عشر، ثيمة البحث عن الأب، وهو التنويع الذى يتجسد فى عدد من الأشخاص الذين يمثلون الأب ويرمزون لثقافة مقطعة الأوصال، وباعتبارها رواية رومانسية تصور السعى فى طلب شىء، تتضمن **كيم** لونين متضادين من ألوان البحث، بحث كيم عن ثور أحمر فى حقل أخضر، وبحث اللاما عن نهر السهم، أى النهر الذى سقط فيه سهم بوذا. ثم تختتم الكاتبة توصيفها للرواية قائلة إن ثمة ما هو أهم، ألا وهو أن طابعها التركيبى يرجع

إلى جهودها فى معالجة آثار وفاة الوالد، والتوسل فى هذا بمطلبين معقـدين، على تضادهما، وهما مطلب الظفر بالسلطة ومطلب التمتع بالحب، مضيفة:

> إن المشكلات والتناقضات الكبرى فى الروايـة يغـذوها ويـشكلها إحساس كيـپـلنج بانقـسام ذاتـه، وتعـدد صـور ولائـه لقـوة الإمبراطورية فى الوقت الذى تعمقت فيه سلطتها، وللحب الذى يكنه للهند التى ضاعت وكانت تطمس الفوارق بين الحـاكم والمحكـوم. وأما المسعى الباطن، أى البحث عن هوية (من كيم؟ كـيم.. كـيم.. كيم؟) فيوحى بإمكان اكتشاف الذات والتكامل بين 'الذوات' الكثيـرة له، والوصول من خلال اللاما إلى هوية يستطيع كـيم أن يحبهـا. ولكن هذا البحث يصطدم بالمـسعى الخـارجى، ألا وهـو الرحلـة والمتابعة الملحة للتعريف بحثًا عن الأب (الثور الأحمر فى الحقـل الأخضر)، الذى سوف يحرره من بعض مظاهر القلق والمـشكلات الكامنة فى ذلك البحث. وبعبارة أخرى نقول إن حب كيم للاّما وبحثه عن الهوية يصلان إلينا باتساق من خلال هياكل الـسلطة الحاكمـة، ويقعان آخر الأمر تحت سطوة النظام الاستعمارى (ص ٢٤٢).

ولنرجئ الحديث التفصيلى عن آراء النقاد حتى تقديم الـسياق التـاريخى لهذه الرواية.

٣- السياق التاريخى

يدرك قارئ الرواية من الإشارات المتناثرة فى ثنايا النص، خصوصًا فى الحوار، أن الأحداث تقع فى نحو أربع سنوات، ولنقل ما بين ١٨٨٨ و١٨٩٣، ما بين العامين الثالث عشر والسابع عشر من حياة كيم، بطل الروايـة الـذى ينتقل فيها من الطفولة إلى اليفوع (أو الرجولة كما يحلو له أن يقـول). وفـى هذه الفترة كان مؤلف الرواية يعيش فى الهند ويعمـل محـررًا فـى بعـض صحفها. وصورة الهند التى تبرز فى الرواية مرسومة من وجهة نظر أفـراد

الشعب العاديين، بحيث لا يشعر القارئ على الإطـلاق (تقريبًـا) بالأحـداث السياسية الكبرى فى تلك الفترة، وربما لم يكن كيـپـلنج يدرك مدى أهميتهـا آنذاك، لكنها فى الواقع أدت إلى وضع أسس القوميـة الهنديـة فـى القـرن العشرين.

ويقول بلير ب. كلينج (Kling) فى دراسته التى أعتمد عليها فى بداية هذا القسم (٢٠٠٢) إن الإمبراطورية الهندية البريطانية فى أوجها كان يبلغ عـدد سكانها ٢٥٦ مليونًا، وتشمل شبه القارة الهندية كلها، بما فـى ذلـك الـدول المستقلة اليوم وهى الهند وباكستان وبنغلاديش. وكان يحكم ثلثى الإمبراطورية جهازٌ بيروقراطى بريطانى لا يزيد أفراده عن ٢٠٠٠ شخص، وكـان يـشار إليهم باسم نخبة رجال الحكومة الهندية الذين كانوا يشرفون على عمـل نحـو ٤٠٠٠٠ من الموظفين الكتابيين والإداريين الهنود. وأما الثلث البـاقى فكـان يتكون من ولايات وطنية يحكمها الأمراء الهنود تحت الإشراف البريطـانى. وتظهر لنا بعض الإشارات إلى هذه الولايات فـى ثنايـا الروايـة، فالـسيدة 'المهرانية' التى مدت يد الود إلى اللاما وكيم أرملة حاكم ولاية صغيرة فـى وادى كولو، كما يظهر البنغالى موكرچـى قرب النهاية (فى الفـصل الثـانى عشر) متنكرًا فى صورة مبعوث من راچـا (حاكم) ولاية رامـپـور. وأمـا المناطق الرئيسية الثلاث التى كانت تخضع مباشرة للحكم البريطـانى فكانـت مقاطعات هائلة المساحة، وهى البنغال وبومبـاى ومـدراس. وكانـت هـذه 'الإمارات' قد تضخمت فى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القـرن التاسـع عشر نتيجة سلسلة من الحملات الحربية التى شنها جنود شركة الهند الشرقية، فبعد أن كانت مدنًا تجارية ساحلية أصبحت تضم معظم مساحة شـبه القـارة الهندية. وكان لكل منها حاكم ومجلس حكم، وإن كان هؤلاء المسؤولون مـن أبناء البلد يخضعون لحاكم الهند العام أو نائب الملكة. وفى الثمانينيـات مـن القرن التاسع عشر أضيفت مقاطعات جديدة، وهى المقاطعات الشمالية الغربية، ومقاطعة 'أُوذ'، والـپـنـچـاب، والمقاطعات الوسطى، وأسّـام، وبورمـا.

وتقع أحداث الرواية فى المقاطعات الشمالية الغربية، وفى أُوذ، وفى البنجاب، وفى الولايات الوطنية عند سفوح جبال الهيملايا.

وعلى الرغم من خضوع الهند فى ظل الاستعمار لحكومة متسلطة، فلا تشى رواية **كيم** بأية صورة من صور التسلط. ولهذه القضية وجهان، الوجه الأول أن دعاة التسلط فى الحكومة البريطانية – الذين كانوا يبنون حجتهم على أن الجماهير الفقيرة الجاهلة لا تصلح لحكم نفسها أو يزعمون بأنهم يمثلون الحَكَمَ فى المنازعات الناشبة بين سكان شبه القارة الهندية،التى يفتتها التعدد الشديد للأعراق واللغات والأديان والطوائف والثقافات، بل والأجناس (على نحو ما يصوره المؤلف فى رحلة كيم واللاما فى طريق العربات العظيم) – لم يكونوا آنئذ على رأس الحكومة البريطانية. بل كان جلادستون الذى رأس الوزارة أكثر من مرة فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر يؤمن بضرورة الحرية وإقامة الحكم النيابى فى الهند. وأما الوجه الآخر، فهو عملى 'براجماطيقى'، ألا وهو قلة عدد البريطانيين فى الهند واعتمادهم على التعاون مع أبناء البلد فى إدارة هذه الإمبراطورية الشاسعة. وإلى جانب هذين الوجهين، كان قد نشأ عامل جديد ألا وهو الزيادة المطردة فى أعداد الهنود الذين تلقوا تعليمًا غربيًّا وكانوا يشكلون نواة الطبقة الوسطى البازغة، وخصوصًا فى المدن الكبرى مثل كالكتا وبومباى ومدراس. وإزاء مطالبة هؤلاء بالمشاركة فى الحكم والتمتع بحقوق البريطانيين، لم يكن أمام سلطة الاحتلال إلا أن تستقطب زعماءهم، وتشرك العديد منهم فى الإدارة، وتقيم 'الأحلاف' مع شتى قطاعات السكان الهنود، تجنبًا لأى احتكاك يوحى بالقوة الغاشمة.

وكان البنغاليون من أسبق أهل الهند إلى استيعاب العلوم الغربية، وخصوصًا إتقان اللغة الإنجليزية، وسرعان ما اكتسب هؤلاء الأدوات التى مكنت البريطانيين من السيطرة على البلاد، ألا وهى مهارات التنظيم الغربية، والنزعة الوطنية والهوية القومية، إلى جانب العلوم والتكنولوچيا الغربية. بل

إن بعض الهنود، خصوصًا فى بومباى، بدأوا ينافسون البريطانيين فى التجارة الخارجية، وكان بعضهم قد أنشأ فى وقت التمرد الهندى (١٨٥٧-١٨٥٨) ـ المشار إليه فى الرواية - مصانع نسيج حديثة. وأما البنغاليون المتعلمون فيمثلهم فى الرواية البنغالى هورى شوندر موكرچى. وكان حصوله على الماچستير من جامعة كالكتا وتفاخره العجيب بلغته الإنجليزية، من الرموز الدالة على انتشار أبناء البنغال فى مناطق الهند الشمالية ومزاولتهم المهن التى كانت مقصورة على البريطانيين. وتشهد معالجة كيپلنج لهذا البنغالى على أن المؤسسة البريطانية الحاكمة فى الهند لم تكن تضمر وُدًّا خالصًا للبنغاليين، فإذا كانت قبل منتصف القرن التاسع عشر ترحب وتهلل لظهور من كانت تدعوهم "إنجليزًا ذوى بشرة سمراء" باعتبار ذلك دليلاً على نجاح سياستها أو ما كانت تصفه برسالتها الحضارية، فإنها ما عتمت أن اعتبرتهم تهديدًا لها بحلول الثمانينيات - ما داموا قد تعلموا القيام بأعمال الإنجليز - بل إنها عمدت إلى مهاجمتهم بالسخرية وبإصدار قوانين عنصرية، كما كان البريطانيون فى الهند يقولون إن البنغاليين قد يكونون قد تلقوا تعليمًا إنجليزيًا ولكنهم يفتقرون إلى الصلابة الخلقية، والرجولة، والمنطق السليم - وهى الصفات اللازمة لشغلهم مناصب رئيسية - وعليهم أن يكتفوا بوظائف إدارية ثانوية، ويستطيع قارئ هذه الرواية أن يشعر بنظرة المؤلف التى تضمر هذين العنصرين معًا (أى الترحيب بالطبقة الجديدة والخوف منها) فى معالجته لشخصية البنغالى.

وكان يتزامن مع أحداث الرواية حدثان يتمتعان بأهمية بالغة، الأول إنشاء حزب المؤتمر الوطنى الهندى فى ١٨٨٥، الذى قويت شوكته فى العشرين عامًا التالية، فدأب على إصدار قرارات ينتقد فيها السياسات البريطانية ويوصى ببعض 'التحسينات' وإن كان يحرص على إعلان إخلاصه لبريطانيا (فى الكفة الأخرى من الميزان). وما إن حل القرن العشرون حتى ازدادت النزعة الثورية عند الشبان المتعلمين، وبعد الحرب العالمية الأولى تولى زعامة الحزب المهاتما غاندى الذى قاد الهند فى معركة الاستقلال. وكان

الحدث الثانى هو السماح بإجراء الانتخابات لتشكيل أجهزة الحكم المحلى، وهى التى كانت الركيزة التى استند إليها تحقيق الحكم الذاتى فيما بعد، خصوصًا عندما سمح حاكم عام آخر للهند، بموجب قانون المجالس الهندية الصادر فى ١٨٩٢، بإشراك أفراد الطبقة المتوسطة المثقفة فى مجالس الحكم فى الإمبراطورية الهندية.

وهكذا فبينما كان كيم يعمل مع أصدقائه فى مناطق الحدود الجبلية لإنقاذ الإمبراطورية الهندية الأوروبية من الخطر الروسى، كان مواطنو هورى البنغالى سائرين فى الطريق الذى انتهى باستقلال الهند وتقويض الإمبراطورية فى غضون ستين عامًا. ولا يلمح القارئ فى صفحات الرواية أية إشارة إلى هذين الحدثين المُهِمَّيْن، فكأنما كان كيپلنج ورفاقه البريطانيون لا يرون الهند الحقيقية إلا فى صورة جماهير الفلاحين، ويعتبرون أنهم – أى الإنجليز – الحُمَاةُ الذين أرسلهم الله لها. كان البريطانيون لا يثقون فى الهنود المثقفين ويرون أنهم غير قادرين على النظرة الموضوعية، وإن كان هؤلاء لا يكفون عن الهجوم على الحكم البريطانى بسبب عجزه عن علاج الفقر، وبسبب تخصيص جانب كبير من ميزانية الإمبراطورية – المقتطعة من أرزاق أبناء الشعب الفقراء – للجيش (بدلاً من التعليم والصحة) وكان الجيش يُستخدم فى المقام الأول لتأمين حدود البلد الشمالية الغربية، أو ما كان يسمى 'باللعبة الكبرى'.

وأستعين هنا بالكتاب الذى أصدره پيتر هوپكيرك (Hopkirk) عام ١٩٩٢ بعنوان **اللعبة الكبرى**، ويشرح فيه طبيعة هذه 'اللعبة'، إذ كانت الحكومة ترى أن التاريخ يساند سياساتها، ما دام الغزاة لم يستطيعوا دخول الهند إلا من طريق الممرات الجبلية فى الشمال حتى استطاع الأوروبيون الوصول إليها بحرًا. وكان من بين هؤلاء الغزاة الآريون الأوائل، والفرسان الرُّحَّلُ وبناة الإمبراطوريات من الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، بما فى ذلك الفُرْسُ، والبكتريون، والكوشان، والمغول، والأتراك. ويبدو أن كيپلنج كان يعتبر الحدود الشمالية الغربية مكانًا ذا سحر خاص، لأنه يتيح للمغامرين إثبات

صلابتهم، ما دام المكان حافلاً بالأخطار والأسرار، وهو ما يصوره فى رحلة كيم مع اللاما إلى الجبال.

ويشير تعبير 'اللعبة الكبرى'، وفقًا لما يقوله هوپكيرك، إلى الصراع فى سبيل السيطرة على الشرق الأوسط وآسيا الوسطى بين بريطانيا وروسيا. وكان هذا الصراع يجرى بوسائل دبلوماسية، وعقد الأحلاف، والاعتماد على الولايات التابعة لكل منهما، وأيضًا من خلال التجسس، والاستكشاف، ومسح الأراضى هندسيًّا، ورسم الخرائط، والتنافس فى احتلال المواقع الحاسمة فى المناطق الحدودية. ويقول هوپكيرك إن تعبير 'اللعبة الكبرى' كان أول من ابتدعه ضابط بريطانى أرسله الحاكم العام للهند عام ١٨٢٩ لاستكشاف الأراضى الواقعة بين جبال القوقاز وممر خيبر، وهو الطريق الذى يمكن أن يسلكه الجيش الروسى إذا أراد غزو الهند (ص ١٢٣-١٢٤). وكان ذلك الضابط، واسمه كونولى، يمثل "اللاعب الأصيل للعبة الكبرى" - بتعبير هوپكيرك - ما دام قد خاض مغامرات فذة، وكان يستعين فيها بالتنكر والتحايل فى سبيل البقاء. وسوف يلمح قارئ الرواية تأثير هذه الصورة - ولابد أن كيپلنج كان يعرفها - فى مغامرات كيم مع اللاما والبنغالى فى المناطق الحدودية.

كانت بريطانيا قد بدأت تخشى غزو الهند من حدودها الشمالية الغربية منذ الحروب النابليونية، حتى من قبل إنشاء إمبراطوريتها الهندية، وأما فى القرن التاسع عشر فقد ازداد انشغالها بإمكان غزو روسيا للهند بسبب نجاح الروس تدريجيًّا فى فتح مناطق آسيا الوسطى التى كان يحكمها التتار. وكانت كل منطقة تضمها روسيا إلى أملاكها تقربها من الهند. ويقول هوپكيرك إن الحدود الروسية كانت تبعد فى بداية القرن التاسع عشر عن الهند بمسافة ٣٢٠٠ كيلومتر، وتضاءلت هذه المسافة فى نهاية القرن حتى لم تعد تزيد عن ٣٢ كيلومترًا فقط. وفى منطقة الهند الشمالية الغربية كانت تفصل بين روسيا و'الهند البريطانية' دولتان تمثلان حاجزًا طبيعيًا هما بلاد فارس وأفغانستان، وكانت روسيا وبريطانيا تتنافسان فى التحالف معهما أو فى قهرهما.

وكانت بريطانيا تسعى لتنصيب حاكم يمد يد الود لها في أفغانستان، فأرسلت جيشًا مختلطًا من الهنود والبريطانيين، قوامه ١٦٠٠٠ رجل لغزوها، فعزلت حاكمها ونصبت قريبًا له لا يحبه رجال القبائل الذين انتظروا حتى فصل الشتاء فانقضوا على ذلك الجيش الذى حاول الرجوع إلى الهند فحالت الثلوج التى سدت الممرات الجبلية دون رجوعه، وتمكن رجال القبائل من إبادة ذلك الجيش إبادة شبه كاملة، إذ لم ينج منه سوى إنجليزى واحد وحفنة من الجنود الهنود. ثم حاولت بريطانيا الغزو ثانيًا بعد أن احتاطت للأمر، فوفقت فى عام ١٨٧٨-١٨٨٠ – وهى الفترة القريبة من أحداث الرواية – ونَصَّبَتْ حاكمًا مواليًا لها فى كابول، ولكن بريطانيا كانت تحرز نجاحًا أكبر فى "اللعبة الكبرى" من خلال الدبلوماسية والتجسس. وأما الحلبة الثانية التى دارت فيها المنافسة بين بريطانيا وروسيا فكانت التيبت. وكانت تخضع نظريًّا فى علاقاتها الخارجية للصين، لكنه عندما تولت أسرة 'مانشو' الضعيفة الحكم فى الصين، حاول الدلاى لاما، الزعيم الدينى الأكبر للتيبت، تحرير بلده من السيطرة الصينية بمساعدة روسيا، وتولى تنظيم هذه المساعدة أستاذه الروسى الذى كان يدين علنًا بالبوذية. وكان الروس يتظاهرون بأن اهتمامهم يقتصر على الدين، ولكن بريطانيا خشيت أن يكون الدين ستارًا لنشاط سياسى فشنت على التيبت حملة عام ١٩٠٤ انتهت بمذبحة لجيش الكهان البوذيين ذوى الأسلحة الساذجة، وفرضت اتفاقية تجارية ظالمة، وسرعان ما ثار الرأى العام البريطانى على سلوك الحكومة الوحشى، فعدلت الحكومة من شروط الاتفاقية.

ويلاحظ قارئ الرواية ذلك التركيز المثير على الجانب السرى 'للعبة الكبرى'، وهو ما يضعه سى. أ. بيلى (Bayly) فى سياقه التاريخى الصحيح فى كتابه **الإمبراطورية والمعلومات** الصادر عام ١٩٩٦، قائلاً إن بريطانيا أقامت فى الهند من أقصاها إلى أقصاها شبكة استخبارات هائلة، تتكون من شتى أنواع 'المخبرين' المأجورين، وجامعى المعلومات، قبل أن تبسط سلطانها على الهند بزمن طويل. وكان الحكام المحليون، وملاك الأراضى والتجار يعتمدون جميعًا على عملاء الاستخبارات. وكان رؤساء الولايات

الهندية يستخدمون مخبرين من نوع آخر، كانوا يسمون 'كُتَّاب الأخبار' الذين كانوا يكلفون بالخدمة فى قصور الملوك الهنود فى المناطق النائية حتى يعودوا بما سمعوه من تدابير ومؤامرات. وكان البريطانيون فى أول عهدهم بحكم مناطق شاسعة فى الهند إبان القرن الثامن عشر مضطرين إلى الاعتماد على شتى ضروب 'المخبرين' بسبب جهل الإنجليز باللغات والعادات وعلاقات القوة والموارد والطاقات الحربية لخصومهم. وبسبب هذه الفجوة فى اللغة والثقافة خصوصًا كان نجاح العمل الحكومى برمته يعتمد على جودة الاتصالات ما بين المسؤولين ومخبريهم الهنود. ويسمى بيلى حالات انهيار خطوط الاتصال بين الجانبين "حالات فزع معلوماتى" كما يُرجع سبب أحداث التمرد فى ١٨٥٧-١٨٥٨ إلى مثل هذا الانهيار ويقول إن أحد أسباب فشل الاستخبارات منذ منتصف القرن كان خضوع جمع الاستخبارات للبيروقراطية، والاكتفاء بالإحصائيات بدلاً من عملاء الاستخبارات التقليديين. ويقول بيلى إن أهم سبب جعل بريطانيا تسمح بإشراك الهنود فى المجالس التشريعية، وتشجع إنشاء حزب المؤتمر الوطنى الهندى أول الأمر كان يتمثل فى رغبتها فى معرفة آراء 'الرعايا' الهنود للحكومة.

كما يلاحظ قارئ الرواية الإشارات المتعددة إلى مصلحة المساحة الهندية ورسم الخرائط وكيف تعامل فى الرواية معاملة التجسس. ويقول هوبكيرك المذكور فى كتاب آخر (عنوانه **مسعى كيم: البحث عن اللعبة الكبرى عند كيپلنج**، ١٩٩٦) إن النموذج الذى بنى عليه كيپلنج صورة العقيد كرايتون فى الرواية كان ضابطًا فى سلاح المهندسين الملكى برتبة نقيب، واسمه توماس مونتجومرى، كُلِّفَ برسم خرائط شمالى أفغانستان، وتركستان، والتيبت فى الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر (ص ١٢٠). ويوضح هوبكيرك أن هذا الرجل كان أول من تنبه إلى ضرورة الاستعانة بالهنود أنفسهم بعد تدريبهم على ممارسة هذا العمل فى المناطق الخطرة والمعادية، متنكرين فى صورة حجاج بوذيين. وكما يحدث فى الرواية، كانوا يستخدمون حبات مسابحهم فى حساب خطواتهم المنتظمة تحديدًا للأبعاد

ويخفون البوصلة فى عجلة الصلاة. وكانت أسماؤهم تظل طيَّ الكتمان ويشار إليهم بحرف متبوع برقم، على نحو ما نرى فى الرواية. وسرعان ما كتب الكُتَّابُ عنهم بأساليب مثيرة، وإن كان ماثيو إدنى (Edney) يرى أنها مبالغ فيها وفى أهمية هؤلاء أنفسهم فى إطار المسح الجغرافى للهند، وعنوان كتابه **رسم خريطة الإمبراطورية** وقد صدر عام ١٩٩٧ (ص ٣٠٨-٣٠٩). ولكن مهما تكن حقيقة ما قاموا به فقد استغل كيپلنج ما وجده القراء من جاذبية فى هذه الشخصيات، والحق أنها كانت تتفق مع مذهبه فى جعل الهنود الشجعان المخلصين أبطالاً لقصصه وأشعاره.

ومن نماذج هؤلاء "الأبطال من أبناء البلد" فى الرواية شخصية الجندى الهرم، أحد قدماء المحاربين فى أحداث التمرد الهندى، الذى كوفئ على الدوام بعد ذلك على إخلاصه لسادته البريطانيين فى أحلك ساعات محنتهم. فماذا كان من أمر ذلك التمرد – الذى يشار إليه فى كتب التاريخ باسم 'العصيان' – عام ١٨٥٧؟ بدأت أحداثه من جانب الجنود الهنود فى الجيش البنغالى، وسرعان ما امتد التمرد إلى الولايات المحلية المستاءة، وإلى الفلاحين وملاك الأراضى. وكان هؤلاء الجنود قد تدربوا على القتال بالأساليب الحربية الأوروبية، واستخدمتهم أول الأمر شركة الهند الشرقية عام ١٧٤٨ إبان الحروب مع فرنسا. وكان من المسموح لكل إمارة أن تتولى تجنيد وتدريب أفراد جيشها الخاص، وكان كل جيش منها خاضعًا لقيادة منفصلة حتى وقوع التمرد. وكانت قيادة السرية فى أيدى ضباط هنود، ولكن قيادة الكتيبة كانت بريطانية. وقد قام هؤلاء الجنود بخوض معظم المعارك التى أدت إلى 'فتح' شبه القارة الهندية، ولكن بريطانيا كانت أحيانًا ترسل المدد لتدعيم صفوف الجيش المقاتل. وفى الوقت الذى اندلع فيه التمرد كان هؤلاء الجنود يعتزون بأنفسهم ويتمتعون بإجادة 'مهنتهم'، ويتقاضون رواتب مجزية، بالمعايير الهندية، مضمرين الولاء للكتيبة أكثر من ولائهم للحكومة البريطانية. وكان الجيش البنغالى الذى تمرد عام ١٨٥٧ يتكون من هندوس ينتمون للطوائف العليا، من بيهار، و'أُوذ' وأجرا. ونجح فى الاستيلاء على مناطق شاسعة فى شمال الهند، وهكذا أصيب

البريطانيون بالهلع، خصوصًا المتناثرين منهم فى الريف. وارتكب الجانبان فى غضون اشتباكاتهما فظائع كثيرة، وعندما نجحت القوات المرسلة من بريطانيا فى إخماد الفتنة انتقم البريطانيون من المتمردين شر انتقام.

ويهمنا ما تلا ذلك، فى إطار دراستنا للرواية، من إيمان البريطانيين عندما أعادوا تشكيل الجيش الهندى، بنظرية يشار إليها باسم نظرية الأجناس الحربية، وهى التى تقول إن بعض الأجناس فى الهند أكثر صلاحية للخدمة فى الجيش، بسبب زيادة ولائها لهم، وقوتها البدنية، وعدم صلفها أو قلته! ولن نفيض فى ذكر الأجناس التى اختصوها بهذا، ويكفينا أنهم استبعدوا البراهميين والبنغاليين والذين تلقوا تعليمًا غَرْبِيًّا فى إمارة بومباى. وكان كيپلنج مغرمًا بالجيش الهندى ويؤمن بأن علاقة الاحترام المتبادل والولاء – التى كان يتصور توافرها بين الهندى المحارب والضابط البريطانى – تمثل العلاقة المثالية بين الرعية والحكام. وكانت نظرية الأجناس الحربية المذكورة تمثل جانبًا من الأيديولوچيا العنصرية السائدة فى أوروبا الغربية وفى الولايات المتحدة فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، وكان يؤمن بها كيپلنج ويعبر عنها فى كتاباته، كما كان البريطانيون والفرنسيون والألمان والأمريكيون يستخدمون نظرية تفوق الجنس الأبيض تبريرًا للاستعمار، والتمييز العنصرى والاستغلال الاقتصادى. وأما فى الهند فكانت العنصرية البريطانية تثير حنق القادة المنتمين إلى الطوائف العليا، وذوى المواهب والتعليم الغربى، وإن ظلوا على ولائهم لبريطانيا فى أثناء التمرد، كما أدت هذه العنصرية إلى تعميق جذور الحركة القومية التى أدت إلى اندلاع المظاهرات المعادية للحكومة فى شتى البقاع وإلى ارتكاب بعض أحداث الإرهاب فى العقد الأول من القرن العشرين.

وختامًا لهذه النبذة التاريخية التى أرجو أن تكون كافية أجد لزامًا علىَّ أن أشير إلى ظاهرة تلعب دورًا أساسيًّا فى الرواية وهى السحر والعرافة، إذ كان الإيمان بهما شائعًا فى أوساط البريطانيين فى الهند فى أواخر العصر الڤكتورى، بل وفى بريطانيا نفسها فى أواخر القرن التاسع عشر. وقد يبدو

هذا غريبًا إزاء العقيدة الشائعة بأن تفوق البريطانيين كان يرجع إلى مـواقفهم العقلانية والعلمية. ولكن باحثًا يدعى لـويس د. ويرجافـت (Wurgaft) قـام بدراسة كتابات الكُتَّاب البريطانيين فى الهند، ومن بينهم كيـپـلنج، وانتهـى منها إلى "افتتانهم بالسحر والخرافة لدى أبناء البلد، وانتشار الاهتمام – علـى نطاق واسع – فى أوساط الإنجليز والهنود بالعرافة والخرافة". (عنوان الكتاب **الخيال الإمبراطورى** ١٩٨٣، ص ٥٤-٥٩ وصـفحات متفرقـة). ويـضيف الكاتب أن البريطانيين كانوا مبهورين "بجهود الهنود للتحكم فى البيئة بوسائل سحرية، من بينها التعاويذ أو اللعنات أو الأضحيات". ويبين أن الهندوس كانوا يرون الربوبية فى كل شيء، فى الأنهار والجبال، والطبيعة، والحيوان، وفـى عروسين، وفى الربانيين القادرين على تكثيف الطاقة الربانية فيهم من خـلال ضروب التقشف البالغة. ومن الطريف، وفق ما يقوله ويرجافت، أن الفلاحين كانوا ينسبون قوى سحرية إلى الضابط البريطانى الذى يتولى رئاسـة الحـى ويتمتع بسلطان كبير، ومر بعض هؤلاء الضباط بأحداث غريبة عوملوا فيهـا معاملة الأرباب وذوى الطاقات السحرية. والواقع أن كيـپـلنج يستغل هـذه الظاهرة فى روايته، من خلال تصويره لشخصية السيد لورجان (البريطـانى) ودكان العجائب الذى يملكه.

ويرجح بعض الذين تعرضوا لحياة كيـپـلنج، استنادًا إلى سيرته الذاتية، أن انبهاره الشخصى بسحر الهند نشأ فى البداية من طفولتـه المبكـرة فـى بومباى، حيث ولد وعاش حتى سن الخامسة والنصف، يرعاه خدم هنود، ولا يتكلم إلا اللغة المحلية، وكان يرى بعينى طفل مشهد الحياة اليومية فى الهنـد، ولا شك أنه كان يستكشف "حديقته السحرية" الخاصة، الحافلة بالأزهار وألوان العبير، ويتأمل الحياة اليومية فى الشارع خارج منزله، حيث ينشط 'الحـواة' الذين 'يروضون' الثعابين، أو يبتلعون اللهب أو السيوف، والقردة التى تسرق الأطعمة وغيرها، ويشاهد الشحاذين الجوالين، والموسيقيين والمواكب الدينيـة التى تزهو بشتى الألوان. ولا شك أنه شارك فى نثر المساحيق الملونة علـى الخدم ذوى الطبع السمح فى عيد الربيع الهندوسى واحتفالاته الصاخبة، وفـى

إضاءة المصابيح الصغيرة فى عيد 'ديــڤــالى'، الذى كان يمثل انتصار الرب كريشنا وزوجته ساتيابهاما على شيطان يدعى ناراكا. ومن الطبيعى أن تصحو أمثال هذه الذكريات 'النائمة' من مكامنها عندما عاد إلى الهند بعد أن قــضى أحد عشر عامًا فى إنجلترا. وأما خبرته المباشرة بالعرافة والكشف عن الغيب فيوردها مؤلف **سيرة حياة رديارد كيــپــلنج**، وهو مارتن ســيمور-ســميث (Seymour-Smith) الصادرة عام ١٩٨٩، حيث يقص قصة لقائه بعرافة تدعى مدام هيلينا بتروڤــنا بلاڤــاتسكى، والعقيد هنرى ســتيل أولكــوت، مؤســس جمعية 'الحكمة الإلهية' فى نيويورك، وكانا قد قاما بزيارة الهند ما بين عامى ١٨٧٩ و١٨٨٤، وكانت تلك المرأة تقول لأتباعها إنهــا تــستطيع الاتــصال المباشر، بفضل طاقتها الروحية، 'بالمهاتمات'، وهى كائنــات روحيــة مــن التيبت كانت تظهر لها وللعقيد فى صور مجسدة فى الأحلام والــرؤى. ومــن أهم أتباعها محرر صحيفة **اللاهأباد پيونير** التى كان كيــپــلنج يعمل فيها من عام ١٨٨٧ إلى ١٨٨٩، وكان كيــپــلنج يشكو من إسراف هذا المحرر فــى الدعاية لذلك المذهب (ص ٣٣١). كما قابل 'المتصوفان' والد كيــپــلنج الذى قال إنهما دجالان، وكان لهما تأثير كبير فى تريكس، أخت كيــپــلنج التــى كانت تعانى من العُصاب. وقد زادت هذه المرأة مــن اهتمــام البريطــانيين بالتيبت، البلد الغامض المتاخم للهند، وربما كانت عاملاً من عوامــل اختيــار كيــپــلنج لراهب من التيبت، هو تيشو لاما، ليصبح من الشخصيات الرئيسية فى هذه الرواية.

٤- حياة كيــپــلنج

ذكرت فى الفقرة السابقة أن ميلاد كيــپــلنج فى الهند ونشأته فيها تركت فى نفسه آثارًا لا تمحى، كما أشرت إلى **سيرته الذاتية** التــى صــدرت عــام ١٩٣٧ والكتاب الذى كتبه سيمور- سميث عن حياته، ومن المنطقى أن أقــدم الآن لمحة عن تلك الحياة. ولد كيــپــلنج (واسمه الكامل چــوزيف رديــارد كيــپــلنج) فى مدينة بومباى عام ١٨٦٥، وكان والده فنانًا ومعلمًا ثم أصــبح

أمينًا لمتحف لاهور (وهى فى باكستان الآن) وبعد ثلاث سنوات من ولادة أخته 'أليس'، أُرْسِلَ الطفلان، وفق المتبع، إلى إنجلترا لتلقى التعليم واكتساب أساليب الحياة البريطانية. لكنه كان حتى هذه السن يعتبر اللغة الهندوسية لغته الأم، كما يقول چيفرى مايرز (Meyers) فى مقدمته لطبعة الرواية عام ٢٠٠٣، فكان يتكلمها ويفكر ويحلم بها. واستقر الطفلان فى منزل كان كيپلنج يسميه "بيت الكآبة" فى مدينة 'ساوثسى' على ساحل إنجلترا الجنوبى المطل على القنال الإنجليزى (إلمانش) حيث كان الطفل يتعرض للإيذاء لفظيًّا وبدنيًّا وللتعذيب. وزاد من آلامه فى هذه السن المبكرة ضعف بصره، وإحساسه بتخلى والديه عنه (إذ لم يبارحا الهند) وكان يفتقر بشدة إلى حياته الهانئة فى بومباى، حيث كان خادمه يصحبه فى زيارات للمعابد الهندوسية، ويحدثه عن صور الأرباب فيها، وحيث كان يلهو ويلعب فى حديقة المنزل وجو الأسرة الدافئ. وهكذا لم يجد مهربًا أمامه من محبسه الجديد إلا القراءة، وإطلاق العنان لخياله. وأخيرًا وصلت والدته فأنقذته، ثم أدخلته مدرسة تسمى 'كلية الأسلحة المتحدة' عام ١٨٧٨ وكما يبدو من اسمها كانت مدرسة لأبناء ضباط الجيش، فى مدينة 'وستورد هو!' فى مقاطعة ديڤون، فى أقصى غربى إنجلترا.

وبعد أربع سنوات فى هذه المدرسة، قبيل أن يبلغ عامه السابع عشر، عاد إلى الهند من جديد، حيث عمل فى لاهور فى وظيفة مساعدٍ لرئيس تحرير الجريدة المدنية العسكرية، ولاهور مدينة سكانها مسلمون فى شمالى الهند، وهى المدينة التى تبدأ فيها أحداث روايته الحالية. ويصف كيپلنج فى خطاباته الأولى التناقض بين مباهج حدائق لاهور التى أنشأها المغول "تلك الصحائف العظمى من المياه الساكنة، وأبهاء الأعمدة الرخامية المطعمة، والأرائك الرخامية المنحوتة عند أطرافها، والأشجار اللَّفاء وشجيرات الليمون، والمساحات الهائلة من الرياض التى تتفتح فيها الأزهار ليلاً فتعطر الجو كله بعبيرها الفواح" وبين الآثار المدمرة للمناخ 'الضارى' حيث قد ترتفع الحرارة فى أثناء النهار فتصل إلى ٥٧° فيسخن هيكل نظارته المعدنى ويكوى أنفه، ثم

تنخفض إلى نحو ١٥° ليلاً. ويقول إنه كان يشهد العواصف الليلية حين يومض البرق ثلاثين مرة فى الدقيقة ويكاد الرعد "يبقر بطن السماء"! ويتحدث كذلك عن الأحوال الصحية، فالأرواح رخيصة وما أيسر أن تضيع إبان الأوبئة الجائحة من كوليرا وتيفود وطاعون. ويقول مايرز المشار إليه آنفًا:

> كان كيپلنج اليافع، الذى ولد خارج إنجلترا وتلقى تعليمه فى مدرسة خاصة راقية ولم يدخل الجامعة، ذا مظهر غير جذاب، أسمر البشرة بصورة غير معتادة، ويعانى من قصر نظره الشديد، ولا يشعر شخصيًا بالأمان، ويحاول بإلحاحٍ شق طريقه فى الحياة. وفى عام ١٨٨٦ نشر أول ديوانين من الشعر (ص ١٧).

وهكذا انتقل كيپلنج فقضى السنوات الثلاث التالية بالعمل فى صحيفة أهم، وهى صحيفة "**پيونير**" التى كانت تصدر فى ألاهاباد، المدينة الواقعة جنوبى دلهى، بين لوكناو وبيناريس. وفى عام ١٨٨٨ لفت الأنظار إليه وأدهش القاصى والدانى بمجموعتين من القصص القصيرة التى تدور أحداثها فى الهند، هما **حكايات صريحة من الجبال** ومجموعة **الجنود الثلاثة**.

وفى العام التالى أبحر كيپلنج إلى إنجلترا من طريق بورما، والملايو، وسنغافورة، وهونج كونج، واليابان وأمريكا، ثم وصف هذه الرحلة بعد ذلك فى كتاب عنوانه "**من بحر إلى بحر**" فإذا به يتحول فجأة من كاتب مغمور يقيم فى الأقاليم إلى أديب مشهور. ولكن شدة انهماكه فى العمل وإنهاك نفسه إنهاكًا بالغًا تسبب فى إصابته بانهيار عصبى للمرة الثانية، فى يناير ١٨٩٠، وهو الذى وصفه بموضوعية عجيبة فى أحد خطاباته قائلاً "تعطلت آلتى، وتوقف رأسى عن العمل، ويمنعنى الأطباء من العمل... كنت أتوقع أن تأتى الضربة فى أى وقت". وعالج نفسه برحلة بحرية حول العالم، وعندما شُفى أصدر رواية عنوانها **الضوء الذى خبا** فى آخر تلك السنة، ثم أصدر فى العام التالى مجموعة من القصص القصيرة عنوانها **عقبة الحياة**.

ويقول دارسو حياة كيپلنج إنه 'اندفع' فتزوج فى عام ١٨٩٢ (فى

لندن) أمريكية تدعى كارولاين بالستيير، وكان شقيقة صديقه وولكوط بالستيير، عقب وفاته المفاجئة. إذ كانت تربطه بكيبلنج علاقة وثيقة وكان يعمل وكيلاً 'أدبيًا' له بل واشترك معه في كتابة روايته الثانية **النولاخا: حكاية عن الشرق والغرب** (١٨٩٢)، ويقول ديفيد جيلمور (Gilmour) مؤلف أحدث سيرة لحياة كيبلنج (٢٠٠٢) إنه كان زوجًا وادعًا مطيعًا، على الرغم من كل ما نشهده في أدبه من شطحات وانطلاقات جسورة، فكانت تسيطر هذه الزوجة عليه سيطرة كاملة، بل وصف أحد أصدقائه هذا الزواج بأنه كان يمثل "استسلامًا كاملاً، إذ وضع كيبلنج نفسه تحت رحمة عروسه، جسديًا وماليًا وروحيا" مطيعًا أوامرها من دون إبداء "أدنى تذمر أو حتى أية بادرة على التمرد" (ص ٢١٤).

وانتقل الزوجان للإقامة في أمريكا، في مدينة براتلبورو، بولاية ڤيرمونت، حيث أصدر كيبلنج ديوانًا جديدًا عنوانه "**مخترعات كثيرة**" (١٨٩٣) والروايتين المشهورتين، وكل منها بعنوان "**كتاب الأدغال**" (١٨٩٤ و١٨٩٥) وحيث ولدت ابنتاه جوزفين وإلزى. ولكن هناء ذلك البيت السعيد لم يلبث أن تحطم عام ١٨٩٦ بسبب منازعة اتسمت بالعنف وجلبت له الإهانة والفضيحة مع شقيق زوجته، 'بيتى وولكوت' الذى كان يعانى من الاضطراب النفسى، الأمر الذى أرغم كيبلنج على مغادرة أمريكا والاستقرار في بلدة 'روتينجدين' على ساحل 'ساسيكس' في عام ١٨٩٧، في العام الذى ولد فيه ابنه 'چون' ونشر الأديب فيه روايته **القادة الشجعان**.

وبعد عامين، في أعقاب ما يسميه الدارسون الرحلة 'المشئومة' إلى نيويورك، أصيب كيبلنج بالتهاب رئوى كاد يقضى عليه، كما توفيت في هذا العام (١٨٩٩) ابنته جوزفين التى لم تكن قد تخطت السادسة من عمرها. ومع ذلك فقد شهد ذلك العام نفسه صدور كتابه المشار إليه آنفًا بعنوان **من بحر إلى بحر**. وفى الفترة ما بين ١٨٩٨ و١٩٠٧ كان يقضى فصل الشتاء في جنوب إفريقيا كل عام، ونشأت بينه وبين سسيل رودس (Rhodes) صداقة متينة فكان يخصص للأسرة منزلاً في ضيعته الشاسعة، ويجسد في نظر

كيبلنج صورة الإمبريالى النشط الناجح. ويقول فى خطاب أرسله إلى أحد أصدقائه إن جنوب إفريقيا أمة تمر بمرحلة المخاض قبل ولادتها "وهى أمة ترتكن إلى موارد هائلة لا تكاد تحلم بها الآن".

وفى عام ١٩٠١ أصدر رواية **كيم**، آخر رواياته وأعظمها، ثم انتقل فى العام التالى إلى الاستقرار بصورة دائمة فى منزل عتيق فى مدينة 'بورواش' بمقاطعة ساسيكس فى إنجلترا، لكنه لم يتوقف عن كتابة القصة، فأخرج قصصًا تنتمى لأدب الأطفال فى عام ١٩٠٢ وعام ١٩٠٦. ثم فاز فى عام ١٩٠٧ بجائزة نوبل فى الأدب فكانت تلك المرة الأولى التى يفوز بها كاتب إنجليزى. وكانت آخر الحوادث المأسوية فى حياته مقتل ابنه چون فى الحرب العالمية الأولى، وتكررت إصابته بقرح فى الاثنى عشر، ورفض منحه لقب 'سير'، أو تكريمه بوسام الاستحقاق وبدأ يكتب قصصًا قصيرة تثير القلق وتتسم بالاضطراب الشديد والتعقيد البالغ، ويصور فيها الحزن على الفقدان، وبعض الحالات العصابية والصدمات التى يتلقاها المقاتلون. وتوفى كيبلنج فى ١٩٣٦، ودفن فى كنيسة وستمنستر.

٥- السحر والدين فى الرواية

ولما كانت رواية **كيم** رواية تتداخل فى نسجها خيوط العرافة والسحر والدين، خصوصًا ما يقوله بلير كلينج المشار إليه فى القسم الثالث من هذه **المقدمة** من أن كيبلنج قد قابل مدام هيلينا بتروڤنا بلاڤاتسكى وأنها كانت تؤكد للجميع أن ما تنطق به مستوحى (أو منقول) من أرواح المهاتمات (كما سبق أن ذكرت) وأن رسالة هذه الأرواح كانت تمثل "خليطًا غير واضح من اللاهوت البوذى والهندوسى" (ص ٣٠٧)، فلابد لى من التمييز بين هذين اللاهوتين، إذ أخشى أن يكونا مفهومين غائمين فى أذهان عدد غير قليل من قراء العربية. وأبدأ بالعلاقة المتينة التى تبرز فى ثنايا الرواية بين الطاقات الخفية السحرية وبين الكهان الذين يصورهم كيبلنج، سواء منهم الهندوس أو البوذيون. وأستند هنا إلى كتاب "**الخيال الإمبراطورى**" الذى سبق لى ذكره،

والذى يخصص كاتبه فصولاً فيه للعلاقة بين السحر والخرافة من ناحية وأديان الهند من ناحية أخرى، مؤكدًا ثبات تلك العلاقة وامتدادها إلى اليوم، كما أستعين بعدد من الكتب المتخصصة فى هاتين 'العقيدتين' ابتغاء إيضاح بعض الظواهر فى هذه الرواية.

أولى هذه الظواهر أن الناس الذين يدينون رسميًّا بالهندوسية يقبلون فى الرواية مباركة الكاهن البوذى لهم بل ويطالبونه بها، كما يطالب كل من يمر به كيم واللاما (البوذى) صديقه، وخصوصًا فى الريف، بالرُّقَى والتعاويذ والتمائم. كما نلاحظ أن الجميع، حتى الأطفال الصغار، يدركون منزلة 'الرجل الربانى' بمجرد النظر إليه. وربما توقف القارئ دَهِشًا عند الاستعانة بامرأة كفيفة مشعوذة مسلمة هى 'حُنيفة' فى 'تحصين'كيم بالتعاويذ، وتقبل الجميع 'دعوات' هذه المرأة وطقوس تعاويذها فى سياق هندوسى شبه خالص. ويقول الباحث ج. ن. فاركار (Farquhar) فى كتابه العمدة "**الخطوط العريضة للكتابات الدينية فى الهند**" (١٩٢٢، ١٩٦٧):

> تضم الهندوسية من ناحية المبدأ شتى أشكال الإيمان والعبادة، من دون اختيار أحدها أو استبعاد أحدها بالضرورة. ويميل الهندوسى إلى تبجيل الربوبية أو القداسة فى كل تجلياتها، مهما تكن، وهو متسامح من ناحية المذهب، تاركًا الآخرين – بما فى ذلك الهندوسى وغير الهندوسى – يمارسون العبادة التى يختارونها وتناسبهم أكثر من غيرهم.
>
> وقد يعتنق الهندوسى دينًا غير هندوسى من دون أن تُخْلَعَ عنه صفة الهندوسى. ولما كان الهندوسى يميل إلى التفكير التركيبى ويرى أن صور العبادة الأخرى والأرباب الغريبة والمذاهب المنحرفة تمثل مذاهب غير كاملة، لكنها ليست خاطئة ولا ذميمة فإنه يرى أن القوى الربانية العليا متكاملة من أجل خير الدنيا والبشر. بل يندر أن توجد أفكار دينية يمكن أن يُظَنَّ بها التعارض أو عدم التكامل، بل إن

جوهر الدين لا يعتمد حتى على وجود إله أو عدم وجوده، أو على وجود إله واحد أو عدة آلهة. ولما كانت الحقيقة الدينية فى نظر الهندوس تتجاوز كل تعريف لفظى، فإنها لا تتخذ أية صور مذهبية محددة...

والتمييز فى الهندوسية واضح بين مستوى العقائد الشعبية ومستوى العقائد المضمرة فى أساليب الطقوس المعقدة والتأملات الفلسفية الخاصة بها، وإن كان اللونان يتعايشان ويتحول أحدهما إلى الآخر. وفى هذه وتلك نجد الإيمان بالسحر البدائى وصور الوثنية، وعبادة الحيوان، والإيمان بالشياطين، وكثيرًا ما يرتبط ذلك كله بعبادة أرباب شخصية إلى حد ما، إلى جانب التصوف والزهد والمذاهب التجريدية واللاهوتية العميقة أو العقائد السرية، وعلى سبيل المثال فإن عبادة الربات المحلية لا تستبعد فى البيئة نفسها الإيمان بأرباب عليا لعموم الهند، أو حتى الإيمان برب أعلى واحد. وقد تكون أمثال هذه الأرباب فى حالات كثيرة تجليات لرب أعلى واحد (ص ٣٢-٣٣).

ونستطيع فى ضوء هذا التعريف أن نفهم إقبال الهندوس على اللاما البوذى، وتبركهم به، ومطالبة بعضهم إياه بتعاويذ ورُقى وتمائم، على الرغم من اختلاف البوذية التى تستبعد ما يسمى 'بالرب الشخصى' أى الرب المتعالى على الوجود المادى، وتركيزها (كما سوف أوضح) على التحرر من الدنيا، وهو ما يسميه اللاما فى الرواية 'عجلة الأشياء' ويقصد بها دورات الميلاد والموت والعودة إلى الحياة من جديد (تناسخ الأرواح). إذ يشرح فاركار فى كتابه بعض خصائص المعتقدات الهندوسية قائلاً:

فى قلب الهندوسية الإيمان بوجود مبدأ غير مخلوق، خالد، لا نهائى، متعال، يضم كل شىء. وما دام "يضم فى ذاته الوجود والعدم" فإنه هو الحقيقة الواحدة، وهو أقصى سبب وأساس ومصدر وغاية للوجود كله. وهذه الحقيقة القصوى تسمى '**براهمان**'. وباعتباره كل

شيء فإن براهمان يجعل الكون وجميع الموجودات تنبثق منه، ويحول نفسه إلى الكون أو يتخذ مظهر الكون. ويؤمن الهندوسي بوجود براهمان فى جميع الأشياء، وبأنه يعتبر 'الذات' (أتمان) في كل الكائنات الحية. وبراهمان هو الخالق والحافظ والمصور لكل شيء والذى إليه يرجع كل شيء. وعلى الرغم من أنه هو الوجود بذاته من دون صفات أو أسماء، ومن ثم من دون شخصية فإنه يمكن تصوره فى صورة الرب الأعلى ذى الشخصية (ڤيرنو أو ڤيشنو أو سيڤا أو شيفا) الذى يتمتع بصفات سامية تبرر عبادته. (ص ٣٧)

وعلى الرغم من اتفاق البوذية مع الهندوسية فى الإيمان ببعض المبادئ مثل 'احترام الحياة' أو تبجيل كل كائن حى، ومثل تناسخ الأرواح، والدور الذى تلعبه أعمال المرء فى أثناء حياته على الأرض (وتسمى كارمان) في تحديد الصورة التى يعود فيها الحياة وما إلى هذا بسبيل، فإن جوهر البوذية لا علاقة له بأى رب متعالٍ عن الكون المادى، أى إنكارها لوجود جوهر أو حقيقة قصوى لأى شيء، كما كان سيذارتا جوتاما - 'البوذا'، وهى صفة لا اسم علم، وتعنى من 'استيقظ' أو بلغ 'التنوير' الروحى - يعارض نظريات الكتابات الهندوسية المقدسة (أوپانيشاد) فى إنكاره وجود الذات أو الهوية (وهو ما يسميه أناتمان، أى عدم وجود هذه) قائلاً إنه لا يوجد في داخلنا ما يعتبر حقيقيًّا من الزاوية الميتافيزيقية، بل كان يؤمن إيمانًا راسخًا بالزوال (عدم وجود ذات أو روح باقية) وبحقيقة الشقاء على الأرض. ويقول تشارلز إليوت (Eliot) فى كتابه الضخم (٣ مجلدات) عن **الهندوسية والبوذية** (١٩٢١، ١٩٦٢):

يقول البوذا إن كل شيء زائل، فما الكون إلا واقع متغير متدفق أبدًا، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالأشياء المادية خارجنا أو بالإنسان (جسدًا ونفسًا) مهما يكن هذا أو ذاك وهكذا تعتبر الأشياء كلها سلسلة متتابعة من 'الثوانى الدقيقة'، وواحدتها تسمى **ذَرْمَا** أو **ذَمَّا** (وهي تختلف عن استخدام الكلمة نفسها للدلالة على 'القانون' أو على

'التعاليم')... وهكذا يقول البوذا بنظرية **أناتمان** أى عدم وجود 'أنا' خالدة، ولكن البشر مربوطون بحلقة الميلاد والموت المتكررة (التـــى تسمى **سَمْسَارا**) لأن انطفاء جذوة الحياة لا يعنى نهاية الوجود بـــل انطلاق إلى وجودٍ آخر، إلا إذا نجحت أعمال الشخص فى كسر هذه الحلقة... وتحرير الشخص من الحياة، أى مـــن الـــشقاء والتعاســـة، خصوصًا من المرض والموت...

والوعى بهذه الأمور الأساسية جعل البوذا يضع بعض الحقائق وعلى رأسها حقيقة الشقاء (**دوخا**) قائلاً إن الشقاء ينبع من داخلنـــا نتيجـــة شوقنا إلى اللذة، أو إلى الوجود أو العدم، ومنها إمكان التخلص مـــن هذا الشوق، وأن هذا التخلص لا يأتى إلا بأسلوب منهجى أو طريق مرسوم. وهكذا ينبغى فهم الآلية التى بها ينشأ كيان الشخص الجسدى والنفسى، وإلا استمر الشخص إلى الأبد فـــى **سمـــسارا** أى التـــدفق المتصل لحالات الوجود المؤقتة الزائلة. (ص ١١٣-١١٦ – مجلد٢)

ولذلك فخلافًا لما نعرفه عن التصوف فى الأديان السماوية، وهـــو الـــذى يرمى إلى الإحساس بالقرب من الخالق (بالخبرة المباشرة) أو الوعى بالقداسة أو ما يسمى الكيان الأعلى أو الاقتراب روحيًا من البارئ جل وعلا، نجـــد أن التصوف فى البوذية يتميز بالتركيز على معرفة **الوجود** لا على الانضمام إلى **الوجود** أو الاستيعاب فيه. وغاية كل تصوف بـــوذى، وغايـــة كـــل أســـاليبه التأملية، تمكين المرء من الاقتراب من **وجوده الذاتى**، فإذا نجح فى ذلك زادت شخصيته ثراءً، وتخلص من الخوف والقلق، وهو ما يشار إليه بمصطلح عام هو 'التحرر'، وما التحرر عند البوذى **إلا تحقيق ذاتى للوجود**، وإن تفاوتـــت تفاسير ذلك فى مدارس البوذية المختلفة (المرجع نفسه ص ١٣٧).

وأعتقد أن ما أوردته يكفى لإيضاح جو العقائد التى تنتشر فى الروايـــة، وتتداخل بصورة محتومة فى النص بسبب تداخلها فى الحياة الواقعية ، واللاما الذى يمثل الراهب البوذى فى الرواية مستغرق فى ذاتـــه ويحـــاول أن يبلـــغ

'التنوير' الروحى والتخلص من القيود التى تربطه بعجلة الموت والعودة للحياة فالموت من جديد (سمسارا)، وهو يتبع فى ذلك خطى المعلم الأكبر سيذارتا جوتاما، البوذا الأول، كما يحاكيه فيما لجأ إليه من نبذ متع الحياة والعيش عيشة تقشف مبالغ فيها، فالمعروف عن حياة البوذا (كما ترويها كارين آرمسترونج فى كتابها عنه عام ٢٠٠٢) أنه عندما اكتشف أن الإنسان معرض للشيخوخة والمرض والموت، أى إن حياة الإنسان معاناة، لجأ إلى ما يسمى "النبذ الأعظم" والتحول إلى زاهد متجول، تاركًا قصر أبيه الأمير وزوجته وطفله الرضيع، متجهًا إلى الجنوب (إلى مملكة **مَجَاذَا**) بحثًا عن معلمين يهدونه إلى طريق الحقيقة. واستطاع مع أحدهم بلوغ الحالة الصوفية العليا 'للعدم'، وتعلم من آخر الوصول إلى المدار 'الأوسط' بين 'الإدراك وانعدام الإدراك'، لكنه لم يقنع بهذين المجالين 'الساميين' وواصل البحث عن 'الحقيقة'، والتحق به خمسة زهاد فى دغل جميل، حيث مارس درجة مبالغًا فيها من التقشف وتطرف فى إضعاف جسده ستة أعوام تقريبًا، وعندما أغمى عليه من الضعف ترك حياة الزهد بحثًا عن طريقه الخاص إلى التنوير الروحى. وقد عَثَرَ عليه وهو يجلس القرفصاء واضعًا رجلاً تحت رجل (بالصورة الشائعة فى الصور والتماثيل) تحت شجرة تين هندى فى مكان يسمى اليوم 'بوذ جايا' وقرر تعليم غيره كيف اكتشف 'الحقائق' المشار إليها آنفًا وما يسمى 'سلسلة الأسباب'.

وسوف يلحظ القارئ إشارات عديدة فى ثنايا النص إلى هذه الأفكار البوذية فى العبارات المقتضبة التى يقولها اللاما، وإن لم تكن هذه الأفكار تشكل مذهبًا فلسفيًّا من النوع المألوف الذى يصل إليه المرء بالمنطق، فإنها فى الواقع أساليب للتأمل الذاتى وما نسميه الاستبطان، أى استغراق المرء فى تأمل وجوده مهتديا بتعليمات البوذا، و كيپلنج يختار لروايته شكل أدب الرحلات، مستغلاً الموضوع الإنسانى الذى شغل الناس منذ الأزل – من رجال الدين إلى الفلاسفة إلى العلماء – وهو البحث عن 'اليقين'، واليقين فى الرواية يتخذ شكل 'الخلاص البوذى' وأترجمه أحيانًا 'بالتخلص' (من

الارتباط بعجلة الدنيا) فى مقابل الكلمة الإنجليزية (deliverance) تمييزًا له عن الخلاص (salvation) بالمعنى الدينى الذى يوازى النجاة من الخطايا وصولاً إلى رضى الله (ودخول الجنة). وذلك فى حالة اللاما، وأما فى حالة كيم فهو يتخذ صورة البحث عن 'الهوية' فى إطار التنازع عند كيم ما بين انتمائه العرقى الأوروبى ونشأته التى صبغت طباعه وعاداته، وهذا البحث يربط ما بين الرواية وشتى الروايات الكلاسيكية القائمة على الترحال طلبًا لشىء معين.

٦- البناء والنسيج

يعتمد بناء الرواية، وفق تقاليد النوع الأدبى 'المختلط' المشار إليه، على الحركة المكانية أى الانتقال من مكان إلى مكان فى مراحل زمنية متعاقبة (أناقشها فيما بعد) ويصاحب كل مرحلة قدر ما من التكشف وإقامة روابط جديدة مع الماضى، وصولاً إلى نهاية مفتوحة، ما دام الزمن مستمرًا، مع ثبات زمنى (أو 'لازمنى' فى الواقع) للاّما الذى يبدأ الرواية شيخًا هرمًا ولا يكاد يتغير فى نهايتها. وكما نرى فى أدب الرحلات والأعمال الكلاسيكية القائمة على البحث (عند نجيب محفوظ مثلاً) تنتمى وجهة النظر التى تُروى منها الأحداث للبطل، أى للشخصية الرئيسية، وهى كيم، حتى عندما يبدع كيپلنج فى رسم مواقع الأحداث، فإن الصور المرسومة لا تكاد تغيب أبدًا عن عين كيم، أى إنه حين يصف موقعًا لحدث ما، فإنما يكون ذلك لوجود كيم به فى أغلب الأحوال، ولا يُستثنى من ذلك إلا الفقرات السردية المحدودة التى تُستخدم للربط ين المشاهد، وهى هنا تتميز بسرعة التنقل، وبحيوية الحوار التى يجعلها أقرب إلى المشاهد الدرامية، حيث يُبنى المشهد حواريًّا حتى يصل إلى ذروة تؤدى إلى مشهد آخر.

وعلى غرار هذا النسق الروائى كتب الألمانى هيرمان هسه (Hesse) روايته **سيذارتا** (الاسم الشخصى للبوذا) عام ١٩٢٢، وسومرست موم (Maugham) **حد الموسى** (أى الطريق الشاق إلى الإيمان) عام ١٩٤٤، وكتبت أيريس ميردوك (Murdoch) روايتها **من بحر إلى بحر** (مقتبسة عنوان

أحد كتب كيبلنج) عام ١٩٧٨، فجميعها روايات أوروبية تتخذ البوذية مادة لبناء هيكلها، وخصوصًا ما ذكرته عن انطلاق البوذا من منزله نابذًا العيش الرخي طلبًا 'للحقيقة'، فالرحلة جوهر هذا البحث، واللاما وكيم يشيران إليها أحيانًا باسم المسير أو المسيرة، أو باسم 'الطريق' أى طريق العربات العظيم الذى يمتد عبر الهند من بومباى غربًا حتى سفوح جبال الهيملايا شمالاً، ويلتقى فى نحو منتصفه عند 'أجرا' (حيث تاج محل) بباقى طريق العربات العظيم المتجه شمالاً من بيناريس، مارًّا بمدينة لوكناو، بحذاء نهر الجانچيز العظيم الذى ينبع فى الشمال ويصب فى أقصى الشرق. وهكذا يصبح لفظ 'الطريق' نفسه مرادفًا للرحلة، والرحلة فى الأدب قد تكتسب معانى دينية، كالحج، وهى مفعمة بدلالات رمزية خاصة بموضوع السعى فى سبيل شىء أو فى طلب ما هو روحى قبل أن يكون ماديًّا.

وتتصل الرحلة بالاستكشاف الذى يجرى على مستويين، الأول ظاهر ومادى، والثانى باطن وروحى، وقد يكون أحدهما صورة منعكسة للآخر أو صورة مكملة له، ومنذ البداية ندرك أننا نواجه هذا الاستكشاف فى متحف لاهور، حيث يعرض أمين المتحف على اللاما الأعمال الفنية التى تصور رحلة البوذا بحثًا عن 'الحقيقة'، والأماكن التى زارها، وكيف كانت تلك الرحلة المادية صورة لرحلة البوذا الروحية، واعتزام كيم منذ البداية أن ينطلق مصاحبًا للاما فى رحلة استكشاف لذاته، فهو صبى أيرلندى ولد فى الهند (مثل المؤلف) ويعتبر اللغة الهندوستانية لغته الأم، وأهل البلاد قومه وعشيرته، وإن كان من البداية أيضًا يمثل اليتيم الذى ينشد صورة الأب، بكل دلالات هذه الصورة من حب ومصدر للسلطة وللرعاية والاحتماء.

وأود أن أشير هنا إلى أن اللغة الهندوستانية كانت لغة مشتركة للهند الحديثة قبل التقسيم عام ١٩٤٧، وهى لغة مبنية على لغة 'خاريبولى'، وهى لهجة نشأت فى المناطق المحيطة بدلهى وميروط وسهارنپور، وكان المغول والتجار هم الذين نشروها وأشاعوا التخاطب بها، وفى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر قام باحث إنجليزى يدعى بورثيك جيلكرايست

(Gilchrist) بتعزيز نشرها والترويج لها من خلال الكتاب الذى وضعه عن نحو تلك اللغة، والمعجم الذى جمع فيه مفرداتها وشرحها، بل إنه هو الذى ابتدع تعبير 'اللغة الهندوستانية'، ومن اللغة الهندوستانية العامية تفرعت لغتان أدبيتان هما اللغة الهندية التى يتبدى فيها التأثير القوى للغة السنسكريتية، واللغة الأوردية التى تغلب عليها ألفاظ اللغة الفارسية بما فيها من كلمات ذات أصول عربية، وهكذا أصبحت اللغة الهندية اليوم اللغة الرسمية للهند، والأوردية اللغة الرسمية لباكستان، وكان معنى اتخاذ كيم، بطل الرواية، اللغة الهندوستانية لغة أولى (مهما تكن معرفته بالإنجليزية التى اكتسبها فى فجر حياته من والديه قبل وفاتهما) أن انتماءه الأول كان لهذه اللغة، بميراثها العامى من لغة خاريبولى الأصلية، ومن الأوردية فى الوقت نفسه.

ومنذ البداية أيضًا نرى تردد كيم فى انتمائه بين اللغتين وبين المظهرين المتصلين بهما، فهو أولاً يرتدى "ملابس أوربية، سروالاً وقميصًا وقبعة مهترئة"، ولكنه بعد مقابلة اللاما يقرر ارتداء الحلة الهندوسية الكاملة التى كان أحد الشبان قد أهداها له، ويعود إلى اللاما الذى ينكره أول الأمر فى هذا الملبس ثم يقبله فى مشهد رمزى، إذ عندما تغير مظهر كيم ظن اللاما عندما استيقظ من نعاسه القصير أن التلميذ الذى 'أُرسل' إليه قد اختفى قبل أن يشرح له كيم أنه هو نفسه هذا التلميذ. هل هذا تنكر أم محاولة للاقتراب من الواقع 'النفسى' لكيم؟ إنه هذا وذاك، فالتنكر هنا خيط درامى مهم لا يلبث أن يشارك فى نسج الصورة العامة للحدث على امتداد الرواية، ومحاولة الاقتراب من الواقع 'النفسى' خيط آخر من خيوط البحث عن الهوية الحقيقية لحائر بين عالمين من أمثاله.

ويطرح كيپلنج فى الفصل الأول من روايته خيوط القصة كلها، وأهمها خيطا 'البحث' – بحث اللاما عن النهر الذى سقط فيه السهم الذى أطلقه بوذا – وبحث كيم عن هويته، وخيط التجسس، إذ يطلعنا المؤلف بنبرات تشبه نبرات الراوى فى المسرح على طبيعة عمل البنغالى، كما نشعر فى هذا الفصل نفسه بقوة 'القص' أو 'الحكى'، وهى القوة التى سوف تتأكد فى مشهد

من بعد مشهد فى هذه الرواية، فاللاما يحكى قصة النهر والسهم، وسرعان ما تتوالى مشاهد القص فى كل فصل، كأنما نشهد عملاً دراميًّا يسترجع فيه الشخوص أحداثًا تمنح المواقف المرسومة الناشئة توترها. وإلى جانب ذلك فإن القص الشفاهى يمثل، كما يرى مايكل هولينجتون فى دراسة له بعنوان "كيم وكيپلنج"، وسيلة من وسائل البقاء، وإن كان هذا الناقد يشبهه بحكايات شهرزاد فى **ألف ليلة وليلة** التى أنقذتها من الهلاك مستندًا إلى إشارات كيپلنج إلى هذا العمل العربى العظيم فى سيرته الذاتية، خصوصًا حين شبه كتابته هذه الرواية "بالجنى الذى أُطلق من محبسه فى القمقم" (ص ١١٦ من **السيرة الذاتية**)، وبالإشارة فى أوائل الرواية إلى هارون الرشيد.

ولكن القص الشفاهى يلعب دورًا آخر أهم فى البناء الروائى: إذ إنه يوفر الأبعاد الزمنية اللازمة للأحداث، حتى حين يختلط بالمشهد الآنىّ ويسهم فى تطوير الحدث الحاضر، تمامًا كما يحدث على المسرح. ففى كل مشهد تقريبًا نسمع حكاية تروى، ما بين ما وقع بالأمس القريب وبين ما وقع منذ أعوام وأعوام، وفى كل حكاية نشعر أن الحاضر دينامى تشارك فيه قوى كثيرة متشابكة، فالمرأة العجوز (المهيبة) أرملة أحد ملوك (راچات) الولايات المستقلة، تحكى قصصها، واللاما يحكى ما يراه من الحكم والأمثال البالغة الدلالة، وتلاميذ المدرسة الداخلية يحكون مغامراتهم، ومحبوب على، الأفغانى، له حكاياته، وكذلك هورى شوندر موكرچى، البنغالى المتنجلز. ولكننا قد نتوقف عند حكايات تختلف عن حكاية 'الجاسوس' المذعور فى القطار (وهى التى تصب فى الحدث مباشرة) بل تكاد تقف خارج سياق الأحداث، مثل حكاية الجندى الهرم الذى ساند البريطانيين أيام أحداث التمرد: إن قصته مسترجعة من زمن مر وانقضى، ولكنها توفر ما أسميته بالبعد الزمنى اللازم، وهو الذى يوحى أن الظاهر 'الخامد' الساكن – فى العلاقة بين الحكام والمحكومين – ذو مظهر خادع، أى يسمح برؤية وميض نار خلل الرماد، وقد يكون له ضرام، على الرغم من جهود كيپلنج فى تجاهل هذا الوميض ودلالاته. فالولاء العجيب الذى يبديه الجندى الهرم للمستعمرين لا

ينفى وجود ذلك الوميض، كما نلمحه فى الشتائم التى يلقاها كيم حين يرتدى اللباس البريطانى (لباس 'السادة') من أفواه العامة الذين يظنون أنه لا يعرف اللغة المحلية. ويقول كيپلنج إن كيم لا يرى للشتائم سببًا، ولكن القارئ الملم بالتاريخ يدركه.

ويشرح تشارلز ألِنْ (Allen) بوضوح فى كتابه "**السيد كيپلنج: الهند وتكوين ريارد كيپلنج**" (٢٠٠٩) كيف يتفق بناء الرواية الثلاثى مع حياة هذا الكاتب. فالفصول الخمسة عشر مقسمة تقسيمًا ثلاثيًّا يتفق مع الفترات الثلاث فى حياة كيپلنج: السنوات الست (تقريبًا) التى قضاها فى الهند منذ مولده، والسنوات الإحدى عشرة التى قضاها فى المدرسة فى إنجلترا، والسنوات السبع التى قضاها عاملاً بالتحرير الصحفى فى الهند بعد ذلك. ففى الفصول الخمسة الأولى تتناول الرواية رحلات كيم مع اللاما، وقيام كيم بتوصيل رسالة محبوب على إلى الضابط الإنجليزى، وتحقيق نبوءة والده له بأنه سوف يسعد حين يعثر على ثور أحمر فى حقل أخضر، ولم يكن ذلك إلا رمز فرقة أبيه فى الجيش البريطانى، وبالعثور عليه تنتهى المرحلة الأولى. وفى الفصول الخمسة التالية (من ٦ – ١٠) تتولى الفرقة تعليمه رسميًّا فى مدرسة القديس خاڤيير، كما يشارك فى تدريبه على المشاركة فى 'اللعبة الكبرى' الإنجليزى لورجان والبنغالى هورى. وفى الفصول الخمسة الأخيرة (١١–١٥) يعاود الارتباط باللاما ويصطحبه معه إلى الشمال، إلى الجبال التى تُشْعِرُ اللاما بجمال وطنه التيبت، وحيث يقوم كيم (بمعاونةٍ من البنغالى) بالاستيلاء على أوراق الجاسوس الروسى وخرائط زميله الجاسوس الفرنسى اللذين كانا يعملان فى خدمة روسيا (وربما فرنسا أيضًا) تمهيدًا لغزو الممالك الشمالية المستقلة المتحالفة مع البريطانيين رسميًّا، ويستولى كذلك على الرسالة التى تدين أحد ملوك هذه الممالك. وفى القسم الأول يبدو لنا كيم فى صورة هندى كامل، وفى القسم الثانى يبدو بريطانيًّا (يتمتع بعطلات هندية) وفى الثالث يصبح بريطانيا متنكرًا فى صورة هندى. وفى القسم الأول لا يذكر كيم

الحياة البريطانية أبدًا، وفى الثانى يثور عليها، وفى الثالث يقبلها ويكتمل انتماؤه لبنى جلدته.

ويستخدم كيپلنج رمزين معينين أيضًا فى بناء هذه الرواية التى كانت قريبة إلى قلبه، فاللاما يطلب نهرًا معينًا حتى يحرر نفسه من عجلة الدنيا (دورات الموت والحياة)، ونلاحظ أن رحلته مع كيم تتبع مجرى نهر الجانچيز العظيم الذى يجرى بحذائه طريق العربات العظيم من لاهور إلى بيناريس، ثم يحاكى الحركة الدائرية للعجلة عندما يرحل من جبال الهيملايا إلى السهول الوسطى، ثم يعود أدراجه فى دورة أخرى إلى جبال كشمير، بل ويعود منها مرة ثانية إلى سهل الجانچيز الهندى. وعندما يجد نهره أخيرًا يصاب بغيبوبة، ويكاد يغرق، ولكن البنغالى هورى ينقذه فى اللحظة الأخيرة حتى يعود إلى الدنيا. ولو كان نهر السهم الذى خرج اللاما للبحث عنه نهرًا حقيقيًّا لكان قد اكتُشِفَ فى القرون المنصرمة وأصبح مزارًا يحج إليه الحجاج، ولكن اللاما يجده من طريق الحدس وحده، ولنا أن نعتبره رمزًا روحيًّا أو حتى 'حقيقة باطنة' وحسب، وهو ما يتناقض تناقضًا صارخًا مع مطلب كيم الواقعى: فإذا كان اللاما يرى كل ما فى الدنيا وَهْمًا، فإن كيم يراه حقائق واقعة.

ولكن البناء الدافق القائم على الحركة، كما ذكرت، يكتسب حركة داخلية من نوع آخر، نابعة من التنويع المحسوب فى أساليب الحوار وأشكال اللغة المستخدمة فيه (وهو ما نَقَلْتُهُ بدقة تقترب من الحَرْفية فى الترجمة) ما بين الشخصيات المختلفة، والمواقف المتباينة، واللقاءات العارضة التى تقتضيها رواية المغامرات. فمنذ البداية نرى كيم اليتيم – الذى فقد أباه الأيرلندى، الذى كان جنديًّا فى الجيش البريطانى برتبة رقيب ومدمنًا للشراب – وقد استوعب حياة الشارع 'الحرة' فى لاهور، واكتسب أساليب لغة الصبيان 'الأشقياء' فى الحديث وفى السلوك، حتى غدا من الصعب التمييز بينه وبين غيره منهم فى هذين معًا. وما إن يبدأ انجذابه إلى اللاما، الكاهن الغريب من التيبت، حتى

يبدأ الدخول فى عالم الكبار من الهنود والإنجليز، فيتعاون أولاً مع محبوب على، الأفغانى المسلم الذى يعمل بتجارة الخيول، ثم يتعاون مع الإنجليز محتفظًا بعاداته التقليدية. ونشهد هنا أول ملمح من ملامح هذه الحركة الداخلية فى باطن كيم نفسه حين يفطن إلى ما يُرَادُ بمحبوب على من سوء، فيخشى على نفسه مما يحاك بصديقه وينطلق خارجًا مع اللاما من سراى كشمير، مبتدئين رحلتهما فى 'الطريق'.

وفى كل مغامرة من مغامرات كيم تطرأ تغييرات مطردة على لغة كيم وسلوكه، خصوصًا بعد مقابلة الضباط الإنجليز فى الفرقة التى كان والده يعمل فيها، وخصوصًا الكاهنين الإنجليزيين – مستر بينيت البروتستانتى، والأب فكتور الكاثوليكى – اللذين يحاول كل منهما إدخاله فى مذهبه الدينى. ونواجه فى هذه المشاهد حركة فكرية من نوع آخر عند اصطدام 'الخطاب الأوروبى' 'بالخطاب' الهندى في المعسكر، كأنها لبنة جديدة تضاف إلى بناء كيم الذى يحاول جاهدًا تحديد هويته، عند لقائه بالمستر لورجان، الإنجليزى الذى ولد فى الهند، والذى يتولى تدريبه على ممارسة اللعبة الكبرى، أى الجاسوسية. وفى منزل لورجان يلتقى كيم بهندى آخر، وهو هورى شوندر موكرچى، البنغالى المتنجلز، وخريج إحدى الكليات التى أنشأها الإنجليز فى الهند. وبعدها يقابل العقيد كرايتون الذى يتبين قدرات كيم الفريدة ويقرر استغلال مواهبه النادرة. وهذا العقيد، كما يتضح لنا، يعمل فى جهاز الاستخبارات البريطانى مع أنه متخصص فى علم الأعراق. وأما ما وصفته بمحاولة كيم الجاهدة تحديد هويته فإنها تمنى بالفشل، ويتحول بسبب ذلك أسلوب حديثه من جديد.

ولكن كل فرد من هؤلاء يتميز بلغته الخاصة أيضًا، وخصوصًا أبناء البلد الذين يُعَلِّمون كيم فنون 'الصنعة' فى إطار اللعبة الكبرى. ويستغل كيپلنج ما تتيحه الترجمة – أى ترجمة ما يقولونه باللغة المحلية إلى الإنجليزية التى يكتب بها الرواية – فى إظهار هذه الخصائص، فهو لا 'يترجمها' إلى اللغة الإنجليزية الاصطلاحية فى عصره، بل يترجمها حرفيًّا حتى يشعرنا بتفرد

اللغة المحلية وخصائصها التى نجدها اليوم غريبة (وحاكيته أنا بالنقل الأمين الدقيق لذلك كله). ويلجأ كيپلنج أحيانًا إلى استخدام الألفاظ المهجورة التى تنتمى إلى القرن السابع عشر، ونقل الأمثال المحلية حرفيًّا، والصيغ التعبيرية الثابتة المتكررة، حتى يشعرنا بمذاق لغة هؤلاء الأهالى فى إطار ثقافتهم المحلية. وأما اللاما فهو يكرر عباراته التى أصبحت علمًا عليه، بوقار وإيمان البوذى الصادق، وبتنغيم خاص "والجميع مربوط بالعجلة. مربوط من حياة إلى حياة. لم يُكشف النقاب عن **الطريق** لأى من هؤلاء!" وكثيرًا ما يلجأ محبوب على إلى صيحات التعجب والدهشة "لعنة الله على كل الكفار!" وأمثال ذلك، ونحن نعرف ما نعرفه عن خبثه ومكره. ولكن البنغالى هورى يتكلم الإنجليزية، ظانًا أنه ملك ناصيتها حين حصل على درجة الماچستير من جامعة كالكتا، وإن كان فى الواقع يسىء استخدامها بجوره على مصطلح اللغة وارتكاب أخطاء نحوية مما يرتكبه الأجانب. كما إن امرأة 'شملة' التى تحاول إغواء كيم تستخدم إشارات وتلميحات لا تخفى على اللبيب ويحرص كيپلنج على نقلها بدقة. وأهم تغيير، كما ذكرت، هو التغيير الذى يطرأ على لغة كيم قبل دخوله المدرسة وبعد خروجه منها، ونشعر فى هذا بما أسميته الحركة الداخلية، ما دامت تصور لنا البناء الصاعد من بدايات التجربة إلى مراحل نضجها.

ودراسة اللغة وخصائصها تنتمى شكليًّا إلى دراسة النسيج، لكننا فى الواقع لا نستطيع الفصل فى هذا العمل الأدبى بين البناء والنسيج. فبناء الشخصيات يتضمن إسماعنا أصواتها، وبناء الأحداث حواريًّا يتضمن رصد التوترات الناشئة عن 'المصادمات' اللغوية، على نحو ما يحدث فى كيم، ويمتدح ت. س. إليوت صدق تصوير الشخصيات فى كيم بسبب حب الكاتب للهند القائم على الفهم قائلاً "إن الشخصيات الهندية الكبرى فى رواية **كيم** هى الشخصيات الحقيقية: اللاما [ليس هنديًّا] ومحبوب على، وهورى شوندر موكرچى، والأرملة الثرية من الشمال" (من مقدمته **للمختار من شعر كيپلنج** ١٩٤١، و١٩٦٢ ص ٢٧) ويتضمن النسيج إلى جانب اللغة، بطبيعة الحال، الوصف

الحى الذى يخاطب الحواس باستمرار، ويبدو أنه شفاف، وإن كانت شفافيته خادعة، فهو نثر ثرى حافل، إذ نجد فى الرواية، فى لوحة من بعد لوحة، صور الهند التى يرسمها كيپلنج بدقة تجعلها تنبض بالحياة - بالناس والحيوان معًا - فى سراى كشمير، التى يصفها فيما يطلق عليه مايرز المشار إليه تعبير "الومضات السينمائية" (ص ٢١):

كانت تجتمع هنا شتى ضروب أبناء الشمال، بعضهم يربط المهور وبعضهم يرعى الجمال التى بركت، وغيرهم يحمل الدواب بالبالات واللفائف أو ينزلها من فوق ظهورها، وآخرون ينزحون المياه اللازمة لوجبة المساء من الآبار بأصوات الصرير، أو يضعون الكلأ أمام الخيول ذات العيون الشاردة والصهيل العالى، أو يربطون كلاب القوافل ذات النباح الفظ، أو يدفعون أجور سائقى الجمال، أو يستأجرون ساسة جددًا للخيل، والجميع يتشاتمون ويتصايحون ويتجادلون ويتساومون فى الميدان المكتظ بالبشر.

وعندما تشرق الشمس على السهل الحار، يصفها كيپلنج بأسلوبه الخاص (الذى نقلته بخصائصه) قائلاً: "بألوان ذهبية ووردية، صفراء وحمراء معًا، تماوجت أبخرة الصبح الضبابية عبر السهول الخضراء المديدة، وبدأت الپنچاب الحافلة كلها تنبسط فى بهاء تحت أشعة الشمس المسنونة". وفى الفصل الحار الذى يسلب الإنسان قوته ونشاطه، تتردد أصوات تبعث على النعاس "وترددت أصوات طنين الحشرات التى تجلب النعاس فى ضوء الشمس الحار، إلى جانب هديل الحمام، والأزيز الحالم للسواقى المقامة فوق الآبار عبر الحقول". وأما الطريق الذى يتلوى صاعدًا الجبال فى سيملا التى كان كيپلنج يعشقها، فإنه يريحه من حرارة الجو ويأتيه بمباهج نباتات الجبال وحيواناتها، وما يستطيع الصاعد فيه أن يشهد من قمم الجبال الشماء ويلقى بصره على السهول التى خلفها وراءه:

[كان] الطريق يتلوى، ويصعد ويهبط، ويلتف حول الأشواك النامية، فترى الصبح، وهو يشرق على امتداد الثلوج النائية، ونباتات الصبار بفروعها، فى طبقة من فوق طبقة على جوانب التلال الحجرية، وأصوات ألف قناة من قنوات الماء، وثرثرة القرود، ومشهد أشجار الدردار الرزينة التى تعلو كل دوحة منها فوق دوحة بأغصان تتدلى، والمساحات الشاسعة من السهول المنبسطة على البعد من تحتهم، والصليل الذى لا يتوقف نتيجة اصطدام قرون الثيران التى تجر العربات، واندفاع الخيول التى يقودها الرجال عندما تنحرف إحدى العربات بشدة فى أحد المنحنيات، والتوقف لأداء الصلاة، وكان محبوب يراعى تعاليم دينه بدقة فى التيمم ورفع الأذان فى وقت الصلاة، والاجتماع لتبادل الأحاديث فى المساء فى محطات الراحة، والجمال والثيران تجتر طعامها برزانة معًا، والسائقون الأشداء يتلقون الأخبار الخاصة بالطريق: كانت كل هذه الأشياء تسمو بقلب كيم إلى دنيا من النغم فى صدره.

وأخيرًا يهبط الليل، فتختلف درجات الحرارة، وتختلف الألوان والروائح، ويأتى الليل بالراحة المنشودة من تعب النهار: "ثم هبط الليل فغير ملمس الهواء ملقيًا غشاوة دانية منتظمة، كأنها خيوط بيت أزرق نسجته عنكبوت، فوق وجه البلد، وناشرًا رائحة حادة متميزة، تجمع بين دخان الأخشاب والماشية، والرائحة الطيبة للفطير المخبوز من القمح على رماد الجمرات... وتوهجت جمرة متقدة بلونها الأحمر فى قلب شيشة سائق عربة يستريح على جانب الطريق، ولمحت عينا كيم إذ ذاك – بصورة آلية – آخر بريق لشمس الغروب منعكسًا من ملقاط الشيشة المصنوع من النحاس الأصفر".

وقد أوردت الوصف إلى آخره للتدليل على ما ذكرته فى البداية من أن القصة تروى دائمًا من وجهة نظر كيم، فالوصف لا يقدم من أجل الوصف، مهما يكن المشهد خلابًا، لكنه دائمًا يرتبط بنظرة الشخصية المحورية إلى

المشهد، وكيبلنج يبنى روايته بناء ثلاثيًا باعتبارها رواية وصول إلى النضج (bildungsroman) كما سبق أن ذكرت مركزًا على بطله.

ومثلما تبدأ الرواية بكيم تنتهى به، ولكن ختام الرواية ليس نهاية، وكان الباحث مارك كنكيد – ويكس (Kinkead - weekes) من أوائل من تناولوا ذلك الختام فى كتابه عن **فكر كيبلنج وفنه** (١٩٦٤، ١٩٦٦) بالتفصيل الشديد شارحًا ومدافعًا، كما كانت زُهرة ساليفان من أحدثهم (٢٠٠٢) لكننى سأبدأ بعرض رأى مايكل هولينجتون (١٩٩٤) الذى سبق لى أن أشرت إليه، إذ يبدأ دفاعه عن ذلك الختام قائلاً:

على الأقل منذ إدموند ويلسون [١٩٤١] والخاتمة المُرَكَّبَةُ الحافلة بالدلالات تثير فى القراء، فى حالات كثيرة، مشاعر استياء، إما لأنهم (مثل ويلسون) يجدون أن كيم موشك على خيانة اللاما، أو لسبب أبسط وهو أنها خاتمة غير حاسمة. وسوف أركز هنا على هذا الجانب الأخير، راجيًا أن أبين أنها تمثل تعدد طبقات الرواية الشفاهية للنص والنص الباطن 'الخافت الذى يختفى تحته' (ص ٨٧).

وينطلق من هذا إلى محاولة إثبات أن الخاتمة 'غير غائية' أى لا تقصد غاية واحدة وحسب، قائلاً إن اللاما صاحب الصوت الذى يسود الصفحات الأخيرة فى الرواية، فالبطل كيم ينام للمرة الثانية فى حجر الأرض الأم ويستيقظ منتعشًا فى المساء، راضيًا بالصمت والإصغاء إلى صوت يوحى بعودة الشباب إليه "كأنه صنج" رنان. فاعتقاد اللاما أن بحثه انتهى قد لا ينم على اقتناع كامل بما يقول، وقد يكون وهمًا مثل اعتقاد كيم قبل ذلك أنه قد عثر على "الثور الأحمر فى الحقل الأخضر" الذى تنبأ به أبوه، قائلاً إن ذلك قطعًا تفسيره للجملة الأخيرة فى الرواية "وعقد يديه فى حجره وابتسم، مثلما يحق لرجل فاز بالخلاص لنفسه ولحبيبه أن يبتسم". ويشرح هولنجتون التناقض فى عبارة هذا الزاهد بين "الخلاص" و"الحبيب"، مضيفًا أن الفعل الماضى "فاز" يتناقض مع مدلولات عبارة سابقة توحى بأن المهمة قد بدأت لتوها، وهى "إنى انتزعت نفسى انتزاعًا من عتبة الحرية عائدًا إليك لتحريرك

من كل الخطايا". ولكننا لا نجد هنا منظورًا ختاميًّا موثوقًا به ونستعين به فى الحكم: فما يقوله يمثل (قراءة) للموقف، وما يقوله هورى البنغالى يمثل (قراءة) أخرى، والنص يقول بصحة القراءتين، ويختتم الباحث دراسته قائلاً:

إذا نظرنا إلى الرواية هذه النظرة، وجدنا أن جوهرها هو محاولة العثور على طرق لصَهْر حقائق واقعية متعددة ومتضاربة فى وحدة واحدة، والعثور على لغة المجاز المناسبة للتعبير عن خطوات الصهر المذكور (ص ٨٨).

وأعود الآن إلى ما قاله كنكيد-ويكس المشار إليه عن الخاتمة، إذ ينتهى بعد تحليل مسهب ومقنع بصفة عامة إلى أن كيم لن يعود إلى المشاركة فى (اللعبة الكبرى)، قائلاً إن علينا ألا نخطئ فى إدراك الاتجاه الأخير الذى يسير فيه الاستكشاف الروحى فى هذه الرواية، مؤكدًا أن "الصراعات الأخيرة لكيم واللاما متكاملة فى جوهرها، وأن النتيجة توحد بينهما آخر الأمر". ثم يقول إن كيم عندما يخرج مترنحًا من غرفة مرضه بعد أن كابد آخر وأسوأ فقدان للإحساس بهويته، يتضح لنا السبب وهو أنه لم يكن مرتبطًا وحسب باعتباره تلميذًا للاما بالروح المحبة عند الرجل العجوز بل أيضًا بأيديولوچيته البوذية. إذ يضيف كيپلنج "لقد تسببت نغمة غير إنسانية فى جوهرها فى أن تجعله يشعر، وإن لم يستطع التعبير عن ذلك، بأن روحه لم تكن متناغمة مع ما يحيط بها... كانت الببغاوات تصيح من حوله، والأصوات فى المنزل الذى تقيم فيه الأسر خلفه... تصل إلى أذن صماء. ثم قال "أنا كيم. أنا كيم. فما كيم؟" وكررت روحه ذلك عدة مرات. لم يكن يشعر بالحاجة إلى البكاء... ولكنه وجد فجأة عبرات بلهاء تنساب فى يسر على أنفه، وأن عجلات كيانه عادت بصوت يكاد يسمع إلى الارتباط من جديد بالعالم الخارجى. فإذا بالأشياء التى كانت تركب بلا معنى متن عينيه منذ لحظة واحدة قد اتخذت أبعادها الصحيحة. فالطرق قد جُعلت للمشى فيها، والمساكن للإقامة، والماشية لتساق، والحقول لتفلح، والرجال والنساء للحديث معهم. أصبح كل ذلك حقيقيًّا وصادقًا، صلصالاً من صلصاله، لا أكثر ولا أقل.

ويعلق الباحث على هذا المقتطف قائلاً إن شفاءه قد اكتمل هكذا على الأرض، إذ كان يستمد القوة منها، وعلى نحو ما يتضح من صورة 'التناغم'، فإن كيم لم يعد ملتزمًا 'باللعبة' الكبرى، بل يؤكد أنها لم تعد تهمنا، بل – وعلى مستوى أساسى وجوهرى – أصبح كيم ملتزمًا بعجلة الحياة الأرضية والبشرية، معارضًا القول بأن هذه الأمور جميعًا 'وهم'، وبأن على المرء أن ينصرف عنها. ثم يقول الباحث:

ولكن هذا يعنى انتفاء أى تضاد ختامى مع اللاما، لأن اللاما فى النهاية يعارض الانفصال أيضًا. ففى اللحظة التى يحقق الإخماد الأخير لبشريته مندمجًا فى الروح العظمى، إذ به يتراجع "بما لا يحصى من الأشواق والمجالدة والتهوع والألم". وفى اللحظة الأخيرة نفسها يُصبح الحب والعلاقة الإنسانية أهم للنفس من النيرڤانا [التنوير الروحى] والصور التى يستخدمها كيپلنج صور خلاقة وإيجابية ومثمرة "ومثلما تخرج البيضة من السمكة، والسمكة من الماء، والماء من السحاب، والسحاب من الهواء الكثيف، انطلقت بل وثبت، بل انسحبت، بل تبخرت روح تيشو لاما من الروح العظمى". (ص ٢٣٢).

ويعلق على ذلك قائلاً إنه لم يكن ليستطيع فى غير هذه اللحظة رؤية النهر القادر على تطهير روحه من الخطيئة التى لا تزال عالقة به، ومادام الشخص قد بلغ هذه المرحلة فيمكن لأى نهر عتيق أن يؤدى المهمة. وأما "الخطيئة" فليست سوى عنصر الأنانية فى نشدان الكمال للنفس بالتخلى عن الآخرين. وإذن فإنه استطاع العثور على النهر من خلال نبذ الكمال المذكور، ما دام يقول "كنت أزيح عالمًا من بعد عالم من أجلك". ومن المحال أن يضمر إنسان حبًّا أعظم من هذا الذى يضحى بالآخرة فى سبيل صديقه (٢٣٣).

وأما زُهرة ساليڤان فتقدم تحليلاً للخاتمة يجمع بين عناصر التحليل

النفسى التى وضعها چاك لاكان (Lacan) – وخصوصًا رمزية صورة الأب اللاحقة على صورة الأم عند الرضيع – وبين عناصر نظرية السيطرة والمعرفة المصاحبة للاستعمار، منطلقة فى البداية من الانقسام النفسى الذى يعانيه كيپلنج، قائلة:

إن المشكلات والتناقضات الرئيسية فى الرواية يغذوها ويُشَكِّلها إحساس كيپلنج بانقسام نفسى، وتعدد صور ولائها لسلطة الإمبراطورية فى وقت اشتداد سطوتها، وحبه للهند التى فقدها والتى كانت تطمس الفوارق بين الحاكم والمحكوم. وأما البحث الداخلى، البحث عن الهوية (من كيم.. كيم.. كيم؟) فيوحى بإمكان اكتشاف الذات، والتكامل بين (ذوات) كثيرة، والوصول إلى هوية من خلال اللاما الذى يتعلم كيم أن يحبه. ولكن هذا البحث يصطدم ببحثه الخارجى، بالرحلة وبالإصرار على نشدان التعريف فى البحث عن أب (الثور الأحمر فى الحقل الأخضر) وهو الذى يستطيع أن يحرره من القلق ومن المشكلات القائمة فى مثل هذا البحث. وبعبارة أخرى فإن حب كيم للاما وبحثه عن هوية تتوسلان بانتظام بهياكل السلطة الحاكمة وتقعان آخر الأمر تحت سيطرة النظام الاستعمارى. (ص ٤٤٢).

وبعد تحليل مطول للتطور النفسى والتنازع الداخلى عند كيم ما بين الاستقلال الذى يؤكد هويته أو ذاته المستقلة فى مرحلة النضج وبين الانتماء إلى الحب الأبوى ممثلاً فى اللاما وفى رجال السلطة البريطانية، وهو التنازع الذى تشرحه الباحثة فى ضوء نظريات لاكان السيكلوچية وفى ضوء النظام 'الأبوى' الاستعمارى، معرجة على لقائه بامرأة 'شملة' (وهى التى تناولها كيپلنج فى قصة قصيرة أسماها فيها ليزبيث) تصل إلى دلالة ختام الرواية (عنوان دراستها) قائلة:

تعالج رواية **كيم** اكتشاف طفل لهويته واستعادته هذه الهوية وأسلوب

هذه الاستعادة القائم على سلسلة من الخسائر داخل الهند التى يوشك أن يفقدها، فهو طفل يتماهى مبدئيًّا مع لاما لابد أن يفقد أبوته حتـــى ينخرط فى النظام الاستعمارى. وبحث كيم الأول – عن ثور أحمـــر فى حقل أخضر – يفصل بينه وبين رغائبه (الهندية) الأولى، ويحتم خضوعه لما لا نهاية له من خيبة الأمل، والوحدة، والاغتراب. ولكن تعاونه مع بحث اللاما يطمس حدود بحث كيم عن أصوله وهويتـــه وغايته ويغير من صورها جميعًا. وعلى الرغم من أن كيم قد تحوّل من مغامر يافع متهـــور ســـعيد إلـــى سِـــنٍّ مـــن أســـنان العجلـــة الإمـــپـــريالية، فإن خاتمة الرواية تبارك هذا التحوّل وتكسوه قداسةً بأن تضفى عليه الوهج الصادر من تحوُّل اللاما.

ولكن المشهد الختامى يتجاوز فيما يبدو قضيتى الهوية والأصول اللتين تثاران فى كل مرحلة من مراحل انضمام كـــيم إلـــى النظـــام الاستعمارى الذى ورثه من والده. فالكلمات الأخيرة فى الروايـــة لا تنتمى إلى كيم بل إلى اللاما. وهذا 'التحاشِى' الأخير هو الذى يسبب لى أكبر المشكلات باعتبارى قارئة للنص، إذ إن جانبًا من المفارقـــة الختامية يكمن فى تقويض الطاقات المخصصة للاّما – طاقات التأمل والاستبطان والرؤيا والراحة والامتناع عن الفعل – وهو التقـــويض الذى تقوم به فى النهاية كل من الحبكة والأيديولوچـــيا، وما يفعلـــه اللاما آخرًا. كما إن اختيار اللاما بحرية أن يرجع من النيـــرڤـــانا (التحرر الروحى) من أجل كيم يعنى أنه 'ارتكب' عمـــلاً يتـــصف بالإنسانية والحب والتضحية وفى الوقت نفسه بتدعيم الأيديولوچـــية الرسمية. أى إن اللاما حين يؤثر حب كيم 'السيد' (الإنجليزى) على التحرر من عجلة الحياة، يكون قد خضع لقيم العمل المرتبطة ببعض المقاتلين من أمثال محبوب والسادة الاستعماريين. ولكن اللاما يقـــوم فى هذا، بطبيعة الحال، بعمل يتضمن التضحية بالنفس وهو ما يتميز

به كل 'بوذيساڤـا' – الشخص الربانى الذى يؤجل دخوله النيرڤـانا حتى يساعد الآخرين على بلوغ 'الطريق' – وبهذا يطابق كيـپـلنج بين الأيديولوچيتين التى كانتا متضادتين (المسيحية/ الغربية والبوذية) ما دام قد أعلى قيمة عالم العمل، والإرادة، والاختيار، ورفعه فـوق مبادئ نبذ الدنيا والتقشف التى كانت تسيطرعلى الفكر الهندوسـى. وأما كيم فإن موقفه يثير الالتباس: تراه يُضلِّلُ اللاما ويدفعه إلـى أن يتصور أن 'تلميذه' أيضًا متأهب للتخلص مـن عجلـة الحيـاة؟ إن دخوله مثل هذه 'الصفقة' باسم الحب يعتبـر جـزءًا مـن المجـال العاطفى الذى يمارس كيم عمله فيه على امتداد حياته 'الخيالية'. أى إن كيم يشعر بضروب من الولاء والحب يستعصى التوفيق بينهـا، ومكتوب عليه الانفصال عن كل ما يحبه، وهكذا فلابد أن يتنكر للاَّما آخر الأمر، وهو الذى يعطيه المؤلف الكلمات الأخيـرة – الكاذبـة ماديًّا، والقائمة على المفارقة – فى الرواية: " 'يا ابن روحى! إنـى انتزعت نفسى انتزاعًا من عتبة الحرية عائدًا إليك لتحريرك من كل الخطايا، ما دمتُ حُرًّا، وبلا خطيئة. ما أعـدل العجلـة! خلاصـنا مؤكد! هيا!' وعقد يديه فى حجره وابتسم، مثلما يحق لرجـل فـاز بالخلاص لنفسه ولحبيبه أن يبتسم».

إن هذا المشهد يمثل لقطة سينمائية ثابتة مـضيئة تُختـتم بهـا الرواية ولكنه يترك كيم والقارئ معلقين فى الهواء، ما دام كل مـا سبق قوله (من حيث بناء مجتمع مثالى يصبح كيم فيه جزءًا صغيرًا من كيان هندى كُلِّىّ) يذوب فى جو وهم الرؤى والـصلوات. ومـع ذلك، فإن هذه النهاية أيضًا بداية، أو بالأحرى خيال استعمارى يوحى بأصول مستحيلة التحقيق لتكوين نوع جديد من المُـسْتَعْمِر، يتميـز بالإحساس بانقسام ذاته، وبإنكار اختلافه عن ابن البلد، مـع يقينـه بخلاف ذلك. (ص ٤٤٨-٤٤٩).

وتنتقل الباحثة بعد ذلك إلى الحديث المسهب عن الانفصام العميق في 'الخطاب الاستعمارى'، ودلالاته المزدوجة، وكذلك عن السياق الفكرى الذى أوجده إدراك المفكرين البريطانيين فى الفترة من ١٨٩٧-١٩٠١ (أواخر عهد الملكة ڤكتوريا، 'إمبراطورة الهند') لاستحالة التوفيق بين الألفاظ الرنانة المستخدمة فى مجال الإمبراطورية والواقع، ثم تتطرق إلى بعض الصور الشعرية (عند كيپلنج) التى تمثل هذا الانفصام، وعن المعرفة والسلطة، وغيرها من القضايا التى قُتلت بحثًا ثم تنتهى إلى أن الرواية، بما فيها من مفارقات تؤكد وتنفى فى آن واحد منطق السلطة ومنطق الإمپريالية.

وتختتم هذه الباحثة التى تعمل أستاذة فى جامعة إلينوى، والتى حررت طبعة نورتون للرواية، التى تضم أهم الدراسات الحديثة، دراستها المطولة بفقرة أحب أن أقدمها إلى القارئ العربى بسبب استخدامها مصطلحات غير شائعة فى لغة النقد الحديث، وبسبب ما توحى به الفقرة من أن وراء هذه المصطلحات منهجًا نقديًّا جديدًا. تقول ساليڤان:

أبغى من توجيه الأنظار إلى الأشكال التى تضم قلق كاتب معين من كتاب الإمبراطورية، وهو رديارد كيپلنج، أن أقول إن تاريخ الإمبراطورية والشخصيات التى أخرجتها الإمبراطورية يعيد نفسه، وإن كيپلنج يبنى پاثولوچيا (علم أمراض) نفوس (ذوات selves) لتشخيص پاثولوچيا الإمبراطورية. وتَفَهُّمُ قصص كيپلنج يتطلب مِنّا إعادة قراءة الصور التى تمثل النفس (الذات self) فيها من حيث ثقافة الإمبراطورية، وكذلك أيضًا، الصور التى تمثل الإمبراطورية من حيث النفس فى ذاتها. والدرس الذى نتعلمه من كيپلنج (وغيره من كتاب الاستعمار) يقول إن نظراتنا إلى 'الغيرية' وإلى الآخرين ذوات جذور راسخة أيضًا فى التاريخ النفسى (psychohistory) وإن ضروب قلق الإمبراطورية هى نفسها ضروب قلق الأسرة، وهكذا فإنَّ خَلْقَنَا لنظم عالمية جديدة،

وأساليب تشكيلنا وتركيبنا لعناصر نفوسنا وعناصر نفوس الآخرين وتنظيم هذه وتلك تنتمى لعلم النفس المرضى الشائع فى الحياة اليومية، وتعتبر كذلك دفاعًا وترياقًا لضروب قلق الانقسام. فالواقع أن قلق النظم الإمبريالية لايزال قائمًا وكاملاً غير منقوص، وإن كانت شهيته قد نزحت فاحتلت السوق "الحرة". قد تكون التواريخ والموضوعات قد تغيرت، ولكنْ لم يتغير شيء فى التركة العنصرية، والإكراه على التوحيد، والمركزية، وصورة المجتمع المهيمن، والطباع، والاقتصادات العالمية، والشره النهم، الذى يتستر بقناع الشركات المتعددة الجنسية، والخلط بين التنكر فى العلن والواقع الباطن، (كما نرى فى إجراء انتخابات الرئاسة الأمريكية أو فى حروب "التحرير")، بل والقضايا الكبرى، قضايا التفاوت الاقتصادى بين العوالم المسورة والأدغال غير المسورة، وبين العالم الأول والعالم الثالث، وما زالت الأحكام تصدر على العالم الثالث من حيث اعتناقه لقيم العالم الأول السياسية والثقافية والاقتصادية، ولابد أن يتعلم كيم جدول الضرب باللغة الإنجليزية، كما يجب على 'باندر لوج' (فريق القرود فى **كتابىْ الأدغال**) – من هنود، وأيرلنديين، وعرب، وأهل أمريكا الوسطى وسكان أمريكا الأصليين – أن يتعلموا أن يحترموا ويعتنقوا سيادة السلطة، وسيادة القانون، وسيادة الحكومة التى تمثلها بانتظام أشكال خبيثة من الرقابة والسيطرة تنتمى إلى الاستعمار الجديد. (ص ٤٥٢).

٧- المداخل النقدية الحديثة

أظن أن دراسة ساليفان التى قدمتُ مقتطفاتٍ مسهبةً منها تمثل محاولة واضحة لاستخدام أحد مداخل النقد الحديثة فى تناول هذا العمل الأدبى، ولكن أبرز هذه المحاولات وأنجحها جميعًا دراسة إدوارد سعيد للرواية فى مقدمة

طبعته لها عام ١٩٨٧. ولذلك سوف أكتفى بعرضها بإيجاز، مترجمًا فقرات مطولة منها، قبل أن أورد نظرة شاملة على أهم ما قيل عن الرواية فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين ومطلع القرن الحالى.

فى قلب مقدمة إدوارد سعيد إلماحه إلى الموقع الفنى الرفيع الذى تشغله الرواية، قائلاً إنه لولا جمالياتها وحب الناس لها ما أثارت ما تثيره منه خلافات، بسبب استنادها إلى الإطار الفكرى الذى كان شائعًا فى آخر القرن التاسع عشر، خصوصًا ما يسميه 'النظرية العنصرية' التى تفنن الدارسون لها فى تقديم براهين 'علمية' على أن الرجل الأبيض كان يشغل قمة التطور والحضارة، قائلاً إنه كان قد عرض لها فى كتابه **الاستشراق**، قبل أن يضيف إن معظم مفكرى تلك الحقبة "بل وجميع كبار الروائيين، وكتاب المقالات، والفلاسفة والمؤرخين البارزين" (ص ٣٣) كانوا يقبلون التمييز بين الأجناس واختلافها وتفاوتها فطريًّا وجوهريًّا. وهو يدلل على ذلك بمقتطفات من أهم كتاب ذلك العصر، ثم يضيف إن ذلك كله ينطبق انطباقًا كاملاً على هذه الرواية.

ويركز إدوارد سعيد فى تحليله على شخصية العقيد كرايتون؛ الذى يصفه مُحِقًّا بأنه الشخصية الرئيسية التى تتمتع بالسلطة الدنيوية، قائلاً إن هذا الباحث فى علم الأعراق إلى جانب عمله فى الجيش ليس مجرد ابتكار عارض نبت فى مخيلة كيپلنج، بل الأرجح أنه شخصية رسمها المؤلف استنادًا إلى خبرته الشخصية فى إقليم البنچاب، مُبَيِّنًا أنه على الرغم من قلة ظهوره فى الرواية وعدم اكتمال رسم شخصيته، فإن له وجودًا مهيمنًا فيها. وبعد أن يبين سعيد دلالة العلاقة بين السلطة والمعرفة، ضاربًا المثل بما يفعله كونان دويل فى قصصه عن 'شرلوك هومز' وصديقه الدكتور واطسون الذى قضى زمنًا طويلاً على الحدود الشمالية الغربية فى الهند، يبين دلالة كونه باحثًا فى علم الأعراق، إذ يتميز هذا العلم بصلته الوثيقة بالاستعمار، مشيرًا إلى أن حكام المستعمرات فى أواسط القرن التاسع عشر كان يستخدمون مستشارين من علماء الأنثروبولوچيا (علم السلالات البشرية) وعلماء الأعراق، وإن كان

كيبلنج، كما يقول، "من أوائل الروائيين الذين صوروا التحالف المنطقى بين العلوم الغربية والسلطة السياسية عمليًّا فى المستعمرات" (ص ٣٥).

ويقارن إدوارد سعيد بعد ذلك بين رسم كيبلنج لشخصية هذا الإنجليزى ورسمه لشخصية البنغالى هورى شوندر موكرچى، مبنيًا كيف أن المؤلف يأخذ كرايتون على محمل الجد فلا يسخر منه قط، ويبدى الاحترام لطموحه إلى الانضمام إلى الجمعية (العلمية) الملكية، فى حين أنه يصور البنغالى الذى لا يقل كفاءة – بل وذكاءً ودهاءً **وإخلاصًا** – عن العقيد تصويرًا كاريكاتوريًّا ولا يستطيع الإيحاء بإمكان أخذه على محمل الجد بسبب لون بشرته وحسب، وأما العقيد فيقول سعيد إنه يمثل ذروة التغير الذى حدث على مدار أجيال فى تجسيد السلطة البريطانية فى الهند. فنحن نعرف أن احتلال الهند وقع تدريجيًّا بفضل جهود المغامرين والتجار الأوائل، الذين كانوا يتميزون بالحرية فى العمل وقبول المخاطرة، والاستعداد للارتحال وتفضيل الدروب غير الرسمية على الرسمية، وكان يساند جهود هؤلاء بعضُ كبار العلماء والباحثين والجامعين للمعارف و'البيانات'. وكرايتون يمثل في رأى سعيد الجمع بين خصائص الطائفتين فى شخصه ولكنه يختلف عنهما فى أنه يستند الآن إلى "حكومة محايدة، حكومة لا تعتمد على النزوات، أو ما يؤثره الأفراد، بل على القوانين ومبادئ النظام والسيطرة". (ص ٣٦) ثم ينتقل سعيد بعد ذلك إلى مناقشة قضية علاقة الرواية بعلم الاجتماع قائلاً:

> يقول نويل أنان (Annan) فى دراسة مشهورة إن رؤية كيبلنج للمجتمع فى رواياته تشبه رؤية علم الاجتماع الجديد، فى الصورة التى يرسمها دوركايم، و ڤيبر وباريتو، قائلاً:
>
> > [علم الاجتماع الجديد] ينظر إلى المجتمع باعتباره رابطة من الجماعات، ويرى أن نسق السلوك الذى تقيمه هذه الجماعات دون وعى – لا إرادة الأفراد أو التراث الطبقى أو الثقافى أو القومى، وهى مفاهيم غامضة – هو الذى يحدد مسار أفعال

الأفراد. [وعلماء الاجتماع الجدد] يسألون كيف أدت هذه الجماعات إلى تعزيز الاستقرار أو الخلخلة فى المجتمع، ولكن أسلافهم كانوا يسألون إن كانت جماعات معينة قد ساعدت المجتمع على التقدم (ص ٣٢٣).

ثم يضيف أنان إن كيپلنج كان يشبه مؤسسى المنهج الفكرى الحديث فى علم الاجتماع ما دام يعتقد أن إقامة حكومة ذات كفاءة فى الهند تعتمد على قوى السيطرة الاجتماعية [مثل الدين والقانون والعادات والعرف والأخلاق] وهى التى تفرض على الأفراد قواعد معينة، والويل لمن يخرقها (ص ٣٦).

وبناء على هذا المفهوم يقول إدوارد سعيد إن كرايتون كان يفهم هذا حق الفهم، ولذلك فهو يعمل مع المسلمين والبنغاليين والأفغان وأبناء التيبت من دون أن يبدى أدنى استهانة بمعتقداتهم أو اختلافهم عنه، مُرْجعًا ذلك إلى تصويره فى صورة عالم وباحث فى علم الأعراق، ثم يقول إن كرايتون يعمل بالتعاون الوثيق مع كاتب الرواية نفسه "وإذا كان لنا أن نجد وجهة نظر متسقة واحدة فى الرواية تُنسب إلى كيپلنج، فإنها وجهة نظر كرايتون" (ص ٣٧).

ثم يعود سعيد إلى تحليل النظرة الطبقية والطائفية التى تنزل بعض الطبقات (فى إنجلترا) والطوائف (فى الهند) منازل أعلى من سواها، وكيف كان الجميع يشاركون فى هذه النظرة، فى بريطانيا وخارجها، والرواية تحفل بالشواهد على هذه النظرة فى كل تحليل للطوائف التى يصورها المؤلف.

وينتقل إدوارد سعيد فى الجزء الثالث من مقدمته إلى مقارنة كيپلنج بمعاصريه، وخصوصًا بجوزيف كونراد الذى يشترك معه فى رسم أبطال يعيشون فى عالم من المغامرات فى بلدان أجنبية، ويتمتعون بسحر الشخصية الغلاب. ويعدد سعيد أسماء الروائيين الذين شاركوا كيپلنج وكونراد كتابة روايات يقول إنها تنتمى إلى نوع أدبى خاص هو 'المغامرات

والإمـــبـــريالية'، ثم يقول إن هذين العَلَمين يختلفان فى أن رواياتهما جـــديرة بالاهتمام النقدى الجاد لما بها من عناصر جمالية. ويـــشرح ذلـــك قـــائلاً إن عالمهما (وعالم معاصريهما) كان يحفل بالشخصيات البارزة من المستكـــشفين والباحثين "ولكننا نجد فى كتابات كونراد وكيـــپـــلنج 'تعقيدًا' إضافيًا يزيد من اهتمامنا بهما عن كل معاصريهما" (ص ٣٨). ثم يقول إن لنـــا إذا أردنـــا أن ندرك ما يميز هذه الرواية (أفضل رواية كتبها كيـــپـــلنج) أن نـــذكر كبـــار معاصريه الآخرين،

> إننا، لطول ما درجنا على النظر إليه مقترنا بالكاتبين هاجارد وجون بوكان قد نسينا أنه، باعتباره فنانًا، يمكن أن يقارن فعلاً – واســـتنادًا إلى مبررات قوية – بالروائيين توماس هاردى، وهنـــرى چيمـــز، وچورچ ميريديث وچورچ جيسينج، والروايات الأخيرة التى كتبتهـــا چورچ إليوت، وچورچ مور، وصمويل بطلر. وأما فى فرنسا فأقران كيـــپـــلنج هم فلوبير وزولا ، بل وحتى پروست، وچيد فى أعمالـــه الأولى (ص ٣٩).

وينطلق إدوارد سعيد ليقارن بين أبطال بعض هذه الروايات، وخـــصوصًا رواية **چود المغمور** لتوماس هاردى ورواية كيـــپـــلنج الحالية، ثم يوسع مـــن نطاق المقارنة، راصدًا جذور صورة البطل الشريد الجوال الباحث عن ذاتـــه فى الآداب الأوروبية، ثم ينتهى إلى أن هذا اللون الذى بدأ برواية **دون كيخوته** انتهى فى أواخر القرن التاسع عشر إلى تصوير البطل المهزوم، الذى خابـــت آماله وانقشعت أوهامه، فى هذا النوع الروائى الذى يصفه چورچ لوكاتش فى كتابه **نظرية الرواية** بأنه يمثل السقوط من عالم المجد و'التعالى' فى الملحمة. ولهذا يقول سعيد إن كيم أوهارا شخصية روائية بالغة التفاؤل. وينجح كيم فى بحثه عن هوية يستريح إليها فى آخر الرواية. وهو يتفق مع العديد من الأبطال الآخرين فى الروايات الإمبريالية (الذين نقرأ عـــن إنجـــازاتهم فـــى كـــونراد وهاجارد) فى أن أعماله تنتهى بانتصارات لا هزائم. ولا شك أننا ننبهر فـــى الرواية نفسها بصلابته المرنة، وقدرته على التصدى لمواقف بالغة العسر مثل

الاختبارات التى يجريها عليه السيد لورجان. والواقع، كما يقول إدوارد سعيد "أن جانبًا من قوة الصبى يكمن فى معرفته العميقة، ذات المنابع شبه الغريزية، باختلافه عن الهنود من حوله: فَحَوْلَ عنقه تتدلى تميمة خاصة مُنحت له فى عهد الطفولة، وبخلاف جميع الأطفال الذين يلعب معهم، يتمتع كيم بنبوءة تلقاها منذ مولده – وهو ما ينص الكاتب عليه فى مستهل الرواية – نبوءة بأنه مكتوب له مصير فريد... وهو ما يتطور فيما بعد تطورًا صريحًا إلى الوعى بكونه من السادة، أى ذوى البشرة البيضاء، وكلما تأرجح فى مسيرته ذكره أحدهم بأنه من السادة، وأن له شتى الحقوق والمزايا الخاصة بتلك المرتبة المتميزة". (ص ٤٠)

ويستدرك إدوارد سعيد ذلك قائلاً:

> ولكن هذه الحقيقة فى ذاتها لا تمنح الرواية قدرتها الغريبة على الإمتاع وثقة الخطو. فبالمقارنة بهنرى چيمز أو چوزيف كونراد، لم يكن كيپلنج كاتبًا استبطانيًّا ولم يكن – بناء على الأدلة المتوافرة لنا – يرى نفسه فنانًا، كما كان چيمز چويس يرى ذاته، وإنما كانت قوة أفضل كتاباته تنبع من اليسر والطلاقة، ومن ظاهر التزامه بما يبدو طبيعيًّا باعتباره راويةً ومصورًا للشخصيات، حيث تطاول طاقته على التنويع فى ملكته الإبداعية طاقة تشارلز ديكنز ووليم شيكسبير. لم تكن اللغة عنده، مثلما كانت عند كونراد، وسيطًا 'مُقَاوِمًا'، بل شفافة وقادرة على الإيحاء بشتى النبرات والتحويرات الدلالية، من دون جهد يذكر، وكلها تمثل العالم الذى يستكشفه تمثيلاً مباشرًا. وهذا الجانب – على وجه الدقة – من أسلوب كيپلنج هو الذى يمنح كيم حيويته الفياضة وذكاءه اللماح، وطاقته وجاذبيته... (ص ٤١)

وبعد أن يقارن سعيد بين كيپلنج وستاندال، يلمح إلى قدرة كيپلنج على الإيحاء بالجو العام للحدث، وهى القدرة التى كان كولريدچ يمتدحها فى شعر وردزورث، ويتوقف سعيد عند تصوير كيپلنج للسكينة الموحى بها

في مشهد 'شاعرى' أو رعوى ساكن، قائلاً إننا لا نستمتع فقط بالضجيج والحيوية فى طريق العربات السريع، بل أيضًا بالجو الرعوى اللطيف الذى 'يفتح ذراعيه مرحبًا' أثناء سفر كيم واللاما، بعد مقابلتهما للجندى الهرم (فى الفصل الثالث) حين يستلقى الجميع للراحة:

> وترددت أصوات طنين الحشرات التى تجلب النعاس فى ضوء الشمس الحار، إلى جانب هديل الحمام، والأزيز الحالم للسواقى المقامة فوق الآبار عبر الحقول. وجعل اللاما يتكلم ببطء وبأسلوب مؤثر، وبعد عشر دقائق هبط الجندى الهرم من فوق مهره قائلاً إنه يريد أن يحسن الإصغاء، ومازال يربط لجام المهر حول معصمه. وخبا صوت اللاما وطالت فترات توقفه بين العبارات، وكان كيم مشغولاً بمتابعة سنجاب رمادى. وعندما اختفى السنجاب – الذى كان يشبه كتلة من الفراء الملتصقة بالغصن – كان الواعظ والذى يصغى إليه قد راحا فى سبات عميق. فأما رأس الجندى الحليق فتوسد ذراعه، وأما رأس اللاما الأصفر فاستند إلى جذع الشجرة، فبدا مثل قطعة من العاج الأصفر. واقترب من هؤلاء طفل صغير عار يتعثر فى مشيته فحدَّق فى النائمين، ثم انصرف مدفوعًا بإحساس دهمه بالتبجيل، وأبدى ما يدل على أن اللاما رجل ربانى، لكنه كان بالغ القصر والسمنة، فوقع على جانبه، وضحك كيم على ساقيه الممتلئتين المنفرجتين. وأصيب الطفل بالذعر والغضب فصاح بصوت عال.

ويتطرق إدوارد سعيد بعد هذا إلى وصف التناقض بين هذا المشهد 'الفردوسى' و'المشهد الرائع' لطريق العربات العظيم، والذى يمر فيه، كما يقول الجندى الهرم "جميع أنواع الناس وشتى الطوائف... براهمينيون، ودباغو الجلود، ورجال البنوك، والسمكرية، والحلاقون، وصغار التجار، والحجاج، والخزافون! الدنيا كلها رائحة غادية. وهو يمثل فى نظرى نهرًا انسحبت منه فرسوت على شطه مثلما ترسو قطعة خشب بعد الفيضان".

ويتحدث سعيد بعد ذلك عن قدرة كيم على التنكر والتحدث بلغات كثيرة، والتعامل مع المنتمين لشتى الطوائف والأعراق والأديان، ورغم حرص كيپلنج على تحديد أديان وخلفيات كل صبى، يتقمص كيم دوره (المسلم والهندوسى والأيرلندى) فإن كيم يبرع فيها جميعًا، ويبدو أن كيپلنج كان يستند إلى خبرته الخاصة فى التعامل مع هذا الخليط المنوع من الناس واللهجات واللغات، الذى يصفه سعيد قائلاً إنه يشبه 'سفينة نوح' أو 'برج بابل المتعدد الألسنة'، ويبدى إعجابه بمهارة المؤلف (وبطله) فى الدخول والخروج بيسر من هذا كله!

ثم يقول سعيد "ما أشد اختلاف هذا كله عن عالم البورچوازية الأوروبية الكامد غير المتميز الذى لا بريق له" وهو عالم يؤكد كل روائى مهم فى وصفه له أنه ينطق بانحطاط الحياة المعاصرة، وانقشاع كل أحلام المشاعر المشبوبة، والنجاح، والمغامرات العجيبة، ولهذا يعتبر روايات كيپلنج نقيضًا كاملاً لذلك العالم، قائلاً فى النهاية "أفلا يمكن للمرء أن يفعل أى شىء فى الهند، وأن يصبح من يريد أن يصبح، وأن يذهب حيثما يريد بمنجاة من العقاب؟" (ص ٤٣).

وينتقل إدوارد سعيد بعد ذلك إلى عامل الزمن ودوره فى الرواية، بعد الحديث عن اتساع المكان الموحى به اتساعًا شاسعًا، كأنما لا تحده حدود، داعيًا القارئ إلى مقارنة هذه الحرية الزمنية والجغرافية فى هذه الرواية بالضغط الزمنى الشديد "الذى لا يرحم" فى الروايات الأوروبية المعاصرة لها (ص ٤٤). ثم يقول:

> يقول لوكاتش فى **نظرية الرواية** إن الزمن ساخر عظيم، ويكاد يعتبر شخصية فى هذه الرواية، إذ إنه يزيد من دفع بطل الرواية إلى الوهم والخيال، ما دام كر الزمن ينمى الأوهام، ويقلل الاتصال بالواقع، وفى الوقت ذاته يكشف للبطل أن أوهامه جوفاء، ولا أساس لها وذات عبث مرير. أما فى **كيم** فأنت تشعر أن الزمن يقف إلى

جوارك ما دامت جغرافية الهند، فيما أظن - بالنسبة لقارئ أو سائح إنجليزى - ملك يمينك، ولك أن تنتقل فيها حيث تشاء. ولا شك أن كيم يشعر بهذا، وكذلك يشعر العقيد كرايتون، مهما أبدى من الصبر وفى المرات التى يظهر أو يختفى فيها (ص ٤٤).

ويبين إدوارد سعيد مزايا المنهج الجغرافى والمكانى الفريد الذى يفضله كيپلنج على العنصر الزمنى الذى يحكى روايات المدن الأوروبية، وهى مزايا جمالية مؤكدة، مضيفاً أن ذلك يعبر عن حكم سياسى من المحال اختزاله (من جانب المؤلف) كأنما يريد أن يقول "إن الهند ملك أيماننا" ومن ثم نستطيع أن نراها بالأسلوب الذى نختاره، من دون أن ينازعنا أحد أو يطعن فى هذا الحق.

ويختتم إدوارد سعيد مقدمته قائلاً "وهكذا، كما قلت، نرى أن كيم إحدى روائع الأدب الإمپريالى، وأنا أقصد بهذا تفسيرًا لرواية ثرية حافلة، وساحرة بصورة مطلقة، لكنها فى الوقت نفسه تثير الحرج" (ص ٤٥). ثم يكرر الحديث عن استناد المؤلف إلى الإمپريالية فى بناء حبكته الفنية نفسها، ومكررًا ما سبق أن لخصته أو ترجمته ثم يقول فى النهاية:

وهكذا، فنحن نجد اليوم متعة مشروطة فى قراءة رواية **كيم** - على تفاوت شروطها - وهى متعة مشاهدة فنان عظيم، أعمته من زاوية معينة نظراته الخاصة فى الهند فخلطت الحقائق أمامه، وهى التى كان يراها بألوان بديعة وذهن حاد، وجعلته يتصور أن هذه الحقائق دائمة وجوهرية. وكل ما يأخذه كيپلنج ويطبقه من الشكل الروائى يحاول تطويعه ليناسب غايته المُضلِّلة. ومن أعظم مفارقات الفن الروائى، دون شك، أن المؤلف لا يقتصر على عدم تحقيق النجاح الصادق فى هذا التضليل، بل إن محاولته فى ذاتها لاستخدام الرواية فى تحقيق غرضه تؤكد من جديد تميز نزاهته الجمالية، فليست رواية **كيم** - بكل تأكيد - منشورًا سياسيًّا. لقد اختار

كيـــپـــلنج الشكل الروائى للتعبير عن نفسه، واختار بطله كيم أوهارا وسيلة للاشتباك على مستوى أعمق بالهند التى كان كيـــپـــلنج يحبها بوضوح وإن لم يستطع أن يستحوذ عليها كما ينبغى، وذلك ما يجب أن نصر على وضعه نصب أعيننا فى قراءتنا للرواية، فهو وحـــده الكفيل بتمكيننا من رؤية رواية **كيم** باعتبارها وثيقة عظمى للحظتهـــا التاريخية، وكذلك باعتبارها مَعْلَمًا جماليًّا من معالم الطريق المـــؤدى إلى منتصف ليلة ١٥ أغسطس ١٩٤٧ [استقلال الهند]، وهى لحظـــةٌ بَذَلَ أبناؤها جهودًا جبارة لمراجعة إدراكنا لثراء الماضى ومـــشاكله التى لاتزال قائمة (ص ٤٦).

والواضح أننى ركزت على جانب واحد من مقدمة إدوارد سعيد للروايـــة، حتى أحافظ على اتساق الحجة المعروضة، والتى ألمحت إليها فـــى مـــستهل مقدمتى الحالية، ولكن سعيد يتناول قضايا أخرى نعـــود إليهـــا فـــى ســـياقها. والحجة التى أشير إليها تعتبـــر الروايـــة عمـــلاً يتمتـــع 'بجماليـــات' فائقـــة وأيديولوجية عنصرية إمبريالية فاسدة. وسار على نهج ســـعيد كثيـــر ممـــن تعرضوا لهذه الرواية من زاوية نقد أدب 'الاستعمار' و'ما بعد الاســـتعمار'، ولذلك فضلت أن أبدأ بها، ومن أهم من سار على الدرب نفسه، وإن اختلـــف فيما توصل إليه عن سعيد الباحث پـــاتريك ويليامز فى دراسة له بعنوان 'كيم والاستشراق' صدرت فى كتاب عنوانه **إعادة النظر إلى كيـــپـــلنج** (١٩٨٩) كما سبق إدوارد سعيد عدد من كبار الباحثين الذين انتهوا إلى نتـــائج تعتبـــر تنويعات 'علمية' طريفة على منهج التناول الأيديولوجى للرواية، مثـــل چون ماكلور (McClure) الذى ينتهى من دراســـته للروايـــة فـــى كتـــاب عنوانـــه **كيـــپـــلنج وكونراد: أدب الاستعمار** (١٩٨١) (ص ٧٠-٨١) إلى أنها تمثـــل 'حُلمًا' من أكثر أحلام المؤلف ثراءً، وموجز حجته أن كيـــپـــلنج يرسم حلمًا يتمناه لا واقعًا ملموسًا خبره وعاصره، ولذلك فالرواية ذات رؤية متصورة، لا حقيقية للواقع، كما سبق ماكلور الكاتبُ إيرڤنج هاو (Howe) فى دراسة له عن 'المتع' التى يجدها القارئ فى هذه الرواية، على الرغم مما تنضح بـــه مـــن

نظرات إمبريالية وعنصرية، فى الدراسة المنشورة فى كتاب عنوانه **الفن والسياسة والإرادة: مقالات فى تكريم ليونيل تريلنج**، صدر عام ١٩٧٧، كما سبق هذا وذاك نويل أنان فى الدراسة التى نشرها فى دورية **دراسات فكتورية** (١٩٥٩-١٩٦٠) بعنوان "موقع كيپلنج فى تاريخ الأفكار" والتى يدافع فيها عن المؤلف من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث، وهى التى أشار إليها إدوارد سعيد فى مقدمته وعرضتُ لها فى هذا القسم. ولن أشغل القارئ العربى بأمثال هذه الدراسات، ولا بحذلقة الباحث چان محمد (Jan Mohamed) فى الدراسة التى نشرها فى الدورية الأمريكية '**الفحص النقدى**' عام ١٩٨٥ بعنوان "الاقتصاد فى الرمزية المانوية: وظيفة الاختلاف العنصرى فى الأدب الاستعمارى" (ص ٥٩-٨٧) وهى التى يبتدع فيها تصنيفات جديدة لما يسميه 'الأدب الاستعمارى' عن العلاقات بين الحاكم والمحكوم، والصور النمطية للإنسان التى يقدمها هذا الأدب، وإن لم يأخذ بهذه التصنيفات أحد من النقاد المحدثين، بل نقض بعضها أكثر من دارس جاد، فهذه وغيرها تتلاعب بالمصطلح ولا تصل إلى نتائج 'جديدة' بالمعنى المفهوم، وإن انبهر الدارسون بما أسميته 'الحذلقة'، ويكفى أننا نتأمل العنوان الذى اختاره هذا الباحث الأخير لدراسته: ما معنى الاقتصاد فى الرمزية المانوية'؟ (The Economy of Manichean Allegory)

لن ينجلى الغموض إلا بعد قراءة الدراسة (ونُبْتَلَى نحن بقراءة هذه الدراسات، مهما تكن، من باب الأمانة العلمية) فإذا هو لا يعنى أكثر من الإشارة إلى أن المؤلف 'الاستعمارى' يقسم العالم قسمين، شر وخير، وأنه يرمز لهذا التقسيم بأسلوب بارع يتميز بالاقتصاد فى الإيحاء بالدلالات! فإذا انتهينا من قراءة الدراسة لم نجد أفكارًا جديدة نضيفها إلى ما قيل عن الأدب من زاوية نقد 'الاستعمار' و'ما بعد الاستعمار'، كما لن أعرض للدراسات التاريخية المحضة، مثل التى تتناول المواقف السياسية فى أواخر القرن التاسع عشر، أو حتى الدراسات الحديثة التى تتناول الموضوع نفسه من زاوية مختلفة لكنها لا تخرج بنتائج مختلفة، مثل دراسة سارة سوليرى (Suleri) عن

التعليم الاستعمارى فى الرواية، المنشورة فى كتابها الصادر عام ١٩٩٢ بعنوان **بلاغة الهند الإنجليزية**. لكننى سوف أتوقف طويلاً عند دراسة پاراما رُوىْ (Roy) بعنوان"**كيم** وأسطورة الأمة والهوية القومية" المدرجة فى كتاب له بعنوان **المبادلات الهندية: الهويات قيد التساؤل فى الهند إبان الاستعمار وبعده**،أصدره عام ١٩٩٨.

والحجة التى يطرحها رُوىْ جديدة وجديرة بالدرس، إذ تقول إن 'الأمة' لابد أن تُرَى وأن يُقْرأ عنها فى الروايات وفى الصحف، أى لابد لها من تجسيد أدبى (روائى فى أفضل الحالات) قادر على ترسيخ مفهوم الأمة الواحدة، وإن 'حالة' رواية **كيم** تقدم لنا نموذجًا للجهد الواعى المبذول فى بناء كيان الأمة وتعليقًا على هذا الكيان المبنى.

يبدأ رُوىْ دراسته بعبارة مثيرة تقول إن هذه الرواية تجعل قضية الأمة الواحدة قضيتها، أى قضية القومية الهندية، فهى تسعى إلى توليد أسطورة عن الأمة وموضوع الأمة، قبل أن يستعرض دراسة رينان (Renan) العلامة الفرنسى المشهور، التى كتبها فى وقت قريب من أحداث الرواية (١٨٨٢) بعنوان "ما الأمة؟" يقول فيها إن فكرة الأمة من أشد الأفكار تأثيرًا وشيوعًا فى علم السياسة الغربى، لكنه يستبعد بانتظام وبشكل منهجى أية أسس "عقلانية" أو "طبيعية" للهوية القومية'، مضيفًا أن الإحساس بالهوية القومية، أو بناءَ صورة الأمة، لا يستند إلى العناصر التقليدية التى تجمع أفراد شعب من الشعوب، فلا تكفى لبث ذلك الإحساسِ وحدةُ اللغةِ أو الدين أو الجنس أو الجغرافيا أو حتى المشاركة فى المصالح المادية، بل لابد لبناء ذلك الإحساس وصورة الأمة من إرادة جماعية للانتماء إلى أمة معينة، وهى أيضًا إرادة لتحقيق التجانس (أو لتصوره)، مؤكدًا أن ذلك يقوم على أساس ديموقراطى وطوعى باعتباره ثمرة "للاستفتاء اليومى".

ثم يستشهد رُوىْ بكتاب وضعه بنيديكت أندرسون (Anderson) بعنوان **مجتمعات متخيلة** عام ١٩٩١، وهو الذى يقول فيه إن 'الأمة' ليست مبدأ تعالٍ

أو مصالحة بل هى الفكرة الخيالية الكبرى فى السياسة المعاصرة، ويضيف رُوىْ إن علينا أن نستكمل رأى أندرسون بما جاء فى دراسة كتبها أرجون أپادوراى (Appadurai) عام ١٩٩٣ بعنوان "الوطنية وضروب مستقبلها" ويقول فيها إن القومية فى جوهرها نتاج ثقافى، ثمرة من ثمار المخيلة الجماعية. ثم يقول رُوىْ:

من المحال وضع تعريف موضوعى للأمة، أو تصور وجود أمم أصيلة أو غير أصيلة، فالأمة "مجتمع متخيل" يمكن أن يدل على أى معنى يريد أفراد هذا المجتمع أن يدل عليه. وكلمة "متخيل" هى الأساس، لأن أندرسون يقول إن فكرة الأمة باعتبارها مبدءًا سياسيًّا قد تشكلت تاريخيًّا من خلال صور معينة من التمثيل، وأهمها القص الخيالى والصحافة المطبوعة. (ص ٣٩٤ نورتون)

ثم يستشهد رُوىْ بكتاب آخر بعنوان **الأمة والسرد** حرره جيف بننجتون (Benington) ويقول فيه إنه لابد من السرد لوجود فكرة الأمة، فهذه تحتاج إلى قصة روائية سردية خيالية – وهى بالضرورة دائمًا خيالية – لتحديد شرعية هذه الفكرة وضمان استمرارها. ومن هذا كله ينتقل إلى رواية **كيم** قائلاً إنها تقدم لنا أعظم إيضاح مثمر وتعليق على بناء فكرة الأمة وكيانها نفسه.

وبعد أن يروى الباحث طرفًا من حياة كيپلنج، على نحو ما سبق لى إيراده، يقول إنه عندما استقر مع عروسه فى أمريكا وشرع يكتب روايته العظيمة عن الهند بعد رحيله النهائى عن البلد الذى ولد فيه وقضى فيه طفولته الأولى، كان يكتب عنها من الخارج، باعتباره منفيًّا (وفى لحظة معينة كان منفيًّا من الهند ومن إنجلترا معًا). ويقول الباحث إنه سوف يقيم الدليل على أن ذلك الموقع البعيد – على وجه الدقة – هو الذى أتاح له أن يتصور "أُفقًا قوميًّا للحيز الجغرافى الذى يُطلق عليه اسم 'الهند' واسم 'المستعمرة' فى آن واحد. والواقع أن هذا الابتعاد المكانى أيضًا، والإحساس بالهند ككيان كُلِّىٍّ نتيجة لهذا

البعد، هو الذى يجعل الرواية توحى بضخامتها إن لم أقل بنكهتها الملحمية المميزة" (ص ٣٩٦).

وفى عرضه لهذه الحجة يبدأ الباحث بإقامة الدليل على فكرة 'الحدود' التى تلزم لكل صورة من صور الأمم، مبينًا أن الشخصيات الرئيسية تنتمى لمناطق تثير الإحساس بالحدود، فاللاما من التيبت، ومحبوب على من أفغانستان، وأما الشخصية الثالثة – هورى البنغالى – فلا يوحى بحدود جغرافية بل بحدود سياسية وأيديولوجية (وكذلك بالمركزية) فى 'الخطاب الاستعمارى'. ويضيف الباحث أن أحداث الرواية أيضًا تقع على الحدود الخاصة 'بالأمة'، فالأحداث لا تقع فى أواسط الهند أو جنوبها، على الرغم من أن كيم يسافر حتى بومباى، وكذلك فيما يبدو يفعل اللاما، ولكن معظم الأحداث تقع فى شمال الهند أى فى لاهور، وفى أمبالا، وفى الجبال التى تمثل نقاط الوصل والفصل بين الهند وجيرانها فى الشمال، وغير ذلك من الدول الإمبريالية. ولا شك أن هذه البقاع كانت مألوفة لكيبلنج، ولكن الأهم من ذلك أنه لابد من بناء الهند من حيث حدودها حتى يمكن الإيحاء بصورة الأمة الكلية، أى لابد من الإيحاء بوجود حدود حتى ينجح بناء المركز. ويستشهد الباحث بما قاله هومى بابا (Bhabha) فى دراسة له بعنوان "الانتشار" (DissemiNation) (وهو يتعمد كتابة حرف 'N' كبيرًا للإيحاء بالأمة) من أن وضع الحدود يمثل قلب الفكرة القومية نفسها.

وينتقل الباحث بعد ذلك إلى القول بأن السفر والترحال يسهم فى "خلق الأمة" فى هذه الرواية بأدق معنى من معانى الكلمة، مستشهدًا مرة أخرى بأندرسون المذكور، إلى أن يقول إن رمزية الحج فى الرواية – الحج بلا مقصد محدد – تساعد فى تجسيد وإبراز شكل الأمة، مضيفًا جملة اعتراضية تقول إن نهر السهم مثل فكرة الأمة ذو طابع أسطورى باطنى، ومن ثم يستلزم السفر إلى كل مكان.

ثم يطرح الباحث سؤاله الجوهرى: "إذا كان لابد لإيجاد الأمة من التحايل

والملاطفة وإذا كانت فكرة الأمة غير أصلية بل مستوردة فى جميع الأحوال، فمن الذى أو ما الذى يشكل 'موضوع' الأمة؟ هذا سؤال بالغ الحساسية فى الرواية". (ص ٣٩٨) ويعلق الباحث عليه قائلاً إنه يرى فى التصدى لهذا السؤال الجدلية المضمرة لكيپلنج مع فكرة القومية (الهندية). فإذا كان مشروع القومية يقتضى تحديد مكان الذات المحلية والذات الأجنبية ووضع اسم لكل منهما، فإن على كيپلنج أيضًا أن يقوم بذلك التمييز، مضيفًا:

> يقول چون ماكلور إن مشروع هذه الرواية إضفاء الجنسية (الهندية) على الرجل الإنجليزى فى الهند، أوعلى الأقل 'تطبيع' السيطرة البريطانية على الهند. كيف يمكن تصوير الحكم على أنه شيء آخر؟ كيف يمكن للمرء أن ينتمى ولا ينتمى فى آن واحد؟ تقول حجتى إن هذا التوكيد قد نُقل مكانه، دون مبالغة، فى الرواية، فهى ذات غاية وتأثير أشد طموحًا بكثير من غيرها من الروايات التى تتناول الهند. فإن كيپلنج كان يرى أن الإنجليزى الذى تربى (وولد؟) فى الهند ذو شخصية لا تقبل التعارض بين العنصرين (الهندى والإنجليزى) فيه، بعد أن اختلطا وذابا فيه فأصبح ذا كيان جديد (ص ٣٩٨).

وهكذا فإن الأرملة الوقور (التى توفى زوجها الملك الهندى) تقول عن الإنجليزى ستريكلاند ومن لفَّ لَفَّهُ "هذا من نوع الرجال الذين يعرفون الإشراف على العدالة: إنهم يعرفون البلاد وعادات البلاد. وأما الآخرون الذين قدموا لتوهم من أوروبا، وأرضعتهم أمهات بيضاء وتعلموا لغاتنا من الكتب، فهم أسوأ من الطاعون. إنهم يسيئون إلى الملوك". ويعبر كيم أيضًا عن رضاه عن الصبيان 'الأنجلوهنود' الذين يشاركهم 'الوطن' فى مدرسة القديس خاڤيير:

> كانت قصص مغامراتهم فى ذاتها – التى لم تكن تعتبر فى نظرهم مغامرات – فى طريق ذهابهم إلى المدرسة وعودتهم منها، كفيلة بإيقاف شعر رأس أى صبى غربى... وكانت كل قصة تُرْوَى

بصوت منتظم الإيقاع لا انفعال فيه، وهو ما يتميز به من ولد في هذا البلد، وكانت تمتزج بتأملات عجيبة، مستعارة دون وعي من حديث الحاضنات من نساء البلد، وبعبارات تبين أنها قد ترجمت في تلك اللحظة من اللغة المحلية الدارجة. وشاهد كيم، وسمع، وشعر بالرضى، لم يكن ذلك من نوع الكلام الغث الذى يتكون من ألفاظ مفردة فى أفواه صبيان الطبل.

ويستشهد الباحث مرة أخرى بأندرسون قائلاً إنه إن كان يتكلم عن الأمة باعتبارها مجتمعًا متخيلاً فإن كيپلنج يتكلم عن المستعمرة بالألفاظ نفسها، ما دامت الرواية تتصدى لتصوير المستعمرة فى صورة الأمة. ويضيف قائلاً إن 'الأنجلوهندى' هو الذى ينبرى كيپلنج لتصويره باعتباره من أفراد الرعية 'القومية' الأولى، وهو الذى يميز تمييزًا دقيقًا بينه وبين الإنجليزى الذى يمكن أن يقال إنه "يختار" الهند بأسلوب غير متاح لابن البلد.

ويشير الباحث إلى ما قاله ب.ج. مور-جلبرت (Moore-Gilbert) فى كتابه عن **كيپلنج والاستشراق** (١٩٨٦) ثم يقول إن 'الأنجلوهنود' مثل كيم وستريكلاند، وربما مثل كرايتون ولورجان (وبطبيعة الحال مثل كيپلنج نفسه) ممن ولدوا ونشأوا فى الهند ويتمتعون فى الرواية بقدرة أبناء البلد على الحديث باللغة المحلية، بعد أن استوعبوا ثقافة أهل البلد، ينتمون إلى 'نوع' مختلف تمام الاختلاف عن الإنجليز 'الأجانب' المحتقرين، الذين كانوا يتسمون بالخُرْق والتعصب والجهل بحيث وجد كيم ما يبرر احتقارهم. وهنا يبدى الباحث ملاحظة بارعة يتجاهلها أو يتحاشى التركيز عليها معظم الكتاب الأوروبيين والأمريكيين لسبب ما، ألا وهى أن كيم أيرلندى. وهذه صفة عرقية قومية كانت كثيرًا ما تتطابق مع الهنود، وتتفق فى كثير من الحالات مع القومية الهندية. ويضرب الباحث أمثلة لا حصر لها (فى هامش ص ٤٠١) للأيرلنديين المتعاطفين مع القضية الوطنية الهندية، مستشهدًا بآراء باحثين وعلماء أوفوا الموضوع حقه من الدرس والتمحيص.

ويناقش الباحث بعد ذلك الدور المنوط باللعبة الكبرى فى خلق هذه القومية الهندية أو الأنجلوهندية ما دامت ترسم صورة للهند كلها باعتبارها مجالاً مُوَحَّدًا تدور فيه الأحداث، والأسفار، والمبادلات التى لابد أن تتواصل بلا انقطاع باعتبارها رمزًا لوحدة الأمة. وإذا كان 'الأنجلوهنود' هم الآباء المؤسسين والممثلين للأمة الهندية فكيف يضمنون ويدعمون و'يعيدون إنتاج' هذا الطابع الهندى؟ وما الذى يكفل قدرة طابعهم الهندى على الإقناع ويحول دون الطعن فيه؟ وما هى الطقوس التى يتطلبها الانتماء إلى الأمة والمؤسسة القومية التى تسمى اللعبة الكبرى؟ ويجيب رُوىْ على هذه الأسئلة قائلاً إن المحاكاة والتنكر والمبادلات تنهض بدور أساسى فى اللعبة الكبرى: تبادل الرسائل والمعلومات، وتبادل الملابس، ومحاكاة الهويات "الهندية" (والهويات "الإنجليزية"/ "الأنجلوهندية"). ولابد أن يستمر إجراء هذه المبادلات، ومن المفارقات أن يصبح هذا التنقل المتواصل ما بين الهويات ضروريا لتثبيت الهوية/ الصفة الهندية. ثم يشير الباحث إلى أن شتى المقابلات بين أفراد اللعبة الكبرى تعتمد فى تنظيمها على سيميوطيقا ارتداء الملابس وخلعها. وليس من المستغرب أن يشعر كيم بأقصى درجات الزهو فى الرواية عندما ينجح فى تحويل العميل المنتمى إلى طائفة مهراتا إلى رجل من طائفة ساذو. يقول كيپلنج:

> كان كيم قد تلقى التدريب على يد السيد لورجان، ولم يكن أ-٢٣ ممثلاً يستهان ببراعته. ففى مكان التاجر المرتعد المنكمش الخائف الذى يقبع فى الركن، ظهر رجل من طائفة ساذو، شبه عار، ملطخاً، بالرماد، وعلى جسده الخطوط البنية، وشعره بلون التراب. وكانت عيناه المنتفختان... تبرقان وتسطعان بالوقاحة والشهوة الحيوانية.

ويعلق الباحث على ذلك قائلاً إن هذا أروع إنجاز يحققه كيم، إذ استطاع من خلال تمثيله وإخراجه إبداع شخصيتين فى آن واحد: الأولى شخصيته هو نفسه باعتباره 'التلميذ' ذا الطاقات السحرية، والثانية شخصية أ-٢٣ باعتباره فردًا من طائفة ساذو، نصف عار! وهذه السلسلة من تقمص الشخصيات والأدوار تنتج وتعيد إنتاج الرباط الوثيق بين الإخوان فى اللعبة الكبرى.

ويقول رُوْى إن إقامة الدولة القومية، كما أشار إلى ذلك عدد كبير من الباحثين، تستند عادة إلى تهميش النساء باعتبارهن شخصيات رمزية، والصورة 'المجازية' لها هى أنها جماعة إخوان بلا 'عواطف'، أو كما يقول جوناثان جولدبرج (Goldberg) "وحدة مثالية بين الرجال". وتتولد المواطنة والانتماء إلى أمة، ويتدعمان، فى هذه الدورة اللانهائية من المبادلات والقيام بأدوار أشخاص أُخر فيما بين الرجال 'الأنجلوهنود' وغيرهم من الهنود.

وهنا يتساءل رُوىْ هل الأمة مؤنث أم مذكر؟ ويجيب قائلاً إن نموذج الأم التى تمثل الوطن والأمة مألوف فى القومية الهندية وغيرها من القوميات، فالمرأة تغدو ممثلة للأمة، والثقافة، وطهرها ونزاهتها وعزلتها هى المفاهيم التي تشغل موقع الصدارة فى الكفاح، وهو ما يتطلب بطبيعة الحال تشريعات على حساب المرأة. وأيديولوچيا البعث الثقافى ترتدى قناع "القومية الراديكالية" فالنساء رموزٌ مُبَجَّلَةٌ للعمل الجماعى فى سبيل "الخلاص القومى" الذى ينهض بالدور النموذجى المتوقع للقومية الجديدة المضاهية للأسرة الأبوية. فالنساء – باعتبارهن حاملات الثقافة – مثلن ويمثلن الأمة، التى لابد من إنقاذها وبعثها، ولكنهن قد اتسمن بعلاقة تعارض مع الأمة، ما دام على الأمة أن تقمع الاختلاف الداخلى حتى تستطيع أن ترى ذاتها فى صورة الكيان الواحد المتماسك.

ويتساءل رُوىْ من جديد "إذا كانت المواطنة متاحة فقط للرجال وفيما بينهم، فما العلاقة بين الرجال والنساء فى هذه الصور الممثلة للأمة؟" مضيفاً إن تهميش النساء فى رواية **كيم** قد لاحظه أكثر من قارئ واحد، ويقول إدوارد سعيد عن ذلك:

> إنها رواية ذكورية بصورة طاغية... فعدد النساء فى الرواية قليل جدًّا بالمقارنة بالرجال، وكلهن منحطات بصورة ما أو غير ملائمات للفت أنظار الذكور... ويعتقد كيم أن التعرض للمضايقات الدائمة من جانب النساء يعوق ممارسته للعبة الكبرى، فمن الأفضل أن يلعبها

الرجال وحدهم. وهكذا فنحن فى عالم ذكورى يهيمن عليه الترحال، والتجارة، والمغامرة، والتآمر، كما إنه أيضًا عالم عازب، يتفادى أو يتجنب ويكاد يتجاهل قصص الحب الشائعة فى الروايات وشرعة الزواج الدائم المستقر (ص ١٢ من **المقدمة**).

ويعلق رُوىْ على ذلك قائلاً إن النساء فى الرواية يُحْرَمْنَ حتى النهوض بدور رمزى فى إنجاب/ تكاثر الأمة، مضيفًا أن شتى ألوان 'الخطاب القومى' المألوفة فى الهند إبان القرنين التاسع عشر والعشرين، كان لابد أن تتخيل الأمة فى صورة أم عظمى – الهند الأم – باعتبار ذلك مقدمة لأى تصور 'لأبناء الوطن'، ومشيرًا إلى أن ذلك ما يفعله سلمان رشدى فى روايته **أطفال منتصف الليل** (١٩٨١) وإن كانت صورة الأم تتحول فى آخر الرواية إلى وحش ('أمنا الغولة') ويصبح ذلك الوحش الأرملة إنديرا غاندى التى تلتهم أطفالها.

ويقول رُوىْ إن رواية **كيم** تستبق الإيحاء ببشاعة صورة الأم، أو الأنثى، بكل تأكيد، فالرواية تحاول باستماتة أن تمحو صورة الوطن الأم. وكيم نفسه لا يفصح عن أى اهتمام بأمه المتوفاة أو بالمرأة الأوراسية (الأوروبية الآسيوية) التى كانت تشغل مكان الأم بالنسبة إليه حتى بلغ سن المراهقة، ويضيف رُوىْ قائلاً:

> وهذه الأخيرة تمثل الحقيقة البشعة الخاصة بالعلاقات الجنسية ما بين الأجانب والهنود، والتى لابد لكيم أن يبدى 'الحشمة' ويتغاضى عنها، بل ربما كانت هذه العلاقات أحد أسباب وفاة الوالد. ويبذل كيم طاقاته فى التعلق بآباء حقيقيين ورمزيين على امتداد الرواية كلها: محبوب على، وكرايتون، ولورجان، وهورى البنغالى، فكلهم يتنافسون منافسة حامية بعض الشىء للاستحواذ على وقته والظفر بولائه. هل أُلغيت صورة 'الهند الأم' إذن من المخيلة الأنجلوهندية القومية؟ أعتقد أنا أن نموذج الأم قد أُزيح بطرائق عديدة، ولو كانت

فى الرواية أية صورة إيجابية من صور الأم على الإطلاق – صورة يمكن أن يقال إنها تمثل الهند الأم الصالحة تمثيلاً جزئيًّا – فإنها صورة اللاما. فهو يستبق من عدة زوايا طريفة الصورة الخنثوية لغاندى، الذى كان يشغل كذلك موقعًا يجمع بين الرجل والمرأة، خصوصًا فيما يتعلق بخطاب القومية. (ص ٤٠٤-٤٠٥)

ويستعرض رُوىْ بعد ذلك وجوه اعتماد كيم على النساء فى أداء خدمات متعددة خصوصًا فى آليات التنكر اللازمة لإنشاء الوعى بالأمة الواحدة. ويتعرض كيم لغواية الكثيرات فى الرواية ولكنه لا يضاجع أية امرأة، ويقول كيم فى نفسه "كيف يستطيع المرء أن يتبع **الطريق** أو يلعب اللعبة الكبرى ما دام يتعرض للإزعاج دائمًا من جانب النساء؟ جاءت أولاً فتاة 'أكرولا – المخاضة'، وتلتها زوجة مساعد الطاهى خلف برج الحمام، إذا لم نحسب الأخريات... عندما كنت طفلاً لم يكن فى ذلك بأس، لكننى غدوت الآن رجلاً ولا يردن اعتبارى رجلاً!" ويبلغ هذا الموقف ذروته فى صده لامرأة شملة. ويختتم رُوىْ هذا الفصل الطويل من كتابه قائلاً:

من الجدير بالذكر، بطبيعة الحال، عدم ظهور أى امرأة أنجلوهندية أو إنجليزية، سواء كانت أما أو عاهرة أو مواطنة (فى طور التكوين)، فى هذا النموذج الخاص بتكوين الأمة، والواقع أنهن لا يجدن مكانًا فى الرواية على الإطلاق. فما التحويرات الجديدة المتراكمة فى هذا التعريف الجديد لكيان الأمة؟ إن النساء (بما فى ذلك الأمهات) يجمعن، كما رأينا، بين اللزوم وعدم اللزوم فى بناء شكل المواطنة وتطويره، وهن يتسببن فى قلق معين فى تصور الرواية لدولة قومية بديلة. إذ إن محاكاة الهويات المختلفة فى الرواية تمنع نموذج قيام الأمة استنادًا إلى الإنجاب والتكاثر الذى تمثله الأم من التجسد، فى حين تواصل هذه المحاكاة بناء الأمة. وما دامت الهند غائبة، فلابد أن يواصل الرجال الذين يريدون أن يصبحوا هنودًا محاكاتهم وتمثيلهم (ص ٤٠٥-٤٠٦).

والواقع أن الناقد الوحيد الآخر الذى يتعرض لصورة المرأة فى الرواية هو پاتريك ويليامز الذى ذكرت عنوان دراسته عَرَضًا فى مستهل هذا القسم، وأجد من الغريب ألا تنقض النساء المولعات بهذه القضية على الرواية تحليلاً وشرحًا، ولكن معظم كبار الدارسين (حتى النساء منهم) تشغلهم قضية الإمپريالية والتفوق العنصرى إلى الحد الذى يجعلهم لا يكادون يولون غيرها ما يستحقه من اهتمام.

وبعد فأظن أننى تعرضت لأهم الاتجاهات الحديثة فى نقد الرواية، ولم يبق أمامى إلا أن أقدم الملاحظات الختامية التى يدلى بها بلير أ. كلنج، المؤرخ المعاصر، عن موقع الرواية فى عالمنا اليوم، فدراسته حديثة (٢٠٠٢) وجديرة بالاقتطاف المطول. يقول كلنج:

> إلى جانب القيمة الأدبية لرواية كيم، أجد أنها تزيد من فهمنا لتاريخ الهند الحديث بتصوير نكهة الحياة فى شمال الهند فى أواخر القرن التاسع عشر. إننا نقرأ تصويره لطريق العربات العظيم، ولعاصمة الهند الصيفية 'سيملا'، وحديثه عن الخوف من الروس المنتشر بين المسؤولين البريطانيين فى الهند، والعلاقات ما بين المسلمين والهندوس فى الأيام السابقة للصراع الطائفى، والجيش الهندى، والسفر بالقطار، والفلسفة والأخلاق البوذية، والعلاقات العنصرية، ونظام المدارس الخاصة، وما يزيد عن ذلك كثيرًا، وهو ما يساعدنا على تخيل الحياة فى الإمبراطورية الهندية فى أوجها. وما لا يذكره كيپلنج فى 'حكايته' لا يقل أهمية عما يذكره، إذ إن المسكوت عنه يكشف أوجه القصور فى الرؤية البريطانية للهند. وعندما تشهد تصويره الكاريكاتورى لرجال الدين المسيحى، والبنغالى المتشبه بالغربيين، وشتى الأوغاد، وتاجر الخيول الأفغانى، والكاهن البراهمينى، والجاسوسين الفرنسى والروسى، تخرج بلمحات عن مواقف البريطانيين فى الهند تجاه من كانوا يعيشون فى وسطهم.

وتُعلِّمنا رواية **كيم** درسًا آخر وهو أن المشكلات على حدود الهند الشمالية والشمالية الغربية مشكلات دائمة وعميقة الجذور. وتبدو لنا صراعات اليوم 'تنويعات' على الصراعات التى تناقشها **كيم**. واللعبة الكبرى نفسها ذات أصداء تتردد فى ضروب الصراع على السلطة والمعارك الحربية بين الهند وباكستان حول كشمير. فأما باكستان التى تواجه الهند شرقًا وأفغانستان غربًا فتلعب دورى روسيا وبريطانيا معًا. والمقاطعة الحدودية الشمالية الغربية القديمة وبلوخستان، اللتان أصبحتا اليوم جزءًا من باكستان، يسكنهما رجال أشداء ذوو فطنة مثل محبوب على، وكذلك رجال القبائل المستقلة الذين يساندون الحركات الانفصالية. ولاتزال أفغانستان من الدول المتاخمة المثيرة للمتاعب، وهى تخضع حاليًا لسيطرة حركة طالبان الإسلامية الأصولية المشاغبة، وهى التى استولت على السلطة من الحكومة المعتدلة الموالية لروسيا. ولاتزال روسيا نفسها ترسل جنودها إلى حدودها الجنوبية، محاولة الحفاظ على سلامة الإمبراطورية التى ورثتها من القياصرة من خلال الاتحاد السوفييتى. وفى محنة الدلاى لاما تذكير غريب لنا باللاما صديق كيم، وجماعته اللاجئة فى ذَرمَسالا قريبة من المنطقة الواقعة شمال سيملا، حيث اكتشف كيم واللاما وهورى شوندر موكرچى الدخيلين الأجنبيين وأحبطوا سعيهما.

وربما يكون من أسباب رواج رواية **كيم** وإقبال الناس عليها، إلى جانب أسلوبها المُحكم والقصة الشائقة، أنها تثير صورة الإمبراطورية المفقودة... فالرواية ترسم صورة زمن جميل، قبل تلوث طريق العربات العظيم بأبخرة الديزل، وقبل أن تتسمَّم الأنهار المقدسة بالنفايات الصناعية، وقبل أن تُقْطَعَ أشجار الغابات على سفوح جبال الهيملايا، وتُلَوِّثَ الجَوَّ انبعاثاتُ المصانع، وعندما كان عدد سكان الهند ٢٥٠ مليون نسمة، بالمقارنة بنحو مليار اليوم. ففى

أيام كيم كان المرء يستطيع أن يسافر دون قيود عبر طول مناطق الهند الشمالية من الحدود الشمالية الغربية حتى كالكتا. وأما اليوم فالمنطقة مقسمة بين الهند وباكستان، والجنود المسلحون يواجه بعضهم بعضًا على طول خطوط الحدود الموحشة. والبقاع التى كان يعيش كيم فيها فى وفاق مع أصدقائه المسلمين والهندوس، أصبحت تعج اليوم بالعداوات الطائفية وبها ندوبٌ تحمل ذكريات آلاف اللاجئين الذين راحوا ضحية المذابح فى إبان تقسيم الهند فى وقت حصولها على الاستقلال عام ١٩٤٧.

لقد نجح كيپلنج نجاحًا يفوق أى كاتب آخر فى رسم صور حية للهند بما فيها من قرويين عاديين، وتجار خيول، وحجاج، وربانيين، وأصحاب الأموال فى الريف، ولصوص، وشحاذين، وخدم، وغلمان مشاغبين، ومسافرين فى طريق العربات العظيم إما على أقدامهم أو فى عربات الدرجة الثالثة بالقطارات، وجندى هرم كان يخدم فى صفوف الهنود بالجيش البريطانى. لقد أصبحت حياة أمثال هؤلاء البسطاء ومنجزاتهم تقع فى قلب اهتمامات البحوث التاريخية الحديثة فى إطار ما بعد الاستعمار ومناهضة الإمبريالية، فى السنوات الأخيرة. ومن المفارقات أن أستاذ فن القص الإمبريالى يكتب بتعاطف وحب للناس البسطاء الخاضعين للحكم البريطانى بأسلوب يندر أن يدانيه المؤرخون (ص ٣٠٨-٣٠٩).





الفصل الأول

يا مَنْ سَلَكْتُمُ الطَّرِيقَ الضَّيِّقَ الأَمِينْ

وبالضِّيَاءِ من 'طُوفيتْ' حتى البَعْثِ تَهْتَدُونْ

تَلَطَّفُوا إذا رَأَيْتُمُ الكُفَّارَ عَابِدِينْ

بُوذَا هُنَاكَ فى كَمَاكُورا!

(بوذا فى كماكورا)

كان يجلس – متحديًا أوامر البلدية – فوق المدفع الكبير المسمى 'زمزمة'، والقائم فوق قاعدته المبنية من القرميد فى مواجهة 'بيت العجائب'، وهو الاسم الذى يطلقه الأهالى فى مدينة لاهور على متحف المدينة. كان من يملك 'زمزمة' – 'ذلك التنين الذى ينفث النيران' – يملك مقاطعة البنچاب بأسرها، إذ كان ذلك المدفع البرونزى الأخضر العظيم أولى غنائم الحرب التى يفوز بها دائمًا كل من يستولى على تلك المقاطعة.

كان كيم يرى بعض ما يبرر ما فعله، حين أنزل غلام 'لالا ديناناث' من مقعده فوق فَوَاصِلِ المدفع فى عربته، ما دام الإنجليز قد استولوا على البنچاب، وكيم إنجليزى. وعلى الرغم من أن الشمس قد صبغت بشرة كيم بسمرة تضاهى سمرة الأهالى، وعلى الرغم من أنه كان يتحدث اللغة المحلية عمدًا، ويتحدث لغته الأم بأنغام مُرَخَّمةٍ قلقة، وعلى الرغم من اختلاطه بمشاعر المساواة الكاملة مع الصغار من صبيان السوق، فإن كيم كان أبيض، بل كان فقيرًا أبيض ومن أفقر الفقراء. وأما المرأة التى كانت ترعاه فكانت من طائفة مختلطة (كانت تدخن الأفيون، وتتظاهر بأن لها حانوتًا تبيع فيه الأثاث المستعمل فى الميدان الذى تقف فيه سيارات الأجرة الرخيصة) وكانت تقول للمبشرين إنها خالة كيم، ولكن أمه كانت مربية فى أسرة ضابط إنجليزى برتبة عقيد، وتزوجت كيمبول أوهارا، الذى كان رقيبًا فى الجيش، فى فرقة أيرلندية

تسمى الفرقة الجوالة. وبعدها عمل فى مقاطعة السند، ثم الـبـنـجـاب، ثم فى السكة الحديدية فى دلهى، ثم عادت فرقته إلى بلادها وتركته. وتوفيت زوجته بمرض الكوليرا في مدينة 'فيروزپور'، فأدمن أوهارا الشراب والتجوال بصحبة طفله من مكان لمكان، ولم يكن طفله ذو البصر الثاقب قد تجاوز الثالثة من عمره. وكان رجال الجمعيات ورجال الدين يساورهم القلق على مصير الطفل ويحاولون اللحاق بوالده، ولكن أوهارا كان دائم التنقل حتى صادف امرأة تتعاطى الأفيون واكتسب تلك العادة منها، ثم مات ميتة الفقراء من ذوى البشرة البيضاء فى الهند. وكانت تركته عند وفاته تتكون من ثلاث ورقات. كانت الأولى هى التى أطلق عليها "الثابت دائمًا" – وهى شهادة انتمائه إلى الجمعية الماسونية – لأن تلك العبارة كانت مكتوبة تحت توقيعه على الورقة. وأما الورقة الثانية فكانت بمثابة "إخلاء طرف"، فهى التى تُعْطَى لعضو الجمعية الماسونية قبل انتقاله إلى مكان آخر. ولم تكن الورقة الثالثة سوى شهادة ميلاد كيم. وكان يقول فى ساعات انتشائه بالأفيون إن هذه الأوراق الثلاث تكفى لتنشئة كيم حتى يبلغ مبلغ الرجال. كان على كيم أن يحتفظ بهذه الأوراق مهما تكن الظروف، إذ إنها كانت تنتمى إلى ما يسمى بالسحر العظيم، وهو السحر الذى يمارسه الرجال فى المبنى الواقع خلف المتحف، والذى يسمى منزل السحر، وكان مبنى ضخمًا يجمع بين اللونين الأبيض والأزرق، وكان اسمه يشير إلى مقر الجمعية الماسونية. كان الوالد يقول إن الأحوال سوف تتحسن آخر الأمر بحيث يعلو 'قرن' كيم بين عُمُدٍ هائلة، وهى عمد الجمال والقوة. كما كان يرى أن العقيد نفسه، على صهوة جواده، وعلى رأس أعظم فرقة عسكرية فى العالم، سوف يأتى إلى كيم، ذلك الصغير الذى كُتب له أن يتفوق على والده. وكان يرى أن أفراد الفرقة التسعمائة، الذين كانوا شياطين من الطبقة الأولى، وربهم ثور أحمر فى حقل أخضر، سوف يأتون إليه، ما داموا لم ينسوا أوهارا، ذلك المسكين الذى كان يقود عصبتهم فى فيروزپور. وكان أوهارا يبكى آنذاك بكاءً مُرًّا فى مقعده

الخيزران المكسور فى الشرفة. وهكذا فبعد وفاته قامت المرأة بإعداد تميمة من الجلد وضعت فيها الأوراق الثلاث (كانت الأولى من الرق والثانية والثالثة من الورق) وعلقت التميمة فى رقبة كيم.

وقالت المرأة وقد واتتها ذكرى مشوشة لما تنبأ به أوهارا "سوف يأتيك يومًا ما ثور أحمر عظيم فى حقل أخضر، والعقيد على صهوة جواده الهائل" – ثم تحولت إلى الإنجليزية قائلة "وتسعمائة شيطان".

وقال كيم "نعم. سوف أذكر ذلك. ثور أحمر وعقيد على صهوة جواد، ولكن والدى استبق ذلك بقوله إن رجلين سوف يأتيان قبل ذلك لتمهيد السبيل. ذلك ما قال أبى وأكد حدوثه فى كل حال، وهو ما يحدث دائمًا عندما يمارس الناس السحر".

لو كانت المرأة قد أرسلت كيم إلى منزل السحر المحلى بهذه الأوراق لتولى أمره بطبيعة الحال أصحاب المنزل فى ذلك الموقع وأرسلوه إلى منزل اليتامى الماسونى فوق التلال. ولكنها لم تكن تثق فيما تسمعه عن السحر. وكان كيم أيضًا يعتنق آراء لا يشاركه أحد فيها. وعندما وصل إلى سن النزق، تعلم أن يتجنب المبشرين وذوى البشرة البيضاء والمظهر الجاد الذين يسألونه عمن يكون وعما يفعل. فلم يكن كيم يحقق نجاحًا باهرًا فى أى شىء يفعله. صحيح أنه كان يعرف مدينة لاهور الرائعة ذات الأسوار، من بوابة دلهى إلى خندق الحصن الخارجى، وكان وثيق الصلة برجال يعيشون حياة أغرب من أى شىء حلم به هارون الرشيد، وكان يحيا حياة طليقة مثل الحياة التى تصورها **ألف ليلة وليلة**، ولكن المبشرين وأمناء الجمعيات الخيرية لم يكونوا يدركون جمال تلك الحياة. كانت كُنيته فى كل مكان "**الصديق الصغير للعالم كله**"، ولما كان يتمتع بالمرونة وخفة الحركة كان كثيرًا ما يقوم بمهام ليلية فوق أسطح المنازل استجابة لما يريده الشبان المهندمون المتأنقون من أتباع 'الموضة'. كان ذلك يندرج فى عداد الأحابيل والمكائد بطبيعة الحال، وكان يدرك ذلك إدراكه لشتى ضروب الشر منذ أن استطاع الكلام، ولكن مصدر

حبه إياها كان ممارسة اللعبة فى ذاتها، من التسلل الخفى فى الطرقات والحارات المظلمة، إلى تسلق أنابيب المياه، ومشاهدة النساء وسماعهن فى عالمهن فوق أسطح المنازل المنبسطة، والفرار قفزًا من سطح منزل إلى سطح منزل آخر، مختبئًا عن العيون فى ظلمة الجو الحار. وإلى جانب ذلك كان يستهويه النُسَّاك، وكانوا يسمون 'الفقراء'، بوجوههم التى يلطخها الرماد، فى صوامعهم المبنية من القرميد فى ظل الأشجار على شاطئ النهر، وكان يعرفهم خير المعرفة ويلقى عليهم التحية عندما يعودون من جولات التسول، وكان فى غيبة الرقباء يشاركهم الطعام من الصحفة نفسها. وكانت المرأة التى ترعاه تصر باكية على أن يرتدى ملابس أوروبية: سروالاً وقميصًا وقبعة مهترئة، ولكن كيم كان يستسهل ارتداء ثياب هندوسية أو إسلامية عند قيامه ببعض المهام. وكان أحد الشبان من عشاق 'الموضة' – وهو الشاب الذى عُثر عليه ميتًا فى قاع بئر ليلة وقوع الزلزال – قد أعطاه ذات يوم حقيبة تحتوى على حلة هندوسية كاملة، وكانت حلة غلام من غلمان الشوارع ومن طائفة هندية خفيضة، وقد خبأها كيم فى مكان خفىٍّ تحت ألواح الأخشاب الضخمة فى مخزن أخشاب 'نيلا رام'، خلف المحكمة العليا للبنچاب، حيث تقبع أخشاب شجر الدردار حتى تجف بعد نقلها فى سفن خاصة فى نهر 'راڤى' الذى تقوم لاهور على ضفتيه. وعندما كانت الفرصة تتاح لعمل جاد أو لبعض اللهو، كان كيم يرتدى تلك الحلة، ولا يعود إلى الشرفة إلا عند الفجر وقد أرهقه الصياح خلف 'زفة' عروس، أو الهتاف فى أحد الاحتفالات الهندية. وكان يجد فى المنزل بعض الطعام أحيانًا، ولكنه لم يكن يجد فيه الطعام فى معظم الأحيان، فيخرج من جديد لتناول الطعام مع أصدقائه من أبناء البلد.

كان كيم يركب متن المدفع ويطرقه بعقبيه، ثم يلعب لعبة 'ملك الحصن' مع صديقيه الصغيرين 'شوتا لال' وعبدالله، ابن بائع الحلوى، ثم يتحول بين الفينة والفينة إلى السخرية بألفاظ فظة من الشرطى ابن البلد الذى يحرس صفوف الأحذية التى خلعها الزوار عند باب المتحف. وكان الشرطى

الـــبـــنـــجـــابى الضخم يبتسم متسامحًا عما يقوله كيم، إذ كان يعرفه من زمن بعيد. وكذلك كان شأن 'السقاء' الذى يرش الماء من قربته المصنوعة من جلد الماعز على تراب الطريق، وشأنْ 'جـوا هر سينج'، نجار المتحف، المنهمك فى صنع الصناديق الخشبية. بل كان ذلك شأن جميع الحاضرين، باستثناء الفلاحين القادمين من الريف وهم يهرعون إلى بيت العجائب لمشاهدة الأشياء التى صنعها الرجال فى مقاطعتهم وفى غيرها. كان المتحف مخصصًا للفنون والصنائع الهندية، وكان على كل من يبغى 'الحكمة' أن يطلب من أمين المتحف أن يتولى الشرح.

وصاح عبدالله "انزل انزل! دعنى أصعد!" وهو يتسلق عجلة المدفع.

ورد كيم قائلاً "كان أبوك يخبز الفطائر! وكانت أمك تسرق السمن! لقد هبط جميع المسلمين من صهوة زمزمة منذ عهد بعيد!"

وهتف 'شوتا لال' الصغير "دعنى أصعد!" وكان يرتدى قبعة مزركشة بخيوط الذهب، وكان والده يملك ما يقرب من نصف مليون جنيه إسترلينى، ولكن الهند هى البلد الديمقراطى الوحيد فى العالم.

ورد كيم قائلاً "والهندوس أيضًا هبطوا من صهوة زمزمة. طردهم المسلمون. كان أبوك يصنع الفطائر...".

وتوقف كيم، إذ لمح على ناصية الشارع رجلاً مقبلاً من سوق 'مُوطِى' الصاخب، ولم يكن كيم قد شاهد مثيلاً له من قبل على الرغم من تصوره أنه يعرف جميع الطوائف. كان طوله نحو ١٨٠ سم، ويرتدى ملابس تتكون من طبقات غير جذابة كأنها سروج الخيل، ولم تكن أى طبقة منها تشير فى نظر كيم إلى صنعة أو مهنة محددة. وكان يحمل فى حزامه علبة أقلام حديدية مزركشة ومسبحة خشبية من مسابح النساك. وكانت فوق رأسه كاسكيتة أسكتلندية ضخمة، وكان وجهه أصفر ذا غضون ويشبه وجه 'فوك شينج'، الصينى الذى يصنع الأحذية الطويلة فى السوق. وكانت عيناه منحرفتين عند الأركان وتشبهان فتحتين من العقيق البَرَّاق.

وسأل كيم رفيقه "من هذا؟"

وقال عبدالله، واضعًا أصبعه فى فمه، محدقًا "ربما كان رجلاً".

ورد كيم قائلاً "قطعًا! ولكنه ليس رجلاً هنديا شاهدته أنا من قبل" .

وقال شوتا لال "ربما كان كاهنًا" مشيرًا إلى المسبحة "انظر! إنه ذاهب إلى بيت العجائب!"

وقال رجل الشرطة "لا لا!" وجعل يهز رأسه. "لست أفهم ما تقول" كان الشرطى يتحدث اللغة الـبـنـچـابية، فخاطب كيم قائلاً "يا صديق العالم كله، ماذا يقول؟"

وقال كيم "أرسله إلينا!" وهبط من صهوة المدفع، متباهيا بقدميه الحافيتين، ثم أضاف قائلاً "إنه أجنبى، وأنت جاموس!"

والتفت الرجل وعلى محياه سمات العجز، ثم اتجه إلى الصبية. كان هرمًا، ولا تزال ثيابه الصوفية تنضح برائحة نبات 'الناعمة' البرى الذى يكثر فى الممرات الجبلية.

وقال الرجل بلغة أُوردية صحيحة "ما هذا المبنى الضخم يا أطفال؟"

ورد كيم قائلاً: "إنه بيت العجـائب" من دون أن يخاطبه بلقب معين مثل يا 'سيدى' أو يا 'أستاذ'. ولم يكن يستطيع تحديد عقيدة الرجل.

"آه! بيت العجائب! هل يمكن لأى أحد أن يدخل؟"

"هذا مكتوب على الباب: يمكن للجميع الدخول".

"من دون دفع نقود؟"

وضحك كيم وقال "أدخل أنا وأخرج، وليس لى رصيد فى البنك".

وقال الرجل "للأسف! فأنا عجوز ولم أكن أعرف". ومد يده إلى مسبحته ثم التفت نصف التفاتة إلى المتحف.

وسأله كيم "ما طائفتك؟ أين منزلك؟ هل أتيت من مكان بعيد؟"

ورد الرجل قائلاً "أتيت عبر بلدة كولو فى جبال الهيملايا، من وراء القمم المقدسة العالية، قمم 'كايلا'، ولكنْ ما عساك أن تعرف؟ من التلال السامقة التى تمتاز بصفاء الجو والمياه العذبة" وتأوه الرجل فى حسرة.

وقال عبدالله فى فخر "آها! أنت صينى إذن!" كان يذكر يوم أن طرده الصينى فوك شينج من الحانوت لأنه بصق على الصنم المقام فى المدخل.

وقال الصغير 'شوتا لال' "رجل من الجبال".

"نعم أيها الصغير! من الجبال التى لن تراها أبدًا! هل سمعت يومًا ما عن التيبت؟ لستُ من الصين، ولكنى من التيبت، وما دمتم تريدون أن تعرفوا، فأنا ناسك 'لامى' أو 'لاما'، أو 'جورو' بلغتكم".

وقال كيم "ناسك من التيبت! لم أر مثل هذا الرجل من قبل. هل فى التيبت هندوس إذن؟"

"نحن أتباع **الطريق الأوسط**، نعيش فى سلام فى أديرتنا 'اللامية'، وقد خرجتُ لمشاهدة الأماكن المقدسة الأربعة قبل أن أموت(*)، وها أنتم، على صغر سنكم، تعرفون ما أعرفه وأنا شيخ هرم". وابتسم ابتسامة ود للصغار.

"هل تناولت الطعام؟"

مد يده فأخرج من طيات ملابسه قصعة خشبية قديمة تستخدم فى التسول. وأومأ الأطفال، إذ كان جميع من يعرفونهم من الكهان يتسولون.

وقال الشيخ "لا أريد أن آكل الآن"، وأدار رأسه ببطء مثل سلحفاة فى ضوء الشمس، مضيفًا قوله "أصحيح أن بيت العجائب فى لاهور يضم صورًا كثيرة؟" وكرر الكلمات الأولى فى السؤال تكرار من يريد أن يتحقق من العنوان.

(*) وهى **لومبينى**، مسقط رأس بوذا فى راجستان، **وبوذ جايا**، حيث شعر بالتنوير، **وسارناث**، المكان الذى بدأ ينشر فيه تعاليمه، **وكوسينجار**، حيث مات.

وقال عبدالله "صحيح. إنه ملئ بالأشباح الوثنية. وأنت أيضًا وثنى".

وقال كيم للشيخ "دعك منه. هذا مبنى حكومى، وليس فيه شىء من عبادة الأصنام، بل رئيس ذو لحية بيضاء. تعال معى وسوف أريك".

وهمس شوتا لال قائلا "الكهنة الأغراب يأكلون الأطفال".

وقال عبدالله المسلم "وهو غريب ويعبد الأصنام".

وضحك كيم وقال "إنه جديد. عودوا بسرعة إلى أحضان أمهاتكم حتى تشعروا بالأمان! هيا بنا!"

وتقدم كيم، يتبعه الشيخ، فأدار عجلة البوابة التى تسجل عدد الزوار، وتوقف الشيخ بعدها فى دهشة. ففى بهو المدخل كانت تنتصب تماثيل هائلة لبوذا بأسلوب يونانى، ولا يعرف إلا العلماء متى أُقيمت هذه التماثيل التى نحتتها أيدى العمال المجهولين الحريصة على إبراز اللمسة اليونانية الغامضة ببراعة مرموقة. وكان المتحف يزخر بمئات الأعمال الفنية، وأطر الأشكال البارزة، وشظايا من تماثيل محطمة، ولوحات رخامية نُقشت عليها تصاويرُ مجسدةٌ لنصب بوذية ذوات قباب، ومعابد بوذية من القرميد، وكانت تنتمى جميعًا إلى المقاطعات الشمالية، وها هو ذا متحف لاهور يزهو بها ويفخر. وأخذ الشيخ وقد عقدت الدهشة لسانه يتأمل هذا وذاك حتى وصل آخر الأمر إلى تصوير منقوش هائل يمثل تتويج **المولى** بوذا أو عبادته، فوقف أمامه مذهولاً يرقب فى صمت. كان **السيد** بوذا مصورًا وهو جالس على زهرة من زهر اللوتس، وكانت تُوَيْجِيَّاتُها قد رُسمت رسمًا يوحى بشبه انفصال بعضها عن بعض، وحول بوذا الكبير صفوف مرتبة ترتيبًا هرميًّا من الملوك والحكماء وقدامى البوذيين. وفى أسفل العمل مياه يغطيها زهر اللوتس وتسبح فيها الأسماك وتغشاها طيور الماء. وكانت تطير فوق رأسه رَبَّتَانِ من مرتبة الربة 'ديوا'، بجناحى فراشتين، وتحملان طاقة زهر تكلل هامته، وتطير فوقهما ربتان أخريان تحملان مظلة وُضعت على غطاء رأس مُحلىً بالجواهر ويرتديه 'بوذيسات'، أى من بلغ التنوير وأخَّر بلوغ النعيم ليساعد غيره على بلوغه.

وقال 'اللاما' الشيخ وهو يكاد ينهنه "**المولى! المولى!** إنه 'ساقيا مونى' (أى بوذا) نفسه!" وبصوت خفيض بدأ يردد الترنيمة البوذية الرائعة:

ذا صاحبُ الطَّريق والْقَانُونِ فَوْقَنَا

فأُمُّهُ 'مايا' التى حَمَلَتْه تحت قَلْبها هُنَا!

ذا 'بُوذِيسَاتُ' رَبُّ مَنْ يُدْعَى 'أَنَانْدا' عِنْدنَا!

وأضاف قائلاً "وها هو ذا هنا! **والقانون الأعظم** هنا أيضًا. بدأت رحلة حجى بداية موفقة. وانظر إلى الإبداع! ما أروع الإبداع!"

وقال كيم "والرئيس هناك". ثم اختفى عن العيون وسط صناديق التماثيل والأعمال الفنية. وكان رجل إنجليزى ذو لحية بيضاء يتطلع إلى اللاما الشيخ، فاستدار الأخير وألقى عليه التحية، فى تؤدة ووقار، وبعد بعض التردد أتى بكراسة وورقة صغيرة.

"نعم هذا هو اسمى" وافترت شفتاه عن بسمة إزاء الحروف المتعرجة الطفولية. وغمغم اللاما الشيخ قائلاً "أعطانيهما واحدٌ منّا، وكان قد حج إلى الأماكن المقدسة، وهو الآن رئيس دير لونج-تشو". وأضاف قائلاً "لقد حدثنى عن هذه الأشياء" وأشار بيده العجفاء المرتعشة إلى ما حوله.

ورد الرئيس قائلاً "مرحبًا بك إذن يا 'لاما' يا ابن التيبت. الصور موجودة هنا، وكذلك أنا" وتطلع إلى وجه 'اللاما' وأضاف "حتى أحصل على المعرفة. تفضل معى إلى مكتبى فابق معى برهة". كان الشيخ يرتجف من فرط انفعاله.

ولم يكن المكتب غير غرفة خشبية صغيرة غير مسقوفة مقتطعة من أرضية المتحف التى تزخر بالتماثيل المنحوتة. وقبع كيم بجوار الباب، واضعًا أذنه على فتحة أحدثتها الحرارة فى خشب الأَرْز الذى صنع منه، وأطاع حدسه إذ تمدد فى موقعه حتى يشهد ما يجرى ويستمع إلى ما يقال.

كان معظم ما قاله الرجلان يستعصى على فهمه، إذ بدأ اللاما – مترددًا أول الأمر – بالحديث إلى أمين المتحف عن الدير الذى ينتمى إليه، واسمه 'سوخزين'، وكان يواجه موقع الصخور الملونة فى التيبت، على مسيرة أربعة أشهر. وأحضر أمين المتحف كتابًا ضخمًا زاخرًا بالصور وأطلع اللاما على صورة ذلك المكان نفسه، القابع فوق صخرته السامقة، والذى يطل على الوادى الهائل ذى الطبقات المتعددة الألوان.

وقال اللاما "نعم نعم" وهو يلبس نظارته المصنوعة فى الصين ذات الإطار الحديدى، مضيفًا "هذا هو الباب الصغير الذى نُدخل منه الطعام قبل حلول الشتاء. وأنت – عجبًا! هل يعرف الإنجليز هذه الأمور؟ قال لى ذلك رئيس دير لونج – تشو ولكننى لم أصدقه. هل يتمتع المولى – الواحد العظيم – بالتكريم هنا أيضًا؟ وهل تعرفون حياته؟"

"إنها منقوشة جميعًا على الأحجار. تعال وأبصرها، إذا كنت قد استرحت".

وانطلق اللاما خارجًا إلى البهو، وبجانبه أمين المتحف، ثم جعل يتأمل جميع المعروضات مبديًا إجلال المؤمن وحاسة الفنان التى تقدر عظمة الإنجاز.

كان يستطيع التعرف على كل حادثة من أحداث القصة الجميلة المنقوشة على الأحجار، ويبدى الحيرة فى بعض الأحيان إزاء تقاليد النقش اليونانية غير المألوفة، لكنه كان يبتهج ابتهاج الأطفال عند كل اكتشاف جديد. فإذا تصادف وجود ثغرة فى مسار السرد، كما حدث فى مسألة 'البشارة' (أى التنبؤ بمولد بوذا) قام أمين المتحف بسد الفجوة من كتبه المكتوبة بالفرنسية والألمانية، مستعينًا بما بها من رسوم وتصاوير.

شاهد هنا 'أسيتا' المؤمن، المماثل لسمعان فى القصة المسيحية، واضعًا الطفل ذا القداسة على ركبته، وأم الطفل وأبوه يصغيان إلى ما يقوله 'أسيتا'، وشاهد هنا أيضًا صورًا لبعض أحداث أسطورة 'ديـڤـاداتا'، ورسمًا للمرأة

الشريرة التى اتهمت 'السيد' بالدنس، وقد شملها العقاب، واطلع هنا أيضًا على تعاليم بوذا فى غابة الغزلان، والمعجزة التى أذهلت عُبَّادَ النار، كما برز هنا 'البوذيسات' أيضًا فى منزلته الملكيّة باعتباره أميرًا، ومولده الخارق، ثم وفاته فى كوسيناجارا، حيث أغمى على تلميذه الضعيف، وإلى جانب ذلك كله تأملات تتكرر ولا يحصيها العد تحت شجرة بوذا، وتقديس لقصعة التسول فى كل مكان. ولم تمض دقائق معدودة حتى أدرك أمين المتحف أن ضيفه لم يكن مجرد متسول يسبح بمسبحته بل كان دارسًا ذا معرفة عميقة. وكرر الرجلان ما فعلاه مرة أخرى، وكان 'اللاما' يتناول النشوق فى أثناء ذلك ويمسح زجاج نظارته، ويتكلم بسرعة قطار منطلق بمزيج محير من اللغتين الأُردية والتيبتية. كان قد سمع عن رحلات حاجَّيْن من الصين هما 'فو-هيووين' و'هوين-تسيانج'، ويحرص على أن يعرف إن كان سجل حجهما مترجمًا. وجعل يشهق وهو يقلب صفحات الكتاب الذى ترجمه صمويل بيل عن الصينية، والكتاب الآخر الذى ترجمه ستانسلاس چوليان عن الحاج البوذى الصينى 'هسوان-تسانج'. وقال فى نفسه "كل شيء هنا: كنز مكنون" ثم استجمع رباطة جأشه حتى يصغى إلى شذرات مترجمة بسرعة إلى اللغة الأُردية. واستمع للمرة الأولى إلى قصص الجهود التى بذلها العلماء الأوروبيون الذين استعانوا بهذه الوثائق ومئات أخرى غيرها فى تحديد الأماكن المقدسة فى البوذية. وأُطلع اللاما بعد ذلك على خريطة ضخمة، زاخرة بالنقاط والخطوط الصفراء. ومد الشيخ أصبعه الأصغر ليتابع قلم أمين المتحف وهو ينتقل من نقطة إلى غيرها. هذه هى 'كابيلاڤاستو" (حيث قضى بوذا طفولته) وهنا المملكة الوسطى (الصين) وهذا هو 'ماهابوذى' (معبد أقيم فى المكان الذى عرف فيه بوذا التنوير تحت الشجرة المقدسة) وهو الذى أصبح كعبة البوذية، وها هى ذى 'كوسيناجارا' ، موقع الأحزان حيث توفى الرجل المقدس. وظل رأس الشيخ منكبًّا على الصفحات برهة، قام أمين المتحف خلالها بإشعال غليونه من جديد. وكان كيم قد غلبه النعاس، وعندما استيقظ وجد أن المحادثة التى كانت لاتزال جارية أقرب إلى أفهامه.

قال الشيخ "وهكذا يا نبع الحكمة قررت أن أحج إلى الأماكن المقدسة التى وطئتها قدمه، وإلى مسقط رأسه، حتى كابيلا، ثم إلى 'ماهابوذى' - وهى منطقة 'بوذ جايا' - وإلى الدير - وإلى غابة الغزلان - وإلى مكان وفاته".

ثم خفض اللاما صوته قائلاً "وقد جئت هنا وحدى. إذ ظل يشغل ذهنى خمس سنوات - بل سبع - بل ثمانى عشرة - بل أربعين سنة - أن **القانون العريق** لا يلتزم الناس به خير التزام، بل لقد دَخَلَتْ فيه البدع التى تعرفها، بدع شيطانية وسحرية ووثنية. بل كما قال الغلام فى الخارج بدع عبادة الأصنام".

وقال أمين المتحف "هذا يحدث فى جميع الأديان".

"أتظن ذلك؟ لقد قرأت الكتب فى الدير الذى أنتمى إليه، بعد أن غدت لُبابًا جافًا، وتأملت الشعائر اللاحقة التي أَثْقَلْنَا بها أنفسنا، نحن أصحاب القانون المعدل - لم تعد لها قيمة هى الأخرى لهاتين العينين العجوزتين. بل إن أتباع **الرجل العظيم** أيضًا مشتبكون فى عداوات مستحكمة فيما بينهم. إنه وهم كله. نعم وهم. ولكن عندى رغبة أخرى". واقترب الوجه الأصفر المتغضن إلى مسافة سبعة سنتيمترات من وجه أمين المتحف، وجعل الأظفر الطويل بأصبعه السبابة ينقر المنضدة، وهو يقول "إن علماءكم، فى هذه الكتب، قد اتبعوا مسار القدمين المقدستين فى جميع جولاتهما، ولكن بقيت أمور لم ينشدها هؤلاء. لا أعرف أى شىء - لا شىء قط أعرفه - إلا أن أمضى حتى أحرر نفسى من **عجلة الأشياء** (أى استعباد المشاعر الأرضية ودورات الميلاد والموت) سائرًا فى الطريق العريض المفتوح". وابتسم ابتسامة النصر الساذج البسيط، وعاد يقول "ما دمت حاجًّا إلى الأماكن المقدسة فسوف اكتسب الامتياز. ولكن فى القضية ما يزيد على ذلك. اسمع هذه الحقيقة منى. عندما كان **مولانا** الكريم يافعًا وطلب زوجة قال الرجال فى منزل أبيه إنه لم يبلغ الصلابة اللازمة للزواج. تعرف ذلك؟"

وأومأ أمين المتحف برأسه، متسائلاً عما عساه أن يقول بعدها.

"وهكذا عقدوا اختبارًا ثلاثيًا للقوة ضد جميع القادمين. وجاء اختبار القوس فكسر مولانا **القوس** التى أعطوها له وطلب **قوسًا** لا يستطيع أحد أن يثنيها. تعرف ذلك؟"

"هذا مكتوب. وقرأته".

"وبعد أن انطلق السهم فتجاوز كل الأهداف المرصودة، ظل فى الهواء حتى غاب عن الأبصار. وأخيرًا سقط، وحيث لمس الأرض انبثق جدول سرعان ما أصبح **نهرًا**، وكان من طبعه، وبفضل كرم **مولانا** والامتياز الذى اكتسبه قبل أن يحرر نفسه، أن كل من يستحم فيه يطهر نفسه من أى شائبة من شوائب الخطيئة".

وقال أمين المتحف بنبرات جادة "هذا هو المكتوب".

وشهق اللاما شهقة طويلة وقال "أين ذلك **النهر**؟ أين يا **نبع الحكمة** سقط ذلك السهم؟".

ورد أمين المتحف قائلاً "لا أعرف يا أخى مع الأسف".

"لا! إذا حلا لك أن تنسى – أنك لم تخبرنى بأمر واحد فقط. ألست تعرفه قطعًا؟ انظر! أنا رجل عجوز! وأنا أسأل ورأسى بين قدمى، **يا نبع الحكمة**. نحن نعرف أنه شد القوس! **ونعرف** أن السهم سقط! **ونعرف** أن الجدول انبثق! أين ذلك **النهر** إذن؟ أمرنى هاتف فى منامى بالعثور عليه، فجئت وها أنذا. ولكن أين **النهر**؟"

"لو كنت أعرف، أفلا تظن أنى كنت أهتف بالإجابة عاليًا؟"

وواصل اللاما حديثه دون التفات إلى ما سمعه قائلاً "بفضله يحقق المرء حريته من **عجلة الأشياء**. **نهر السهم**! فكر من جديد! ربما يكون جدولاً صغيرًا – وربما جفت مياهه فى حرارة الجو؟ ولكن الرجل المقدس لن يخدع شيخًا مثلى أبدًا".

"لا أعرف. لا أعرف".

ومن جديد قَرَّبَ اللاما وجهه ذا الغضون الألف من وجه الإنجليزى بمقدار عرض اليد الواحدة وقال "أدرك أنك لا تعرف. فما دمت لا تنتمى إلى **القانون**، سيكون الأمر خافيًا عليك".

"نعم – يظل خافيًا – خافيًا".

وقال الشيخ "كلانا مقيد، أنا وأنت يا أخى، ولكننى.." ونهض فانبسطت طيات ثيابه الثقيلة حوله.. "سوف أمضى لأكسر ذلك القيد وأتحرر. تعال أيضًا!"

وقال أمين المتحف "أنا مقيد. ولكن أين عساك تمضى؟"

"أولاً إلى 'كاشى' (أى مدينة بيناريس، المدينة المقدسة على نهر الجانــچــيز) وهل أمامى سواها؟ وهناك سوف أقابل شخصًا ذا إيمان نقى فى معبد 'جانىٍّ' فى تلك المدينة (الــچــانية دين الزهد الذى أنشئ فى القرن السادس لإصلاح الهندوسية). وهو أيضًا يطلب التحرر سرًّا، وربما استطعت أن أعرف منه ما أريد. وربما اصطحبنى أيضًا إلى 'بوذ جايا'. ومن هناك أمضى شمالاً وغربًا إلى 'كاپــيلا ڤــاستو'، وهناك سوف أطلب النهر. لا بل سأطلبه فى كل مكان أمضى إليه، ما دام مكان سقوط السهم مجهولاً".

"وكيف تمضى إلى هناك؟ المسافة إلى دلهى شاسعة، وبيناريس أبعد منها".

"سيرًا على الأقدام وبالقطار. فلقد أقبلت من پاثانكوت (فى سفوح جبالا الهميلايا) وبعد أن تجاوزت الجبال جئت بالقطار إلى هنا. القطار سريع. كنت أدهش فى البداية لمشاهدة الأعمدة المقامة على جانب الطريق وهى تلتهم الأسلاك المشبوكة فيها" وجعل يصور بيديه انطلاق أعمدة التلغراف ظاهريا إلى خلف القطار، "ولكننى بدأت أشعر بالضيق من مكانى وطلبت أن أمشى على قدمى، حسبما اعتدت".

وسأله أمين المتحف "وأنت واثق من هذا الطريق؟"

وأجاب اللاما بكبرياء "ما على المرء إلا أن يسأل سؤالاً ويدفع مالاً، فيدلني العارفون على المكان المقصود. ذلك مبلغ علمي فيما فهمت في الدير الذي أنتمي إليه".

وقال أمين المتحف "ومتى تعتزم الرحيل؟" مبتسما على امتزاج حكمة العالم القديم بأوجه التقدم العصري، وهو الامتزاج الذي تتميز به الهند اليوم.

وأجاب اللاما "في أقرب وقت ممكن. سوف أقصد الأماكن التي عاش فيها حتى أصل إلى **نهر السهم**. وإلى جانب ذلك عندي ورقة كُتِبَتْ فيها أوقات رحيل القطارات إلى الجنوب".

"والطعام؟" كان أمين المتحف يعرف أن كل لاما يحتفظ بمقدار لا بأس به من النقود معه، ولكنه أراد أن يتأكد.

وقال اللاما "في هذه الرحلة أستعين بقصعة التسول الخاصة **بالسيد**. نعم، فمثلما كان يفعل في رحلته سوف أفعل، نابذًا الراحة التي عرفتها في الدير. كان يصاحبني عندما غادرت الجبال تلميذ يتولى التسول نيابة عني، وفق ما تقضي **القاعدة** به، ولكننا توقفنا في كولو قليلاً فأصيب بالحمى ومات. ولم يعد عندي الآن تلميذ، لكنني سوف أعتمد على قصعة الصدقات وأتيح للمحسنين أن يكتسبوا الامتياز". وجعل يومئ برأسه إيماءات الثقة. لم يكن علماء الدير المتخصصون يتسولون، ولكن اللاما كان متحمسًا لما يسعى في طلبه.

وابتسم أمين المتحف وقال "فليكن. اسمح لي الآن أن أكتسب الامتياز. فنحن، أنا وأنت، من أصحاب الحرفة. خذ هذه كراسة جديدة من ورق إنجليزي أبيض، وهذه أقلام الرصاص المبرية، اثنان وثلاثة، ذات خطوط سميكة ودقيقة، وكلها تصلح للكتبة. والآن أعرني نظارتك".

وفحص أمين المتحف النظارة فوجد شروخًا كثيرة في العدستين ولكن درجتها البصرية كانت تعادل درجة نظارته إلى حد التماثل الكامل تقريبًا، فدس نظارته في يد اللاما قائلاً "جرب هذه النظارة".

ووضعها اللاما على عينيه وصاح "ريشة! فى خفة الريشة على الوجه!" وجعل يدير رأسه فى سعادة ويقلص أنفه وهو يقول "لا أكاد أشعر بوزنها! وما أوضح ما أرى بها!"

"إنها من البلور! أى من الكريستال ولا يمكن أن تصيبها الخدوش. أرجو أن تساعدك فى العثور على **نهرك**، فقد أهديتها لك".

وقال اللاما "سوف آخذها وآخذ الأقلام والكراسة ذات الورق الأبيض، دليلاً على الصداقة ما بين كاهن وكاهن. والآن.." وأدخل يده فى حزامه وبعد هنيهة أخرج علبة الأقلام الحديدية المزركشة ووضعها على منضدة أمين المتحف قائلاً "خذ هذه 'المقلمة' تذكارًا للقاء بينى وبينك. إنها عتيقة، مثلما أنا عتيق".

كانت علبة الأقلام ذات طراز قديم، صينى، ومن نوع من الحديد لم يعد تسبكه المسابك هذه الأيام، وكان حب اقتناء التحف قد سيطر على قلب أمين المتحف منذ البداية. ولم يستطع إقناع اللاما باسترداد هديته.

وقال اللاما "عندما أعود، بعد العثور على النهر، سوف آتيك بصورة مكتوبة للربة پادما سمثور (الربة الهندوسية المنبثقة من زهرة اللوتس) وهى التى اعتدت أن أنقشها على الحرير فى الدير. نعم وصورة أخرى لعجلة الحياة" وقهقهه اللاما مضيفًا "فأنا وأنت معًا من أصحاب الحرفة".

كان أمين المتحف يتمنى أن يستبقيه، فما أندر من **لايزالون** يحتفظون بسر صنع الصور البوذية التقليدية بأقلام الفرشاة، وهى الصور التى تعتبر نصف مكتوبة ونصف مرسومة، إن صح هذا التعبير، ولكن اللاما اتجه إلى الخارج بخطوات واسعة، رافعًا رأسه، بعد أن تمهل لحظة أمام التمثال العظيم لبوذيسات أثناء التأمل، ثم اندفع خارجًا من البوابة الدوارة.

ومضى كيم خلفه مثل الشبح. كان ما سمعه قد أثاره إثارةً عظيمة، إذ كان هذا الرجل جديدًا كل الجدة فيما مر به من خبرات، واعتزم كيم أن يستكشف

المزيد عنه، تمامًا كأنه يستكشف مبنى جديدًا أو احتفالاً غريبًا فى مدينة لاهور. كان اللاما يمثل له كنزًا مكتشفًا، وصمم على أن يمتلك ذلك الكنز. فلقد كانت والدة كيم أيرلندية أيضًا.

وتوقف العجوز عند المدفع الكبير وجال ببصره حتى وقعت عينه على كيم. كان الإلهام الذى يغذو رحلة حجه قد تخلى عنه لحظة فشعر بوطأة السن والوحشة والخواء الشديد.

وقال رجل الشرطة بنبرة متعالية "لا تجلس تحت هذا المدفع".

ورد كيم نيابة عن اللاما قائلاً "اخرس يا بومة!" ثم قال "اجلس تحت المدفع إذا أردت. متى سرقت يا 'دانو' خُفَّ بائعة اللبن؟"

كانت تلك تهمة لا أساس لها من الصحة إطلاقًا وخطرت للصبى من وحى اللحظة، ولكنها أخرست الشرطة 'دانو'، إذ كان يدرك أن صيحة كيم الواضحة قادرة على استدعاء فرق كاملة من صبيان السوق 'الأشقياء' إذا دعت الحاجة.

وقال كيم بلهجة ودود وهو يقبع فى الظل إلى جوار اللاما "ومن الذى كنت تصلى له داخل المتحف؟"

"لم أكن أصلى لأحد أيها الصبى. إننى كنت أركع **للقانون الأعظم**".

وتقبل كيم هذا الرب الجديد دون انفعال، إذ كان يعرف العشرات من الأرباب الهندوسية.

"وماذا تفعل؟"

"إننى أتسول. أذكر الآن أننى لم آكل أو أشرب منذ مدة طويلة. ما نظام الإحسان فى هذه المدينة؟ هل يجرى فى صمت كما نفعل فى التيبت، أم بصوت عال؟"

قال كيم "من يتسول فى صمت يهلك جوعًا فى صمت"، وكان ذلك من

الأمثال المحلية. وحاول اللاما أن ينهض ولكنه لم يستطع، فتأوه ذاكرًا تلميذه الذى مات فى مدينة كولو البعيدة. وتأمله كيم، وقد أمال رأسه، وبدا عليه التفكير والاهتمام.

"أعطنى هذه القصعة. أنا أعرف أهل هذه المدينة، أعرف كل المحسنين. أعطها لى وسوف أعيدها إليك ممتلئة".

وببساطة الأطفال أعطاه العجوز القصعة.

"استرح الآن. **أنا** أعرف الناس".

وأهرع كيم إلى دكان مفتوح، صاحبته بائعة خضراوات من طائفة خفيضة، ويقع فى مقابل خط الترام المار بسوق 'مُوطِى'. كانت البائعة تعرف كيم من زمن بعيد.

وهتفت المرأة "هل تحولت إلى '**يوجى**' تحمل قصعة التسول؟"

ورد كيم بنبرة متعالية "كلا! لقد حل بالبلدة كاهن جديد! رجل لم أر مثيلاً له من قبل".

وقالت المرأة بغضب "كاهن عجوز – نمر شاب! لقد سئمت الكهنة الجدد! إنهم يحطون على البضائع كالذباب. هل والد ابنى بئر من الإحسان حتى يعطى كل من يسأل؟"

وقال كيم "لا! رجلك **ياجى** – أى عصبى المزاج – لا **يوجى** – أى ربانى! ولكن هذا الكاهن جديد. والرئيس فى بيت العجائب خاطبه مخاطبة الإخوة. أرجوك يا أمى! املأى هذه القصعة! إنه ينتظر".

"هذه القصعة حقًا! سلة مثل بطن البقرة! لقد اقتحمتنى اقتحام الثور المقدس للربة شيـــفـــا (المدمرة)! لقد أكل هذا الثور معظم البصل فى هذه السلة هذا الصباح، وبالحق لا بد أن أملأ لك القصعة! ها هو ذا الثور يعود!"

كان الثور البراهمينى الضخم ذو اللون الرمادى الخاص بتلك الناحية يشق

طريقه وسط الجمهور بملابس أفراده ذات الألوان المتعددة، ومن فمه تتدلى سباطة موز أخضر التقطها من فاكهى بالسوق. وكان يتجه مباشرة إلى دكان المرأة، واعيًا كل الوعى بمنزلته المقدسة، خافضًا رأسه، ونافثًا أنفاسه الحارة على طول صف السلال المرصوصة قبل تحديد ما يختاره منها. وعلى الفور انطلق كيم مسرعًا إليه فأمسك بأنف الثور اللزج الأزرق، فنخر الثور نخرة غضب وانصرف ناحية شريط الترام، وسنامه يرتعد حنقًا.

"انظرى! لقد أنقذت لك ما يزيد ثلاث مرات عن تكلفة القصعة. والآن يا أمى! قليلاً من الأرز وبعض السمك المجفف عليه! نعم وبعض كارى الخضراوات!"

وعلا صوت زمجرة من مؤخرة الدكان حيث يرقد أحد الرجال.

وقالت المرأة بنبرة خفيفة "لقد طرد الثور. من الخير التصدق على الفقراء". وتناولت القصعة وأعادتها مليئة بالأرز الساخن.

وقال كيم بلهجة جادة "ولكن اليوجى صاحبى ليس بقرة!" ثم حفر حفرة بأصابعه فى كومة الأرز وقال "لو وُضع بعضُ الكارى هنا! وكعكة محمرة، وأعتقد أن بعض الحلوى ستسعده".

وقالت المرأة فى ضيق "إنها حفرة فى حجم رأسك". ولكنها ملأتها، رغم ذلك، بكارى الخضروات اللذيذة الساخن، ووضعت الكعكة المقلية فوقها، وقطعة من السمن فوق الكعكة، ثم وضعت قطعة من حلوى التمر الهندى على جانب القصعة، وراق لكيم منظر القصعة.

"هذا حسن. عندما أكون فى السوق لن يأتى الثور إلى هذا المنزل. إنه شحاذ جسور".

وقالت المرأة ضاحكة "وأنت؟ ولكن لا تسئْ إلى الثيران. ألم تقل لى إن **ثورًا أحمر** سوف يأتيك يومًا ما من أحد الحقول ليساعدك؟ حافظ الآن على اتزان القصعة واطلب من الرجل الربانى أن يدعو لى بالبركة. وربما كان

يعرف أيضًا علاجًا لمرض عينى ابنتى. اسأله عن ذلك أيضًا أيها **الصديق الصغير للعالم كله**".

ولكن كيم كان قد انصرف مسرعًا قبل انتهاء عبارتها، متحاشيًا الكلاب الشريدة ومعارفه الجوعى.

وقال بفخر لِلاَّما "هكذا نتسول نحن الذين نعرف الأسلوب الصحيح"، وكان اللاما قد فتح عينيه فشاهد ما احتوته القصعة. وأضاف كيم "كل الآن وسوف آكل أنا معك. أنت يا سقًّا!" ونادى السقاء الذى كان يروى نباتات الكروتون الهندية حول المتحف قائلاً "هات الماء هنا! نحن الرجال عطشى!"

وضحك السقاء قائلاً "نحن الرجال؟ هل تكفى قربة واحدة لكما؟ اشربا إذن باسم الرحمن!"

وسكب السقاء الماء فى خيط رفيع تلقاه كيم باسطًا كفيه وشرب بأسلوب أهل البلد، ولكن اللاما وجد لزامًا عليه أن يستخرج كوزا من طيات ملابسه العلوية التى لا آخر لها وأن يشرب بالصورة 'الرسمية'!

وقال كيم "إنه أجنبى" موضحًا للسقاء ما قاله اللاما بلغة مجهولة، وكان من الواضح أنه يدعو بالخير للسقاء.

وتناولا الطعام فى رضى غامر، حتى أتيا على محتويات القصعة كلها، ثم تناول اللاما النشوق من صندوق خشبى عجيب، وسَبَّحَ بمسبحته قليلاً، ثم عاد للنعاس الهنئ الذى يعرفه الشيوخ، وقد بدأ ظل المدفع يطول ويمتد.

وانطلق كيم إلى أقرب دكان يبيع التبغ، وكانت صاحبته شابة مسلمة ذات حيوية دافقة، وسألها أن تعطيه سيجارًا رخيصًا من النوع الذى يباع لطلاب جامعة البنجاب الذين يحاكون العادات الإنجليزية. وبعدها جلس يدخن ويفكر، واضعًا رأسه بين ركبتيه، تحت بطن المدفع، وكانت نتيجة تفكيره الانطلاق فجأة وخلسة تجاه مخزن أخشاب نيلا رام، حيث خبأ ثيابه الهندوسية.

لم يستيقظ اللاما إلا حين بدأت حياة المساء فى المدينة، فأُوقِدَتْ المصابيح،

وعاد موظفو الحكومة بأرديتهم البيضاء مع مرؤوسيهم من مكاتبهم، فجعل يحدق بدوار فى شتى الاتجاهات، ولكن لم ينظر إليه أحد إلا صبى هندوسى يرتدى عمامة وملابس صفراء رمادية. وفجأة أمال رأسه وسنده على ركبتيه وجعل ينوح.

وقال الصبى "ما هذا؟" ثم وقف إلى جانبه وقال "هل سرق أحد شيئًا منك؟".

فقال اللاما "بل إن تلميذى الجديد قد تركنى ولا أعرف أين مضى".

"وإلى أى نوع من الرجال ينتمى تلميذك؟".

"إنه صبى جاءنى بدلاً من الصبى الذى مات، بسبب الامتياز الذى حققته حين ركعت أمام **القانون** فى ذلك المكان" وأشار إلى المتحف. "جاءنى ليدلنى على طريق كنت فقدته. قادنى إلى بيت العجائب، وتجاسرت بسبب حديثى معه على التخاطب مع **حارس الصور**، وهكذا انشرح صدرى واكتسبت القوة. وعندما أغشى علىّ بسبب الجوع تسول نيابة عنى مثلما يفعل التلميذ لأستاذه. لقد أُرسل لى فجأة. وضاع منى فجأة. كنت أنتوى أن أعلمه **القانون** فى الطريق إلى بيناريس".

ووقف كيم مذهولاً مما سمع، إذ كان قد استرق السمع للحديث الذى دار فى المتحف، وكان يعرف أن الشيخ صادق، ومن النادر أن يصدق ابن البلد الشريد مع أحد الأغراب.

"لكننى أدرك الآن أنه لم يُرْسَلْ إلا لغرض محدد. وبذلك أعرف أننى سوف أعثر على **نهر** معين أبحث عنه وأسعى إليه".

وقال كيم ببساطة "تلميذك" وأقعى أمامه. "لم أشاهد أى أحد مثلك طول عمرى. سوف أصحبك إلى بيناريس. وأظن أيضًا أن رجلاً بلغ العمر المديد الذى بلغته ويقول الصدق لأناس قابلهم بالمصادفة فى الغسق، فى حاجة ماسة إلى تلميذ".

"ولكن **النهر؟ نهر السهم؟**"

"ذلك ما سمعته عندما كنت تحادث الإنجليزى. كنت أقبع خلف الباب".

وتأوه اللاما، وقال "كنت أظنك مرشدًا مرسلاً. تحدث أمثال هذه الأمور أحيانًا، ولكننى لست جديرًا بها. أنت إذن لا تعرف النهر؟"

وضحك كيم فى قلق وقال "لا. إننى أسعى لرؤية ثور- ثور أحمر فى حقل أخضر، وسوف يساعدنى". وعلى نحو ما يفعل الصبيان، إن كان أحد معارفهم لديه خطة كانت لدى كيم خطة وضعها خصوصًا، وكما يفعل الصبيان أيضًا، كان دائم التفكير فيما تنبأ به والده، بل كان يقضى فى ذلك عشرين دقيقة كل مرة.

"يساعدك على ماذا يا بنى؟".

"الله أعلم، ولكن والدى قال لى ذلك. سمعت حديثك فى **بيت العجائب** عن كل تلك الأماكن الجديدة الغريبة فى التلال، وإذا كان فى وسع رجل بلغ هذا العمر والضآلة، واعتاد إلى هذا الحد قول الحق، أن يخرج فى طلب أمر هين مثل أحد الأنهار، فقد بدا لى أننى لابد أيضًا أن أسافر. فإذا كان القدر قد كتب لنا أن نعثر على هذه الأشياء فسوف نعثر عليها، حتى تجد أنت **نهرك** وأجد أنا **ثورى، والعمد القوية** وغيرها من الأمور التى نسيتها".

وقال اللاما "ما أريد أن أتحرر منه ليس الأعمدة بل عجلة معينة".

وقال كيم "يستوى هذا وذاك. ربما جعلتنى ملكًا"، وكانت نبراته الرزينة نبرات من كان على استعداد لأى شىء.

ورد اللاما بصوت الممسك بزمام السلطة "سوف أعلمك رغبات أخرى أفضل أثناء الطريق. هيا نذهب إلى بيناريس".

"ليس أثناء الليل، فاللصوص قد خرجوا من مكامنهم. انتظر حتى الصباح".

"ولكن ليس لدينا مكان ننام فيه". كان الشيخ قد اعتاد نظام الدير، وعلى الرغم من نومه على الأرض، حسبما تقضى **القاعدة**، فإنه كان يفضل اللياقة فى هذه الأمور.

وقال كيم "سنجد مكانًا مريحًا فى سراى كشمير، الخان الذى تبيت فيه القوافل" وضحك من حيرة اللاما وأضاف "لى صديق فيه. هيا بنا!".

كانت الأسواق الحارة المزدحمة تغمرها الأضواء وهما يشقان طريقهما وسط الحشود من جميع الأجناس فى أعالى الهند، وكان اللاما يسير وسط الناس فى شبه ذهول كأنه يحلم. كانت تلك أول مرة يمشى فيها فى مدينة صناعية كبيرة، وكان يوجس خيفة من عربات الترام المكتظة بالركاب بفراملها التى تصرخ بانتظام، وكان الصبى يقوده والناس تدفعه دفعًا حتى وصل إلى البوابة العالية لسراى كشمير، فشاهد الميدان الضخم الفسيح المواجه لمحطة السكك الحديدية، وما يحيط به من أروقة فوقها البواكى، حيث تبيت قوافل الجمال والخيل عند عودتها من وسط آسيا. كانت تجتمع هنا شتى ضروب أبناء الشمال، بعضهم يربط المهور وبعضهم يرعى الجمال التى بركت، وغيرهم يُحَمِّل الدواب بالبالات واللفائف أو ينزلها من فوق ظهورها، وآخرون ينزحون المياه اللازمة لوجبة المساء من الآبار بأصوات الصرير، أو يضعون أكوام الكلأ أمام الخيول ذات العيون الشاردة والصهيل العالى، أو يربطون كلاب القوافل ذات النباح الفظ، أو يدفعون أجور سائقى الجمال، أو يستأجرون ساسة جددًا للخيل، والجميع يتشاتمون ويتصايحون ويتجادلون ويتساومون فى الميدان المكتظ بالبشر. وأما أماكن المبيت فى الأروقة، فيصل المرء إليها بسلم حجرى من ثلاث درجات أو أربع، وكانت تشبه المرفأ الآمن فى وسط بحر هائج. وكان التجار يستأجرون معظمها، مثلما تستؤجر البواكى، وذلك بعد سد الفجوات بين الأعمدة بجدران من القرميد حتى تتحول إلى حجرات تحميها أبواب خشبية ثقيلة وأقفال محلية ضخمة. وكان الباب المغلق يعنى غياب صاحب المكان، وأحيانًا كانت عليها كتابات بدائية فظة بالطباشير تبين المكان الذى رحل إليه، وهكذا فإن "لطف الله قد رحل إلى كردستان" (كما

تقول الكتابة). وتحتها كتب بيت من الشعر يقول: "يا رب! يا من قضيت بأن يعيش القمل فى معطف رجل من كابول (عاصمة أفغانستان) لماذا قضيت بأن يعيش لطف الله، وهو من القمل، هذا العمر الطويل؟"

واجتهد كيم حتى يحمى اللاما من هياج الرجال وهياج الحيوان، فسار معه على طول الرواق والغرف المقامة فيه حتى وصل إلى آخره، وهى أقرب نقطة من محطة السكك الحديدية، حيث ينزل محبوب على، تاجر الخيول، عندما يصل من تلك الأراضى الغامضة خلف الممرات الجبلية فى الشمال.

وكان قد سبق لكيم أن تعامل عدة مرات مع محبوب المذكور، على حداثة سن كيم، خصوصًا ما بين عامه العاشر وعامه الثالث عشر، وكان ذلك الأفغانى الهائل الجرم ذا لحية صبغها بالحناء فبدت قرمزية، إذ كان قد تقدم به العمر ويأبى الكشف عن الشيب فيها، وكان يقدر قيمة الصبى باعتباره ناقل أنباء. وكان أحيانًا يكلف كيم أن يراقب رجلاً لا علاقة له البتة بخيوله، وأن يقتفى أثره طيلة يوم كامل وأن يبلغه بكل من صادفه هذا الرجل وتحادث معه. وكان كيم ينقل له هذه الأنباء فى المساء، فيصغى إليها محبوب دون أن يتكلم أو يومئ أدنى إيماءة. وكان كيم يعرف أن ذلك من قبيل التجسس، ولكن قيمته كانت تكمن فى عدم البوح بشيء قط إلا لمحبوب، الذى كان يكافئ كيم بوجبات جميلة ساخنة من المطعم فى رأس السراى، بل منحه ذات يوم مبلغاً كبيرًا وهو ثمانى أنّات (أى نصف روبية).

وقال كيم "إنه هنا" وهو يضرب جملاً حاد الطبع على أنفه، ثم صاح "أنت يا محبوب على!" ثم توقف عند مدخل مظلم واندس خلف اللاما الذى بدت عليه الحيرة.

كان تاجر الخيول داخل الغرفة، وقد فك حزامه البخارى (أى من بُخارى، وهى أوزبكستان حاليًا) فبدت زخارفه العميقة. وكان يستلقى على وسادتين من وسائد السروج المنسوجة من الحرير المستخدم فى السجاجيد، ويستمتع بالأنفاس البطيئة من الشيشة الفضية أمامه. وأدار رأسه بزاوية ضئيلة عندما

سمع النداء، لكنه لم يشاهد غير القامة الفارعة للاّما الصامت، فقهقه قهقهةً عميقة وقال:

"الله! لاما! **لاما أحمر!** (أى من طائفة نينـــچـــماپـــا أى لابسى القبعة الحمراء، وهى طائفة بوذية من التيبت) المسافة شاسعة بين لاهور والممرات الجبلية. ماذا تفعل هنا؟"

وبطريقة آلية قدم اللاما قصعة التسول.

فقال محبوب "لعن الله جميع الكفار! لن أتصدق على حقير من أبناء التيبت! ولكن اقصدْ أتباعى من مقاطعة بلخ (فى شمال أفغانستان) وستجدهم هناك خلف الجمال. فربما قَدَّرُوا بركاتك حق قدرها. أنتم يا ساسة الخيل! هاكم رجلاً من بلدكم! انظروا إن كان جائعًا!".

وتقدم رجل بلخى حليق اللحية – وكان قد أتى مع الخيول – فقبع أمام الكاهن مبديًا له آيات التبجيل، إذ كان من طائفة تعتبر بوذية منحطة، ودعاه بألفاظ سادتها الحروف الحلقية الغليظة إلى الجلوس حول النار التى أوقدها ساسة الخيول.

وقال له كيم "اذهب!" وعاد إلى الشيشة، ثم أضاف "انصرف أيها الهندوسى الصغير. لعنة الله على كل الكفار! تسول من أتباعى الذين يدينون بدينك".

وقال كيم بنبرة استخذاء "يا مهراجـــا!" متعمدًا استخدام اللقب الهندوسى، ومستمتعًا بالموقف كل استمتاع. "مات والدى، وماتت أمى، ومعدتى خاوية".

"تسولْ من رجالى عند الخيول قلت: لابد أن يكون بين أتباعى بعض الهندوس".

فقال كيم بالإنجليزية "ولكن يا محبوب على... هل أنا هندوسى؟".

ولم يبد التاجر أى دليل على الدهشة بل نظر وحسب من تحت حاجبيه الكثيفين.

وقال "يا صغير! **يا صديق العالم كله**! ما هذا؟".

"لا شيء. لقد أصبحت الآن تلميذ ذلك الرجل الربانى. ونحن نَحُجُّ معًا، إلى بيناريس حسبما يقول. إنه مجْنون تمامًا، وأنا سئمت مدينة لاهور. أبغى هواء جديدًا وماءً جديدًا".

وقال محبوب على "ولكن من تعمل لحسابه؟ ولماذا جئتنى أنا؟"، كان صوته حاد النبرات ينضح بالشك والريبة.

"ومن عساى أن أقصده غيرك؟ ليس عندى نقود. وليس من الصواب الافتقار إلى النقود. وسوف تبيع أنت خيولاً كثيرة للضباط، وهذه خيول بديعة رائعة، هذه الخيول الجديدة، لقد رأيتها. أعطنى روبية. وسوف أسدد القرض يا محبوب على عندما أغتنى".

وزمجر محبوب على وقد أخذ يفكر بسرعة، ثم قال "لم تكذب علَىَّ قط من قبل. ادع ذاك اللاما، وقف أنت فى الظلام".

وضحك كيم قائلاً "اطمئن! ستتفق روايته مع روايتى".

وقال اللاما "سنذهب إلى بيناريس"، عندما فهم الغاية من أسئلة محبوب على. "أنا والغلام. أنا ذاهب للبحث عن **نهر** معين".

"ربما – ولكن ما شأن الصبى؟".

"إنه تلميذى. أُرسل لى، فى ظنى، حتى يرشدنى إلى **النهر**. كنت جالسًا فى ظل مدفع حين جاءنى فجأة. ومثل هذه الأشياء قد حدثت للسعداء الذين سُمح لهم بالهداية. ولكننى أذكر الآن: قال إنه من هذا العالم، أى هندوسى".

"واسمه؟".

"لم أسأل عن ذلك. أليس تلميذى؟".

"ولكن ما وطنه؟ ما جنسه؟ ما قريته؟ أهو مسلم؟ أم من السيخ؟ (فرع معدل حديث من الهندوسية) أم هندوسى؟ أم چانى؟ ومن طائفة رفيعة أم خفيضة؟".

"ولماذا أسأل؟ لا يوجد رفيع أو خفيض فى **الطريق الأوسط**. وإذا كان تلميذى فمن ذا الذى يأخذه منى؟ بل من يستطيع ذلك؟ ولا تنسى أننى من دونه لن أستطيع أن أعثر على **نهرى**"، وهز رأسه بوقار.

وقال محبوب على "لن يأخذه أحد منك. اذهب فاجلس وسط أبناء بلخ من رجالى"، فانصرف اللاما، وقد اطمأن لما وعده الرجل به.

وتقدم كيم إلى المكان المضئ مرة أخرى قائلاً "أليس مجنونًا حقًّا؟ ولماذا أكذب عليك يا حاج؟".

وجعل محبوب على يستمتع بالأنفاس من الشيشة فى صمت. ثم بدأ يتحدث فى شبه همس قائلاً "اسمع! سوف تمر فى الطريق إلى بيناريس بمدينة أومبالا (فى شرقي الـبـنـجـاب، شمالى دلهى بنحو ٢٠٠ كيلو متر). إذا كنتما ستذهبان حقًّا إلى هناك".

"طبعًا طبعًا. قلت لك إنه لا يعرف الكذب، كما نعرف أنا وأنت".

"وإذا قَبِلْتَ أن تحمل رسالة منى إلى مدينة أومبالا، فسوف أعطيك نقودًا. الأمر يتعلق بحصان معين، وهو فحل أبيض كنت بعته إلى ضابط فى آخر مرة رجعت فيها من منطقة الممرات الجبلية. ولكن – اقترب الآن منى ومد إلىَّ يديك كأنك تتسول – لم تكن أصالة نسب فحل الخيل قد تأكدت تمامًا، وطلب منى ذلك الضابط، الموجود حاليًا فى أومبالا، أن أستوثق من الأمر". وهنا وصف محبوب منزل الضابط ومظهره بدقة، ثم قال "وهكذا ستكون الرسالة إلى ذلك الضابط هى 'تأكدت صحة أصالة نسب فحل الخيل الأبيض'. وعندما يسمع ذلك سيعرف أنك أتيته من عندى وسوف يقول عندها 'وما البرهان لديك؟' فترد أنت قائلاً 'محبوب على أعطانى البرهان'."

وقال كيم بضحكة مجلجلة "كل هذا من أجل فحل خيل أبيض"، وبرقت عيناه.

وقال محبوب على "وسوف أعطيك البرهان على أصالة النسب الآن –

بأسلوبى الخاص – وبعض الكلمات القاسية أيضًا". ومر ظلٌ خلف كيم، مع جمل يأكل، فرفع محبوب على صوته قائلاً:

"يا الله! هل أنت المتسول، الوحيد فى المدينة؟ ماتت أمك ومات أبوك. وهذا شأنهم جميعًا. هكذا... هكذا..". واستدار كأنما يلتقط شيئًا من أرضية الغرفة بجواره وألقى بقطعة خبز طرية تنضح بالدهن مما يخبزه المسلمون إلى الصبى، هاتفًا "اذهب وارقد الليلة مع سائسى خيولى، أنت واللاما. وربما كلفتك بالعمل غدًا عندى".

وانسل كيم بعيدًا وهو يقضم الخبز، وكما كان يتوقع، وجد لفة صغيرة من المناديل الورقية مغلفة بقطعة من 'المشمع'، ومعها ثلاث روبيات فضية، وهو ما يمثل أريحية فائقة. وابتسم ودس النقود والورق فى علبة التميمة الجلدية معه، وأما اللاما فقد قدم البلخيون من رجال 'محبوب على' طعامًا فاخرًا تناوله ثم نام فى ركن أحد الحجرات. ورقد كيم بجواره ضاحكًا. كان يعرف أنه قدم خدمة معينة لمحبوب على، من دون أن يصدق ولو للحظة عابرة قصة أصالة نسب فحل الخيل.

ولكن كيم لم يخطر له أن محبوب على – الذى اشتهر بأنه من أفضل تجار الخيل فى البنچاب، والتاجر الغنى الناجح، الذى كانت قوافله تقطع مسافات عديدة قد تصل إلى ما وراء الحدود بمراحل – كان مسجلاً فى الملفات السرية لمصلحة المساحة الهندية تحت رقم سى ٢٥/١/ب. وكان القسم سى٢٥ يرسل مرتين أو ثلاثًا كل عام خبرًا صغيرًا – برئ المظهر، وإن كان بالغ الإثارة، وصحيح فى جوهره بصفة عامة، بعد التأكد من ذلك من أقوال القسمين راء ١٧ وميم ٤، وكان ذلك الخبر يتعلق بشتى المقاطعات الجبلية النائية، وبالمستكشفين الذين يحملون جنسيات غير إنجليزية، وبتجارة السلاح. وكان ذلك عمومًا يمثل جانبًا صغيرًا من الكمية الهائلة من المعلومات التى تتلقاها الحكومة الهندية وتتخذ الإجراءات اللازمة بشأنها. ولكن حدث فى الآونة الأخيرة أن أخبرت دولة شمالية متعاطفة (روسيا) الملوك الخمسة

المؤتلفين، من دون ما يدعو إلى ائتلافهم، أن بعض الأنباء تتسرب من ممالكهم إلى الهند البريطانية. وهكذا أحس رؤساء وزارات هؤلاء الملوك بضيق شديد وبدأوا يتخذون الخطوات اللازمة وفق الأسلوب الشرقى. وكانوا يستريبون بالكثيرين ومن بينهم تاجر الخيول الفظ ذو الشعر الأحمر الذى كانت قوافله تتغلغل فى معاقلهم فى بطون الثلوج. وعلى الأقل، تعرضت إحدى قوافله فى هذا الموسم لكمين أطلق عليها النار مرتين، فى طريق العودة، واستطاع رجال محبوب التصدى لثلاثة أشرار غرباء ربما كانوا قد استؤجروا خصوصًا لهذه المهمة، وربما لم يكن ذلك صحيحًا. ومن ثم فقد تجنب محبوب التوقف بمدينة پـيشاور، عند مدخل ممر خيبر، الواقعة شمالى لاهور بنحو ٤٠٠ كيلومتر (فى پـاكستان الآن) بسبب بلايا تلك المدينة، والاستمرار فى السير دون توقف إلى لاهور، حيث كان أبناء وطنه، وحيث يتوقع تطورات غريبة.

وكان أمام "محبوب على" عمل لم يكن يريد تأجيله ولو ساعة واحدة، إلا فى حالة الضرورة القصوى، ألا وهو إرسال اللفة الورقية المغلقة بإحكام والمغلفة بالمشمع، وكانت تتضمن عبارات غير منسوبة إلى أحد أو موجهة إلى أحد، وفى طرفها خمسة ثقوب دقيقة ترمز للملوك الخمسة، وتفضح ائتلافهم البشع، والدولة الشمالية المتعاطفة معهم، وتشير إلى أحد أصحاب المصارف الهندوسية فى پـيشاور، وشركة لإنتاج الأسلحة فى بلـچـيكا، وحاكم مسلم مهم يتمتع بشبه استقلال فى الجنوب. وكانت هذه الحقيقة الأخيرة من ثمار عمل 'راء ١٧'، وكان محبوب قد أحاط بها خلف ممر دورا، فى جبال هندوكوش (بين أفغانستان وپـاكستان) وكان يحملها نيابة عن 'راء ١٧' الذى لم يستطع، بسبب ظروف خارجة عن إرادته، مغادرة موقع مراقبته. ولك أن تعتبر الديناميت لبنًا بريئًا إن قارنته بالتقرير الذى أعده سى ٢٥ (محبوب على)، وحتى من وجهة نظر الشرقى، وآراء الشرقى فى قيمة الوقت، كان يرى أنه كلما أسرع بوضع تلك الرسالة فى أيدى الذين يهمهم أمرها كان ذلك أفضل. ولم يكن محبوب يرغب بصفة خاصة أن يموت ميتة عنيفة، لأن قضيتين أو ثلاثًا من قضايا الأخذ بالثأر عبر الحدود كانت موكلة إليه، وكان

ينتوى إذا انتهى منها وصَفَّى حسابها أن يستقر ويصبح رجلاً فاضلاً إلى حد ما. لم يحدث أن عبر بوابة السراى منذ وصوله قبل يومين إلا وأظهر حرصه على إرسال البرقيات إلى بومباى حيث كان يودع بعض ماله فى بنوكها، وإلى دلهى، حيث كان أحد أبناء عشيرته الذى يشاركه من الباطن يبيع الخيول إلى وكيل ولاية راچبوتان، فى شمالى الهند (وعاصمتها چـايبور)، وإلى أومبالا حيث كان رجل إنجليزى يطلب بإلحاح أن يستوثق من أصالة نسب فحل خيل أبيض. وكان كاتب الخطابات العمومى الملم بالإنجليزية يدبج تلغرافات ممتازة، مثل "**كرايتون، بنك لوريل، أومبالا – الحصان عربى كما سبق قوله. تأخر التحقق من أصالة النسب للأسف، وها أنذا أترجمه**". وفى وقت لاحق إلى العنوان نفسه "**تأخير يؤسف له كثيرًا. سوف نرسل شهادة أصالة النسب**". كما أرسل البرقية التالية إلى شريكه من الباطن فى دلهى "**لطف الله – أرسلت بالبرق ألفى روبية لحسابك فى بنك لقمان نارين**". كان ذلك كله فى إطار التجارة، ولكن كل برقية من هذه البرقيات نوقشت وأعيدت مناقشتها، من جانب أطراف كانوا يرون أن الأمر يهمهم، قبل أن ترسل إلى محطة السكك الحديدية، مع بلخى مغفل كان يسمح لشتى الأفراد أن يقرءوها فى الطريق.

وقال 'محبوب على' بلغته العجيبة إنه بعد أن عَكَّرَ صفو آبار التحرى بعصا الحيطة والحذر، هبط عليه كيم، مُرْسلاً من السماء، ولما كان محبوب مولعًا بالسرعة ولا يعبأ بالأخلاق ومغرمًا بالمخاطرة الشديدة بشتى ضروبها، فقد استأجر كيم للعمل لديه على الفور.

قال محبوب فى نفسه إن منظر اللاما الجوال بصحبة صبى يخدمه من طائفة خفيضة كفيل بأن يجتذب الأنظار لحظة عابرة وهما يتجولان فى الهند أرض الحجاج، ولكن أحدًا لن يستريب بهما أو يسطو على ما يملكان (وهو الأهم).

وطلب محبوب جمرة متقدة جديدة للشيشة، وجعل يتأمل المسألة: فى أسوأ الأحوال قد يصاب الغلام بأذى، ولكن الورقة لن تتسبب فى اتهام أحد بأى

جرم. وفى هذه الحالة يستطيع أن يذهب إلى أومبالا دونما عجلة، ويروى القصة من جديد لصاحبها، ولو أنه يخاطر إن فعل ذلك بإثارة شكوك جديدة.

ولكن تقرير 'راء ١٧' كان جوهر المسألة كلها، ولو عجز عن توصيله لتسبب فى متاعب مؤكدة. ومع ذلك قال 'محبوب على' فى نفسه إن الله كريم، مدركًا أنه قد فعل كل ما فى وسعه حتى الآن. كان كيم الشخص الوحيد فى هذا العالم الذى لم يكذب عليه. وكان من المحتمل أن يَصِمَ محبوبٌ أخلاق كيم بوصمة قاتلة لو لم يكن يعرف أن كيم يمكنه أن يكذب مثل كل شرقى على الآخرين، سواء لتحقيق غاية يرجوها أو لإنجاز مهمة من مهام محبوب.

ثم سار 'محبوب على' فى السراى حتى وصل إلى باب الغوانى الفتاكة اللاتى يضعن الألوان على عيونهن ويوقعن بالغرباء، واجتهد إلى حد ما حتى استدعى الفتاة التى كان يعتقد أنها وثيقة الصلة بالخبير الكشميرى ذى الوجه الخادع الذى تربص بالبلخى حامل برقياته. كانت تلك حماقة سافرة، إذ إنهما جعلا يشربان الكونياك المعطر منتهكين بذلك ما نصت عليه الشريعة الإسلامية، فسكر محبوب سُكْرًا بَيِّنًا، وفُتحت أبواب فمه، وسار خلف الفتاة التى تسمى 'زهرة السرور' بأقدام مخمورة حتى سقط بين الوسائد، وقامت زهرة السرور مع الخبير الكشميرى ذى الوجه الخادع بتفتيشه من ناصية رأسه إلى أخمص قدمه تفتيشًا محكمًا.

وفى الوقت نفسه تقريبًا، سمع كيم أصوات أقدام خفيضة فى غرفة محبوب. كان تاجر الخيول قد نسى إغلاق باب الغرفة، على عكس عادته، وكان رجاله يحتفلون بعودتهم إلى الهند بالتهام خروف مشوى كامل على حساب محبوب، وكان شاب أنيق من دلهى يحمل سلسلة المفاتيح التى أخذتها 'زهرة السرور' من حزام محبوب الغائب عن الوعى، ويقوم بالتفتيش فى كل صندوق، وكل حزمة، وجميع اللفائف وحقائب السروج التى يملكها محبوب، بأسلوب منهجى أدق من أسلوب الخبير و'الزهرة' فى تفتيش صاحبها.

وقالت 'الزهرة' بعد نحو ساعة، مستندة بمرفقها السمين على جسد الرجل

الذى يغط فى نومه "أظن أنه مجرد تاجر خيول أفغانى كالخنزير، لا يشغل باله إلا النساء والخيول. كما يحتمل أنه قد أرسل الرسالة من فترة، إن كانت تلك الرسالة قد وجدت فعلاً".

وقال الخبير "لا! ما دام الأمر يخص خمسة ملوك لابد أن يضعها بجوار قلبه الأسود. ألم تجدى شيئاً؟".

وضحك الرجل ابن دلهى وأعاد وضع عمامته على رأسه وهو يدخل الغرفة، قائلاً "فتشت بطانة نعليه كما فتشت 'الزهرة' ملابسه. ليس هذا هو المقصود بل شخص آخر. لا أكاد أترك شيئًا دون فحص".

وقال الخبير بنبرات التفكير العميق "لم يقولوا إنه الرجل المقصود بل قالوا ابحثوا إن كان هو المقصود، ما دام مستشارونا فى خلاف".

وقالت 'الزهرة': "المنطقة الشمالية تزخر بتجار الخيول كالقمل فى سترة قديمة. فهناك إسكندر خان، ونور على بيج، وفروخ شاه، وكلهم رؤساء قوافل، وكلهم يتاجرون هناك".

وقال الخبير "لم يصلوا بعد. لابد أن نوقعهم فى الفخ فيما بعد".

وقالت 'الزهرة' بامتعاض شديد "أعوذ بالله!" وأزاحت رأس محبوب على من حجرها، وأضافت "أنا أكسب رزقى. فروخ شاه مثل الدب. وعلى بيج بلطجى، وإسكندر شاه العجوز... يوه! انصرفوا! سأنام الآن. لن يصحو هذا الخنزير قبل طلوع الفجر".

وعندما استيقظ محبوب، لامته 'الزهرة' لومًا عنيفًا على خطيئة السُكْر، فأهل آسيا لا يخجلون عندما يُحْبطون تحايل الأعداء، ولكن 'محبوب على' كاد يخجل فعلاً عندما نهض وتنحنح وشد حزامه على وسطه وسار مترنحًا فى ضوء نجوم السَّحَر.

وقال لنفسه "يا لها من حيلة ساذجة! كأنما لا تلجأ إليها كل فتاة فى بيشاوار! ولكن ذلك كان بديعًا. والآن لا يعلم إلا الله وحده عدد من انطلقوا لتنفيذ الأمر بفحص أحوالى، وربما بالسكين أيضًا! وهكذا فلابد أن يذهب

الصبى إلى أومبالا، وبالقطار، لأن المكتوب عاجل. سأقيم هنا، متابعًا 'الزهرة'، وأشرب النبيذ شأن كل تاجر خيول!".

وتوقف عند الغرفة الثالثة فى الرواق. كان رجاله يرقدون فيها نائمين نومًا عميقًا. لم يجد أثرًا للصبى كيم ولا للاّما.

وصاح فى أحدهم قائلاً "أَفِقْ! أين ذهب من كانا ينامان هنا مساء أمس؟ اللاما والصبى؟ هل فُقد من الأمتعة شيء؟".

وقال الرجل بصوت مزمجر "كلا! نهض المجنون العجوز فى الهزيع الثانى قائلاً إنه ذاهب إلى بيناريس. وقاده الصبى ثم خرجا معًا".

وقال محبوب بنبرات عنيفة "لعنة الله على كل الكفار!" ثم صعد الدرج إلى غرفته وهو يهدر هديرًا مكتومًا.

ولكن كيم كان هو الذى أيقظ اللاما، إذ وضع إحدى عينيه على ثقب فى لوح خشبى نتج عن سقوط عقدة خشبية، فشاهد الرجل القادم من دلهى وهو يفحص الصناديق، وقال فى نفسه إن هذا ليس لصًّا عاديًّا، فهو يفتش الخطابات والفواتير والسروج، وليس مجرد سارق للمتاع ما دام قد فتح بمديته نعال أحذية محبوب، واستطاع بمهارة فك خيوط حقائب السرج. وخطر لكيم أولاً أن ينبه الناس لما يحدث صائحًا "حرامى! حرامى!" فتوقد الأضواء فى جنبات السراى كلها، ولكنه عندما أنعم النظر، واضعًا يده بحرص على تميمته، تمكن من إدراك الحقيقة.

وقال فى نفسه "لابد أنه يبحث عن أكذوبة أصالة نسب ذلك الحصان، وهى التى سوف أحملها إلى أومبالا. خير لنا أن نرحل الآن. فالذين يفتشون الحقائب بالسكاكين قد ينتقلون إلى تفتيش البطون بالسكاكين بعدها. بالقطع من وراء هذا امرأة!" وهمس قائلاً "اسمع! اسمع" إلى العجوز فى سباته غير العميق: "هيا! حان الوقت! آن أوان الرحيل إلى بيناريس".

ونهض اللاما طائعًا، وانسل الاثنان خارجين من السراى كالأشباح.

الفصل الثانى

إذَا نَبَذْتَ الكِبْرِيَاءَ أَيُّها الإنْسَانْ
وما احْتَقَرْتَ إِيمانَ القُلوبِ والكُهَّانْ
شَعَرْتَ أنَّ رُوحَ الشَّرْقِ كُلِّهِ تَغْشَى المَكَانْ
هُنَاكَ فِي كَامَاكُورَا.

(بوذا فى كماكورا)

دخلا محطة السكك الحديدية التى كانت تشبه القلعة، ويغشاها السواد فى آخر الليل، وسمعا صخب العمال فى ساحة قطارات البضائع، حيث يقومون بتحميل ونقل صناديق الحبوب الثقيلة المقبلة من الشمال.

وقال اللاما "هذا من عمل الشياطين!" وتراجع فى فَرَقٍ أمام الظلام الذى كان يُرجع أصداء ألفاظه، وبريق القضبان الممتدة بين الرصيفين الحجريين، وشبكة الأسلاك المتداخلة فوقها. كان يقف فى قاعة حجرية بدا له أنها رُصفت بجثث 'الموتى فى أكفانهم'، إذ كان ركاب الدرجة الثالثة الذين قطعوا تذاكرهم الليلة البارحة قد تمددوا راقدين فى غرف الانتظار فافترشوها كلها. جميع ساعات اليوم الأربع والعشرين متشابهة عند الشرقيين، ويجرى تنظيم رحلات المسافرين على امتداد هذه الساعات كلها.

وقال كيم "هذا هو الموقع الذى سوف تأتى إليه عربات النار. ستجد رجلاً واقفًا خلف فجوة" مشيرًا إلى شباك التذاكر "وسوف يعطيك ورقة تحملك إلى أومبالا".

وأجاب اللاما حانقًا "ولكننا ذاهبان إلى بيناريس".

"لا فرق بينهما. فلتكن بيناريس. أسرع. ها قد أقبلت!"

لم يكن اللاما قد اعتاد ركوب القطار كما كان يزعم، وحين أقبل قطار الساعة ٣,٢٥ المتجه إلى الجنوب بهديره الصاخب فزع وأجفل. ودبت الحياة

فجأة فى أجساد النائمين وامتلأت المحطة بالضجيج والصراخ، ونداءات بائعى المياه والحلوى، وصيحات رجال الشرطة من أبناء البلد، والهتافات الحادة من النساء اللاتى انهمكن فى جمع سلالهن وأطفالهن وأزواجهن.

وقال كيم "إنه القطار فقط! لا تفزع فلن يأتى إليك. انتظر!"، ودهش كيم من السذاجة البالغة التى يتسم بها اللاما، إذ كان قد وضع فى يده كيسًا صغيرًا مليئًا بالروبيات، وتقدم كيم فدفع النقود وطلب تذكرة إلى أومبالا. وزمجر الموظف الذى كان يغالب النعاس وقدم إليه تذكرة إلى المحطة التالية، التى لا تبعد إلا عشرة كيلومترات عن لاهور.

وقال كيم وهو يفحص التذكرة مبتسمًا "لا! قد تنجح هذه الحيلة مع الفلاحين ولكننى أعيش فى مدينة لاهور. لقد أَظْهَرْتَ المهارة أيها البنغالى المثقف! أعطنى الآن التذكرة إلى أومبالا".

وتجهم وجه البنغالى وأعطاه التذكرة الصحيحة.

وقال كيم "والآن تذكرة أخرى إلى أمريتسار" إذ لم يكن يرى ضرورة لإنفاق نقود 'محبوب على' على شيء ساذج مثل رحلة مدفوعة الثمن بالقطار إلى أومبالا. ثم عاد يقول "الثمن محدد. وباقى المبلغ محدد. أنا خبير بشئون القطارات. لم يكن أى 'يوجى' فى حاجة إلى تلميذ مثلما تحتاج أنت" وكان يخاطب اللاما بنبرات يسودها المرح واللاما حائر ذاهل. "لولا وجودى معك لألقوا بك فى 'ميان مير' (حيث ترابط الحامية البريطانية). من هنا! هيا معى!"، وأعاد النقود إلى الكيس، بعد أن احتجز لنفسه عمولة قدرها 'أنًا' واحدة من كل روبية دفعها ثمنًا للتذكرة إلى أومبالا. كانت تلك العمولة معمولاً بها فى آسيا منذ الأزل.

وتردد اللاما ووقف أمام الباب المفتوح لعربة مزدحمة من عربات الدرجة الثالثة، ثم قال بصوت واهن "ألم يكن المشى على الأقدام أفضل؟".

وتقدم صاحبُ صنعةٍ بدين من طائفة السيخ برأسه ولحيته الكثة قائلاً "هل

هو خائف؟ لا تخف. أذكر الوقت الذى أحسست فيه **أنا نفسى** بالخوف من القطار. ادخل! هذا الشىء من صنع الحكومة".

وقال اللاما "لست خائفًا. هل لديكم مكان يكفى اثنين؟".

وقالت امرأة بصوت حاد "لا يوجد مكان يكفى فأرًا واحدًا!"، كانت زوجة مزارع غنى، من طائفة چات الشمالية الهندوسية، ومن مقاطعة چولوندور المزدهرة، وتقع عاصمتها شرقى لاهور (بنحو ١٣٠ كيلو مترًا). "تفتقر قطاراتنا الليلية إلى الرعاية التى تلقاها القطارات النهارية، حيث تُخصص عربات للرجال وغيرها للنساء".

وقال زوجها الذى كان يرتدى عمامة زرقاء "يا والدة ابنى! أعتقد أننا نستطيع تدبير مكان لهما! خذى الصبى. إنه رجل ربانى. ألا ترين؟".

"ولكن حجرى فيه سبعين حزمة وحزمة! لم لا تطلب منه أن يجلس على ركبتى؟ ألا تستحى؟ ولكن هذا شأن الرجال دائمًا!" وألقت النظرات حولها طلبًا للمساندة. وكانت غانية من أمريتسار تجلس بجوار النافذة فنشقت نشقة عابرة من خلف لثام رأسها. وصاح مراب هندوسى سمين "ادخل! ادخل!" وكان يضع دفتر حساباته فى قطعة من القماش تحت إبطه. وقال ببسمة مصطنعة "العطف على الفقراء واجب".

وقال جندى شاب من طائفة 'دوجرا' (من راچپوتانا) "نعم! بربح قدره سبعة فى المائة شهريا، مع رهن العجل الذى لم يولد". كان الجندى فى طريقه إلى الجنوب لقضاء عطلة، فضحك الجميع من قوله.

وقال اللاما "وهل يسافر إلى بيناريس؟".

فصاح كيم "قطعًا! وإلا فلماذا جئنا؟ ادخل وإلا فاتنا القطار".

وصاحت غانية أمريتسار بصوت حاد "هل ترون؟ إنه لم يركب القطار من قبل قط! أوه! انظروا!".

وصاح المزارع "لالا! فلنساعده!" ومد يده السمراء الضخمة فساعد اللاما على الدخول. "انتهينا يا أبى!".

وقال اللاما "ولكن... لكن...،سأجلس على الأرضية، فالجلوس على المقعد تحرمه **القاعدة**. كما إن ذلك يقيد حركتى".

وزم المرابى شفتيه وقال "كنت أقول... لا توجد قاعدة واحدة للحياة الصحيحة لا تخرقها هذه القطارات. فنحن نجلس، مثلاً، جنبًا إلى جنب، مع جميع الطوائف وأصناف الناس".

وقالت الزوجة "نعم! ومع أفظع عديمى الحياء!"، وهى تلقى نظرة متجهمة على فتاة أمريتسار التى كانت تتطلع فى إغراء إلى الجندى الهندى الشاب فى الجيش البريطانى.

وقال زوجها "كنت أقول: كان يمكننا الرحيل فى عربة تجرها الخيول حتى ندخر بعض النقود".

"نعم وبذلك ننفق على الطعام أثناء الطريق ضعف ما ادخرناه. لقد ناقشنا ذلك عشرة آلاف مرة".

وزمجر الزوج قائلاً "نعم وبعشرة آلاف لسان".

"فلتساعدنا الأرباب نحن النساء المساكين إذا لم نتكلم. أُوهو! إنه من النوع الذى قد يتأفف من النظر إلى المرأة أو الإجابة عليها". ولكن اللاما كان ملتزما بما تقضى به **القاعدة** فلم يبد أدنى اهتمام بما تقوله. فعادت تقول "وهل تلميذه مثله؟".

وأجاب كيم بسرعة "لا يا أمى لا! خصوصًا إذا كانت جميلة والأهم من ذلك أن تحسن إلى الجوعى!".

وقال المنتمى لطائفة السيخ "إجابة متسول!"، وانخرط فى الضحك. "أنت السبب فى هذا يا أختى!" وكانت يدا كيم قد انحنتا تضرعًا وتوسلاً.

فقدمت له المرأة نصف فطيرة من كيس علاه الدهن وسألته "وإلــى أيــن تمضى؟".

"إلى بيناريس".

وقال الجندى الشاب "أنتما من السحرة؟ هل لديكما ألاعيب نقــضى بهــا الوقت؟ ولماذا لا يجيب ذلك الرجل الأصفر؟".

وقال كيم فى وقار "لأنه رجل رباني. ولأنه يفكر فى أمور خافية عنك".

"قد يكون هذا صحيحًا! أما نحن السيخ من لوذيانا"، ونطقها بنبرات تفخيم وتعظيم "فلا نشغل رؤوسنا بشؤون المذهب. فنحن طائفة مقاتلة".

وقال صاحب الحرفة المنتمى إلى السيخ بهدوء "ابن أخى أختــى نائــب عريف فى تلك الفرقة. وفى راچپوتانا سرايا من طائفــة 'دوجــرا' أيــضًا" واتسعت عيون الجندى دهشة بسبب اختلاف طائفة 'الــدوجرا' عــن طائفــة السيخ، وقهقه موظف البنك وحسب.

وقال الفتاة من أمريستار "كلهم سواء فى نظرى".

وقالت زوجة المزارع بنبرات خبيثة "نعتقد فعلاً ذلك".

فقالت الفتاة "لا! ولكن كل من يخــدمون 'الــسركار' (الملــك الهنــدى) ويحملون السلاح بأيديهم إخوان. لا شك فى أُخُوَّةِ الطائفــة الواحــدة، ولكــن الأفراد يرتبطون إلى جانب ذلك" ونظرت حولها فى تــردد "بربــاط الفرقــة العسكرية. صحيح؟".

وقال المزارع "أخى فى فرقة 'چــات' . ورجال 'الدوجرا' مــن خيــر الرجال".

وقال الجندى "السيخ الذين تعرفينهم كانوا يعتقدون ذلك على الأقل"، وألقى نظرة متجهمة على العجوز الهادئ القابع فى الركن. "السيخ الــذين تعــرفينهم كانوا يتصورون ذلك عندما تقدمت سريتانا لمساعدتهم فى معركــة 'پيــرزاى

كوتال' فى مواجهة ثمانى كتائب من قبيلة 'أفريدى' الأفغانية على حافة الجرف منذ أقل من ثلاثة أشهر".

وقص الجندى قصة المعركة، التى دارت على الحدود والتى أبلى فيها جنود 'الدوجرا' من طائفة سيخ لوذيانا بلاءً حسنًا. وابتسمت فتاة أمريستار، إذ كانت تعرف أن الغرض من القصة تحقيق رضاها.

وقالت زوجة المزارع آخر الأمر "مع الأسف! ألم تُحْرَقْ قُراهم ويتشرد أطفالهم الصغار؟".

"لقد مثلوا بجثث قتلانا. ودفعوا ثمنًا باهظًا بعد أن أدبناهم نحن السيخ. هذا ما حدث. هل هذه أمريستار؟".

وقال موظف البنك "نعم. وهنا يقطعون تذاكرنا"، وجعل يعبث بحزامه بحثًا عن التذكرة.

كانت أضواء المصابيح قد شحبت فى ضوء الفجر حين أتى عامل التذاكر ذو الطائفة المختلطة. وجمعُ التذاكر فى الشرق يجرى ببطء شديد حيث يخفى الناس تذاكرهم فى أغرب الأماكن. وأخرج كيم تذكرته وقيل له أن يغادر القطار.

واعترض قائلاً "لكننى ذاهب إلى أومبالا، فأنا أرافق هذا الرجل الربانى".

"لا يهمنى إن ذهبت إلى جهنم، فهذه التذكرة إلى أمريتسار فقط! اخرج!".

وانفجر كيم يبكي بغزارة، قائلاً إن اللاما كان أباه وأمه، وإنه كان العماد الذى يستند إليه اللاما فى سنواته الأخيرة وإن اللاما سيهلك دون رعايته له. وأخذ جميع من فى العربة يتوسلون إلى عامل التذاكر أن يبدى الرحمة، وكان موظف البنك من أفصحهم فى ذلك، ولكن العامل ألقى بكيم على رصيف المحطة. وكانت نظرات اللاما زائغة إذ عجز عن إدراك حقيقة ما يحدث، ورفع كيم صوته وانخرط فى البكاء خارج شباك العربة.

"أنا أفقر الفقراء. أبى مات وأمى ماتت. أيها المحسنون، لو تركتمونى هنا فمن سوف يرعى ذلك العجوز؟".

وقال اللاما "ماذا؟ ما هذا؟ لابد أن يذهب إلى بيناريس. لابد أن يأتى معى. إنه تلميذى. لو احتاج الأمر إلى دفع نقود".

فهمس كيم بحدة "اسكت أرجوك. هل نحن أمراء حتى نبعثر الفضة الجميلة والدنيا كلها تحب الإحسان للفقراء؟".

وخطت فتاة أمريتسار حاملة لفائفها إلى خارج العربة، وجعل كيم يركز بصره عليها، إذ كان واثقًا أن العاملات بتلك المهنة يتميزن بالكرم.

وقالت الفتاة ضاحكة "تذكرة! تذكرة صغيرة إلى أومبالا! يا من حطمت القلوب! ألم تعودوا تؤمنون بالإحسان؟".

"هل أتى العجوز من الشمال؟".

وصاح كيم "من أقصى الشمال البعيد. أتى من عند الجبال".

"الثلج هناك بين أشجار الصنوبر فى الشمال. وفى الجبال ثلوج. كانت أمى من مدينة كولو. خذ هذا واقطع لنفسك تذكرة. واطلب منه أن يمنحنى البركة!".

وهتف كيم بنبرات حادة "عشرة آلاف بركة! أيها الرجل الربانى! لقد تصدقت علينا امرأة حتى أستطيع أن آتى معك. امرأة ذات قلب من ذهب. سوف أجرى للحصول على التذكرة".

ونظرت الفتاة إلى اللاما الذى سار بطريقة آلية خلف كيم إلى الرصيف. وخفض رأسه حتى لا يراها وجعل يتمتم باللغة التيبتية وهو يمشى مع الناس.

وقالت زوجة المزارع بنبرة خبيثة "ما جاء بسهولة ذهب بسهولة".

ورد اللاما قائلاً "لقد حققت الامتياز. إنها من دون شك راهبة".

وصاح موظف البنك "فى أمريتسار وحدها عشرة آلاف راهبة من هذا النوع. عد إلى القطار أيها العجوز وإلا انطلق وتركك!".

وقال كيم "لقد أعطتنى ما زاد عن ثمن التذكرة فاشتريت بعض الطعام أيضًا" وقفز فعاد إلى مكانه فى القطار ثم أضاف "كُلْ الآن أيها الرجل الربانى! وانظر! لقد طلع النهار!".

بألوان ذهبية ووردية، صفراء وحمراء معًا، تماوجت أبخرة الصبح الضبابية عبر السهول الخضراء المديدة، وبدأت البنچاب الحافلة كلها تنبسط فى بهاء، تحت أشعة الشمس المسنونة. وأجفل اللاما قليلاً وأعمدة التلغراف تتدافع مسرعة أمام عينيه.

وقال موظف البنك "القطارات بالغة السرعة" وابتسم ابتسامة المحيط بالأمر، مضيفًا "لقد ابتعدنا عن لاهور مسافة لا تستطيع أن تمشيها فى يومين، وفى المساء سوف ندخل أومبالا".

وقال اللاما بصوت مرهق "وهى أبعد كثيرًا من بيناريس"، وكان يغمغم وهو يقضم الكعك الذى قدمه كيم إليه. وفتح جميع الركاب لفائفهم وشرعوا يتناولون وجبة الصباح. ثم قام كل من موظف البنك والمزارع والجندى بإعداد غليونه وملأوا المقصورة بدخان لاذع خانق، وأخذوا يبصقون ويسعلون ويستمتعون. وأما السيخ وزوجة المزارع فجعلا يمضغان اللوز الملفوف بورق الشجر (ويسمى پان) واللاما يتعاطي النشوق ويسبح بالمسبحة، ولكن كيم اكتفى بالابتسام، واضعًا ساقًا على ساق، سعيدًا بما أحس به من الشبع.

وفجأة طرح اللاما على الركاب جميعًا سؤالاً يقول "ما الأنهار التى تجرى حول بيناريس؟".

وقال موظف البنك بعد أن هدأت القهقهة المكتومة "لدينا جونجا (أى الجانچيز، النهر المقدس فى الهند)."

"وما سواه؟".

"ما سوى جونجا؟".

"لا ولكننى خطر لى **نهر** معين، نهر يحقق الشفاء".

"ذلك نهر جونجا. من يستحم فيه يتطهر ويذهب إلى الأرباب. لقد حججت ثلاث مرات إلى جونجا" وتلفت حوله فى فخر واعتزاز.

وقال الجندى الشاب بلهجة جادة "كنت تحتاج إلى هذا" فبدأ الركاب يضحكون من موظف البنك.

وتمتم اللاما قائلاً "يتطهر... حتى يعود إلى الأرباب. ثم يعود إلى الانخراط فى دورة الأحياء من جديد، ولا يزال مقيدًا **بالعجلة**".

وهز رأسه فى ضيق قائلاً "ولكن ربما وقع خطأ ما. ومَنْ إذن خلق نهر جونجا فى البداية؟".

وقال موظف البنك وقد هاله السؤال "الأرباب. أىُّ دينٍ معروفٍ تدينُ به؟".

"إننى أتبع **القانون – القانون السامى الأعظم**. إذن فقد خلقت الأرباب جونجا. وأية أرباب كانت تلك؟".

وتطلع الركاب إليه فى دهشة وعجب. لم يكن من المتصور أن يجهل أحد نهر جونجا.

وقال المرابى أخيرًا "وما... ما ربك أنت؟".

فهتف اللاما قائلاً "اسمعوا!" وجعل ينقل المسبحة بين يديه "اسمعوا! فلسوف أتكلم عنه الآن! يا أهل الهند اسمعوا!".

وبدأ يقص باللغة الأُردية قصة المولى بوذا، ولكن أفكاره جرفته إلى اللغة التيبتية، وإلى إلقاء نصوص منغومة من كتاب باللغة الصينية عن حياة بوذا. وكان الناس المهذبون المتسامحون من حوله ينظرون فى تبجيل. فالهند كلها

تزخر بالربانيين الذين يرددون الكتب المقدسة بلغات غريبة، من يرتعدون ويحترقون بلهيب حماسهم الباطن، ومنهم الحالمون والمثرثرون وأصحاب الرؤى، كما كان الأمر منذ البداية وكما سوف يستمر إلى النهاية.

وغمغم الجندى المنتمى إلى طائفة السيخ فى لوذيانا ثم قال "كانت ترابط بجوارنا فرقة من المسلمين، فى موقعة بيرزاى كوتال، وكان للفرقة كاهن، أذكر أنه كان برتبة نائب عريف، وكان إذا حلت به النوبة أدلى بنبوءات. ولكن المجانين كلهم فى رعاية الرب. وكان ضباط الفرقة يتغاضون عن الكثير فى مسلك هذا الرجل".

وعاد اللاما إلى الحديث باللغة الأُردية، بعد أن تذكر أنه فى بلد غريبة، قائلاً "اسمعوا قصة **السهم** الذى أطلقه مولانا من القوس".

وكانت هذه القصة أقرب إلى إرضاء أذواقهم، فاستمع الجميع فى عجب إليه وهو يقصها، إلى أن قال "والآن يا أهل الهند، سأذهب فى طلب ذلك **النهر**. فهل تعرفون شيئًا قد يرشدنى إليه، ما دمنا جميعًا رجالاً ونساءً واقعين فى الشر".

وسرت فى العربة كلها همهمة تقول "نهر جونجا! نهر جونجا وحده الذى يطهر المرء من الآثام".

وقالت زوجة المزارع "وإن كان مما لا شك فيه أن لدينا أربابَ خيرٍ فى طريق چولوندور" وأشارت إلى الشباك وهى تنظر قائلة "انظروا كيف باركت المحاصيل".

وقال زوجها "فحص كل نهر فى البنچاب ليس بالأمر الهين. أما أنا فيكفينى النهر الذى يأتى بالطمى الصالح إلى أرضى، وأنا أشكر الرب 'بهوميا'، رب الضيعة" وهز كتفه العارى النحاسى، الذى عقد عليه عقدة من قميصه.

والتفت اللاما إلى كيم وقال "أتظن أن مولانا قد رحل إلى مناطق نائية فى الشمال؟".

وقال كيم "يجوز" حتى يطيب خاطر اللاما، ثم بصق بعض عصير اللوز الأحمر على الأرض.

وقال المنتمى لطائفة السيخ,بلهجة الواثق من علمه "آخر العظماء كان الإسكندر ذا القرنين (الإسكندر الأكبر) فلقد عَبَّد شوارع چولوندور وبنى خزانًا كبيرًا بالقرب من أومبالا. والشوارع لاتزال مرصوفة حتى اليوم، والخزان لا يزال قائمًا. لم أسمع بربك قط".

وقال الجندى الشاب إلى كيم مازحًا "دع شعر رأسك يطول وتكلم باللغة السپنچابية!" وكان بهذا يقتبس أحد الأمثلة السائرة فى الشمال. ثم قال بصوت خفيض "لا شىء يميز السيخ غير هذا".

وتنهد اللاما وانكمش فى ذاته، فبدا كتلة لا شكل لها ولا جاذبية. وكان الركاب يسمعون أثناء توقفهم عن الحديث ترديد اللاما لدعاء باللغة التيبتية للجوهر الربانى لبوذا، بصوت خفيض منغوم، إلى جانب قعقعة حبات المسبحة الخشبية.

ورفع اللاما صوته أخيرًا قائلاً "هذا يضايقنى. السرعة والضجيج. يضايقنى. وإلى جانب هذا يا تلميذى أظن أننا ربما تجاوزنا النهر المنشود".

وقال كيم "اهدأ اهدأ! ألم يكن النهر بالقرب من بيناريس؟ إننا مازلنا بعيدين عن ذلك المكان".

"ولكن، إذا كان مولانا قد أتى إلى الشمال، فربما كان ذلك أحد تلك الأنهار الصغرى التى مررنا بها".

"لا أدرى".

"ولكنك أُرسلت إلىَّ. هل أُرسلت إلىَّ؟ بفضل الامتياز الذى اكتسبته هناك فى 'سوخزين'. من جوار المدفع أتيت، بوجهين، ورداءين".

وهمس كيم قائلاً "اسكت! يجب ألا يتحدث المرء عن هذه الأمور هنا. لم

أكن إلا فردًا واحدًا. فكر مرة أخرى وسوف تتذكر. صبى – صبى هندوسى – بجوار المدفع الأخضر الضخم".

"لكن ألم يكن هناك أيضًا رجل إنجليزى ذو لحية بيضاء – رجل ربانى بين الصور – وهو الذى أكد ثقتى فى وجود **نهر السهم**؟".

وبدأ كيم يشرح للركاب الذين أقبلوا يستمعون بشغف قائلاً "ذَهَبَ – بل ذهبنا – إلى بيت العجائب فى لاهور للصلاة للأرباب هناك. وكان الرئيس المسؤول عن بيت العجائب يخاطبه مخاطبة الأخ لأخيه – وهذا حق وصدق. إنه رجل ربانى بالغ القداسة من أقصى مكان خلف الجبال. استرح الآن. سوف نصل آخر الأمر إلى أومبالا".

"ولكن أين نهرى؟ نهر الشفاء؟".

"وعندها، لو أسعدك هذا، سوف نمضى للبحث عن ذلك النهر سيرًا على الأقدام. وذلك حتى لا يفوتنا شىء قط، ولا حتى نهير ضئيل فى حقل جانبى".

"ولكن لديك أنت بحثًا خاصًّا بك!؟"، وأحس اللاما بالرضى الغامر لأنه استطاع أن يتذكر بوضوح، فاعتدل فى جلسته.

وقال كيم "نعم" حتى يرضيه. وكان الصبى يشعر بسعادة غامرة لخروجه من المدينة، ومضغ اللوز، ومشاهدة أشخاص جدد فى العالم الكبير المنبسط الأسارير.

"كان ثورًا. إنه ثور أحمر سوف يأتى ليساعدك. وليحملك... إلى أين؟ لقد نسيت. ثور أحمر فى حقل أخضر. ألم يكن الأمر كذلك؟".

وقال كيم "لا! بل لن يحملنى إلى أى مكان. لم تكن تلك غير قصة قصصتها عليك".

وقالت زوجة المزارع "ما هذا؟" ومالت بقامتها إلى الأمام فارتفع صليل الأساور فى ذراعها "هل يرى كل منكما أحلامًا؟ ثور أحمر فى حقل أخضر،

وسوف يحملك إلى السماء... أم ماذا؟ هل كانت رؤيا؟ هل تنبأ أحد نبوءة معينة؟ لدينا نحن ثور أحمر فى قريتنا خلف مدينة چولوندور، وهو يرعى كيفما شاء فى أشد حقولنا خضرة!".

وقال المنتمى لطائفة السيخ "أعط امرأة قصة خرافية وطائرًا نساجًا وورقة من أوراق الشجر وبعض الخيوط وسوف ينسجن أشياء رائعة! كل الرجال الربانيين يرون أحلامًا، وتلاميذهم يتبعونهم فيكتسبون منهم تلك الطاقة".

وكرر اللاما ما قاله "ثور أحمر فى حقل أخضر؟ ربما كنت قد اكتسبت الامتياز فى حياة سابقة، وسوف يأتى الثور ليكافئك".

"لا لا! كانت مجرد قصة قصها أحدهم علىَّ، أعنى من باب التفكه. لكننى سوف أبحث عن الثور فى أومبالا، وتستطيع عندها أن تبحث عن نهرك وتستريح من خضخضة القطار".

وقال اللاما فى نبرات أمل طفولية "ربما كان الثور يعلم أنه مُرسل لإرشاد كل منا". ثم وجه خطابه للركاب، وأشار إلى كيم قائلاً "أُرسل لى هذا يوم أمس فقط. أظن أنه ليس من هذا العالم".

وقالت المرأة "ما أكثر من قابلت من المتسولين، ومن الربانيين أيضًا، ولكننى لم أصادف قط مثل هذا اليوجى، ولا مثل هذا التلميذ".

ولمس زوجها جبهته لمسة خفيفة بأصبعه وابتسم. ولكن المرة التالية التى تناول اللاما فيها الطعام، حرص الجميع على تقديم أفضل ما لديهم له.

وأخيرًا وصل الجميع – متعبين متربين يغالبون النعاس – إلى محطة مدينة أومبالا.

وقالت زوجة المزارع إلى كيم "سنقيم هنا انتظارًا للحكم فى إحدى القضايا. وسوف نسكن فى منزل الأخ الأصغر لابن عم زوجى. ويوجد مكان أيضًا فى الفناء لأستاذك اليوجى ولك. هل... هل يمنحنى بركة؟".

وقال كيم "أيها الرجل الربانى! هذه امرأة ذات قلب من ذهب تعرض علينا مكانا نبيت فيه الليلة. إنها أرض عطوف، أرض الجنوب. وانظر كم ساعدونا منذ الفجر!".

وحنى اللاما رأسه داعيًا بالخير.

وقال الزوج وهو يضع عصاه الخيزرانية الثقيلة على كتفه "هل املأ منزل شقيق ابن عمى الأصغر بالعاطلين..".

وردت المرأة بنبرات حادة "ما زال الشقيق الأصغر لابن عمك مدينًا لابن عم والدى بمبلغ منذ حفل زفاف ابنته. دعه يقدم الطعام تسوية لذلك الحساب. سوف يتسول اليوجى. لا شك عندى فى هذا".

وقال كيم "نعم. أنا أتسول له"، إذ كان لا يحرص إلا على تدبير مأوى يبيت فيه اللاما ليلته، حتى يتمكن هو من مقابلة الإنجليزى الذى وصفه له محبوب على، وحتى يسلم إليه الرسالة الخاصة بأصالة نسب فحل الخيل.

واطمأن كيم عندما وصل اللاما إلى موقع مريح فى الفناء الداخلى لمنزل هندوسى جميل خلف الثكنات العسكرية، فقال له "اسمع! سأنصرف الآن لبعض الوقت حتى... حتى أشترى لنا طعامًا من السوق. لا تنطلق خارج هذا المكان حتى أعود".

وقبض العجوز على معصم كيم قائلاً "سوف تعود؟ سوف تعود قطعًا؟ وسوف تعود إلىَّ فى هذه الهيئة نفسها؟ هل تأخر الوقت ولن نستطيع الليلة طلب النهر؟".

"تأخر الوقت وحلك الظلام. ولكن اطمئن. تذكر المسافة التى قطعتها على الطريق! لقد ابتعدت ١٦٠ كيلومترًا عن مدينة لاهور فعلاً!".

"نعم وابتعدت عن الدير الذى أنتمى إليه. واحسرتاه! إنه لعالم كبير رهيب!".

وتسلل كيم خارجًا. لم يكن يبدو من جرمه النحيل أن مصيره ومصير عدة آلاف معلق فى التميمة حول رقبته. كانت إرشادات 'محبوب على' واضحة قاطعة فتمكن بيسر من الاهتداء إلى منزل الإنجليزى المقصود، وعندما رأى سائسًا عائدًا بعربة ذات عجلتينْ من النادى تيقن تمامًا من المنزل. لم يبق أمامه إلا أن يتعرف على الشخص المقصود، فتسلل كيم إلى السياج النباتى واختبأ فى نصال الكلأ الطويلة المجاورة للشرفة. كانت الأضواء تتلألأ فى المنزل، والخدم ينتقلون ما بين الموائد التى وُضعت عليها طاقات الزهر والأكواب الزجاجية وأدوات المائدة الفضية. وسرعان ما خرج من المنزل رجل إنجليزى يرتدى حلة تجمع بين اللونين الأسود والأبيض، وهو يردد لنفسه لحنًا معينًا. كان الظلام حالكا فلم يستطع كيم مشاهدة وجهه، وهكذا طرأ لكيم أن يستعين بحيلة قديمة من حيل التسول.

هتف كيم "يا من تحمى الفقراء!".

وتراجع الرجل فى اتجاه الصوت.

فأردف كيم قائلاً "محبوب على يقول..".

ورد الرجل دون أن يحاول البحث عن المتحدث "ها؟ ماذا يقول محبوب على؟" ودل ذلك كيم على أن الرجل يعرف.

"ثبتت صحة أصالة نسب فحل الخيل الأبيض".

وتحول الإنجليزى إلى جانب الحديقة الذى غُرِسَتْ فيه أشجار الورد وقال "وما البرهان على ذلك؟".

وقال كيم "أعطانى 'محبوب على' هذا بمثابة البرهان". وألقى كيم لفة الورق المطوى فى الهواء فسقطت على الممشى بجوار الرجل، فوضع هذا قدمه عليها حتى لا يشاهدها البستانى الذى كان مقبلاً من ركن الحديقة. وعندما خرج البستانى انحنى فالتقط اللفَّة وألقى بروبية على الأرض، واستطاع كيم أن يسمع رنينها، ثم دخل الرجل مباشرة إلى المنزل دون أن يلتفت إلى الوراء

ولو مرة واحدة. والتقط كيم قطعة النقود بهدوء، ولكنه، على الرغم من كل ما تعلمه، كان يتميز بما يتميز به كل أيرلندى مثله، إذ كان يرى أن الفضة أقل جوانب 'اللعبة' أهمية. كان الذى ينشده هو التأثير الملموس لما فعله، وهكذا فبدلاً من التسلل خارجًا، رقد ملاصقًا للكلأ وتقدم خُلْسَةً حتى اقترب كثيرًا من المنزل.

وكان المنزل ڤيلا هندية من الطراز المعمارى الذى يكشف عن كل ما بداخله، فشاهد الرجل الإنجليزى يعود إلى غرفة صغيرة لارتداء الملابس، فى ركن إحدى الشرفات، وكانت تُستخدم مكتبًا له أيضًا، إذ تناثرت فيها الأوراق والطرود. ورأى كيم الرجل وهو يجلس ليفحص رسالة محبوب على، وشاهد كيم وجه الرجل، على الضوء الساطع لمصباح الكيروسين، وقد تغير واكفهر، ولما كان كيم، مثل كل شحاذ، قد اعتاد تأمل الوجوه، فقد راعه ذلك وتأمله بدقة.

وصاح صوت نسائى "وليم وليم يا عزيزى! لابد أن تكون فى حجرة الاستقبال. فسوف يصلون حالا".

ولكن الرجل واصل انهماكه فى القراءة.

ثم اندفع الرجل خارجًا عارى الرأس عندما وصلت عربة كبيرة يتبعها أربعة من المجندين الفرسان من أبناء البلد، وتوقف الجميع خلف الشرفة، وخرج منها رجل طويل ذو شعر أسود وقامة منتصبة كالسهم، يسبقه ضابط شاب يضحك فى مرح.

كان كيم يرقد على بطنه ويكاد يلمس العجلات الكبيرة حين سمع حوارًا من جملتين بين صاحبه وبين الغريب الأسمر.

وقال الضابط الشاب بسرعة "قطعًا يا سيدى. قضية الحصان لها الأولوية على كل شيء".

وقال صاحب كيم "لن نغيب أكثر من عشرين دقيقة. لك أن تقوم بواجب الضيافة. فقدم لهم التسرية والمرطبات وما إلى ذلك".

وقال الرجل الطويل "قل لأحد الفرسان أن ينتظر" ثم دخل الرجلان معًا غرفة الاستقبال، وانصرفت العربة، وشاهد كيم الرجلين منكبين على رسالة محبوب على، وسمع نوعين من الأصوات، الأول خفيض مطيع والثانى حاد قاطع.

وقال الأكبر سنًا "ليست مسألة أسابيع، بل مسألة أيام، وتكاد تكون مسألة ساعات. كنت أتوقع ذلك من فترة، ولكن هذا" – ونقر بأصابعه على ورقة محبوب على – "قد حسم القضية. ألن يحضر 'جروجان' حفل العشاء الليلة هنا؟".

"نعم يا سيدى. وماكلين أيضًا".

"جميل جدًا. سأكلمهما بنفسى. سيحال الأمر إلى المجلس طبعًا، ولكننى أفترض أن علينا فى هذه القضية أن نتخذ إجراءً فوريًا، وللافتراضى ما يبرره. أرسل تحذيرًا إلى اللواءين المرابطين فى روالبندى (فى باكستان حاليًا) وفى پيشاور. وسوف يؤدى هذا إلى خلخلة العطلات الصيفية، ولكن لا حيلة لنا فى ذلك. وكل هذا لأننا لم نسحقهم تمامًا فى المرة الأولى. يكفى ثمانية آلاف".

"والمدفعية يا سيدى؟".

"لابد أن أستشير ماكلين".

"هذا معناه الحرب إذن؟"

"لا. بل التأديب. عندما يكون المرء ملتزمًا بما فعله سلفه".

"ولكن سى٢٥ قد يكون كاذبًا".

"إنه يؤكد معلومات الآخر. والواقع أنهم كشفوا أوراقهم منذ ستة أشهر،

ولكن ديـڤـنيش كان يرى فرصة لإحلال السلم. واستغلوا الهدنة طبعًا لتدعيم قوتهم. أرسل هذه البرقيات على الفور، استخدم الشفرة الجديـدة لا القديمـة، شفرتى وشفرة وورتون. لا أظن أننا ينبغى أن نتأخر عن السيدات مدة أطول، ونستطيع تسوية باقى المسائل ونحن ندخن. كنت أتوقع حـدوث ذلـك. إنـه تأديب، لا حرب".

وعندما انصرف الفارس على جواده، زحف كيم حتى بلغ الجزء الخلفـى من المنزل، واستنادًا إلى خبراته فى لاهور، كان يتوقع أن يجد فيـه الطعـام والمعلومات. كان المطبخ مكتظا بمساعدى الطهاة، وركله أحدهم.

وصاح كيم باكيًا "آى! لم آت إلا لأغسل الأطباق فى مقابل ملء بطنى".

"كل من فى أومبالا يسعى لذلك. انصرف. لقد بدأ تقديم الحساء. هل تظن أننا، نحن الذين نخدم الرئيس كرايتون، نحتاج مرمطونات غرباء لمـساعدتنا فى حفل العشاء الكبير؟".

وقال كيم "إنه حفل عشاء كبير جدًا" ناظرًا إلى الأطباق.

"ولا غرو! إن ضيف الشرف هو القائد العام بنفسه!".

وقال كيم "هوه!" مصدرًا الأصوات الحلقية التى تعبر عن الدهشة بصدق. كان قد عرف ما يريد أن يعرف، وعندما عاد المرمطون كان كيم قد انصرف.

وقال كيم فى نفسه "وكل هذا التعب من أجل أصالة نسب حصان!" كـان يفكر كعادته باللغة الهندوستانية. "كان يجب على محبوب علـى أن يقـصدنى ليتعلم بعض الكذب. كانت جميع الرسائل التى حملتها من قبل تتعلق بالنـساء. وهذه المرة تتعلق الرسالة بالرجال. هذا أفضل. ذلك الرجل الطويل قال إنهـم سوف يرسلون جيشًا جرارًا لتأديب شخص ما، فى مكان ما، وسوف يرسلون النبأ إلى روالـپـندى وإلى پيشاور. وسوف يستخدمون المدافع أيضًا. ليتنـى زحفت إلى مكان أقرب. هذه أنباء جبارة!".

عاد كيم ليجد الأخ الأصغر لابن عم المزارع منهمكا فى مناقشة قـضية

الأسرة بشتى جوانبها مع المزارع وزوجته وبضعة أصدقاء، واللاما نائم. وبعد وجبة المساء قدم إليه أحدهم طرف الشيشة، وشعر كيم بأنه قد أصبح رجلاً حقًا حين شد الأنفاس من 'الجوزة' الناعمة، مادًّا ساقيه فى ضوء القمر، مصدرًا بعض التعليقات من وقت لآخر. كان مضيفوه بالغى التأدب، إذ كانت زوجة المزارع قد أخبرتهم بأمر الثور الأحمر، وباحتمال انتماء نسبه إلى عالم آخر. أضف إلى ذلك أن اللاما كان يمثل أعجوبة عظمى جديرة بالتبجيل. ووصل كاهن الأسرة فى وقت لاحق، وكان من طائفة كهان 'سرسوت براهمين'، طاعنًا فى السن متسامحًا، وبدأ بطبيعة الحال مناقشة لاهوتية، حتى يبهر أفراد الأسرة. كان الجميع من زاوية العقيدة منحازين إلى الكاهن. بطبيعة الحال، ولكن اللاما كان الضيف ومصدر 'الجدة'. كان ذا رقة ولطف يأسر الأفئدة، وكانت مقتطفاته باللغة الصينية باهرة تعمل عمل التعاويذ وتبهج الصدور أيما بهجة، وانطلق بهذه اللمسات الحنون البسيطة يتحدث بإسهاب كأنه زهرة اللوتس الخاصة ببوذا نفسه، فقص عليهم طرفًا من حياته فى الجبال العظمى، جبال 'سوخزين' مضيفًا إن ذلك كان "قبل أن أنهض فى طلب التنوير".

واتضح فى غضون الحديث أنه كان فى تلك الأيام أستاذا فى فن معرفة الطالع ودلالات تواريخ المواليد، وجره كاهن الأسرة إلى وصف أساليبه، وكان كل منهما يطلق على الكواكب أسماء لم يستطع الآخرون فهمها، وكان يشير إلى السماء حيث تبحر النجوم الكبرى وسط الظلام. وكان أطفال الأسرة يشدون مسبحته دون أن يلومهم أحد، ونسى تمامًا القاعدة التى تحرم النظر إلى المرأة وهو يتحدث عن الثلوج التى لا تنصهر، وعن المنزلقات الأرضية، والممرات الجبلية المسدودة، والصخور السامقة البعيدة حيث يجد الرجال الياقوت الأزرق والفيروز، وعن ذلك الطريق الصاعد الرائع المؤدى آخر الأمر إلى الصين العظمى.

وقال المزارع جانبًا إلى الكاهن "ما رأيك فى هذا؟".

وأجابه قائلاً "رجل رباني. رباني حقا. أربابه ليست الأرباب، ولكن أقدامه على الطريق. وأساليبه في تحليل دلالات تواريخ المواليد، وإن كانت تستعصي عليك، تتسم بالحكمة واليقين".

وقال كيم في تكاسل "أخبرني إن كنت سوف أجد ثوري الأحمر في حقل أخضر حسبما وُعِدْتُ بذلك".

وقال الكاهن منتفشًا بإحساسه بالأهمية "ماذا تعرف عن ساعة مولدك؟".

"ما بين الهزيع الأول والثاني بالليلة الأولى من شهر مايو".

"في أي عام؟".

"لا أعرف. ولكن في الساعة التي بكيت فيها وقع الزلزال العظيم في سريناجار التي في كشمير". كان كيم قد عرف ذلك من المرأة التي تولت رعايته، وسمعته هي بدورها من والده كيمبول أوهارا. وكان الناس قد شعروا بالزلزال في الهند، وظل الناس في البنچاب يؤرخون بوقت وقوعه زمنًا طويلاً.

وقالت إحدى النساء بنبرة انفعال "نعم!" كان قول كيم يؤكد فيما يبدو صحة 'أصوله' الخارقة. "ألم تكن بنت فلانة قد وُلدت آنذاك".

وصاحت زوجة المزارع "وحملت أمها لزوجها أربعة أبناء في أربع سنوات، وكلهم غلمان نجباء!" وكانت الزوجة تجلس في الظل خارج الحلقة.

وقال كاهن الأسرة "لا ينسى كل من درج على العلم والمعرفة مواقع الكواكب في أبراجها تلك الليلة". وشرع في رسم أشكال في تراب الفناء، ثم قال "من حقك على الأقل نصفُ برج الثور. ما مدى صحة نبوءتي؟".

كان كيم فرحًا بالمشاعر التي أثارها فقال "يومًا ما سأصبح عظيمًا بفضل ثور أحمر في حقل أخضر، ولكن رجلين سوف يدخلان أوّلاً لتهيئة الأحوال لذلك".

"نعم نعم. هذا ما يحدث دائمًا فى مستهل الرؤيا. ظلام كثيف ينجلى ببطء، وسرعان ما يدخل شخص بمكنسة لإعداد المكان. ثم يبتدئ **المشهد**. رجلان - هل قلت ذلك؟ نعم نعم. الشمس، وهى تغادر برج الثور، تدخل برج الجوزاء. والجوزاء نجمان، وهو ما يفسر وجود الرجلين فى النبوءة. فلننظر فى الأمر الآن. أحضروا لى غصنًا. غصنًا صغيرًا".

وزم حاجبيه، وخط خطوطًا فى التراب ثم محاها ورسم علامات غامضة فى الأرض، والجميع فى دهشة باستثناء اللاما الذى هداه حدسه الصائب إلى عدم التدخل.

وبعد نصف ساعة قذف بالغُصْنِ بعيدًا بصيحة ضيق.

"همم! هذا ما تقوله النجوم. فى غضون ثلاثة أيام يأتى الرجلان لتهيئة الأحوال وبعدهما يأتى الثور، ولكن العلامة المواجهة له علامة الحرب والمسلحين".

وقالت زوجة المزارع بلهجة الأمل فى المشاركة "فعلا! كان فى عربة القطار القادم من لاهور رجل من رجال سيخ لوذيانا!".

وقال الكاهن لكيم "أتحدث عن رجال مسلحين، عن مئات كثيرة. ما شأنك بالحرب؟ إن علامتك علامةٌ حمراءُ غاضبةٌ خاصة بالحرب التى توشك أن تندلع".

وقال اللاما بنبرة حماس "لا شأن لنا إطلاقًا! لا نسعى إلا إلى السلم وإلى **نهرنا**!".

وابتسم كيم، إذ تذكر ما سمعه خلسة فى غرفة ارتداء الملابس، وقال فى نفسه إن النجوم تحابيه دون أدنى شك.

ومسح الكاهن الرسم الخاص بقراءة الطالع بقدمه، قائلاً "لا أستطيع أن أرى أكثر من هذا. بعد ثلاثة أيام يأتى الثور إليك يا صَبِىُّ".

وصاح اللاما مناشدًا الكاهن "و**نهرى** أنا! **نهرى** أنا! كنت أرجو أن يهدينا هذا الثور معًا إلى **النهر**".

وأجاب الكاهن قائلاً "للأسف! لا شيء يبين عن هذا **النهر** الرائع يا أخي! أمثال هذه الأشياء ليست مألوفة".

وأصر اللاما على الرحيل في صباح اليوم التالي، على الرغم من إلحاح الصحبة عليهما بالبقاء، ولكنهم أعطوا كيم لفافة ضخمة من الطعام الشهي، ونحو ثلاث أنّات بالعملات النحاسية لمواجهة حاجات الطريق، وأهالوا البركات عليهما وهم يودعونهما أثناء انطلاقهما على الطريق المتجه جنوبًا في الفجر.

وقال اللاما "من المؤسف أن هؤلاء وأمثالهم لا يمكن تحريرهم من **عجلة الأشياء**".

وقال كيم "إذن لن يبقى على وجه الأرض إلا الأشرار، ومن عسى أن يقدم إلينا إذن اللحم والمأوى؟"، وكان يسير في مرح حاملاً أثقاله.

وقال اللاما "هناك جدول صغير، فلنتحقق منه" وسار أمام كيم، تاركًا الطريق الأبيض، عابرًا الحقول، فإذا هو في وسط كلاب شريدة كأنها عُشُّ الزنابير.

الفصل الثالث

نَعَمْ! يا صَوْتَ كُلِّ نَفْسٍ عِنْدَنا مُسْتَمْسِكَةْ

بِهذِه الحَيَاةِ وهى تَمْضِى صَاعِدَةْ

فى سُلَّم مِنْ دَرَجَة لِدَرَجَةْ

فى صَدْرِ عُمْرِ الحاكم ابْن عَمِّ بُوذَا

ديـــڤــــاداتا

تأتى نَسَائِمٌ إلينا دَافِئَةْ

بكاماكورا!

(بوذا فى كماكورا)

كان من خلفهما مزارع غاضب يلوّح بعمود من الخيزران، وكان يزرع الأرض بمحاصيل السوق، ومن طائفة 'أرين' التى تضم مزارعى الـــبـــنـــچـــاب، فكانت فى أرضه الخضراوات والزهور التى يحملها إلى مدينة أومبالا، وكان كيم يعرف هذه 'السلالة' خير المعرفة. وقال اللاما، متجاهلاً الكلاب، "مثل هذا الرجل لا يتأدب مع الأغراب، فظ الألفاظ لا يؤمن بالإحسان. فكن على حذر من سلوكه يا تلميذى".

وصاح المزارع "أيها المتسولان الوقحان! اغربا عن وجهى! انصرفا من هنا!".

ورد اللاما قائلاً "سنمضى" بوقار رصين. "سنترك هذه الحقول غير المباركة".

وتلاه كيم، بشهقة قصيرة، قائلاً "نعم! إذا أخفق محصولك المقبل فلا تلم إلا لسانك".

وتململت أقدام الرجل بقلق فى خُفَّيْه وقال فى شبه اعتذار"البلد تعج بالمتسولين".

وقال كيم بنبرات لاذعة "وهو ما جعلك تظن أننا سوف نسألك الإحسان أيها السوقى؟"، وكان الوصف بالسوقى أشد ما يكرهه مزارعو محاصيل السوق.

"كل ما نسعى إليه هو العثور على النهر الذى يجرى خلف الحقل هنا".

وقال الرجل بصوت أجش "النهر حقا! من أى مدينة جئتما حتى تجهلا شكل القناة المحفورة؟ إنها مستقيمة كالسهم، وأنا أدفع ثمن الماء كأنما كان فضة مصهورة. للنهر رافد خارج أرضى، ولكن إن كنتما تطلبان الماء قدمته لكما، بل واللبن أيضًا".

وقال اللاما دون أن يتوقف عن المسير "لا بل سنمضى إلى النهر".

وتمتم الرجل قائلاً "اللبن والطعام". وجعل يتأمل الرجل الطويل الغريب ثم قال "لا.. لا أريد الشر لنفسى، ولا لمحاصيلى. ولكن المتسولين كثروا فى هذه الأيام العصيبة".

والتفت اللاما إلى كيم وقال "لاحظ! ما دفعه إلى الكلام الفظ كان الضباب الأحمر، ضباب الغضب. فلما انقشع الضباب من عينيه أصبح مهذبًا طيب القلب! بوركت هذه الحقول! حذار أن تتسرع فى إصدار الأحكام على الأغراب أيها المزارع!".

وقال كيم للرجل الذى بدأ يشعر بالخجل "لقد قابلت رجالاً ربانيين كان يمكن أن يستمطروا عليك اللعنات من قلب بيتك إلى حظيرة مواشيك. أليس هذا الرجل حكيمًا وربانيًا؟ إننى تلميذه".

ورفع أنفه متعاليًا وعبر الحدود ما بين الحقول بوقار وشمم.

وقال اللاما بعد هنيهة "لا يوجد الكِبْر... لا يوجد التعالى بين من يتبعون **الطريق الأوسط**".

"ولكنك قلت إنه خفيض الطائفة وغير مهذب".

"لم أقل إنه خفيض الطائفة، إذ كيف يمكن وصف أحد بما ليس فيه؟ وقد صحح فظاظته بعد ذلك ونسيت أنا الإساءة. أضف إلى ذلك أنه مثلنا: مربوط إلى عجلة الأشياء، ولكنه لا يخطو فى طريق الخلاص". وتوقف قليلاً عند جدول صغير بين الحقول، وجعل يتأمل الضفة التى بدت فيها آثار الحوافر.

وقال كيم، وهو يُقعى فى ظل بعض قصب السكر الطويل "وكيف تعرف الآن **نهرك** ؟".

"عندما أجده سوف أُمنح قدرًا من التنوير بلا شك. ويقول إحساسى إن هذا ليس المكان المنشود. يا أصغر مجرى ماء فى الدنيا! ليتك تستطيعِ إخبارى أين يجرى نهرى! ولكنْ فلتُبارِكْ أيها المجرى حتى تحملَ الحقولُ محاصيلها!".

وانتفض كيم من جانبه صائحًا "انظر! انظر!" وشده إلى الخلف. كان ثعبان يجمع بين اللونين الأصفر والبنى قد زحف خارجًا من بين الجذوع الأرجوانية، بخشخشة خافتة، فوصل إلى الضفة، ومَدَّ رقبته إلى الماء فشرب ثم رقد بلا حراك. كان من نوع الصِّل (الكوبرا) الضخم بأعين ثابتة لا أجفان لها.

وصاح كيم "لا أحمل عصًا! لا أحمل عصًا! سأحضر عصًا وأكسر رقبته!".

"لماذا؟ إنه مقيد **بالعجلة** مثلنا – روح صاعدة أو هابطة – أبعد ما تكون عن الخلاص. لابد أن الروح التى جُعِلَتْ فى هذا الشكل قد أتت شرًّا عظيمًا".

وقال كيم "أكره جميع الثعابين". لن يفلح أى تدريب محلىٍّ فى قهر خوف الرجل الأبيض من الثعبان.

"اتركه يعش حياته للنهاية". وكان الثعبان قد التف حول نفسه، وأخذ يهس، وبدأ ينشر غطاء رأسه. واستمر اللاما يقول بلهجة هادئة "فليأت إطلاق

سراحك بسرعة يا أخى! ترى هل تصادف أن أتاك **أنت** العلم بموقع **نهرى**؟".

وهمس كيم قائلاً "لم أشهد قط رجلاً مثلك". وغلبه العجب مما رأى وسمع، فقال "ترى هل تفهم الأفاعى نفسها كلامك؟".

"من يدرى؟"، وتقدم حتى اقترب من رأس الصل المنتصب إلى مسافة قدم واحدة. فأحنى الصل رأسه وانبسط جسمه على الأرض.

ونظر من فوق كتفه ونادى كيم "هيا هيا!".

وقال كيم "لا أرجوك! سوف أدور حوله".

"تعال أقول! إنه غير مؤذ!".

وتردد كيم لحظة. وساند اللاما دعوته بتلاوة مقتطف منغوم باللغة الصينية شعر كيم بأنه تعويذة فأطاع اللاما ووثب عبر النهير، ولم يبد الثعبان فى الواقع أى دليل على العدوان.

ومسح كيم العرق المتصبب من جبهته قائلاً "لم أر فى حياتى مثل هذا الرجل! فأين نذهب الآن؟".

"لا أستطيع أنا القطع فى هذا. فأنا عجوز وغريب، وبعيد عن موطنى. ولولا أن عربة القطار تملأ رأسى بضجيج طبول الشيطان لركبت القطار الآن إلى بيناريس... ولكن الذهاب الآن قد يجعلنا نفتقد **النهر**. فلنبحث عن نهر آخر".

وانطلقا، فعبرا الحقول التى يُجهد المزارعون فيها الأرض حتى تخرج ثلاثة محاصيل أو أربعة فى العام، ومرا فى طريقهما بمزارع قصب السكر، والتبغ والفجل الأبيض الطويل، واللفت، وظلا يسيران طول النهار، ملتفتين إلى كل ماء يجرى على الأرض، وكانا يوقظان الكلاب النائمة فى القرى، والقرى الناعسة ساعة القيلولة، وكان اللاما يجيب على الأسئلة المتلاحقة ببساطة لا تتغير قط. كانا يطلبان **نهرًا** – **نهرًا** قادرًا على الشفاء الخارق. هل كان لدى أىّ أحد علمٌ بهذا النهر؟ كان الناس أحيانًا يضحكون. ولكنهم كانوا

فى الغالب يُنصتون إلى القصة حتى آخرها ثم يقدمون إليهما مكانًا فى الظل، وشرابًا من اللبن، وبعض الطعام. وكانت النساء يبدين العطف دائمًا، وكان الأطفال، كشأن الأطفال فى كل مكان بالعالم، يبدون الخجل أحيانًا ويقومون بالمغامرة أحيانًا أخرى. وعندما حل المساء كانا يستريحان فى ظل شجرة بقريةٍ جدرانُ منازلها وسقوفها من الطين، ويحادثان رئيس القرية أثناء عودة الماشية من مراعيها وانهماك النساء فى إعداد وجبة اليوم الأخيرة. كانا قد تخطيا حزام 'مزارع السوق' حول أومبالا الجائعة، ودخلا المنطقة الخضراء حيث تُزْرَعُ المحاصيل الرئيسية فى مساحة عرضها ميل كامل.

كان رئيس القرية رجلاً مُسِنًا ذا لحية بيضاء، دمث الخلق، معتادًا على استضافة الغرباء. وبسط الرجل فراشًا معلقًا ليبيت فيه اللاما، وقدم إليه طعامًا مطهوا ساخنًا، وأعد له غليونًا، وبعد أن انتهت شعائر المساء فى معبد القرية، أرسل من يدعو كاهن القرية إلى الحضور.

وأخذ كيم يقص على الأطفال الكبار قصصًا عن حجم مدينة لاهور وجمالها، وعن السفر بالقطار، وأمثال هذه الظواهر لحياة المدينة، والرجال منهمكون فى الحديث ببطء وماشيتهم تجتر طعامها.

وقال رئيس القرية آخر الأمر للكاهن "لا أستطيع سبر غوره! كيف تفسر ما يقوله؟" وكان اللاما قد خلد إلى الصمت بعد أن قص قصته وانشغل بمسبحته.

وأجابه الكاهن قائلاً "إنه ساع فى طلب شيء. والأرض تزخر بأمثال هؤلاء. هل تذكر الرجل الذى جاءنا منذ شهر وحسب؟ ذلك 'الفقير' بسلحفاته؟".

"نعم، ولكن ذلك الرجل كان الحق والمنطق فى جانبه، إذ ظهر له الرب كريشنا نفسه فى رؤيا ووعده بالفردوس من دون إحراق جثمانه إذا رحل إلى مدينة 'براياج' ('اللاهاباد' فى شمال الهند). وهذا الرجل يطلب ربًّا ليس فى محيط علمى".

وأجاب الكاهن الحليق الذقن قائلاً "اسكتْ! إنه عجوز وقادم من مكان

بعيد، ومجنون!" ثم قال "اسمعنى" والتفت إلى اللاما مضيفًا "على بعد ثلاثة فراسخ غربًا يجرى الطريق العظيم إلى كالكتا".

"لكننى أريد الذهاب إلى بيناريس - إلى بيناريس".

"وإلى بيناريس أيضًا. إنه يعبر جميع الأنهار فى هذا الجانب من الهند. ونصيحتى إليك الآن أيها الرجل الربانى أن تستريح هنا حتى الغد. ثم ابدأ السير فى الطريق"، وكان يقصد طريق العربات العظيم (الذى يمتد من كالكتا إلى بيشاوار ومن أليجار إلى بومباى)، "وافحص كل نهر يقابلك ويعبره الطريق، فحسبما أفهم، لا تكمن فضيلة النهر فى منطقة واحدة منه بل تمتد بطوله كله. وبعدها، إذا شاءت أربابك، ثِقْ أنك سوف تصادف حريتك".

وقال اللاما "أحسنت القول". وبدا أن الخطة أعجبته: "سوف نبدأ غدًا، ولتهبط عليك البركة لإرشاد الأقدام العتيقة لمثل هذا الطريق القريب". واختتم الرجل عبارته بترنيمة صينية عميقة شبه منغومة، نالت إعجاب الجميع، حتى الكاهن نفسه، وكان رئيس القرية يخشى أن تكون تعويذة شر، ولكن لم يكن أحد يستطيع أن يتطلع إلى وجه اللاما السمح الساذج الصادق إلا نفض كل شك أو ريبة فيه.

وقال "هل ترى تلميذك؟"، وأخذ من صندوق النشوق قدرًا لا بأس به قدمه إليهم. كان واجبه يقضى بالرد على المجاملة بمجاملة مثلها.

وقال رئيس القرية "أرى... وأسمع". وألقى رئيس القرية نظرة على كيم وهو يحادث فتاة تلبس رداءً أزرق وتضع بعض الأشواك التى تئز فى النار.

وقال اللاما "لديه هو أيضًا شيء يسعى فى طلبه. ليس نهرًا بل ثور. نعم. ثور أحمر فى حقل أخضر، وسوف يأتيه ذات يوم ليرفعه إلى مرتبة الشرف.

"إنه، فى اعتقادى، لا ينتمى إلى هذا العالم. لقد أُرسل فجأة إلىَّ لمساعدتى فى هذا المسعى، واسمه هو صديق العالم كله".

وابتسم الكاهن. وهتف هتافًا طار عبر الدخان ذى الرائحة النفاذة "أنت! اسمع أنت يا صديق العالم كله! ماذا أنت؟".

وقال كيم "تلميذ الرجل الربانى".

"يقول إنك روح".

وقال كيم "وهل تستطيع الروح أن تأكل؟" وتلألأت عيناه فأضاف "إذ إننى جائع!".

وصاح اللاما "ليس هذا هزلاً! فقد قال أحد المنجمين فى تلك المدينة التى نسيت اسمها...".

وهمس كيم إلى الكاهن "لم تكن إلا مدينة أومبالا حيث قضينا ليلة أمس".

"نعم هل كانت أومبالا؟ إنه كَشَفَ الطالع وأعلن أن تلميذى سوف يجد مطلبه فى غضون يومين. ولكن ماذا قال عن معنى النجوم يا صديق العالم كله؟".

وتنحنح كيم وجال ببصره بين شيوخ القرية ذوى اللحى البيضاء.

ثم أجاب بتفاخر "معنى النجوم هو الحرب".

وندت ضحكةٌ شاردة على هذا الصغير ذى الملابس الرثة الذى يتباهى بنفسه جالسًا فوق القاعدة المبنية من القرميد حول الدوحة. وإذا كانت الضحكة كفيلة بإسكات ابن البلد واستكانته، فإنها أثارت دماء الرجل الأبيض عند كيم فنهض واقفًا.

وأجاب كيم "نعم! الحرب!".

وارتفع هدير صوت عميق يقول "هذه نبوءة مؤكدة. فالحرب تدور دائمًا على الحدود... فيما أعلمه".

كان ذلك صوت رجل هرم أعجف البنيان، كان قد خدم الحكومة فى أيام تمرد الجنود الهنود (فى ١٨٥٧-١٨٥٨) باعتباره ضابطًا من أبناء البلد فى فرقة الفرسان التى كانت قد أُنشئت حديثًا. وكانت الحكومة قد منحته قطعة

أرض لا بأس بها فى القرية، وعلى الرغم من أن مطالب أبنائه الذين أصبحوا الآن بدورهم ضباطًا وخط الشيب لحاهم قد أفقرته فإنه ما زال يتمتع بمرتبة سامية. وكان المسؤولون البريطانيون، بل ونواب القائد الأعلى أنفسهم، يتركون الطريق الرئيسى لزيارته، وكان فى هذه المناسبات يرتدى زيه الرسمى القديم ويقف منتصبًا كالحربة الصلبة.

ورن صوت كيم ذو النبرات الحادة فى أسماع الجمهور الذى اجتمع بسرعة وهو يقول "ولكن هذه ستكون حربًا كبرى. حربًا لثمانية آلاف مقاتل". واندهش كيم نفسه مما قال.

وقال الرجل الهرم بسرعة "مقاتلون إنجليز أم أبناء البلد؟"، وكان السؤال يوحى بأن سائله يعامل كيم معاملة الأنداد، وأدت نبراته إلى احترام الرجال للصغير كيم.

وغامر كيم بالإجابة قائلاً "بل إنجليز. إنجليز ومدافع!".

وصاح اللاما "ولكن المُنَجِّمَ لم يقل شيئًا من هذا" وأخذ يستعين فى انفعاله بالمزيد من النشوق.

"ولكننى أعرف. بلغنى النبأ، أنا، تلميذ هذا الرجل الربانى. سوف تنشب حرب، حرب يشارك فيها ثمانية آلاف إنجليزى. وسوف يَقْدمون من روالــپــندى ومن پيشاوار. هذا مؤكد".

وقال الكاهن "سمع الصبى أحاديث الأسواق".

وقال اللاما "ولكنه كان دائمًا بجانبى. فكيف يتسنى له أن يعرف؟ لم أكن أنا أعرف!".

وتمتم الكاهن لرئيس القرية "سوف يصبح ساحرًا ماهرًا بعد موت العجوز، ما هذه الحيلة الجديدة؟".

وفجأة علا صوت الجندى الهرم هادرًا يقول "علامة! اذكر لى أمارة! لو كانت الحرب ستنشب لأخبرنى أبنائى".

وقال كيم "عندما يكتمل الاستعداد لابد أن يُحَاطَ أبناؤك علمًا، لا شك فى هذا. ولكن الطريق طويل ما بين أبنائك وبين الرجل الذى بيده زمام هذه الأمور". وازداد حماس كيم للعبة، إذ ذكرته بخبراته فى حمل الرسائل، أيام كان يخاطر فى سبيل 'دراهم معدودة'، بالتظاهر بمعرفة أكثر مما يعرف. ولكنه كان يلعب الآن من أجل جائزة أكبر... ألا وهى لذة الإثارة المحضة والإحساس بالقوة، واستمد من الموقف روحًا جديدة فعاد يقول:

"أعطنى أنت أيها الشيخ علامة! هل يأمر المرؤوسون بانطلاق ثمانية آلاف جندى إنجليزى بمدافعهم؟".

وأجاب الرجل الهرم "لا" بنفس النبرة التى توحى بأن كيم ند من أنداده.

"هل تعرف إذن من هو الذى يصدر الأمر؟".

"لقد رأيته".

"وتستطيع أن تعرفه من جديد؟".

"كنت أعرفه منذ أن كان ملازما فى الطوبخانة (أى المدفعية)".

"رجل طويل. رجل طويل ذو شعر أسود يمشى هكذا؟" وسار كيم خطوات قليلة بأسلوب عسكرى جاف.

"نعم. ولكن أى شخص يمكن أن يكون قد شاهده"، وكان الجمهور ساكنًا يكتم أنفاسه أثناء هذا الحوار كله.

قال كيم "صحيح. ولكنى سأزيدك. انظر. الرجل العظيم يمشى أولاً هكذا. ثم يفكر هكذا"، ووضع كيم سبابته على جبهته وهبط بها حتى زاوية فكه. "وبسرعة يحرك أصابعه هكذا. وسرعان ما يضع قبعته تحت إبطه الأيسر" وجعل كيم يمثل لكل حركة واقفًا مثل طائر اللقلق.

وتنهد الرجل الهرم وقد انعقد لسانه دهشة، والجمهور يرتجف من الإثارة.

"فليكن... فليكن... فليكن" ولكن ماذا يفعل عندما يوشك على إصدار الأمر؟".

"يحك قفاه... هكذا. ثم يضع أحد أصابعه على المنضدة، وينشق بأنفه نشقة صغيرة، ثم يتكلم قائلاً "فلتنطلق الفرق التالية، والمدافع التالية".

ونهض الرجل الهرم بأسلوب عسكرى وأدى التحية.

وبسرعة ترجم كيم إلى اللغة الدارجة العبارات القاطعة التى استرق السمع إليها فى حجرة ارتداء الملابس فى أومبالا قائلاً " 'كان ينبغى' – هكذا قال – 'أن نفعل ذلك من مدة طويلة. ليست حربًا بل هى تأديب'. ونشق بأنفه نشقة!".

"كفى. إنى أصدقك. لقد شاهدته على هذه الصورة وسط دخان المعارك. شاهدته وسمعته. إنه هو!".

وقال كيم "لم أر دخانًا". وتحول صوته إلى صوت المُنَجِّم المنغوم الذى يكشف الطوالع على جانب الطريق وقد غمرته النشوة "رأيت هذا فى الظلام. جاء رجل أولاً حتى يوضح الأمور، ثم جاء الفُرْسَان، ثم جاء هو بنفسه، واقفًا فى حلقة من الضياء. وسارت بقية الأحداث كما ذكرت. أيها الرجل الهرم، هل قلتُ لك الصدق؟".

"إنه هو. ودون أدنى شك، هو!".

وأخذ أفراد الجمهور نفسًا طويلاً مرتعدًا ونظراتهم تنتقل من الرجل الهرم الذى كان لا يزال واقفًا وقفة الانتباه العسكرية، إلى كيم ذى الثياب الرثة فى ضوء الغسق الأرجوانى.

وهتف اللاما بفخار "ألم أقل لكم؟ ألم أقل إنه من العالم الآخر؟ إنه صديق العالم كله. إنه صديق النجوم!".

وصاح أحد الرجال "ذلك لا يهمنا، على الأقل! وأنت أيها العراف الصغير، إن كنت تتمتع بالموهبة فى جميع الفصول، فعندى بقرة ذات بقع حمراء، وقد تكون شقيقة ثورك الأحمر، حسبما أتصور...".

فرد كيم "لكن ذلك لا يهمنى. فنجومى لا تكترث بأبقارك".

وقالت امرأة "لا ولكنها مريضة جدًا. وزوجى جاموس، وإلا لأحسن اختيار ألفاظه. قل لى هل يكتب الشفاء لبقرتى؟".

لم يكن كيم صبيًا عاديًا على الإطلاق، ولو كان لواصل ممارسة اللعبة؛ ولكن من يعرف مدينة لاهور، و'الفقراء' عند بوابة تكسالى، طيلة ثلاثة عشر عامًا، لابد أن يعرف الطبيعة البشرية كذلك.

وجعل الكاهن يلقى عليه نظرات جانبية، لاحت فيها المرارة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة جافة صفراء منذرة بالشر.

وقال كيم "أليس فى القرية كاهن إذن؟ أظن أننى شاهدت كاهنًا عظيمًا منذ هنيهة".

وشرعت المرأة تقول "نعم... ولكن...".

فقال كيم "ولكنك تأملين أنت وزوجك أن تُشفى بقرتكما مقابل حفنة من ألفاظ الشكر وحسب". وبدا أن هذا السهم قد أصاب المرمى، إذ كانت المرأة وزوجها قد اشتهرا بأنهما أبخل زوجين فى القرية. واستمر كيم يقول "ليس من الخير خداع المعابد. قدمى عجلاً صغيرًا إلى كاهنك، وإذا لم تكن الأرباب قد غضبت غضبًا لا يسمح بالغفران قط، فسوف تدر بقرتك اللبن فى غضون شهر واحد".

وقال الكاهن بنبرات تشبه خرخرة القطط الراضية "أنت أستاذ فى فن التسول! لن ينجح دهاء أربعين عامًا فى تحقيق نتيجة أفضل. لا شك أنك أغنيت الرجل العجوز؟".

ورد كيم قائلاً "قليل من الدقيق، وقليل من الزبد، هل يغتنى المرء بهذا الزاد؟" كان يشعر بالسعادة لما ناله من مديح وإن كان مازال يلتزم الحذر، فأضاف "وهو، كما ترى، مجنون فعلاً. ولكن صحبته تفيدنى وأنا أعلم الطريق على الأقل".

كان يحيط بأسلوب تخاطب ’فقراء‘ بوابة تكسالى فيما بينهم، وحاول المحاكاة الدقيقة لأساليب تلاميذهم البذيئة.

"وهل هذا السعى إذن حقيقى أم قناع لتحقيق غايات أخرى؟ قد يكون وراءه كنز".

"إنه مجنون. جنونه مضاعف. لا يوجد غير هذا".

ونهض الجندى الهرم هنا وسأل كيم إن كان يقبل استضافته إياه تلك الليلة. وأوصاه الكاهن أن يقبل، ولكنه أصر على أن شرف استضافة اللاما من حق المعبد، وعند ذلك ابتسم اللاما ابتسامة صادقة. وتنقل كيم ببصره من وجه إلى آخر وانتهى إلى معرفة ما يجرى فى الواقع.

وهمس فى أذن الرجل العجوز فى الظلام "أين النقود؟".

"فى صدرى. أين عساها تكون؟".

"أعطها لى. بهدوء وسرعة. أعطها لى".

"لكن لماذا؟ لا نريد أن نشترى تذاكر قطارات".

"ألستُ تلميذك؟ ألا أرعى أقدامك العتيقة فى الطرقات؟ أعطنى النقود وفى الصباح سوف أعيدها إليك". وأدخل يده من تحت حزام اللاما فأخرج كيس النقود.

وأومأ العجوز قائلا "فليكن. فليكن. هذا عالم كبير فظيع. لم أكن أعلم قط أن كل هؤلاء الناس يعيشون فيه".

وفى صباح اليوم التالى كان الكاهن فى حالة نفسية بالغة السوء، ولكن اللاما كان سعيدًا، وكان كيم قد استمتع بأمسية بالغة الطرافة مع الرجل الهرم الذى أحضر سيف خدمته فى فرقة المدفعية، ووضعه على ركبتيه العجفاوين، وجعل يقص القصص عن حادثة التمرد والقادة الشبان الذين مضى على مقتلهم ثلاثون عامًا حتى غلب النعاس كيم فنام.

وقال اللاما "لا شك أن هواء الريف صحى. فنومى خفيف مثل نوم جميع العجائز، ولكننى استغرقت فى النوم ليلة أمس ولم أستيقظ حتى رابعة النهار. بل إننى مازلت إلى الآن أشعر بثقل فى جفونى".

وقال كيم "اشرب كوبًا من اللبن الساخن" وكان قد تعلم تقديم عدد لا بأس به من أمثال هذا العلاج إلى معارفه الذين يتعاطون الأفيون. ثم قال "حان وقت العودة إلى الطريق من جديد".

وقال اللاما بنبرات المرح "الطريق الطويل الذى يعبر جميع أنهار الهند! هيا بنا. ولكن كيف يمكننا – فى اعتقادك يا تلميذى – أن نكافئ هؤلاء الناس، وخصوصًا الكاهن، على عطفهم العظيم؟ إنهم فى الحقيقة وثنيون، ولكنهم ربما يستطيعون فى حياة أخرى تحقيق التنوير. ندفع روبية إلى المعبد؟ إنه لا يزيد عن أحجار وطلاء أحمر، ولكننا يجب أن نقر بالخير فى قلب الإنسان حينما وحيثما نصادفه".

وحدجه كيم بنظرة حادة قائلاً "أيها الرجل الربانى! هل سبق لك أن انطلقت وحدك على الطريق قط؟"، كانت نظرات كيم تشبه نظرات الغربان الهندية المنهمكة فى شغلها فى الحقول.

"قطعًا أيها الصبى. قطعته من كولو إلى پـاثانكوت، وكنت تركت كولو حيث مات تلميذى. وحين أبدى الناس العطف علينا قدمنا القرابين، وكان الناس جميعًا طيبين فى كل مكان فى التلال".

وقال كيم بلهجة جافة "الأمر مختلف فى الهند. فأربابهم لهم أذرع كثيرة، وهم خبثاء. فابتعد عنهم".

واقترب منهما الجندى الهرم من شارع القرية، ممتطيًا صهوة مُهْرٍ نحيل معرقب، فبدا كالشبح فى ضوء الفجر، وقال "سوف أريك الطريق بعد قليل يا صديق العالم كله، أنت والرجل الأصفر الذى تصاحبه. ليلة أمس فجرت ينابيع الذكرى فى قلبى الجاف، وكانت بمثابة بركة لى. والحق أن تباشير الحرب

تلوح فى الجو. إننى أشم ريحها. انظر! لقد أحضرت سيفى!".

وجلس مدليًا ساقيه الطويلتين على جانبى الحيوان الضئيل، والسيف الضخم فى جانبه، ويده على حلقة السرج، ملقيًا نظرات ضارية على الأراضى التى تمتد شمالاً ثم قال "قل لى من جديد كيف بدا لك 'هو' فى رؤياك؟ تعال فاجلس بجوارى. المهر قادر على حمل اثنين".

قال كيم "أنا تلميذ هذا الرجل الربانى"، وهما يتجاوزان بوابة القرية. وكان القرويون يكادون يشعرون بالأسف لفراقهما، ولكن وداع الكاهن كان باردًا جافًا: لقد ضيع بعض الأفيون على رجل لا يحمل نقودًا.

"أحسنت القول. لم أعتد كثيرًا مقابلة الربانيين، ولكن الاحترام دائمًا واجب. لقد اختفى الاحترام هذه الأيام، حتى حين يأتى المفوض الإنجليزى لزيارتى. ولكن لماذا تسير فى ركاب رجل ربانى مادام نجمك يقودك إلى الحرب؟".

وقال كيم بلهجة جادة "ولكنه فعلاً ربانى. فى الحقيقة وفى الكلام وفى الفعل. ليس مثل الآخرين. لم أر فى حياتى مثيلاً له. لسنا من العرافين أو السحرة أو المتسولين".

"لست أنت كذلك. أدرك ذلك بوضوح. لكننى لا أعرف الآخر، وإن كان سيره حسنًا".

كانت نضرة النهار الأولى تحث اللاما على السير بخطوات طويلة يسيرة مثل الجمل، وقد استغرق فى تأملاته وأخذ يسبح بمسبحته بصورة آلية.

واتبعا الطريق الريفى البالى الملئ بالحفر، الذى يلتف حول السهل المنبسط وسط خمائل أشجار المانجو الضخمة بألوانها الخضراء الدكناء، وعلى الأفق الشرقى تبدو قمم جبال الهملايا باهتة والثلوج على قممها، كانت الهند كلها تعمل فى الحقول. على أصوات أزيز السواقى فوق الآبار، وصياح الفلاحين خلف المحراث الذى تمضى به الثيران، ونعيق الغربان. بل إن المهر نفسه كان يشعر بالجو الصحو حين وضع كيم يده على الزمام فكاد يركض.

وقال اللاما حين وصل إلى حبة المسبحة الحادية والثمانين الأخيرة، "إنى نادم لأننى لم أتبرع بروبية للهيكل* فى المعبد".

وأصدر الجندى الهرم صوتًا يشبه الزمجرة، بلحيته الكثة، فشعر اللاما لأول مرة بوجوده.

فالتفت إليه وقال "هل تطلب النهر أنت أيضًا؟".

وكانت الإجابة "النهار فى أوله. ما الحاجة إلى النهر إلا للماء الذى يلزمنا ساعة الغروب؟ لقد أتيت كى أريكما مدخلاً مختصرًا إلى الطريق الكبير".

"هذه مجاملة لن ننساها، يا صاحب النوايا الطيبة. ولكن لماذا أتيت بالسيف؟".

وبدا أن الجندى الهرم أحس بالخجل مثل طفل قاطعه أحد أثناء تمثيله دورًا ما.

فقال وهو يتحسس السيف "هذا السيف! نزوة خطرت لى! نزوة رجل هرم! والحق أن الشرطة أمرت بألا يحمل أحد أسلحة فى شتى أرجاء الهند، ولكن" واصطنع نبرات المرح وربت على مقبض السيف قائلاً "جميع الكونستابلات هنا يعرفوننى".

وقال اللاما "ليست تلك نزوة حسنة. فما فائدة قتل إنسان؟".

"لا شىء، أعرف ذلك. ولكن إن لم يُقتل الأشرار من وقت لآخر فلن يكون العالم مكانًا صالحًا للحالمين الذين لا يحملون أسلحة. لا أتكلم إلا عن معرفة، عن خبرة رجل شاهد البلاد من دلهى حتى الجنوب وقد سالت فيها الدماء".

"أى جنون كان ذاك إذن؟".

"لا تعلم إلا الأرباب التى أرسلت ذلك الطاعون. جعل الجنون ينهش الجيش كله فتمرد على ضباطه، كان ذلك هو الشر الأول، ولكن العلاج لم يكن مستحيلاً لو كانوا توقفوا عند ذلك. ولكنهم اختاروا أن يقتلوا زوجات الإنجليز

وأطفالهم. ثم جاء الإنجليز من وراء البحر وحاسبوهم حسابًا عسيرًا صارمًا".

"أظن أننى بلغتنى شائعة كهذه منذ زمن بعيد. أذكر أنهم كانوا يسمونها العام الأسود".

"أية حياة عشتها أنت حتى تجهل ذلك العام؟ شائعة حقًا! الأرض كلها عرفت بها وارتعدت من هولها".

"أرضنا لم ترتعد إلا مرة واحدة، فى اليوم الذى تلقى فيه الرجل العظيم التنوير".

"هراء! شاهدت دلهى على الأقل ترتعد. ودلهى سرة العالم".

"وإذن انقضوا على النساء والأطفال؟ كان ذلك شرًّا مؤكدًا وعقوبته محتومة".

"حاول الكثير ذلك، ولكن دون فائدة تُذكر. كنتُ عندها فى فرقة الفرسان. وتشتّتت الفرقة. كم تظن عدد الذين ثبتوا وصمدوا من بين ستمائة سيف وثمانين؟ ثلاثة! وكنت أنا من بينهم".

"ونلت امتيازًا أكبر".

"امتياز! لم نكن نظنه امتيازًا فى تلك الأيام. هجرنى أهلى وأصدقائى وإخوتى. قالوا 'إن زمن الإنجليز انتهى. فليحاول كل فرد أن يقتطع شيئًا لنفسه'. ولكننى تكلمت مع الرجال الذين شهدوا المعارك الكبرى فى حروب السيخ (١٨٤٥-١٨٤٩) - فى سوبراون، وفى تشيليان والا، وفى مودكى، وفى فيروزشاه، وقلت لهم 'اصبروا قليلاً وسوف يتغير اتجاه الريح، هذا عمل غير مبارك'. فى تلك الأيام قطعت مسافة ١٢٠ كيلو مترًا مع سيدة إنجليزية وطفلها الرضيع على سرج حصانى. (ما أعظمه! كان جوَادًا يليق بالرجل الحق!) وأخذتهم إلى مكان مأمون ثم عدتُ إلى رئيسى الضابط - الوحيد الذى لم يُقْتَلْ من بين الخمسة فى فرقتنا - وقلت له 'أعطنى عملاً، فلقد أصبحت منبوذًا بين أهلى، ودم ابن عمى لم يجف على سيفى'. ورد علىّ قائلا 'اطمئن.

لايزال أمامنا عمل عظيم. وحين ينتهى هذا الجنون، تحين ساعة المكافأة‘‘.

وتمتم اللاما كأنما يحدث نفسه قائلاً ”لابد أن تأتى المكافأة فعلاً عندما ينتهى الجنون“.

”لم يكونوا يمنحون الميداليات فى تلك الأيام لكل من تصادف أن سمع صوت سلاح نارى يُطلق! كلا! لقد شاركت فى تسع عشرة معركة ضارية، وفى أربع وستين مناوشة على متون الخيل، وفى اشتباكات صغيرة لا تعد ولا تحصى. وفى جسمى تسعة جروح، كما أحمل ميدالية وأربعة نياشين، إلى جانب وسام خاص، إذ إن قادتى، الذين أصبحوا الآن لواءات، ذكرونى عندما احتفلت إمبراطورة الهند (الملكة فكتوريا) بمرور خمسين عامًا على توليها العرش، وعمت الأفراح البلد كلها. قالوا ‘أعطه وسام الهند البريطانية‘، كما أمتلك أيضًا ضيعتى التى حصلت عليها بلا مقابل من الدولة، هدية وملكًا خالصًا لى. ورجال الأيام الخوالى – الذين أصبحوا الآن مفوضين – يقصدوننى راكبين عبر الحقول والمحاصيل، بارزين فوق خيولهم حتى ترى القرية كلها، ثم نتحادث عن المناوشات القديمة، إذ نذكر اسم رجل مات فنذكر به اسم رجل آخر“.

وقال اللاما ”وبعد ذلك؟“.

”وبعدها ينصرفون، ولكن بعد أن ترى قريتى ما حدث“.

”وأخيرًا ماذا سوف تفعل؟“.

”وأخيرًا سوف أموت“.

”وبعد ذلك؟“.

”فلتتول الأرباب ذلك. لم أُزعج الأربابَ قط بالدعوات. ولا أظن أنها سوف تزعجنى. واسمع: لقد لاحظت فى حياتى الطويلة أن الذين لا يكفون عن إزعاج الذين من فوقنا بالشكاوى والروايات والصراخ والبكاء سرعان ما يُرسل فى طلبهم بسرعة، مثلما كان يرسل قائدنا العقيد فى طلب الريفيين

البلهاء الذين لا يكفون عن الكلام. لا! لم أرهق الأرباب قط! وسوف تذكر ذلك وتمنحنى مكانًا هادئًا حيث أستطيعْ أن ألقى برمحى فى الظل وأنتظر حتى أرحب بأبنائى. لدى من أبنائى ثلاثة ضباط فى سلاح الفرسان، وكلهم ذوو رتب رفيعة".

وقال اللاما بصوت خفيض "وهم كذلك مربوطون بالعجلة، ينتقلون من حياة إلى حياة، ومن يأس إلى يأس، بحماس وقلق وتخاطف".

وقهقه الجندى الهرم قائلاً "نعم. ثلاثة ضباط فرسان فى فرق ثلاث. مخاطرة طفيفة، ولكن هذا شأنى. ويجب تجهيزهم بخير جهاز، ولا يستطيع المرء أن يعامل الخيل مثلما كنا نعامل النساء فى الأيام الخوالى. على أية حال، دخلى من الضيعة يكفى نفقات الجميع. ما رأيك؟ إن أرضى تُروى خير الرى، ولكن رجالى يغشوننى. ولا أعرف أن أطلب شيئًا إلا بِسِنٍّ الرمح. أوه! إننى أغضب وأشتمهم، وهم يتظاهرون بالصبر، ولكننى أعرف أنهم – حين أدير ظهرى – يقولون إننى قرد عجوز بلا أسنان".

"ألم ترغب قط فى شىء آخر؟".

"نعم نعم! ألف مرة! أن يستقيم ظهرى الذى انحنى وتشتد مفاصل ركبتىَّ من جديد! أن يقوى معصمى وأغدو حاد البصر، وأن أوهب صُلب الرجل الحق. واهًا للأيام الخوالى، واهًا لجمال أيام قوتى وعنفوانى!".

"تلك القوة ضعف".

"هذا ما آلت إليه. ولكننى كنت أستطيع إثبات العكس منذ خمسين عامًا". قال الجندى الهرم ذلك وهو يغرس طرف المهماز فى جنب المهر النحيل.

"لكننى أعرف نهرًا يأتى بشفاء عظيم".

"لقد شربت ماء الجونجا حتى حافة الاستسقاء! لم أنل إلا الإصابة بالدوسنطاريا، من دون أدنى قوة".

"ليس ما أقصده نهر الجونجا. ولكن النهر الذى أعرفه يطهر المرء من كل شوائب الخطيئة. والصعود علىْ الضفة القصوى يؤكد للمرء الحرية. لست محيطاً بحياتك، ولكن وجهك وجه رجل شريف مهذب. لقد التزمتَ بطريقك فأبديت الإخلاص حين استعصى إبداؤه، فى ذلك العام الأسود الذى أذكر عنه الآن قصصًا أخرى. ادخل الآن الطريق الأوسط، وهو الطريق إلى الحرية. استمع إلى القانون الأعظم، ولا تتبع الأحلام".

وابتسم الجندى، مؤديًا نصف تحية، قائلاً "تكلم إذن أيها الشيخ. فنحن فى شيخوختنا نتكلم كثيرًا".

وأقعى اللاما فى ظل شجرة مانجو، فأخذت ظلال أوراقها تتراقص فوق وجهه، ولكن الجندى ظل ثابتًا جامدًا فوق مهره، وأما كيم فاستوثق أولاً من عدم وجود ثعابين قبل أن يجلس فى فرجة بين الجذور الناتئة الملتوية.

وترددت أصوات طنين الحشرات التى تجلب النعاس فى ضوء الشمس الحار، إلى جانب هديل الحمام، والأزيز الحالم للسواقى المقامة فوق الآبار عبر الحقول. وجعل اللاما يتكلم ببطء وبأسلوب مؤثر، وبعد عشر دقائق هبط الجندى الهرم من فوق مهره قائلاً إنه يريد أن يُحْسِنَ الإصغاء، وما زال يربط لجام المهر حول معصمه. وخبا صوت اللاما وطالت فترات سكوته ما بين العبارات. وكان كيم مشغولاً بمتابعة سنجاب رمادى. وعندما اختفى السنجاب – الذى كان يشبه كتلة من الغراء الملتصقة بالغصن – كان 'الواعظ' والذى يصغى إليه قد راحا فى سبات عميق، فأما رأس الجندى الحليق فتوسد ذراعيه، وأما رأس اللاما الأصفر فاستند إلى جذع الشجرة، فبدا مثل قطعة من العاج الأصفر. واقترب من هؤلاء طفل صغير عار يتعثر فى مشيته فحدق فى النائمين ثم انصرف مدفوعًا بإحساس دهمه بالتبجيل، وأبدى ما يدل على إدراكه أن اللاما رجل ربانى، لكنه كان بالغ القصر والسمنة، فوقع على جانبه، وضحك كيم على ساقيه الممتلئتين المنفرجتين. وأصيب الطفل بالذعر والغضب فصاح بصوت عال.

وصاح الجندى الهرم منتفضًا "سمعًا وطاعة!" وهب واقفًا على قدميه. "ماذا حدث؟ ما هى الأوامر؟... إنهْ... طفل وحسب! حلمت أن إنذارًا جاءنا! أيها الصغير - أيها الصغير - لا تبك. هل كنتُ نائمًا؟ كانت تلك إساءة بالغة!"

وصرخ الطفل "أنا خائف! أنا خائف!".

"ماذا يُخيف؟ عجوزان وصبى؟ كيف ستصبح جنديًا يوما ما أيها الأمير الصغير؟".

وكان اللاما قد استيقظ أيضًا، ولكنه لم ينتبه مباشرة للطفل فجعل يسبح بمسبحته.

وتوقف الطفل فى منتصف صرخة حين رأى المسبحة قائلاً "ما هذه؟ لم أر فى حياتى من قبل مثلها! أعطها لى!".

وقال اللاما "آها!" وابتسم ووضع المسبحة على الكلأ فى هيئة أنشوطة وأنشد:

مِنْ حَـــبٍّ هَانٍ حِفْنَةٌ ستُغنِى
وقِطْعَةٌ أيْضًا مِـــنَ السَّمْـــنِ
والأُرْزِ والشَّطَّـــةِ والدُّخْـــنِ
تكْفِى العَشَاءَ عِنْدَكُمْ وعِنْدِى!

وجعل الطفل يصيح فرحًا، ويمد يده محاولاً اختطاف حبات المسبحة الدكناء ذات الوميض.

وقال الجندى الهرم "أوهو! أين سمعتَ هذه الأغنيةَ يا من تحتقر الدنيا؟".

وقال اللاما فى حياء "سمعتُها فى پـــاثانكوت، وكنت جالسًا على عتبة أحد الأبواب. من الخير العطف على صغار الأطفال".

"أذكر أنك قلت لى قبل أن يدهمنا النوم إن الزواج والحمل مما يطمس النور الحقيقى الوحيد، وإنها أحجار عثرة على الطريق. هل تهبط الأطفال من السماء فى بلدكم؟ وهل يقتضى الطريق إنشاد أغان لهم".

وقال اللاما بنبرة وقار "لا يبلغ الإنسان الكمال كله" ثم استعاد مسبحته وقال "انطلق الآن إلى أمك أيها الصغير".

وقال الجندى لكيم "اسمع ما يقول! إنه يخجل من إدخال السعادة فى قلب طفل. لقد فقدنا فيك يا أخى رب أسرة ممتاز! اسمع يا صغير!" وألقى إليه بعملة نحاسية صغيرة قائلاً "الحلوى طعمها دائمًا حلو!" فالتقطها الصغير وانصرف متواثبًا فى ضوء الشمس. وأضاف الجندى "إنهم يكبرون ويصبحون رجالاً. إنى حزين أيها الرجل الربانى لأننى نمت فى أثناء مواعظك. اغفر لى".

وقال اللاما "أنا وأنت عجوزان. الذنب ذنبى. فقد أصغيت لحديثك عن العالم وجنونه، وأدى الخطأ إلى خطأ آخر".

"اسمع ما يقول! ماذا يضير أربابك من اللهو مع طفل صغير؟ وكان غناؤك تلك الأغنية بديعًا! فلنرحل وسوف أنشدك أنشودة نيكولسون أمام دلهى، الأنشودة القديمة".

وخرج الجميع من خميلة أشجار المانجو، وصوت الجندى الهرم يرن عاليًا بنبراته الحادة عبر الحقل، وهو يروى فى ولولة مطولة قصة نيكولسون (١٨٢١-١٨٥٧) بطل حرب السيخ وأحداث التمرد الهندى التى قُتل فيها، وهى الأنشودة التى ينشدها الرجال فى البنچاب إلى اليوم. وكان كيم فرحًا بسماعها واللاما يصغى باهتمام.

"يا ويلى! مات نيكولسون! مات قبالة دلهى! يا رماح الشمال انتقمى لنيكولسون!" وكان يحافظ على دقائق اللحن حتى الختام، مؤكدًا إيقاع النغمات بضربات بعرض سيفه على مؤخرة المُهر.

وقال بعد أن تلقى تهنئة كيم "والآن قد أتينا للطريق الكبير". وظل اللاما صامتًا بصورة لافتة للنظر. فعاد الجندى يقول "لم أركب حتى هذه الناحية منذ زمن بعيد، ولكن حديث صَبِيِّكَ حفزنى إليه. انظر أيها الرجل الربانى! هذا الطريق العظيم هو العمود الفقرى للهند كلها. ومعظمه تكسوه الظلال، مثل هذا الجزء، بأربعة صفوف من الأشجار. فأما الطريق الأوسط فهو صُلْبٌ ويصلح للمرور السريع فيه. وقبل أيام السكك الحديدية كان الإنجليز يسافرون فيه بالمئات. أما الآن فالأمر يقتصر على العربات الريفية وأمثالها. وعلى اليمين واليسار يمتد الطريق الوعر الخاص بالمركبات الثقيلة، كالتى تحمل الحبوب والأقطان والأخشاب والأعلاف وأنواع الليمون والجلود. والمرور فيه آمن، إذ توجد نقاط للشرطة كل فرسخ. ورجال الشرطة لصوص ويبتزون الناس، ولو كان الأمر بيدى لراقبت الطريق بدوريات من جنود الفرسان، من المجندين الشبان بقيادة قائد قوى، ولكن الشرطة على الأقل لا تواجه أية منافسة. يمر هنا جميع أنواع الناس وشتى الطوائف. انظر! أمامك براهمينيون، ودباغو الجلود، ورجال البنوك، والسمكرية والحلاقون وصغار التجار والحجاج والخزافون! الدنيا كلها رائحة غادية. وهو يمثل فى نظرى نهرًا انسحبت منه فرسوت على شطه مثلما ترسو قطعة خشب بعد الفيضان.

والحق أن منظر طريق البضائع العظيم منظر رائع. فهو طريق مستقيم وغير مزدحم ويتحمل حركة مرور الهند مسافة ٢٤٠٠ كيلو متر، فهو نهر حياة لا يوجد مثيل له فى أى مكان آخر فى العالم. ونظر الجميع إلى طوله الذى تحفه الخضرة وتكسوه الظلال، وإلى عرضه الأبيض الذى يسير البشر فيه ببطء، وشاهدوا مخفر الشرطة الذى يتكون من حجرتين قبالتهم.

وصاح كونستابل (رجل شرطة) ضاحكًا حين لمح سيف الجندى "من يخرق القانون بحمل السلاح؟ ألا تكفى الشرطة للقضاء على الأشرار؟".

وكانت الإجابة "لقد اشتريته من أجل الشرطة. هل كل شىء على ما يرام فى الهند؟".

"كل شيء على ما يرام أيها الفارس الرئيس".

"افهمني! إنني مثل سلحفاة عجوز، أخرج رأسي من مكمنها ثم أعيدها مرة أخرى. نعم هذا طريق هندوستان، كل الناس يأتون من هذا الطريق...".

وارتفع فجأة صوت يصيح:

"يا ابن الخنزير، هل جُعل الجانبُ اللَّيِّنُ من الطريق لك حتى تحك ظهرك فيه؟ يا والد جميع بنات العار وزوج عشرة آلاف فاسقة، أمك كانت تعبد شيطانًا بعد أن قادتها أمها إليه. لم يكن لعماتك أنوف على امتداد سبعة أجيال! وأختك - أي خطايا البومة جعلتك تسير بعرباتك على الطريق؟ عجلة مكسورة؟ فلتتكسر رأسك إذن حتى تجمع بين الاثنين في الوقت الذي يحلو لك!".

كان الصوت مصحوبًا بصوت مفزع من طرقعة السياط ينبعث من عمود من الدخان على مسافة خمسين مترًا، حيث انهارت إحدى العربات. وانطلقت فرسة نحيلة طويلة من خيول كاثياوار، بعينين حمراوين وأنف ملتهب، خارجة من وسط المعمعة وهي تنخر وتتألم وراكبها يحثها على الركض في الطريق وراء رجل يصرخ ويصيح. كان الراكب طويلاً ذا لحية وخطها الشيب، وقد التصق بدابته كأنما أصبح جزءًا منها، وأخذ يضربها بالسياط بأسلوب علمي بين فترات اندفاعها.

وأضاء وجه الرجل الهرم بالكبرياء. وقال بإيجاز "ولدي!" وهو يكافح لضبط زمام المهر حول رقبته التي اتخذت شكل قوس بديع.

وصاح صاحب العربة "هل أُضرب أمام الشرطة؟ العدل! أبغي إقامة العدل...".

"هل يحتجزني قرد يصرخ ويقلب عشرة آلاف زكيبة تحت أنف فرسة صغيرة؟ ذلك كفيل بالقضاء على الفرسة".

وقال الرجل الهرم "إنه يقول الحق. لقد صدق فيما قال. ولكن الفرسة تتبع صاحبها تمامًا". ودخل صاحب العربة تحت عجلات عربته وجعل يطلق من مكانه التهديد بشتى ألوان الانتقام.

وقال الشرطى بنبرات رزينة "أبناؤك رجال أقوياء" وهو يسوك أسنانه.

وضرب راكب الفرسة ضربة واحدة لاذعة بسوطه وأقبل راكضًا.

وصاح وهو يربط فرسته على مسافة عشرة أمتار ويترجل "والدى!".

وهبط الرجل الهرم من صهوة مهره على الفور، وتعانقا مثلما يتعانق الأب والابن فى الشرق.

الفصل الرابع

الحَظُّ الحَسَنُ دَوامًا غيرُ مُهَذَّبْ

بلْ هُوَ ألْعَنُ أُنْثَى فَاْسِدَةٍ تَحْيَا!

تَخْدَعُكَ وتَتَألَّمُ وتُخَاتِلْ!

وتُرَاوِغُ حَتَى تَتْبَعَها أو تَدْفَعُكَ كمَا تَبْغِى.

إنْ رَحَّبْتَ بهَا اشْتَاقَتْ لِغَرِيبْ!

إنْ تَلْقَاهَا تَتَعَلَّلْ كَىْ تَمْضِى!

إنْ أَدْرَكْتَ صَفَاقَتَها ومَضيْتَ وَحَسْب

جَاءَتْكَ الفَاجِرَةُ وشَدَّتْ كُمَّكْ.

يا أيُّها النَّعيمُ أيها النعيمُ! يا سَعْدَ الحَيَاةْ!

امنحْ هُنَا أو امْنَعْ كيفَ شِئْت.

فإنْ مَضَيْتُ غيرَ آبِهٍ لِلسَّعْد

فسوفَ يأتى السعدُ خَلْفى دائمًا يَسْعَى!

(قبعة التمنى)

وشرعا يتحادثان بعد أن خفضا أصواتهما، واتجه كيم إلى ظل شجرة حتى يستريح ولكن اللاما ظل يشده من مرفقه فى جزَع.

"فلنواصل السير. ليس النهر هنا".

"فعلاً. ألم نسر معًا مدة كافية؟ لن يهرب نهرنا. الصبر، وسوف يكافئنا".

وقال الجندى الهرم فجأة "هذا صديق النجوم. جاءنى بالأنباء يوم أمس. كان قد رأى الرجل نفسه، فى رؤيا، وهو يصدر الأوامر بالحرب".

وقال ابنه بغمغمة عميقة فى صدره العريض "تصادف أن سمع شائعة فى السوق فانتفع بها".

وضحك أبوه قائلاً "على الأقلْ لم يأتنى راكبًا طالبًا منى جوادًا جديدًا، وتَعَلَّمُ الأرباب كم من الروبيات! هل صدرت الأوامر أيضًا لفرق إخوتك؟".

"لا أدرى. أخذت الإذن وجئت إليك بسرعة حتى...".

"حتى لا يسبقوك بالسؤال! كلكم مقامرون مبذرون! ولكنك لم تشارك بعد فى أى هجوم للفرسان. ذلك يحتاج إلى جواد ممتاز حقًا. تابع مجتهد ومهر جيد أيضًا عند الزحف. فلننظر فى الأمر... فلننظر فى الأمر". وجعل ينقر حلقة سرج المهر.

"ليس هذا مكانًا مناسبًا للحسابات يا أبى. فلنذهب إلى منزلك".

"ادفع على الأقل شيئًا للصبى. ليست معى نقود، وقد أتانا بأنباء طيبة. أنت يا صديق العالم كله، ستنشب حرب كما ذكرت".

ورد كيم برباطة جأش "قطعًا! فأنا أعرف، إنها الحرب".

وقال اللاما وهو يتلمس مسبحته "ماذا؟" – كان يتوق إلى العودة للمسير.

"أستاذى لا يُزعج النجوم لكل من يدفع. أتينا بالأنباء، ولتشهد على ذلك، أتينا بالأنباء وسوف نرحل الآن". وقبض كيم يده نصف قبضة إلى جانبه.

وألقى الابن عملة فضية لمعت فى ضوء الشمس، مغمغما بألفاظ مبهمة عن المتسولين والسحرة. كانت قطعة من أربع 'أنَّات' وتكفى شراء خير طعام لهما عدة أيام. وشاهد اللاما بريق العملة فتمتم يدعو للرجل البركة.

وقال الجندى الهرم وهو يستدير فوق دابته النحيلة "امض لحال سبيلك يا صديق العالم كله. لأول مرة فى حياتى الطويلة أقابل نبيًا حقيقيًا، نبيًا لم يسبق له الانخراط فى الجيش".

واستدار الوالد وولده معًا، وكان انتصاب الرجل الهرم فى جلسته يضاهى انتصاب الشاب.

وكان شرطى پنــچــابى يرتدى سروالاً قطنيًا يتسكع عبر الطريق، وكان قد لمح تقديم المال.

وصاح بلغة إنجليزية باهرة قائلاً "قف! ألا تعرف أنه لابد من دفع رسوم قدرها 'أنّتان' على كل فرد، أى ما مجموعه أربع 'أنّات'، على الذين يدخلون الطريق الكبير من هذه الحارة الجانبية؟ إنه أمر السركار (الملك الهندى) والنقود مخصصة لغرس الأشجار وتجميل الطرق".

وقال كيم "وملء بطون الشرطة" منفلتًا كى لا تطوله يد الشرطى ثم قال "فلتنظر لحظة يا رجلاً رأسه من الطين! هل تظن أننا أتينا من أقرب بِرْكَةٍ مثل الضفدع الذى تزوجت بنته؟ هل سمعت يومًا ما اسم أخيك؟".

وصاح شرطى ذو رتبة أعلى، فى سرور غامر "ومن كان هذا؟ دع الصبى لشأنه" ثم جلس لتدخين غليونه فى الشرفة.

"انتزع بطاقة وجدها على زجاجة مياه غازية وألصقها على أحد الجسور، وأخذ يجمع الرسوم من الذين يمرون فوقه شهرًا كاملاً قائلاً إنه أمر السركار، حتى أتى رجل إنجليزى وشدخ رأسه. اسمعنى يا أخ! أنا غراب من المدينة لا من الريف!".

وتراجع الشرطى فى خجل، وظل كيم يصفّر له بفمه طول الطريق.

وصاح كيم فى مرح قائلاً للاما "هل شهدت يومًا ما تلميذًا مثلى؟ لو لم أقم بإرشادك لالتقطت الأرض كلها عظامك قبل أن نبتعد عن لاهور بعشرة أميال".

وقال اللاما مبتسما بنبرات بطيئة "أتساءل فى نفسى إن كنتَ مجرد روح، أحيانًا، أو كنت عفريتًا شريرًا فى أحيان أخرى".

ورد كيم قائلاً وهو يجارى بخطواته خطوات اللاما "إننى تلميذك"، كانت الخطوات التي يصعب وصفها من سمات الشريد الذى يقطع المسافات الطويلة فى كل مكان فى العالم.

وتمتم اللاما قائلاً "فلنمش الآن"، وانطلقا يسيران خطوات تتفق مع إيقاع حبات المسبحة صامتين ميلاً من بعد ميل. كان اللاما كعهده مستغرقًا فى تأملاته، ولكن عينى كيم البراقتين كانتا مفتوحتين إلى أقصى حد. وقال كيم فى نفسه إن نهر الحياة العريض البسام الذى يسيران فيه أفضل كثيرًا من شوارع لاهور المكتظة الضيقة. كان يشاهد فى كل خطوة أناسًا جُدَدًا ومناظر جديدة، طوائف يعرفها وطوائف لم يعهدها من قبل قط.

قابلا جماعة من المنبوذين، الذين يسمون 'سانسى'، وهم أحط طائفة، وكانوا يتسمون بطول الشعر والروائح النفاذة، ويحملون سلالاً على ظهورهم وضعوا فيها السحالى وغيرها من الأطعمة القذرة، وكلابهم تتبعهم وتتشمم أعقابهم. كان هؤلاء يلتزمون بالجانب الذى يسيرون فيه من الطريق، ويتقدمون بخبب مسرعين كأنما يهربون من شيء، وكانت الطوائف الأخرى جميعًا تفسح الطريق لهم. إذ إن 'السانسى' نجاسة عظيمة. وكان يسير من خلفهم رجل أُطلق سراحه قبل قليل من السجن، ولم يكن قد نسى أيام الأصفاد الحديدية الثقيلة فى رجليه، فكان يسير على مبعدة بخطوات صلبة عبر الظلال القاتمة، وكانت معدته الممتلئة وبشرته الزاهية تثبتان أن الحكومة تطعم سجناءها أفضل مما يستطيع معظم الشرفاء إطعام أنفسهم. وكان كيم يعرف تلك المشية خير المعرفة وجعل يسخر منها كثيرًا عندما مرا به، ثم مر بهما شخص من فئة من فئات طائفة السيخ المتزمتة تدعى 'أكالى'، عيناه شاردتان، وشعره طليق، ويرتدى الملابس التى تتميز بالمربعات الزرقاء فى النسيج الذى يستمسك به أصحاب عقيدته، وعلى مخروط عمامته الزرقاء العالية تبرق حلقات فولاذية، وكان عائدًا من زيارة قام بها لإحدى ولايات السيخ المستقلة، حيث كان يتغنى بالأمجاد العريقة لما يسمى 'خالصا' أى جماعة السيخ ومعبدها، إلى عدد من الشباب الواعد الذى تخرج فى الجامعة، وكانوا يرتدون

أحذية برقاب طويلة وسراويل من نسيج الكورد الأبيض. وحرص كيم على ألا يزعج الرجل، فإن فئة 'أكالى' تتسم بضيق الصدر، وسرعة التطاول بالذراع! وهنا وهناك كانت تقابلهم أو تتخطاهم حشود تمثل قرى كاملة خرجت لتشهد بعض الأسواق المحلية، وكانت النسوة يسرن حاملات أطفالهن على جنوبهن خلف الرجال، والصبيان يتواثبون على عصىٍّ من قصب السكر، وهم يجرون نماذج ساذجة رخيصة من النحاس الأصفر للقاطرات، وهى التى تباع الواحدة منها بنصف بنس، أو يعكسون ضوء الشمس فى عيون من هم أفضل منهم، وإذا بقى لديك شك ما عليك إلا أن تبصر الزوجات وهن يضعن أذرعتهن السمراء بجوار بعضها البعض لمقارنة الأساور الزجاجية المعتمة التى اشترينها لتوهن، وهى التى تأتى من الشمال الغربى. وكان هؤلاء اللاهون الصاخبون يسيرون ببطء، أو يتنادون ما بينهم، أو يتوقفون للمساومة على الأسعار مع بائعى الحلوى، أو للصلاة فى بعض المزارات الدينية المقامة على جانبى الطريق، فبعضها هندوسى، وبعضها إسلامى، وهى التى تشارك فيها الطوائف الدنيا المؤمنة بهاتين العقيدتين بروح جميلة من عدم الانحياز. وقد يبرز فجأة صف أزرق متماسك من النساء، يعلو ويهبط مثل ظهر دودة مسرعة، وسط سحابات الغبار المتماوجة، وإذا بهن يركضن فى جوقة تُصدر كالإوز أصوات وقوقة لاهثة، وكانت هذه فرقة تسمى فرقة 'شانجار' أى حاملات التراب، وكان نساؤها هن اللاتى يتعهدن بنقل التراب كله من جانبى الطريق الذى حُفر تمهيدًا لمد خط السكة الحديد المتجه شمالاً. كن ذوات أقدام رَحَّاء، وصدور ضخمة، وأطراف قوية، ويلبسن قمصانًا زرقاء، ويهرعن شمالاً إن بلغتهن أنباء عمل جديد، ولا يضيعن الوقت فى السير فى الطريق. وكن ينتمين إلى طائفة لا قيمة للرجال فيها، وكن يسرن عاقدات سواعدهن على صدورهن، بأعجاز تتأرجح، ورؤوس مرفوعة، كشأن النساء اللاتى يحملن الأثقال. وبعد قليل كانت تمر زفة عروس فى طريق البضائع الكبير، تصحبها الموسيقى وتعالى الصيحات، إلى جانب العطر الفواح من الياسمين والورد الهندى الذى يعلو حتى على روائح الطريق غير الزكية. وكان هودج

العروس يبدو بقعة حمراء يتلألأ فيها الترتر، متمايلاً وسط غبش الصباح، وأما المُهر الذى كان العريس يركبه فكان مُزَيَّنًا بطاقات الزهر، وكان يميل إلى جانب الطريق للظفر ببعض الطعام من عربة أعلاف عابرة. وعند ذلك كان كيم يشارك فى التصفيق الداوى الداعى للعروسين بالخير، وفى الفكاهات السخيفة، متمنيا لهما أن ينجبا مائة ابن ولا ينجبا بنات، على نحو ما يقول المثل. وأما ما كان يثير اهتمامًا أكبر ويدعو إلى صيحات أعلى فكان مرور أحد الحواة الجوالين مع بعض القردة التى لم يكتمل تدريبها، أو مع دب ضعيف يلهث، أو امرأة ربطت قرون عنز إلى قدميها، ثم شاركت هؤلاء الرقص على حبل نصف مشدود، وهو ما كان يجعل الخيل تجفل والنساء تصيح بأصوات حادة والجمهور يصدر صيحات دهشة مديدة.

لم يرفع اللاما بصره مرة احدة. لم يلحظ المرابى فوق صهوة فرسته بمؤخرتها التى تشبه عجز الإوزة، وهو يسرع فى طريقه لجمع أرباح الربا الباهظة، ولم يشهد الحشد الصغير الذى يطيل صيحاته بنبرات عميقة، حشد الجنود من أبناء البلد الذين حصلوا على إجازة فانطلقوا يمرحون، وإن كانوا لا يزالون بالتشكيل العسكرى الرسمى، فرحين بالتخلص من سراويلهم وأربطة سيقانهم، وأخذوا يوجهون أفظع الألفاظ إلى أشد النساء وقارًا وحشمة من حولهم. بل ولم ير بائع مياه نهر الجانـــچـــيز، وكان كيم يتوقع أن يشترى اللاما زجاجة على الأقل من تلك المادة النفيسة. كان اللاما ينظر باستمرار إلى الأرض، ويسير بالخطى المنتظمة نفسها ساعة بعد ساعة، وروحه مشغولة فى مكان آخر. ولكن كيم كان فى السماء السابعة من الفرحة. وكان هذا الجزء من طريق البضائع الكبير مبنيا فوق ربوة أقيمت بصفة خاصة لحماية الطريق من فيضانات الشتاء التى تأتى من سفوح الجبال، وهكذا كان السائر فيه كأنما يسير على ارتفاع طفيف فوق مستوى سطح البلاد، إن صح هذا التعبير، على طول ممر فاخر، فيشاهد الهند كلها منبسطة إلى اليمين وإلى الشمال. كان المشهد جميلاً: مشهد عربات الحبوب والقطن التى تجرها ثيران كثيرة وهى تزحف

فوق الطرق الريفية، وكان المرء يستطيع أن يسمع صرير محاور عجلاتها وهى ترتفع كالأنين على مبعدة ميل كامل، ثم وهى تقترب ثم تصعد، مصحوبة بالصيحات والصرخات والشتائم، الربوة العالية قبل أن تنتقل إلى الطريق الرئيسى الصلب، وسائقو العربات يسبون بعضهم بعضًا. ولم يكن يقل جمالاً عن هذا مشهد الناس، وقد جمعت بين زرافاتهم بقع صغيرة من الألوان الحمراء والزرقاء والوردية والبيضاء والصفراء، أثناء تحولهم للذهاب إلى قراهم، قبل أن يتفرقوا إلى جماعات أصغر، لا تزيد كل منها عن اثنين أو ثلاثة، عبر السهل المنبسط. وكان كيم يشعر بذلك كله دون أن يستطيع التعبير عن مشاعره، ومن ثم فقد اكتفى بشراء قصب السكر المقشور وبَصْق ما يبقى منه بعد مَصِّه فى كل مكان على الطريق. وكان اللاما يتناول النشوق من وقت لآخر، ولكن كيم لم يستطع أن يتحمل الصمت فترة أطول.

فقال "هذه أرض طيبة. أرض الجنوب (أى جنوب جبال الهميلايا). فالهواء طيب والماء طيب. ما رأيك؟".

فقال اللاما "والجميع مربوط بالعجلة. مربوط من حياة إلى حياة. لم يُكشف النقاب عن **الطريق** لأى من هؤلاء". ثم انتفض كأنما ليعود إلى هذا العالم.

وقال كيم "لقد أصابنا الإرهاق بعد هذا الطريق الطويل. لابد أن نمر قطعًا بمكان نستريح فيه. هل نمكث هناك؟ انظر! الشمس تميل إلى المغيب".

"من الذى سيستقبلنا هذا المساء؟".

"لا فرق بين هذا وذاك. فالبلد زاخرة بالكرام. أضف إلى ذلك" ثم خفض صوته حتى أصبح أدنى من الهمس "معنا نقود".

واشتدت كثافة الجمهور وهما يقتربان من مكان الراحة الذى تنتهى عنده رحلة نهارهما. كان كل ما يميز مكان الراحة فى طريق البضائع الكبير صف من الأكشاك التى تبيع الأطعمة البسيطة والتبغ، وكومة من الحطب، ومخفر

للشرطة، وبئر، وحوض تشرب منه الخيل، وبضعة أشجار ومن تحتها مساحة من الأرض التى وطئتها الأقدام وتنتثر فيها بقع سوداء من أثر مواقد نيران قديمة، هذا إذا استثنيت المتسولين والغِربان، وكلاهما جوعان.

فى هذا الوقت كانت الشمس تطلق سهامًا من الأشعة الذهبية العريضة عبر الغصون الدنيا لأشجار المانجو، والببغاوات والحمائم تعود بالمئات إلى أوكارها، وطيور الزرزور الثرثارة ذات الظهر الرمادى تناقش مغامراتها فى ذلك النهار، وتسير فى مجموعات من اثنين وثلاثة على الأرض كأنما من تحت أرجل السائرين، وكانت التنقلات والصراعات ما بين الغصون تدل على أن الخفافيش قد استعدت للانطلاق فى رحلتها الليلية. وسرعان ما اجتمعت أشعة الغروب فصبغت بلون أحمر كالدم - لحظة عابرة - وجوه الناس وعجلات العربات وقرون الثيران. ثم هبط الليل، فغير ملمس الهواء، ملقيًا غشاوة دانية منتظمة، كأنها خيوط بيت أزرق نسجته عنكبوت، فوق وجه البلد، وناشرًا رائحة حادة متميزة، تجمع بين دخان الأخشاب والماشية، والرائحة الطيبة للكعك المخبوز من القمح على رماد الجمرات. وأسرعت دورية المساء خارجة من مخفر الشرطة، مصدرة ما ينم على أهميتها من أصوات السعال والأوامر المتكررة. وتوهجت جمرة متقدة بلونها الأحمر فى قلب شيشة سائق عربة يستريح على جانب الطريق، ولمحت عينا كيم إذ ذاك - بصورة آلية - آخر بريق لشمس الغروب منعكسًا من ملقاط الشيشة المصنوع من النحاس الأصفر.

كانت حياة محطة الراحة تشبه إلى حد كبير سراى كشمير ولكن على نطاق أصغر. وانغمس كيم فى الفوضى الآسيوية الهنيئة التى لابد أن تأتيك، إذا صبرت وحسب، بكل ما يحتاجه الرجل البسيط.

كانت حاجاته قليلة، فالطعام المطبوخ فى أقرب كشك مقبول، ما دام اللاما لا يعترض مثل الهنود على تناول طعام طبخه شخص أدنى طائفة منه، ولكن كيم كان يطلب الترف فاشترى بعض 'الجِلّة' (الوقود المصنوع من روث

البهائم) حتى يوقد نارًا. وكان الناس من حوله رائحين غادين حول ألسنة اللهب، والرجال يصيحون طالبين الزيت أو الحبوب أو الحلوى، أو التبغ، متزاحمين وهم ينتظرون أدوارهم عند البئر. وتحت أصوات الرجال كان يمكنك أن تسمع من العربات الواقفة أو المغطاة بعض الصرخات والقهقهات العالية من النساء اللاتى لا يجوز الكشف عن وجوههن للناس.

ويعتقد أبناء البلد المثقفون هذه الأيام أنه إذا أرادت نساؤهم السفر، وهن يقمن بزيارات كثيرة، فمن الأفضل اصطحابهن بالسكة الحديدية، فهى أسرع، وبها المقصورات المغطاة بالصورة الصحيحة، وقد بدأت هذه العادة فى الانتشار. ولكن أصحاب التقاليد العتيقة لن يختفوا، وهم الذين لا يفعلون إلا ما فعله أسلافهم، وأهم من هؤلاء العجائز المحافظات على التقاليد أكثر من الرجال، وهن اللاتى عادة ما يقمن بالحج فى أواخر أيامهن. وما دُمْنَ ذابلات غير مرغوب فيهن، فهن لا يعترضن، فى ظروف معينة، على الكشف عن وجوههن. وهكذا فبعد عزلتهن الطويلة التى لم يتوقفن خلالها عن الارتباط العملى والتجارى بألف مسألة ومسألة، يهوين صخب الطريق العام وضجيجه، ويهوين الاجتماعات عند المزارات الدينية، واحتمالات الثرثرة التى لا تعد ولا تحصى مع أمثالهن من العجائز. وغالبًا ما يناسب أسرة تعرضت لمعاناة طويلة أن تخرج منها امرأة حادة اللسان ذات إرادة فولاذية فتتلهى فى أرجاء الهند بهذا الأسلوب، فلا شك أن الحج يعبر عن الامتنان للأرباب. وهكذا فأنت تجد فى شتى أرجاء الهند، وفى أقصى البقاع النائية، مثلما تجد فى أقربها للناس، مجموعة ما من رجال وخط الشيب شعرهم ويقومون بالخدمة متولين اسميًّا أمر سيدة عجوز تحتجب بصورة ما خلف الستار وتختفى عن الأنظار فى عربة تجرها الثيران. وأمثال هؤلاء الرجال يتميزون بالرزانة والكتمان، فإذا اقترب أوروبى أو رجل من طائفة عليا، عمدوا إلى إخفاء من يرعونها متخذين احتياطات بالغة التعقيد، وأما فيما تتيحه رحلات الحج من فرص عادية عارضة فإنهم لا يتخذون هذه الاحتياطات. فالسيدة العجوز أولاً وقبل كل شىء، تتمتع بنزعة إنسانية عميقة وتحيا لتبصر الحياة.

ولاحظ كيم وجود عربة عائلية تجرها الثيران محلاة بألوان الزينة البهيجة، يعلوها غطاء مزركش من قبتين، مثل الجمل ذى السنامين، وكانت قد دخلت لتوها محطة الراحة. وكان ثمانية رجال يشكلون 'حاشيتها'، اثنان منهم مسلحان بسيوف علاها الصدأ، وهو دليل قاطع على أنهما يتبعان شخصية بارزة، فالناس العاديون لا يحملون أسلحة. وارتفع من وراء الستار صخب مختلط من الشكاوى والأوامر والفكاهات والألفاظ التى يعتبرها الأوروبى بذيئة. كان فى العربة، بوضوح، امرأة اعتادت إصدار الأوامر.

وحَدَّقَ كيم بدقة فى أفراد الحاشية. كان نصفهم ذوى سيقان نحيلة، ولحى وخطها الشيب، من مقاطعة أوريسا، على الشاطئ الشرقى شمالى مدراس، وهى منطقة سهلية، ونصفهم الآخر يرتدون معاطف من الصوف وقلنسوات من اللباد، إذ كانوا من أهل جبال الشمال، وكان هذا المزيج بينهما ذا دلالة خاصة، حتى لو لم يكن قد استمع عَرَضًا إلى المنابذات التى لا تنقطع بين القسمين. كانت السيدة العجوز تتجه جنوبًا فى زيارة ما، وربما كانت تقصد أحد أقربائها الأغنياء، وعلى الأرجح أن يكون زوج بنت لها، وهكذا أرسل إليها هذه المجموعة لمرافقتها دليلاً على الاحترام. فأما أبناء الجبال فلابد أنهم من عشيرتها، من مدينة 'كولو' أو 'كانجرا' فى شرقى البنچاب (بالقرب من كشمير). وكان من الواضح تمامًا أنها لا تصطحب ابنتها للزفاف وإلا لأُحكم إسدال الستائر ولَحَرَصَ الحراس على عدم اقتراب أحد من العربة. وقال كيم فى نفسه إنها سيدة مرحة ذات روح معنوية عالية، وكان يوازن بين قُرْصِ 'الجلة' فى إحدى يديه وبين الأكل الذى طهاه فى الأخرى، ويوجه اللاما بنغزة من كتفه، قائلاً إنه يُمكن الخروج بشىء من هذا اللقاء، وإن لم يساعده اللاما قط، ولكن ما دام كيم تلميذًا ذا ضمير حى، فسوف يسعده أن يتسول لهما معًا.

وأقام موقده فى أقرب مكان إلى العربة جرؤ على أن يشغله منتظرًا أن يأمر بطرده أحد أفراد الحاشية. وتهاوى اللاما من الإرهاق على الأرض، مثلما يقبع خفاش من أكلة الفاكهة إذ أثقله الطعام، وعاد إلى مسبحته.

وجاء الأمر بصيحة من فم أحد أبناء التلال بلغة هندوستانية مكسرة "ابتعد أيها الشحاذ من هنا!".

وصاح كيم ملتفتًا من فوق كتفه "هوه! ليس إلا ابن الجبال! منذ متى أصبحت حمير الجبال تملك هندوستان كلها؟".

كان الرد يمثل صورة سريعة ورائعة لسلالة نسب كيم منذ ثلاثة أجيال.

وقال كيم وهو يكسر قُرْصَ الجِلَّةِ إلى قطعٍ مناسبة، بصوت أرق مما استطاعه يومًا ما، "آه! في بلادي **أنا** نسمي هذا بداية حديث الغرام!".

وصدر صوت حاد لاذع من وراء الستارة فألهم رجل الجبال أن يطلق سهما آخر يثبت به صلابته.

وقال كيم في هدوء "لا بأس بهذا. لا بأس بهذا. ولكن حاذر يا أخي وإلا قررنا - أقول قررنا **نحن** أن نستمطر عليكم لعنةً في مقابل ذلك. وتمتاز لعناتنا بأنها تصيب الملعون في مقتل".

وضحك الرجال أبناء مدينة أوريسا، ولكن ابن الجبال انتفض وتقدم من كيم في هيئة الذي يهدد بشيء. وفجأة رفع اللاما رأسه فجعل ضوء الموقد الذي أشعله كيم لتوه يسقط كله على قبعته الأسكتلندية.

قال "ماذا حدث؟".

وتوقف الرجل كأنما استحال حجرًا. وتمتم قائلاً "أنا.. أنا.. نجوت من ارتكاب خطيئة كبرى".

وهمس أحد أبناء أوريسا "لقد وجد الأجنبي له كاهنًا أخيرًا".

وصاحت السيدة العجوز "لِمَ لمْ يُضرب الولد الشحاذ ضربًا مُبَرِّحًا؟".

وتراجع ابن الجبال حتى أتى العربة وهمس شيئًا إلى الستارة، فساد الصمت التام لحظة ثم سمع كيم تمتمات خافتة.

وقال كيم فى نفسه "تسير الأمور سيرًا حسنًا" وتظاهر بأنه لم يسمع أو يشاهد شيئًا.

وقال ابن الجبال فى نبرات توِدد وتملق إلى كيم "بعد أن – بعد أن – يأكل، نرجو أن يتكرم الرجل الربانى بالحديث مع شخص يريد أن يكلمه".

وقال كيم بنبرات متعالية "بعد أن يأكل سينام". لم يكن يستطيع أن يرى، على وجه الدقة، المرحلة الجديدة فى اللعبة، ولكنه كان مصممًا على أن يستفيد منها، فقال "سوف أحضر له الآن طعامه" – قالها بصوت عالٍ واختتمها بتنهيدة كأنما كاد يغمى عليه.

"سوف أتولى أنا ومن معى هذا الأمر، إن كان مسموحًا لنا".

وقال كيم "مسموح!" بنبرة زاد تعاليها عن كل ما سبق مضيفًا "أيها الربانى، هؤلاء الناس سوف يأتوننا بالطعام".

وغمغم اللاما كمن يغالب النعاس "البلد طيبة. أرض الجنوب كلها طيبة... عالم كبير رهيب".

وقال كيم "دعه ينام الآن. ولكن احرص على أن يتناول خير طعام عندما يصحو. إنه رجل ربانى ذو قداسة".

ومن جديد قال أحد رجال أوريسا عبارة تضمر الاحتقار.

وواصل كيم بلهجة صارمة موجهًا خطابه للنجوم "ليس فقيرًا. ليس من متسولى السهول. إنه أقدس الربانيين جميعًا. وهو فوق كل الطوائف. وأنا تلميذه".

"تعال هنا!" قالها صوت نسائى حاد لا تنغيم فيه من خلف الستارة، فذهب كيم مدركًا أن عيونًا لا يستطيع أن يراها تحدق فيه. وامتد أصبع نحيل أسمر اللون تثقله الخواتم فارتكن على حافة العربة، وجرى الحوار على النحو التالى:

"ما هذا الشخص؟".

"رجل ربانى إلى أقصى الحدود. موطنه ناء قصىٌّ. إنه من التيبت".

"من أى مكان فى التيبت؟".

"من خلف الثلوج. من مكان بعيد جدًا. وهو يعرف النجوم ويستشف الطوالع ويقرأ دلالات الميلاد. ولكنه لا يفعل ذلك مقابل المال، بل بدافع العطف والإحسان الغامر. وأنا تلميذه. وأُدعى أيضًا صديق النجوم".

"لستَ من أبناء الجبال".

"اسأليه. سوف يقول لك إننى أُرسلتُ إليه من النجوم لأدله على نهاية رحلة حجه".

"هراء! اسمع أيها الصبى الشقى! إننى امرأة عجوز، ولم يبلغ بى الحمق أقصاه. وقد عرفت أكثر من لاما، وأقدم لهم التبجيل، ولكنك لست تلميذاً بالحق إلا إذا كان أصبعى هذا عمود هذه العربة! أنت هندوسى لا طائفة له – متسول جسور لا يستحى، وقد ارتبطت على الأرجح بالرجل الربانى من أجل المكسب".

"أفلا نعمل جميعًا من أجل المكسب؟" وغير كيم من نغمته فورًا حتى يجارى تغيير الصوت قائلاً "لقد سمعت – أن هذه القوس قد شدت بصورة عشوائية – كما إننى سمعت...".

"ماذا سمعت؟" كان ردها عنيفًا يصحبه النقر بأصبعها.

"لا شىء أذكره جيدًا بل بعض الكلام فى الأسواق، وهو لا شك مكذوب، يقول إن الراچات (أمراء الهنود) أنفسهم – أقصد صغار راچات الجبال "

"لكنهم ينحدرون من دماء راچية طيبة".

"من دماء طيبة بالتأكيد. سمعت أنهم يبيعون أجمل نسائهم فى سبيل

المكسب. وأما فى الجنوب فهم يبيعونهن لأصحاب الأملاك ونظرائهم فى مدينة 'أوز'".

إذا كان صغار راجــات الجبال ينكرون شيئًا واحدًا فى الوجود فهو تلك التهمة وحسب، ولكن الواقع أن ذلك هو ما تؤمن به الأسواق، عندما ينخرط الناس فى مناقشة ألوان الاتجار بالعبيد والجوارى، وهى التجارة التى يكتنفها الغموض فى الهند. وشرحت السيدة العجوز بهمسات متوترة غاضبة إلى كيم كيف أصبح بقوله هذا كذابًا ذميمًا مبينة درجة الخبث وصورته فى قوله. وأردفت أنه لو كان افترى ما افتراه عندما كانت فتاة لعوقب بالقتل بأن يدهسه فيل فى مساء اليوم نفسه. وكان ذلك صحيحًا كل الصحة.

وارتفع صوت كيم مولولاً فى رعب مبالغ فيه "لست سوى صبى متسول، كما قالت 'عين الجمال' منذ قليل!".

"عين الجمال حقا! ومن أنا حتى تمطرنى بمدائح المتسولين؟" ولكنها ضحكت عندما سمعت التعبير الذى نسيه الناس من زمن بعيد، ثم قالت "كان يمكن أن يقال هذا من أربعين سنة، دون أن يبتعد عن الحق. نعم، من ثلاثين سنة. ولكن الذنب ذنب هذا التسكع فى أرجاء الهند، فبسببه تتعرض أرملة ملك لحثالة أبناء الأرض، ويسخر منها الشحاذون".

وقال كيم على الفور "أيتها الملكة العظيمة" حين سمعها ترتعد غضبًا "لست إلا ما وصفته الملكة العظيمة. ولكن معلمى رجل ربانى حقا. لم يسمع بعد ما أمرت به الملكة العظيمة من...".

"أمرت؟ أنا آمر رجلاً ربانيًا – مُعلِّمًا للقانون – أن يأتى ويخاطب امرأة؟ محال!".

"اصفحى عن غبائى! ظننت أنه قيل بلهجة الأمر ".

"لم يحدث. كان التماسًا. هل هذا يوضح كل شىء؟".

ورنت عملة فضية على حافة العربة، فأخذها كيم وشكر المرأة شكرًا

جزيلاً. كانت المرأة تدرك أنه ما دام كيم عينى اللاما وأذنيه فلابد من إرضائه.

"لست إلا تلميذ الرجل الربانى. ربما يأتى بعد أن يأكل".

وهزت المرأة أصبعها المُحلَّى بالجواهر تجاهه وهى تقول بنبرات التأنيب: "يالك من وغد خبيث لا تستحى!" ولكن كيم سمع قهقهة العجوز فى العربة.

"لا لا! قولى ما الأمر؟"، وتحول كيم إلى أشد نبراته عطفًا وإيحاءً بالسرية – كان واثقًا أن أحدًا لا يستطيع مقاومة الاستجابة لهذه النبرات، فاستمر يقول: "هل يحتاج أحد فى الأسرة إلى إنجاب مولود ذكر؟ تحدثى بصراحة، فنحن الكهان " وكانت العبارة الأخيرة قد سرقها كيم من أحد 'الفقراء' عند بوابة تكسالى.

"نحن الكهان؟ لم تبلغ بعد العمر اللازم لــ.." وأوقفت الفكاهة بضحكة أخرى. "صدقنى، إننا نحن النساء نفكر من حين لآخر، أيها الكاهن، فى أشياء أخرى سوى الأبناء. أضف إلى ذلك أن ابنتى قد ولدت ابنها الذكر".

"سهمان فى الجعبة خير من واحد، وثلاثة خير أعظم"، وكان كيم يردد المثل الذى اقتبسه وهو يسعل سعلة تفيد التأمل، ناظرًا نظرة كتمان إلى الأرض.

"صحيح، قطعًا صحيح. ولكن ربما أتى ذلك. والبراهمينيون أبناء السهول فعلاً لا ترجى منهم فائدة. لقد أرسلت إليهم هدايا وأموال، وأردفتها بهدايا أخرى، فأتونى بنبوءات".

وقال كيم "آه" فأطال فيها معربًا عن احتقاره الشديد ثم قال "تنبأوا!" لم يكن فى وسع محترف أن يتفوق على كيم فى ذلك.

"ولم يقدر لى أن يستجاب دعائى إلا حين تذكرت أربابى أنا: فاخترت ساعة ميمونة، وربما سمع رجلك الربانى عن رئيس دير لونج-تشو، فهو الذى أحلت الأمر إليه، وعندما حان الوقت الموعود تحقق كل ما كنت أنشده. وقال

البراهمينى فى منزل والد ابن ابنتى بعد ذلك إن الذى حدث كان نتيجة صلواته هو، وهذا خطأ صغير سوف أشرحه له عندما نصل إلى نهاية رحلتنا. وهكذا أذهب بعد ذلك إلى 'بوذ جايا' حتى أقوم بشعائر الترحم وإحياء ذكرى والد أطفالى – أى شعائر 'شراذا'".

"نحن ذاهبان إلى هناك".

وقال المرأة بصوت منغوم "فى هذا يُمْنٌ مضاعف! ابن ثان على الأقل!".

وكان اللاما قد صحا فقال "يا صديق العالم كله!"، كان يشبه فى بساطته طفلاً صحا فأحس بالحيرة حين وجد نفسه فى فراش غريب، فنادى كيم.

"قادم! أنا قادم أيها الربانى!"، وانطلق تجاه النار حيث وجد اللاما وقد وضعت حوله من قبل أطباق الطعام، ورجال الجبال يظهرون تقديسهم له، وأبناء الجنوب ينظرون فى شراسة.

وصاح كيم "انصرفوا! انسحبوا! هل نأكل أمام الناس مثل الكلاب؟". وانتهيا من الوجبة فى صمت، وقد ابتعد كل منهما عن صاحبه قليلاً، واختتم كيم طعامه بتدخين سيجارة محلية.

"ألم أقل مائة مرة إن الجنوب أرض طيبة؟ هذه أرملة فاضلة كريمة المحتد، وكان زوجها من راچات الجبال، وتقول إنها فى رحلة حج إلى 'بوذ جايا'. إنها هى التى أرسلت إلينا هذه الأطباق، وهى تريد أن تتحدث إليك بعد أن تستريح تمامًا".

وقال اللاما وهو يأخذ مقدارًا كبيرًا من النشوق "هل فعلت أنت هذا أيضًا؟".

وقال كيم "ومن سواى تولى رعايتك منذ أن بدأت رحلتنا الرائعة؟"، وتراقصت عينا كيم فى رأسه وهو ينفث الدخان العفن من أنفه ويتمطى على الأرض المتربة.

"هل عجزت عن الإشراف على وسائل راحتك أيها الرجل الربانى؟".

"حلت عليك البركة". وأمال اللاما رأسه الوقور مضيفًا "لقد عرفت كثيرًا من الرجال فى حياتى الطويلة، وعددًا غير قليل من التلاميذ، ولكن قلبى لم يمل إلى أحد من الرجال مثلما مال إليك، إن كانت قد ولدتك امرأة، فأنت ذو فكر وحكمة وأدب، وبك لمسة 'عفرتة' الصغار".

وقال كيم "ولم أشاهد فى حياتى كاهنًا مثلك". وجعل يتأمل الوجه الأصفر الذى يشيع فيه الخير وينظر فى غضونه غَضْنًا غضنا، مردفًا "لم تنقض ثلاثة أيام كاملة منذ أن انطلقنا فى مسيرتنا على الطريق معًا، لكننى أشعر أنها كانت مائة عام".

"ربما قد سُمح لى فى حياة سابقة أن أؤدى لك خدمة ما، وربما" – وابتسم – "حررتك من فخ وقعت فيه، أو اصطدتك فى الشص فى أيامى قبل التنوير، ثم ألقيت بك من جديد فى النهر".

وقال كيم بهدوء "ربما". كان قد سمع هذا النوع من التأملات عدة مرات، من أفواه أعداد كبيرة لا يعتبرهم الإنجليز ذوى خيال خصب. "والآن. بصدد تلك المرأة فى العربة التى تجرها الثيران. أظن أنها تحتاج إلى أن تلد بنتها ولدًا ذكرًا آخر".

وتأوه اللاما قائلاً "ليس هذا جزءًا من الطريق. ولكنها على الأقل من الجبال. آه للجبال والثلج فوق الجبال!".

ونهض وسار إلى العربة. وكان كيم على استعداد لأن يدفع أذنيه ثمنًا لمرافقته، ولكن اللاما لم يَدْعُه، كما إن الكلمات القليلة التى التقطتها أذناه كانت بلغة مجهولة، إذ كانا يتحدثان بلهجة دارجة من لهجات الجبال. وكانت المرأة فيما يبدو تلقى أسئلة يديرها اللاما فى ذهنه قبل الإجابة عنها. وكان يسمع من حين إلى آخر النغمة الجميلة التى يُخْتَتَمُ بها مقتطفٌ باللغة الصينية. كانت صورة غريبة شاهدها كيم بين أجفان تتراخى، وأما اللاما فكان منتصب القامة مرفوع الهامة، وكانت التلافيف العميقة لملابسه الصفراء ترتسم فيها خطوط سوداء فى ضوء نيران محطة الراحة، تمامًا مثلما ترتسم الظلال التى تلقيها

الشمس الغاربة على جذع دوحة ذات عقد كثيرة، وكان يوجه خطابه إلى العربة العائلية الملونة والمزينة بالترتر، وهى التى كانت تتوهج مثل جوهرة متعددة الألوان فى تلك الأضواء المتراقصة. كانت الرسوم على الستائر المزركشة بالذهب تمتد إلى أعلى وإلى أسفل، فيذوب بعضها فى بعض وتتشكل من جديد عندما تهتز تلافيف الستائر وترتعش فى أيدى رياح الليل. وعندما اشتدت نبرة الجد فى الحوار كان الأصبع المُحلَّى بالجواهر يطلق أشعة كالشرار ما بين زركشة النسيج. وخلف العربة كان جدار الظلام المقلقل مُرَقَّشًا بألسنة لهب صغيرة، ويكتسب حياة من أشكالٍ ووجوهٍ وظلالٍ لا تلوح حتى تختفى. وكانت أصوات مطلع المساء قد خبتْ فأصبحت طنينًا موحدًا يبعث الطمأنينة، وكانت أعمق نغماته دقات حوافر الثيران المنتظمة فوق القش المهروس، وأعلاها رنين آلة 'السيتار' الموسيقية فى أيدى راقصة بنغالية. وكان معظم الرجال قد تناولوا الطعام وأخذوا 'يشدون الأنفاس' العميقة من الشيشة التى تقرقر وتنخر، وكانت الشيشات عندما يحمى الوطيس تصدر أصواتًا تشبه نقيق ذكور الضفادع.

وأخيرًا عاد اللاما. وكان أحد رجال التلال يسير خلفه حاملاً لحافًا قطنيًّا محشوًا فنشره بحرص بالقرب من النار.

وقال كيم فى نفسه "إنها تستحق عشرة آلاف حفيد. ومع ذلك، فلولا جهودى ما جاءت هذه الهدايا".

وتباطأت حركة اللاما، مِفْصَلاً مِفْصَلاً كالجَمَلِ البطئ، قائلا "امرأة فاضلة، وحكيمة". "العالم زاخر بالإحسان للذين يتبعون الطريق". وألقى نصف اللحاف تمامًا فوق كَيم.

وتقلب كيم تحت نصيبه من اللحاف قائلاً "وماذا قالت؟".

"سألتنى أسئلة كثيرة وطرحت مشاكل كثيرة، وكان معظمها حكايات باطلة سمعتها من كهان يعبدون الشيطان ويتظاهرون بأنهم يتبعون الطريق. بعضها

أجبت عنه، وبعضها قلت إنه ذو حماقة. الكثير يلبسون الرداء، والقليل يلتزمون بالطريق".

"صحيح. هذا صحيح." واستغل كيم نغمة التروى والمصالحة التى يلجأ إليها من يريدون أن يعرفوا الأسرار.

"ولكننى واثق أنها عاقلة رشيدة. فهى شديدة الحرص على أن نصحبها إلى 'بوذ جايا'، فحسبما أفهم سوف تسلك سبيلنا نفسه فى رحلة على امتداد أيام كثيرة إلى الجنوب".

"وماذا أيضًا؟".

"اصبر قليلاً. أجبت عن هذا قائلاً إن بحثى مُقَدَّمٌ على كل شىء. كانت قد سمعت أساطير حمقاء كثيرة، ولكنها لم تسمع قط عن الحق الأعظم الخاص **بنهرى**. ذاك شأن كهان السهول الدنيا! قالت إنها تعرف رئيس دير لونج – تشو، لكنها لا تعرف شيئًا عن نهرى، ولا عن قصة السهم".

"وماذا؟".

"ومن ثم كلمتها عن البحث، وعن الطريق، وعن أمور رأيتها مفيدة، ولكنها لم تطلب إلا أن أصحبها، وأن أصلى داعيًا لابنتها بابن ثان".

وقال كيم بصوت يغالبه النعاس "آه! 'نحن النساء' لا نفكر **قطعًا** إلا فى الأبناء".

"والآن ما دام مسيرنا يتفق مع مسيرها فترة ما، فلست أعتقد أننا سوف ننحرف عن البحث إذا صاحبناها، على الأقل حتى مدينة – نسيت اسم المدينة".

وصاح كيم "أنت يا من هناك!" ملتفتًا وهامسًا بحدة لأحد أبناء أوريسا الذى كان يقف على مبعدة عدة أمتار "أين منزل سيدك؟".

وقال الرجل "بعد مدينة سهارنـــپـــور بقليل (شمال دلهى بنحو ١٦٠ كيلو

مترًا). وتقع القرية بين حدائق الفاكهة". وحدد الرجل اسم القرية.

وقال اللاما "ذلك هو المكان. نستطيع أن نصحبها على الأقل إلى ذلك المكان".

وقال الرجل الأوريسى "الذباب يحط على الجيفة"، وبدا أن ذهنه كان شاردًا.

وردد كيم مثلاً سائرًا يقول "البقرة المريضة لها الغراب، والرجل المريض له براهمينى". كانت نبراته شبه جافة وهو يوجه كلامه إلى قمم الأشجار من فوقه.

وأصدر الرجل صوتًا كالنخير ولزم الصمت.

"إذن سنذهب معها أيها الربانى؟".

"وهل لديك سبب يحول دون ذلك؟ لن أعجز أثناء السفر عن أن أحيد لأرى جميع الأنهار التى يعبرها الطريق. إنها ترغب فى أن آتى. ترغب فى هذا رغبة شديدة".

وكتم كيم ضحكة تحت اللحاف. خطر له أن تلك المرأة العجوز المسيطرة، حين تُشفى من رهبتها الطبيعية من اللاما، ربما تقول كلامًا جديرًا بالإصغاء إليه.

كان كيم نصف نائم عندما سمع اللاما يردد فجأة أحد الأمثلة السائرة "سوف يُثَابُ أزواجُ الثرثارات ثوابًا عظيمًا فى الآخرة". ثم سمعه كيم يتناول النشوق ثلاث مرات، ثم دهمه النعاس ومازال يضحك.

طلع الفجر ببريق ماسىٍّ فأيقظ البشر والبقر والثيران معًا. واعتدل كيم فى جلسته وتثاءب، ثم هز جسده وقد غلبه السرور. كان ذلك يعنى رؤية الدنيا بحقيقة واقعها، والحياة كما يتمناها، حافلة بالحركة والصياح، ربط الأحزمة، ضرب الثيران، وصرير العجلات، إشعال النيران وطهى الطعام، ومشاهد

جديدة فى كل مرة تلتفت فيها العين فتسعد. وزحف ضباب الصباح فى سحائب حلزونية من فضة، وانطلقت الببغاوات إلى أحد الأنهار النائية فى حشود خضراء صارخة، وكانت السواقى المقامة على الآبار التى على مسمع منه قد بدأت العمل. كانت الهند قد استيقظت وكان كيم فى الخضم، أشد استيقاظًا وأكثر فرحًا من أى أحد، وكان يمضغ طرف غصن سوف يستخدمه على الفور سواكًا، إذ إنه كان يستعير بيديه اليمنى واليسرى كل عادات البلد التى يعرفها ويحبها. لم يكن يساوره القلق بشأن الطعام، أو يحتاج إلى إنفاق فلس واحد عند الأكشاك المزدحمة، إذ كان تلميذ رجل ربانى ألحقته بحاشيتها امرأة عجوز ذات إرادة قوية. قال فى نفسه إن كل شىء سوف يُجَهَّزُ لهما، وحين يُدْعَيَان باحترام إلى الطعام فسوف يجلسان ويأكلان. وأما بالنسبة لسائر الأمور – وقهقه كيم هنا وهو ينظف أسنانه – فسوف تزيد مضيفتهما من استمتاعهما بالطريق. وتفحص الثيران بنظرة دقيقة عندما أقبلت وهى تنخر وتزفر فى السفر. قال فى نفسه لو سارت الثيران بالعربة بسرعة أكبر مما ينبغى – ولم يكن ذلك محتملاً – فسوف يستمتع بمجلسه فوق عمود العربة، ويجلس اللاما بجوار السائق. وأما الأفراد المرافقون فسوف يمشون بطبيعة الحال. وبطبيعة الحال أيضًا سوف تقول السيدة العجوز كلامًا كثيرًا، واستنادًا إلى ما سمعه، لن تفتقر تلك المحادثة إلى 'المِلْح'! كانت قد بدأت بالفعل إلقاء الأوامر، والخُطب المطولة، وعبارات التأنيب – ولابد من أن نضيف – لعناتها على الخدم لتأخرهم.

وصاح رجل أوريسى "أحضر لها غليونها، باسم الأرباب أحضر لها غليونها حتى تسد فمها المشئوم" وهو يربط حُزَمَ كل فراش فى كتل لا شكل لها، مضيفًا: "إنها مثل الببغاوات. يُصْدِرْنَ النعيب فى الفجر".

"ثيران المقدمة! انتبه لثيران المقدمة!" كانت الثيران تتراجع وتستدير حين اشتبك محور عربة تحمل الحبوب بقرونها. "يا ابن البومة إلى أين تتجه؟". قالت ذلك إلى سائق العربة الذى افتر ثغره عن ابتسامة.

ونادى الرجل من خلفه بما يحمله من أثقال "آى! ياى! ياى! فى داخل العربة ملكة دلهى، فى طريقها للصلاة من أجل ابن! أفسح الطريق لملكة دلهى ورئيس وزرائها، القرد الرمادى الذى يتسلق سيفه!" وجاءت عربة أخرى تحمل لحاء الأشجار وتكاد تلتصق بعربة السيدة العجوز، وكانت هذه تتجه إلى مدبغة جلود فى السهول، وأضاف سائقها بعض ألفاظ 'المديح' عندما تراجعت ثيران عربة السيدة مرتين.

ومن خلف الستائر التى تهتز انطلق وابل من الشتائم. لم يستمر طويلاً، ولكنه كان يتجاوز كل شىء سمعه الناس حتى كيم نفسه، من حيث نوعه وأسلوبه وملاءمته الجارحة اللاذعة، واستطاع أن يرى سائق العربة وصدره العارى يهبط من الدهشة، والرجل يوجه تحية تبجيل إلى الصوت، ثم يثب تاركًا عمود العربة حتى يساعد أفراد الحاشية فى رفع العربة التى كانت كالبركان ووضعها على الطريق الرئيسى. وهنا ذكر الصوت له بحق حقيقة الزوجة التى تزوجها وما كانت تفعله أثناء غيابه.

وتمتم كيم قائلاً "شوباش!" (أى أحسنتِ!) إذ عجز أن يتمالك نفسه والرجل ينسل وحده مبتعدًا.

"هل 'أحسنتُ' حقًّا؟ من العار بل والمخزى ألا تستطيع امرأة مسكينة أن تذهب للصلاة إلى أربابها إلا تعرضت لهذا التزاحم وللشتائم من جميع قمامة هندوستان. وهل قُدِّرَ لها السُّمُّ وللرجال السَّمْن؟ ولكن لسانى لم يفقد بعد موهبته، وسوف يقول كلمة أو كلمتين تناسبان الموقف. وانظر! أين ذهب التبغ؟ من ذلك الأعور ابن السَّفَّاحِ الذى لم يجهز لى غليونى؟".

وسرعان ما زج بالغليون داخل الهودج رجل من رجال الجبال، فبدأت بوادر الدخان الكثيف تتصاعد من كل ركن من أركان الستائر دليلاً على عودة السلام.

إذا كان كيم قد سار مزهوًا فى اليوم السابق باعتباره تلميذ رجل ربانى، فإنه غدا اليوم يخطو بخطوات تنطق بعشرة أمثال ذلك الزهو فى حاشية

موكب نصف ملكى، مستمتعًا بمكان معترف به فى رعاية سيدة عجوز ذات أخلاق ساحرة وموارد لا آخر لها. وكان أعضاء الحاشية المرافقون يسيرون على جانبى العربة، ورأس كل منهم مربوط بالرباط 'البلدى'، وأرجلهم تثير سحائب هائلة من الغبار.

كان اللاما وكيم يسيران على أحد الجانبين، وكان كيم يمص قصب السكر، ولا يسمح لفرد تقل منزلته عن 'كاهن' أن يتخطاه. وكان فى مقدورهما أن يسمعا طرقعة لسان السيدة العجوز بانتظام يشبه انتظام مضارب تقشير الأرز. وطلبت من الحاشية إخبارها بما يدور فى الطريق، وما إن خرج الركب من محطة الراحة حتى فتحت الستائر وأطلت من العربة، وبرقعها يغطى ثلث وجهها. ولم يكن رجالها ينظرون إليها مباشرة حين تخاطبهم وهكذا فقد كانت أصول اللياقة مراعاة إلى حد ما.

ومر مأمور الشرطة بأحد الأحياء فوق حصان مرهق يخب خببًا، كان الرجل إنجليزيًا أسمر اللون شاحب الوجه يرتدى الزى الرسمى الذى لا تشوبه شائبة، ولما اتضحت له من وجود حاشية المرأة منزلتها أحب أن يغيظها فصاح:

"والدتى! هل تفعل النساء ذلك فى الحرملك؟ فنفترض أن إنجليزيًا مر بك ورأى أنك لا أنف لك؟".

وردت المرأة بصوت حاد النبرات "ماذا؟ والدتك لم يكن لها أنف؟ إذن لماذا تقول ذلك فى الطريق العام؟".

كان الرد منطقيًا فرفع الإنجليزى يده بحركة اللاعب الذى فاز خصمه بنقطة فى لعبة 'الشيش'. فضحكت المرأة وأومأت برأسها.

ثم أزاحت لثام وجهها وحدقت فيه قائلة "هل هذا وجه يغرى الفضيلة بالانحراف؟".

لم يكن الوجه جميلاً على الإطلاق، ولكن الرجل قال وهو يشد زمام

فرسه، إنها بدر الفردوس، ومغوية الصالحين، إلى جانب بعض الصفات الخيالية التى جعلتها تضحك حتى استلقت على وجهها.

قالت "إنه وغد! كل رجال الشرطة أوغاد، ولكن رؤساءهم أسوأ الجميع. اسمع يا ولدى! هل تعلمت كل هذا منذ أتيت من أوروبا؟ من التى أرضعتك؟".

"'پـــهارية'– امرأة من تلال 'دالهوزى' – والدتى. أسدلى النقاب على جمالك، يا من توزعين الملاذ" ثم انصرف.

قالت فى لهجة جميلة حكيمة وهى تملأ فمها باللوز الملفوف بورق الشجر المتبل: "هذا هو نوع الرجال الذين يعرفون الإشراف على العدالة: إنهم يعرفون البلاد وعادات البلاد. وأما الآخرون الذين قدموا لتوهم من أوروبا، وأرضعتهم أمهات بيضاء وتعلموا لغاتنا من الكتب، فهم أسوأ من الطاعون. فهم يسيئون إلى الملوك". ثم قصت قصة طويلة طويلة إلى العالم كله، عن شرطى شاب جاهل كان قد أزعج أميرًا من صغار راچـــات الجبال، وهو ابن عم لها من الدرجة التاسعة، فى مسألة تافهة تتعلق بإحدى قضايا الأراضى، مختتمة قصتها بمقتطف من كتاب أبعد ما يكون عن الدين.

ثم تغير مزاجها وطلبت من بعض مرافقيها أن يسأل اللاما إن كان يقبل أن يسير بحذاء العربة ويناقش معها شئون الدين. وهكذا عاد كيم يسير على التراب ويمص قصب السكر. وظلت قبعة اللاما الأسكتلندية تلوح ساطعة كالقمر فى غبش الضوء ساعة أو أكثر، واستطاع كيم أن يدرك من كل ما سمعه أن العجوز بكت. واعتذر رجل أوريسى عن فظاظته فى الليلة البارحة، قائلاً إنه لم يكن يعرف أن سيدته رهيفة الطبع إلى هذا الحد، وعزا ذلك إلى وجود الكاهن الغريب. كان شخصيًا يؤمن بالبراهمينيين، وإن كان – مثل باقى أبناء البلد – يدرك بشدة دهاءهم وجشعهم. ومع ذلك، فعندما كان البراهمينيون يضايقون والدة زوجة سيده بطلب العطايا والمنح، وعندما صرفتهم غاضبين أشد الغضب إلى حد استمطارهم اللعنات على الحاشية كلها وهو سبب العرج الذى أصاب الثور الثانى على جانب العربة، وسبب كسر عمود العربة فى

الليلة السابقة كان على استعداد لتقبل أى كاهن من أى شيعة أخرى من الهند أو من خارجها. سمع كيم كل هذا وأبدى موافقته بإيماءات حكيمة وطلب من الأوريسى ألا ينسى أن اللاما لا يتقاضى أية أموال، وأن تكاليف طعامه هو واللاما سوف تُسَدَّدُ مائة ضعف فى صورة حُسْنِ الحظ الذى سوف يُوَاتِى القافلة من الآن فصاعدًا. كما قص قصصًا أيضًا عن مدينة لاهور، وأنشد أغنية أو أغنيتين دفعتا المرافقين إلى الضحك. وباعتباره من 'فئران المدينة' الملمين بأحدث أغانى الملحنين الذائعى الصيت – وهم فى معظمهم من النساء – كان كيم يتمتع بمزية واضحة أتاحت له التفوق على الرجال المنتمين إلى قرية فاكهة صغيرة خلف سهارنـــپـــور، ولكنه سمح لهم باستنباط تلك المزية وحسب.

وعند الظهيرة وقفت القافلة على جانب الطريق لتناول الطعام، وكانت الوجبة جيدة، وزاخرة، كما قُدِّمَتْ فى صحاف من ورق الشجر النظيف، وبأسلوب مهذب، بعيدًا عن مهب التراب. وقدموا البواقى إلى بعض المتسولين، حتى تكتمل تلبية جميع المتطلبات، ثم جلسوا لينعموا بالتدخين فترة طويلة. كانت السيدة العجوز قد تراجعت فاختفت وراء ستائرها لكنها ظلت تشارك بكل حرية فى المحادثات الجارية، إذ كان خدمها يتجادلون معها ويناقضونها كما يفعل الخدم فى شتى أرجاء الشرق. وجعلت تقارن البرد وأشجار الصنوبر فى جبال 'كانجرا' و'كولو' بالتراب وأشجار المانجو فى الجنوب، وقصت قصة عن بعض الأرباب المحلية القديمة على حافة ضيعة زوجها، ووجهت الشتائم المباشرة للتبغ الذى كانت تدخنه، والسباب لجميع البراهمينيين، وجعلت ترسم صورة للمستقبل لا تَحَفُّظَ فيها، بشأن قدوم كثير من الأحفاد لها.

الفصل الخامس

هَا أَنَذَا حَقَّقْتُ ذَاتِى مِنْ جَدِيدْ –
طَاعِمًا ومَغْفورًا لَهُ ومَعْرُوفًا كذاكَ مِنْ جَدِيدْ –
يَشُدُّ عَظْمِى عَظْمُ أُسْرَتِى العَرِيقُ مِنْ جَدِيدْ –
شقيقَ كُلِّ مَنْ يَشُدُّنى إليه اللَّحْمُ والدَّمْ!

يُقَدِّمُونَ عِنْدَ الأَكْلِ أَسْمَنَ العُجُولِ لى
لكنَّما القُشُورُ ما زَالَتْ أَثِيرَةً عِنْدى
خَنَازِيرِى أَظُنُّها خَيْرَ الطَّعَامِ لى
وهكذا أَعُودُ طَالِبًا حَظَائِرِى لكىْ أَنْعَمْ!

(الابن الضال)

مرة أخرى عادت إلى المسير القافلة المتكاسلة، المشدودة بالخيوط، فيما يشبه التأرجح، ونامت المرأة حتى وصل الجميع إلى محطة التوقف التالية. كانت المسافة بالغة القصر، وكان قد بقى على الغروب ساعة واحدة، فأخذ كيم ينشد مصدر تسلية له.

وقال أحد المرافقين "ولماذا لا تجلس وتستريح؟ الإنجليز والشياطين فقط هم الذين يروحون جيئة وذهابًا من دون سبب".

وقال زميله "لا تصادق شيطانًا أو قردًا أو غلامًا، فلا أحد يعرف ما سوف يفعلونه فى اللحظة التالية".

وأدار كيم ظهره لهما فى احتقار، فلم يكن يريد أن يسمع القصة القديمة التى تحكى كيف لعب الشيطان ذات يوم مع الصبيان ثم ندم على ذلك، وانطلق يسير بلا غاية فى الحقول.

وسار اللاما خلفه طيلة ذلك النهار، كان اللاما كلما مروا بجدول صغير التفت لينظر إليه، ولكنه لم يلمح فى أية حال ما يبشره بأنه وجد نهره. ودون أن يشعر كان فكره قد انصرف قليلاً عن 'البحث' بسبب الراحة التى أحسها فى الحديث إلى شخص ما بلغة 'معقولة'، وبسبب معاملته معاملة لائقة واحترامه من جانب امرأة كريمة المحتد باعتباره مستشارها الروحى. أضف إلى ذلك أنه كان على استعداد لقضاء سنوات رزينة فى البحث عن مطلبه، فلم يكن يعانى كالرجل الأبيض من نفاد الصبر بل يتمتع بإيمان عظيم.

ونادى كيم قائلاً "أين تذهب؟".

وقال كيم "لن أذهب إلى أى مكان. أمشى قليلاً حسب. وهذا كله" ولوح كيم بيديه يمنة ويسرة "جديد علىّ".

"إنها بلا شك حكيمة وذكية. ولكن التأمل صعب عندما...".

"كل النساء هكذا" – وقالها كيم كأنما كان سليمان الحكيم.

وتمتم اللاما قائلا "كان أمام الدير رصيف عريض من الحجر" وتكورت فى يده المسبحة البالية، فأضاف "وقد تركتُ عليه آثار أقدامى، رائحًا غاديًا مع هذه المسبحة".

وجعل يسبّح بالمسبحة ثم شرع فى ترنيمته الدينية الصينية، هانئًا ببرودة الجو والهدوء وعدم وجود التراب.

وشيئًا فشيئًا بدأ كيم يركز بصره فى السهل الممتد أمامه، ولم يكن يهدف إلى تحقيق غاية من هذا التجوال، إلا أن أسلوب بناء الأكواخ بدا جديدًا، وأراد أن يستكشف الأمر.

وصل الاثنان إلى ساحة عريضة من أراضى الرعى، كساها الأصيل باللونين البنى والأرجوانى، وكان فى وسطها دغل ملتف من أشجار المانجو. وبدا لكيم أنه من الغريب ألا يقوم مزار دينى فى هذه البقعة الصالحة للمزارات، وكانت قوة ملاحظة الصبى وانتباهه لهذه الأشياء تضاهى ما يتمتع

به أى كاهن. وعلى مسافة بعيدة عبر السهل كان أربعة رجال يسيرون جنبًا إلى جنب، وإن بدت أحجامهم على البعد ضئيلة. وركز بصره من خلال راحتيه المقوستين ولمح بريق النحاس الأصفر.

قال "جنود. جنود ذوو بشرة بيضاء! فلننظر!".

"لابد أن يكونوا جنودًا عندما أخرج أنا وأنت وحدنا معًا. لكننى لم أر فى حياتى الجنود ذوى البشرة البيضاء".

"لا يؤذون أحدًا إلا عندما يسكرون. فلتبق خلف هذه الشجرة".

وانتقلا فوقفا خلف الجذوع السميكة فى الظلال الكثيفة الباردة لدغل المانجو. وتوقف شخصان ضئيلا الجرم، وتقدم الآخران فى بعض التردد. كانوا طليعة فرقة عسكرية أثناء مسيرها، وكانت مرسلة كالعادة لمراقبة المعسكر. كانوا يحملون عِصِيًّا ركبت فيها رايات تخفق، طول الواحدة متر ونصف، وكان ينادى بعضهم بعضًا وهم ينتشرون فى السهل المنبسط.

وأخيرًا دخلوا دغل المانجو، بخطوات ثقيلة.

"فى هذا المكان أو نحو ذلك. خيام الضباط تحت الأشجار، حسبما أتصور، ويمكن أن يظل باقى أفرادنا فى الخارج. هل حددوا الطريق لعربات المتاع فى الخلف؟".

ونادوا من جديد رفقاءهم على آخر مرمى الطرف، وجاء الرد الموجز خافتًا حلو النبرات.

وقال أحدهم "اغرس العلم هنا إذن".

وقال اللاما فى عجب ودهشة "ماذا يدبرون؟ هذا عالم كبير رهيب. ما هذه الأداة المركبة فى العلم؟".

وغرس جندى وتدًا طويلاً على مبعدة أقدام قليلة منهما، وأصدر أصواتا تنم على استيائه، ثم انتزعه من جديد، وتناقش مع رفقائه الذين جعلوا ينظرون على امتداد كهف الخضرة الظليل، ثم أعادوا غرس الوتد.

وحدق كيم بملء عينيه، وقد غدت أنفاسه لاهثة متلاحقة بين أسنانه. ثم انطلق الجنود بخطوات كالمطارق عائدين إلى ضوء الشمس.

وشهق كيم قائلاً "أيها الرجل الربانى! هل تذكر طالعى؟ وما رسمه الكاهن فى التراب فى أومبالا؟ هل تذكر ما قال؟ يأتى اثنان أولا من 'الفراش' (أى الخدم) حتى يهيئا كل شىء، وفى مكان معتم، وكما هو الحال دائمًا فى مستهل كل رؤيا".

وقال اللاما "ولكن هذه ليست رؤيا. إنها وهم الدنيا، لا أكثر".

"وبعد ذلك يأتى الثور، الثور الأحمر فى الحقل الأخضر. انظر! إنه هو!".

وأشار إلى الراية التى كانت تخفق بشدة فى نسائم المساء ولا تبعد عنهما ثلاثة أمتار. لم يكن إلا العلم العادى الذى يحدد موقع إقامة المعسكر، ولكن هذه الفرقة كانت تتميز دائمًا بالحذلقة فى شاراتها وقبعاتها، فأضافت إلى العلم الرمز الخاص بها دون سواها، ألا وهو الثور الأحمر، الذى يضعه أفراد الفرقة الجوالة شارة على قبعاتهم، بحيث كان يبدو ثورًا أحمر على خلفية من اللون الأخضر الخاص بأيرلندا.

وقال اللاما "أفهم، وأذكر ذلك الآن. لا شك أنه ثورك. ولا شك أن رجلين قد جاءا لتمهيد كل شىء".

"إنهما من الجنود، الجنود ذوى البشرة البيضاء. ماذا قال الكاهن؟ قال 'العلامة فوق الثور علامة الحرب والرجال المسلحين' أيها الرجل الربانى! هذا الأمر يتعلق بالبحث الخاص بى".

وقال اللاما "صحيح. هذا صحيح" وجعل يحدق بثبات فى الراية التى كانت تتوهج مثل الياقوته فى الظلام، مضيفًا "وقال الكاهن فى أومبالا إن علامتك علامة حرب".

"ماذا نفعل الآن؟".

"انتظر. فلننتظر".

وقال كيم "لقد انجلى الظلام الآن". كان من الطبيعى أن تلقى الشمس الغاربة أشعتها الأخيرة من خلال جذوع الأشجار عبر الدغل فتملأه بضوء ذهبى جميل دقائق معدودة ولكن كيم رأى فى ذلك تتويجًا لنبوءة كاهن أومبالا البراهمينى.

وقال اللاما "اسمع! يدق أحدهم الطبل – من بعيد!".

كان الصوت فى البداية يصل مخففًا من خلال الهواء الساكن، كأنما هو نبض شريان داخل الرأس. ولكن الحدة فيه سرعان ما ازدادت.وقال كيم موضحًا الأمر "آه! إنها الموسيقى". إذ كان يعرف الصوت المميز لفرق الموسيقى العسكرية، ولكنها أدهشت اللاما.

ولاح فى الطرف الأقصى من السهل طابور عسكرى يثير الغبار ويزحف ببطء، ثم حملت الريح لحن الأنشودة:

إنَّا نَرْجُو أنْ تَتَنَازَلَ

حَتَّى نُخْبَرَكَ بما نَعْرِفُ

عَنْ زَحْفِ الفَوْج ويُدْعَى حَرَسَ المُولِيجَانْ

حتى مِينَاءِ سِلِيجو عند الأطْلَنْطى!

وهنا انطلقت موسيقى الصفارات الحادة:

بِسِلاَحٍ فَوْقَ الكَتِفِ مَضَيْنَا

فَزحَفْنَا وزَحَفْنَا مُنْطَلِقِينْ

مِنْ مُنْتَزَهٍ فى دَبْلِنْ يُدْعىَ فِينِكْسْ

حتى جِئْنَا لخليج المِينَاءْ

دَقَّاتُ الطَّبْلِ وأنْغَامُ الصَّقَّارَةْ

تَتَصَاعَدُ مِنَّا بِعُذُوبَةٍ

وزَحَفْنَا وزَحَفْنَا وزَحَفْنَا

نَحْنُ رِجَالَ الحَرَسِ المُولِيجَانْ!

كانت أنغام فرقة موسيقى الفوج الجوال تعزف داعية الفوج إلى المعسكر، إذ كان الرجال يسيرون فى طريقهم إلى المعسكر حاملين الأمتعة. وفجأة انفرط عقد الطابور فأصبح صفًا، ومن خلفه العربات، وانقسم إلى اليمين واليسار، وبدأ رجاله يجرون كأنهم عش من النمل، وهكذا...

وقال اللاما "ولكن هذا سحر!".

وانتشرت الخيام على السهل على شكل بقع متناثرة كانت فيما يبدو تبرز كاملة ومنتصبة من العربات. وانقض فريق آخر من الرجال على الدغل فأقاموا خيمة هائلة فى صمت، ثم أقاموا ثمانى أو تسع خيام أخرى بجوارها، واستخرجوا الكثير من أوانى الطهى والقدور واللفافات التى أعطوها لحشد من الخدم من أولاد البلد. وإذا بدغل المانجو وقد تحول إلى بلدة يسودها النظام أمام أعينهما!

وقال اللاما "فلنذهب" منكمشًا ومتراجعًا فى خوف، والنيران تتلألأ والضباط ذوو البشرة البيضاء يدخلون حاملين السيوف ذوات الصليل إلى خيمة المطعم.

وقال كيم "ارجع فقف فى الظلام. لن يستطيع أحد أن يرى شيئًا بعيدًا عن ضوء النهار"، وكانت عيناه لا تزالان ترقبان العلم. لم يشهد فى حياته الأسلوب المعتاد الذى تتبعه فرقة ذات خبرة فى إقامة معسكرها فى ثلاثين دقيقة.

وقال اللاما فجأة "انظر! انظر! انظر! هذا كاهن مقبل!".

كان اسمه بينيت، كاهن الفوج، ومن طائفة الكنيسة الإنجليزية، وكان

يمشى ببعض العرج فى أرديته السوداء الترابية. كان أحد أبناء طائفته قد أبدى بعض الملاحظات الفظة عن صلابة عوده، فأراد الرد عليه وسار خطوة بخطوة مع الرجال فى ذلك اليوم. وكان الناس يستطيعون إدراك أنه من رجال الدين فى أى مكان فى الهند بسبب ملبسه الأسود والصليب الذهبى الذى يتدلى من سلسلة ساعته، ووجهه الحليق، والقبعة اللينة السوداء ذات الحافة العريضة. وألقى بجسده فوق أحد كراسى المعسكر بجوار باب خيمة المطعم وخلع حذاءه الطويل. واجتمع ثلاثة ضباط أو أربعة حوله ضحكين ومتفكهين مما أنجزه ذلك اليوم.

وقال اللاما "حديث الرجال ذوى البشرة البيضاء يفتقر تمامًا إلى الوقار"، ولم يكن يستند فى حكمه إلا على نغمة ما سمعه. ثم قال "ولكننى لاحظت وجه الكاهن. وأظن أنه مثقف. هل من المحتمل أن يفهم كلامنا؟ أود أن أحدثه عن بحثى".

وقال كيم "لا تتحدث قط إلى رجل أبيض إلا بعد أن يشبع". مقتطفًا مثلاً مشهورًا. "سوف يأكلون الآن، ولا أظن أنهم يصلحون للتسول منهم. فلنذهب الآن إلى محطة الراحة. ولنعد إلى هنا بعد أن نأكل. كان ثورًا أحمر دون شك. **ثورى** الأحمر".

كان شرود الذهن واضحًا عليهما معًا حين وضعت حاشية السيدة العجوز الطعام أمامهما، ولذلك لم يلجأ أحد أفراد الحاشية إلى انتهاك 'تحفظهما' فليست مضايقة الضيوف مما يجلب الحظ الحسن.

وقال كيم وهو يسلك أسنانه "فلنعد الآن إلى ذلك المكان. ولكن ينبغى لك أيها الرجل الربانى أن تنتظر على مبعدة ما، لأن خطوك أثقل من خطوى، ولأننى أتوق لرؤية المزيد عن ذلك الثور الأحمر".

وقال اللاما فى نبرات ضيق "ولكن كيف تستطيع فهم كلامهم؟ سر ببطء فالطريق مظلم".

وتجنب كيم الإجابة عن السؤال، قائلاً "لمحت مكانًا بالقرب من الأشجار تستطيع أن تجلس فيه حتى أناديك". ولما لاحظ أن اللاما يعترض بصورة ما قال "نعم! تذكر أن هذا بحثى أنا، وهو البحث عن ثورى الأحمر. لم تكن العلامة فى النجوم تخصك. وأنا أعرف قليلاً عن عادات الجنود ذوى البشرة البيضاء، وأرغب دائمًا أن أرى كل جديد".

"ما الذى لا تعرفه عن هذا العالم؟" وأطاع اللاما كيم فقبع فى فجوة صغيرة فى الأرض قريبة من دغل أشجار المانجو، وقد أصبح الدغل معتمًا وخلفه السماء التى انتثرت فيها النجوم.

وانسل كيم فاختفى فى الغسق وهو يقول "لا تتحرك حتى أناديك". كان يعرف أن المعسكر يحيط به أكثر من ديدبان، وابتسم لنفسه حين سمع وقع الحذاء الثقيل لأحدهم. كان الصبى الذى يستطيع المراوغة فوق أسطح منازل مدينة لاهور فى الليالى المقمرة، مستخدما كل بقعة وكل ركن من أركان الظلام للفرار من مطارديه، لا يرجح أن يلحظه صف من الجنود ذوى التدريب الجيد. وقد أبدى تقديره لهم حين زحف بين اثنين منهم، ثم استطاع بالجرى والتوقف، والانكماش والانبطاح أرضًا، أن يشق طريقه إلى خيمة المطعم حيث المصابيح الموقدة، والتصق هناك بجذع شجرة مانجو فى انتظار فرصة الاستماع إلى كلمة يمكن أن تتيح له دليلاً يهتدى به.

كان الأمر الوحيد الذى يشغل ذهنه الآن أن يحصل على المزيد من المعلومات عن الثور الأحمر، وفى حدود ما يعرف – إذ كانت حدود كيم غريبة ومفاجئة مثل انطلاقاته – كان من المحتمل أن يلجأ هؤلاء الرجال، وهم من أشارت نبوءة والده إلى أنهم تسعمائة شيطان مريد، إلى الصلاة لذلك الحيوان بعد أن يهبط الظلام، مثلما يصلى الهندوس للبقرة المقدسة. وكان يمكن أن يكون ذلك، على الأقل، صحيحًا ومنطقيًا تمامًا، و'الأب' الذى يعلق الصليب الذهبى هو، مِنْ ثَمَّ، مَنْ ينبغى أن يُستشار فى هذه المسألة. ومن ناحية أخرى، تذكر كيم 'الآباء' ذوى الوجوه العابسة الذين كان يتحاشاهم فى مدينة

لاهور، وقال فى نفسه إن ذلك الكاهن ربما اتسم بالفضول وتسبب فى مضايقة كيم بإلحاحه على تعليمه. ولكن ألم يثبت فى أومبالا أن علامته فى السماوات العليا كانت تنذر بالحرب وبالرجال المسلحين؟ ألم يكن كذلك صديق النجوم وصديق العالم كله أيضًا، وزاخرًا إلى أذنيه بأسرار رهيبة يتكتمها؟ وأخيرًا - بل وأولاً فى التيار الباطن لكل أفكاره - كانت هذه المغامرة، وإن لم يعرف الكلمة الإنجليزية الصحيحة، تسرية رهيبة، واستمرارًا ممتعًا لأحداث فراره القديمة عبر أسطح المنازل، وكذلك لنبوءة بهيجة. ورقد على بطنه ثم جعل يزحف بحذر نحو باب خيمة المطعم، واضعًا يده حول التميمة المعلقة فى رقبته.

وكان ما اشتبه فيه. كان الإنجليز يصلون لربهم، إذ كان فى وسط منضدة خيمة المطعم الشىء الوحيد الذى يزينها وهم بسبيلهم إلى المسير، وكان ذلك ثورًا ذهبيًا واقفًا مصنوعًا من غنائم قديمة مستولىً عليها من القصر الصيفى فى بكين، وهو القصر الإمبراطورى، وكان الثور الذهبى ذا لون أحمر ذهبى، واقفًا فى حقل بلون أخضر أيرلندى وكان الإنجليز يرفعون له كؤوسهم ويصيحون بصوت عال صيحات مختلطة.

كان القس آرثر بينيت عادة ما يغادر خيمة المطعم بعد شرب هذا النخب، ولما كان يشعر ببعض الإرهاق بسبب سيره مع الفرقة فقد كانت حركاته أشد حدة عما اعتاده. وكان كيم - برأس مرفوع قليلاً - لايزال يحدق فى الطوطم عندما داست قدم القس على لوح كتفه اليمنى. وتراجع كيم تحت وطأة الحذاء الجلدى وتدحرج فأوقع القس الذى اشتهر بأنه 'رجل أفعال' فانقض على الصبى قابضًا على عنقه وكاد يخنقه خنقا. وركله كيم باستماتة فى بطنه، فتأوه بينيت من الألم وانحنى جسده ولكن من دون أن يرخى قبضته ثم تدحرج مرة أخرى ودفع كيم فى صمت إلى داخل خيمته الخاصة. كان الإنجليزى يعرف أن رجال الفرقة الجوالة مولعون 'بالمقالب الفكهة' ولَعًا لا شفاء منه ولذلك بدا له أن يؤثر الصمت حتى يكتمل تحريه للحادثة.

وعندما جرّ أسيره إلى حيث ضوء مصباح عمود الخيمة صاح قائلاً "عجبًا! إنه غلام!" ثم جعل يهز كيم هزًّا عنيفًا وهو يصرخ "ماذا تفعل؟ أنت لص". وأردف بما يعرفه من اللغة الهندوستانية وهو قليل، من مرادفات كلمة 'اللص'، وقرر كيم، على اضطرابه واشمئزازه، أن يلتزم بالدور المرسوم له. وعندما عاد يتنفس فى هدوء بدأ يخترع قصة جميلة لا تجافى المنطق عن بعض صلات القرابة بينه وبين أحد مساعدى الطهاة، وكان يركز بصره الحاد فى الوقت نفسه على طريق الإفلات من هذا الموقف ناظرًا من تحت الإبط الشمال بقليل للقس. ولاحت له الفرصة فانطلق نحو باب الخروج، ولكن ذراع القس الطويلة امتدت فجأة وأطبقت على عنقه، فقطعت خيط التميمة وقبضت على التميمة نفسها.

"أعدها إلىّ! أرجوك أعطها لى! هل ضاعت؟ أعطنى الأوراق!".

كانت الألفاظ انجليزية – باللغة الإنجليزية الخشنة الهزيلة التى يتكلمها من نشأوا فى الهند – ووثب القس واقفًا.

وقال "ميدالية كاثوليكية!" عندما فتح يده. ثم أضاف "لا إنها تميمة وثنية من نوع ما. غريب. غريب. هل تتكلم الإنجليزية؟ الصغار الذين يسرقون يُضربون. هل تعرف ذلك؟".

"أنا لا – لم أسرق". وكان كيم يرتعد فرَقًا مثل كلب يرى عصًا مرفوعة عليه. "أرجوك أعطها لى. إنها تميمتى. لا تسرقها منى".

لم يلتفت القس ولكنه ذهب إلى باب الخيمة ونادى بصوت عال، فظهر رجل حليق اللحية ويميل إلى السمنة.

وقال بينيت "أريد مشورتك أيها الأب فكتور. وجدتُ هذا الغلام فى الظلام خارج خيمة المطعم. كان ينبغى فى الأحوال العادية أن أعاقبه وأطلق سراحه، ما دمت أظنه لصًّا. ولكن يبدو أنه يعرف الإنجليزية، وهو يولى قيمة ما لتميمة تتدلى حول عنقه. وخطر لى أنك ربما تستطيع مساعدتى".

كان بينيت يعتقد أن هوة شاسعة تفصل بينه وبين القس الكاثوليكى للفرقة الأيرلندية، ولكن الملاحظ أنه كلما تعرضت الكنيسة الإنجليزية لمشكلة إنسانية فالأرجح أن تستدعى كنيسة روما. ولم يكن يعادل كراهية بينيت الرسمية للكنيسة الرومية وشتى أساليبها إلا احترامه الشخصى للأب فــكتور.

"هل لدينا لص يتحدث الإنجليزية إذن؟ فلننظر إلى تميمته. لا! ليست ميدالية كاثوليكية يا بينيت". ومد يده إلى صاحبه.

"ولكن هل لدينا أى حق فى فتحها؟ الجَلْدُ بالسياط جَلْدًا ".

وصاح كيم معترضًا "لم أسرق. لقد ركلتنى ركلاً شديدًا فى كل أجزاء جسدى. أعطنى الآن تميمتى وسوف أمضى".

وقال الأب فــكتور "ليس بهذه السرعة". وبدأ يبسط فى هدوء فى يده الرق الذى كتب فيه المسكين كيمبول أوهارا عبارة "**الثابت دائمًا**" باللاتينية – شهادة الانتماء إلى الجمعية الماسونية – وشهادة 'إخلاء الطرف'، وشهادة تعميد كيم. وفى هذه الشهادة الأخيرة كان أوهارا قد كتب عدة مرات "**أرجو الاعتناء بالصبى. أرجو رعاية الصبى**" ظانًا بذلك أنه كان يفعل الأعاجيب من أجل ابنه، ووقع تحتها باسمه ورقمه فى الفرقة العسكرية كاملا.

وهتف الأب فــكتور قائلاً "يا قوى الظلام فى الأرض!" ثم أعطى كل شىء لبينيت صائحًا "هل تعرف ما هذه الأشياء؟".

فقال كيم "نعم. إنها ملكى. وأنا أريد أن أذهب".

وقال بينيت "لا أفهم على وجه الدقة. يُحتمل أنه أحضرها عمدًا. قد تكون حيلة تسول من نوع ما".

"لم أشهد فى حياتى إذن شحاذا أقل حرصًا على البقاء مع صحبه. إننى أرى فى هذا عناصر لغز طريف. هل تؤمن يا بينيت بالعناية الإلهية؟".

"أرجو ذلك".

"الواقع أنى أومن بالمعجزات، وهو ما يعنى الشيء نفسه. يا قوى الظلام! كيمبول أوهارا! وابنه! ولكن هذا من أبناء البلد، وقد شاهدت بنفسى كيمبول وهو يتزوج 'آنى شوط'. كم مضى على امتلاكك هذه الأشياء أيها الصبى؟".

"منذ أن كنت طفلاً صغيرًا".

وتقدم الأب ڤـكتور بسرعة وفتح مقدمة قميص كيم قائلاً "انظر يا بينيت! ليس شديد السمرة. ما اسمك؟".

"كيم".

"أم كيمبول؟".

"ربما. هل ستتركنى أذهب؟".

"وماذا أيضًا؟".

"يسموننى كيم ريشتى كى. أى كيم بن ريشتى".

"وما ريشتى هذه؟".

"آى ريشتى! كانت تلك هى الفرقة. فرقة والدى".

"أيريش! يعنى أيرلندى! فهمت".

"نعم هذا ما أخبرنى أبى به. أبى كان يعيش يومًا ما".

"كان يعيش، أين؟".

"كان يعيش. لكنه **طبعًا** مات. خرج!".

"هل هذا أسلوبك المقتضب فى التعبير؟".

وقاطعه بينيت قائلاً "يحتمل أننى ظلمت الغلام. فهو قطعًا أبيض، لكنه تعرض بوضوح للإهمال. أنا واثق أننى أصبته بكدمات. لا أظن الأرواح ".

وواصل الأب ڤـكتور حديثه قائلاً "قدم له شرابًا من 'الشرى' إذن ودعه يجلس على السرير، والآن يا كيم "لن يؤذيك أحد. اشرب هذا وحدثنا عن نفسك. قل الحق إن لم يكن لديك مانع".

وسعل كيم قليلاً وهو يعيد الكوب الفارغ وجعل يفكر. وبدا له أن تلك اللحظة تتطلب الحيطة والخيال. فالصغار الذين يتسربون إلى المعسكرات عادة ما يُضربون ويُخلى سبيلهم. ولكنّه لم يُجْلد، وكانت التميمة 'تعمل' بوضوح لصالحه، وبدا له كأنما كان طالعه الذى قرأه فى أومبالا والكلمات القليلة التى كان يذكرها من شطحات والده قد 'خدمت' الموقف بصورة خارقة. هذا وإلا فلماذا بدا السرور على وجه الأب السمين ولماذا قدم له الأب النحيل كوبًا من الشراب الأصفر الساخن؟.

وقال كيم "أبى مات فى مدينة لاهور عندما كنت صغيرًا جدًّا. وكانت المرأة تدير حانوتًا للروبابيكيا بالقرب من موقف استئجار العربات". كان كيم قد بدأ بداية جسورة، وإن لم يكن واثقًا كل الثقة أن قول الحق سوف 'يخدمه'.

"أمك؟".

"لا!" قالها كيم بحركة تنم عن اشمئزازه. "أمى 'خرجت' عند مولدى. وأبى جاء بهذه الأوراق من بيت الوثائق – ماذا تسمونه؟" (وأومأ بينيت) لأنه كان ذا مكانة جيدة – ماذا تسمون ذلك؟" (وأومأ بينيت من جديد) "وقال لى أبى ذلك كله. وقال أيضًا، وكذلك قال البراهمينى الذى خط رسومًا فى التراب منذ يومين، إننى سوف أجد ثورًا أحمر فى حقل أخضر وإن الثور سوف يساعدنى".

وغمغم بينيت قائلاً "كذاب صغير بالغ البراعة".

وتمتم الأب فكتور قائلاً "يا قوى الظلام فى الأرض، يا له من بلد! استمر يا كيم استمر!".

"لم أسرق. كما إننى الآن تلميذٌ لرجل ربانى جدًّا. إنه جالس فى الخارج. رأينا رجلين مقبلين برايات، لتجهيز المكان. وهذا ما يحدث **دائمًا** فى الحلم، أو بسبب – نبوءة. وهكذا عرفت أنها تحققت. شاهدت الثور الأحمر فى الحقل الأخضر، وكان والدى قد قال 'تسعمائة شيطان مريد، والعقيد على صهوة

جواده، سوف يرعونك عندما تجد الثور الأحمر!' لم أعرف ما ينبغى أن أفعل عندما شاهدت الثور، ولكننى انصرفت ورجعت عندما هبط الظلام. كنت أريد أن أشاهد الثور مرة أخرى، وشاهدت الثور من جديد مع الإنجليز – الذين كانوا يُصَلُّونَ له. أعتقد أن الثور سوف يساعدنى. والرجل الربانى يقول هذا أيضًا. إنه جالس فى الخارج. هل تؤذونه إذا صحت أناديه الآن؟ إنه بالغ القداسة. ويمكنه أن يشهد على صدق جميع ما قلته، ويعرف أننى لست لصًّا".

وقال بينيت " 'الإنجليز يصلون لثور!' ماذا يمكنك أن تفهم من ذلك؟ واسمع قوله 'تلميذ رجل ربانى'! هل الغلام مجنون؟".

"إنه ابن أوهارا دون أدنى شك. ابن أوهارا متضافرًا مع جميع قوى الظلام. ذلك إلى حد كبير ما كان يمكن أن يفعله أبوه... إن كان سكرانًا. يحسن بنا أن ندعو الرجل الربانى إلى القدوم. ربما كان يعرف شيئًا".

وقال كيم "بل لا يعرف شيئًا. سوف أريكم إياه إذا جئتم. إنه معلمى. وبعد ذلك نستطيع أن نذهب".

وصاح الأب فكتور "يا قوى الظلام!" ولم يستطع أن يقول غيرها أثناء خروج بينيت واضعًا يده بثبات على كتف كيم.

ووجدا اللاما حيث جلس.

وصاح كيم باللغة المحلية الدارجة "انتهى البحث بالنسبة إلىَّ أنا. فقد وجدت الثور ولكن يعلم الله ما يأتى بعد ذلك. لن يؤذوك. تعال إلى خيمة الكاهن السمين مع هذا الرجل النحيل حتى ترى النهاية. كل شىء جديد ولا يستطيعون أن يتحدثوا اللغة الهندية. إنهم حمير لم يروضها أحد وحسب".

ورد اللاما قائلا "ليس من الخير إذن أن تسخر من جهلهم وتضحك. يسعدنى إن كنت قد سعدت أنت يا تلميذى".

كان يبدو وقورًا لا يستريب بشىء حين خطا داخلا الخيمة الصغيرة، وحيا الكنيستين تحية رجل من رجال الكنيسة، ثم جلس بجانب المدفأة المفتوحة

التى يتوهج فيها الجمر، وكان لون بطانة الخيمة الأصفر المنعكس فى ضوء المصباح يضفى على وجهه لونًا ذهبيًا أحمر.

ونظر إليه بينيت نظرة اللامبالاة العميقة للعقيدة التى تُلقِى بتسعة أشعار أهل الأرض معًا فى سلة واحدة اسمها 'الوثنية'.

وتوجه اللاما بالخطاب إلى كيم قائلاً "وماذا كانت نهاية البحث؟ ما الهدية التى أتى بها الثور الأحمر؟".

كان بينيت ينظر فى قلق إلى الأب ڤـكتور فتعمد كيم، من أجل غاياته الخاصة، القيام بدور المترجم الفورى قائلاً "يقول 'ماذا ستفعلان؟'".

وشرع بينيت يقول "لا أفهم ما شأن هذا 'الفقير' بالصبى؟ وربما كان ضحية خداعه أو شريكه فيما يدبر. لن نستطيع أن نسمح لغلام إنجليزى..." ثم قال: "إذا افترضنا أنه ابن عضو فى الجمعية الماسونية، فكلما أسرعنا فى وضعه فى منزل الأيتام الماسونى كان ذلك أفضل".

وقال الأب ڤـكتور "آه! هذا رأيك بصفتك أمين المحفل الماسونى للفرقة. ولكنى أظن أن علينا أن نخبر الرجل العجوز بما سوف نفعل، فلا يبدو أنه من الأشرار".

"خبرتى تدلنى على أنه من المحال سبر أغوار العقل الشرقى. والآن يا كيمبول: أريدك أن تنقل إلى هذا الرجل ما أقوله، كلمة كلمة".

وأدرك كيم مفاد العبارات القليلة التالية وشرع يقول:

"أيها الربانى، المغفل النحيل الذى يشبه الجمل يقول إننى ابن رجل إنجليزى".

"ولكن كيف؟".

"ذلك صحيح. كنت أعرفه منذ مولدى، ولكنه لم يستطع إدراكه إلا بانتزاع تميمتى من رقبتى وقراءة كل الأوراق. وهو يعتقد أن من يولد إنجليزيا يظل

إلى الأبد إنجليزيًا، وقد اتفق الاثنان على إبقائى فى هذه الفرقة أو إرسالى إلى مدرسة. حَدَثَ ذلك من قبل. ولقد تحاشيت ذلك فى كل مرة. المغفل السمين له رأى وشبيه الجمل له رأى آخر. ولكن هذه ليست مشكلة. ربما أقضى ليلة واحدة هنا، وربما الليلة التالية أيضًا. حَدَثَ ذلك من قبل. وبعدها سوف أهرب وأعود إليك".

"ولكن قل لهما إنك تلميذى. أخبرهم كيف جئتنى عندما كنتُ حائرًا بالغ الضعف. حدثهما عن بحثنا، وأنا واثق أنهما سوف يتركانك تمضى الآن".

"سبق أن حدثتهما. لكنهما يضحكان ويتحدثان عن الشرطة".

وسأل بينيت "ماذا يقولان؟".

فقال كيم "يعنى. يقول فقط إنكما إن لم تدعانى أذهب فسوف يتعطل عن أشغاله – عن شؤونه الخاصة العاجلة" وكانت الكلمات الأخيرة قد تذكرها كيم أثناء بعض حديث له مع موظف كتابى أوراسى (أوربى آسيوى) فى مصلحة الرى، ولكن العبارة لم تفلح إلا فى دفع الرجلين إلى الابتسام، وهو ما أغاظه فقال: "ولو كنتما تعرفان ما 'أشغاله' تلك ما أسرعتما إلى التدخل بهذه السرعة الشائنة".

وقال الأب فكتور بلهجة لا تخلو من التعاطف وهو ينظر إلى وجه اللاما: "وما هى إذن؟"

"فى هذا البلد نهر معين يتوق بشدة إلى أن يعثر عليه. كان قد شقه سهم معين –" وجعل كيم يضرب الأرض بقدمه، نافد الصبر، أثناء قيامه بالترجمة فى ذهنه من اللغة المحلية الدارجة إلى الإنجليزية الركيكة. "الواقع. الواقع أن الذى شقه هو مولانا الرب بوذا نفسه، كما تعرفان، ومن يغتسل فى مياهه يتطهر من جميع الخطايا ويصبح أبيض ناصعًا مثل القطن" (كان كيم قد استمع إلى أقوال المبشرين يومًا ما) "وأنا تلميذه، **ولابد** لنا أن نجد ذلك النهر. إنه ذو قيمة كبيرة جدًا لنا".

وقال بينيت "قل ذلك مرة أخرى" فكرر كيم ما قاله وتوسع فيه.

وصاح رجل الكنيسة الإنجليزية "ولكن هذه زندقة شنيعة!".

وقال الأب فكتور بنبرة تعاطف "ليتنى كنت أعرف اللهجة المحلية الدارجة! نهر يطهر المرء من الخطايا! وكم مر عليكما فى البحث عنه؟".

"أيام كثيرة. والآن نود أن نذهب ونعود إلى البحث عنه. فإنه، كما ترى، ليس هنا".

وقال الأب فكتور بلهجة وقورة "أفهم. ولكنه لا يستطيع الذهاب فى صحبة هذا الرجل العجوز. لو لم تكن ابن جندى يا كيم لاختلف الحال. قل له إن الفرقة سوف ترعاك وتجعلك رجلاً صالحًا مثل ماكان – كأقصى ما يكون الصلاح. قل له إن كان يؤمن بالمعجزات فلابد أن يصدق ذلك...".

وقاطعه بينيت قائلاً "لا داعى لاستغلال سذاجته".

"بل لستُ أستغلها قط. لابد أن يؤمن أن مجئ الصبى إلى هنا، إلى فرقته عينها، بحثا عن الثور الأحمر له طبيعة المعجزة. تَأمَّلْ الاحتمالات التى تحول دون ذلك، يا بينيت: هذا الصبى وحده فى الهند كلها يصادف فرقتنا من بين جميع الفرق الزاحفة! إنه قدَرٌ مكتوب فى ظاهره. نعم، أخبره أنه القدر. المكتوب. تفهمنى؟".

واستدار فواجه اللاما الذى لم يفهم حرفا واحدًا كأنما كان الرجل يتكلم عن بلاد ما بين النهرين.

وبدأ كيم يتحدث، فبرقت عينا اللاما لحديثه، قائلاً "يقول إن دلالة طالعى قد تحققت، وإن عودتى إلى هنا – وإن كنت كما تعرف لم يدفعنى إلا الفضول – إلى هؤلاء الناس وإلى الثور الأحمر، تعنى أننى لابد أن أذهب إلى مدرسة، وأن أتحول إلى شخص انجليزى. وأنا أتظاهر الآن بالموافقة، فلن يتطلب الأمر إلا أن أتناول وجبات قليلة بعيدًا عنك. ثم سأنسل وأسير فى الطريق ذاهبًا إلى سهارنـــپـــور. وعليك إذن أيها الرجل الربانى أن تلتزم بصحبة تلك المرأة من كولو، وألا تشرد عنها لأى سبب حتى أعود إليك. لا شك أن

علامتى علامة الحرب والرجال المسلحين. انظر كيف أعطونى شرابًا من النبيذ وأجلسونى فى مقعد التكريم! لابد أن والدى كان شخصًا عظيمًا جدًا. وهكذا فإذا رفعونى إلى مرتبة الشرف بينهم، فخير وبركة. وإلا فخير وبركة أيضًا. مهما تتطور الأحداث فلسوف أعود مسرعًا إليك عندما أتعب. ولكن عليك أن تظل مع أرملة الراچـا، وإلا سوف أفتقد أقدامك... نعم نعم" وقال الصبى لهما "قلت له كل ما طلبتما منى أن أقوله".

وقال بينيت "ولا أرى ما يدعوه إلى البقاء" ثم جعل يتحسس جيوب سرواله وأضاف "ونستطيع التحرى عن التفاصيل فيما بعد، وسأعطيه روبـ... ".

وقاطعه الأب فـكتور قائلاً "أعطه بعض الوقت، فربما كان مغرمًا بالصبى"، فتوقفت يد الآخر عن تقديم النقود.

وجر اللاما مسبحته وغطى عينيه بالحافة العريضة لقبعته.

"ماذا عساه أن يريد الآن؟".

"يقول" ورفع كيم إحدى يديه وقال "يقول إنه يريد أن يكلمنى على انفراد. فأنتما لا تفهمان حرفًا واحدًا مما يقول، وأعتقد أنكما لو تكلمتما فربما استمطر عليكما لعنات شديدة. إذ إنه حين يمسك مسبحته على هذا النحو فدائمًا ما يريد أن ينعم بالصمت".

وجلس الرجلان الإنجليزيان وقد غلبهما التأثر بالموقف، وإن كانت فى عين بينيت نظرة تنذر بالسوء لكيم وكان ينبغى أن يبدى الاسترخاء فى جو المشاعر الدينية.

وأتى صوت اللاما معربًا بحدته عن ألمه قائلاً "إنجليزى وابن إنجليزى..." ثم قال "ولكن لا أحد من ذوى البشرة البيضاء يعرف البلد وعاداتها مثلك. فكيف يصح هذا؟"

"وما الفرق أيها الربانى؟ ولكن لا تنس أننى لن أغيب إلا ليلة أو ليلتين.

وسوف يعود كل شىء إلى ما كان عليه عندما حدثتك أول مرة تحت المدفع الكبير...".

"كنتَ صبيًا فى رداء رجل أبيض، عندما دخلتُ بيت العجائب أولاً. وفى المرة الثانية كنتِ هندوسيا. فما الصورة الثالثة التى سوف تتجسد فيها؟" وضحك ضحكة كئيبة مضيفًا "آه يا تلميذى! لقد أسأتَ إلى رجل عجوز لأن قلبى مال إليك".

"وقلبى مال إليك أيضًا. ولكن كيف كان فى مقدورى أن أعرف أن الثور الأحمر سوف ينتهى بى إلى هذا؟"

وغطى اللاما وجهه من جديد، وشخشخ حبات المسبحة فى يده بعصبية قائلاً "رجل أبيض مثل راعى الصور فى بيت العجائب" كانت خبرة اللاما بذوى البشرة البيضاء محدودة، وبدا أنه يكرر درسًا ما قائلاً "وإذن فليس من اللائق أن يفعل إلا ما يفعله غيره من الإنجليز. لابد أن يرجع إلى أبناء جلدته".

وقال كيم فى لهجة توسل "نهار وليلة ونهار".

وشاهد الأب فكتور كيم وهو يقترب خلسة من الباب فصاح "لا! لن تهرب!" ومَدَّ ساقًا قوية فاعترضت زحف الصبى.

"لا أفهم عادات ذوى البشرة البيضاء. كاهن الصور فى بيت العجائب فى لاهور كان أشد تهذيبًا من الرجل النحيل هنا. سيؤخذ الصبى منى. هل يُحَوِّلاَن تلميذى إلى رجل إنجليزى؟ يا ويلى! كيف سأجد نهرى؟ أليس لديهما تلاميذ؟ اسأل".

"يقول إنه بالغ الأسف لأنه لن يجد النهر الآن، ويقول لماذا ليس لديكما تلاميذ، ولماذا لا تكفان عن إزعاجه؟ يريد أن يغتسل فيبرأ من كل خطاياه".

ولم يجد بينيت ولا الأب فكتور أية إجابة حاضرة.

وقال كيم بالإنجليزية بنبرات من يتأسى لآلام اللاما "أعتقد أنكما إذا تركتمونى أمضى الآن فسوف ننصرف بهدوء ولن نسرق. ليتنى ما جئت إلى هنا للعثور على الثور الأحمر وكُل هذه الأشياء. لست أريدها".

وقال بينيت "إنه أفضل ما قمت به لصالحك أيها الصغير".

وقال الأب فـكتور "يا إلهى! لا أعرف كيف أُسرِّى عنه" وهو يركز بصره على اللاما. ثم أضاف "لن يستطيع أن يمضى بالصبى من هنا، وإن كان فى الواقع رجلاً صالحًا. أنا واثق أنه رجل صالح. اسمع يا بينيت، إذا أعطيته الروبية فسوف يلعنك أبًا عن جد!".

وساد الصمت، ولم يكونوا يسمعون غير أنفاسهم ثلاث دقائق، بل خمس دقائق كاملة، ثم رفع اللاما رأسه وألقى بصره الذى تجاوزهم إلى الفضاء والفراغ.

وقال فى مرارة "وأنا من أتباع الطريق. فالخطيئة خطيئتى والعقاب عقابى. جعلت نفسى أعتقد – ما دمت أرى الآن أنه كان مجرد وهم – أنك أُرسلت إلىّ لمساعدتى فى البحث. فمال إليك قلبى بسبب إحسانك وأدبك وحكمة سنوات عمرك القليلة. ولكن الذين يتبعون الطريق لا ينبغى ألا يسمحوا بنار أية رغبة أو أى ارتباط، فإنما ذلك وهم. فكما يقول..." واقتطف نصًّا صينيًّا قديمًا ثم أردفه بنص آخر، ودعم هذين بثالث. "لقد انحرفت عن الطريق يا تلميذى. لم يكن ذلك خطأك. لقد وجدتُ البهجة فى مشهد الحياة، فى الناس الجدد فى الطرقات، وفى فرحك برؤية هذه الأشياء. لقد أحسستُ بالسرور لوجودك وكان يجب ألا أفكر إلا فى بحثى وفى بحثى وحده. والآن أشعر بالحزن لأنك سوف تؤخذ من جانبى ولأن نهرى بعيد عنى. إن ما خَرَقْتُهُ هو القانون!".

وصاح الأب فـكتور "يا قوى الظلام فى الأرض!" كانت خبرته بسماع الاعترافات قد أتاحت له أن يستشف الألم فى كل عبارة سمعها.

"وأُدْرِكُ الآن أن علامة الثور الأحمر كانت علامة لى مثلما كانت علامة لك. كلُّ رغبةٍ لونها أحمرُ، وهى شَرّ! سوف أقوم بالتكفير عن ذنبى وأعثر على نهرى وحدى".

وقال كيم "عُدْ على الأقل إلى تلك المرأة من كولو، وإلا سوف تتوه فى الطرق. سوف تتولى هى إطعامك حتى أرجع إليك".

ولوح اللاما بيده للدلالة على أنه قد حسم الأمر بصورة نهائية فى ذهنه.

وتغيرت نبراته وهو يلتفت إلى كيم قائلاً "وماذا سوف يفعلون بك الآن؟ اسمح لى على الأقل أن اكتسب امتيازًا وأمحو سيئات الماضى".

"يظنون أنهم سيجعلوننى إنجليزيًا. فى يوم بعد غد سوف أعود. لا تبتئس".

"إنجليزى من أى نوع؟ مثل هذا الرجل أو ذاك؟" وأشار إلى الأب فكتور. "مثل الرجال الذين رأيتهم هذا المساء... رجال يحملون سيوفًا ويضربون الأرض بأقدامهم ضربًا؟"

"ربما".

"ليس هذا حسنًا. هؤلاء الرجال يَتَّبعون الرغبة وينتهون بالفراغ. لا ينبغى أن تصبح من نوعهم".

وقاطعه كيم قائلاً "كاهن أومبالا قال إن نجمى نجم الحرب. سأسأل هذين المغفلين. ولكن لا يوجد ما يدعو لذلك فى الواقع. سوف أهرب هذه الليلة، فكل ما أردته هو أن أشاهد الأشياء الجديدة".

وطرح كيم بالإنجليزية سؤالين أو ثلاثة على الأب فكتور وترجم إلى اللاما إجاباته.

ثم "يقول: 'ستأخذانه منى ولا تستطيعان أن تقولا ما سوف تفعلان به'. ويقول 'قولا لى قبل أن أذهب، فليس تشكيل طفل أمرًا هينًا'".

"سوف ترسل إلى مدرسة. وسوف نحدد الباقى فيما بعد. اسمع يا كيمبول، أظن أنك تحب أن تصبح جنديًا؟".

وهز كيم رأسه بعنف قائلاً "من ذوى البشرة البيضاء؟ كلا وكلا وكلا!" لم يكن بطبيعته ميالاً إلى التدريب المنتظم والنظام فأضاف "لن أصبح جنديًّا".

وقال بينيت "ستصبح ما نأمرك نحن به وينبغى أن تشعر بالامتنان لنا على مساعدتنا لك".

وابتسم كيم ابتسامة تعاطف. فإذا كان هذان الرجلان يتوهمان أنه سوف يفعل شيئًا لا يهواه فذلك أفضل.

وتلت ذلك فترة أخرى من الصمت الطويل. وتململ بينيت نافد الصبر واقترح استدعاء أحد الحراس لإخراج 'الفقير' من المعسكر.

وقال اللاما "هل يمنحون التعليم بلا مقابل أم يبيعونه عند الإنجليز؟ اسألهما". وترجم كيم السؤال.

"يقولان إن النقود تُدفع إلى المعلم، ولكن الفرقة هى التى ستتكفل بهذه النقود... ولكن لماذا تقلق؟ إنه لن يتجاوز ليلة واحدة".

وتجاهل اللاما اعتزام كيم الهرب فقال "وكلما ازدادت النقود ارتفع مستوى التعليم؟ ليس من الخطأ دفع مقابل للتعليم. فمساعدة الجاهل على اكتساب الحكمة دائمًا تحقق الامتياز". وتردد صوت اصطكاك حبات المسبحة كأنها حبات العَدَّاد البدائى، ثم واجه من يظلمانه:

"سَلْهُمَا كم يدفعان فى مقابل تعليم مناسب وحكيم؟ وفى أى مدينة يُقَدَّمُ ذلك التعليم؟".

وقال الأب فكتور بالإنجليزية بعد انتهاء كيم من الترجمة "يعنى. المسألة نسبية. يمكن أن تتحمل الفرقة نفقاتك طيلة بقائك فى بيت الأيتام العسكرى، ويمكن أن تنضم لقائمة بيت الأيتام الماسونى فى البنجاب - وإن لم يفهم أو تفهم أنت معنى ذلك - ولكن أفضل تعليم مدرسى يمكن أن يتلقاه الصبى فى الهند هو، طبعًا فى الإرسالية اليسوعية الإسبانية، واسمها

إرسالية القديس خافيير فى بلاد الكفار، والتى توجد فى مدينة لوكناو" وتطلبت ترجمة ذلك وقتًا طويلاً، وكان بينيت يتمنى مقاطعة الترجمة أو اختصارها.

وقال كيم بهدوء "يريد أن يعرف قدر التكاليف".

وقال الأب فــكتور "مئتا روبية أو ثلاثمائة فى السنة" بلهجة تنم عن تخلصه من أى إحساس بالدهشة، ولكن بينيت الذى نفد صبره لم يكن يستطيع أن يفهم.

"يقول: 'اكتب ذلك الرقم على ورقة وأعطها له'. ويقول لابد أن تكتب اسمك لأنه سوف يكتب بعد عدة أيام خطابًا لك. يقول إنك رجل صالح. ويقول إن الرجل الآخر مغفل. يقول إنه سوف يذهب".

ونهض اللاما فجأة. وصاح "أتابع بحثى". ثم ذهب.

وصاح الأب فــكتور "سيصطدم مباشرة بالحراس!" وقفز عندما اتجه اللاما إلى باب الخروج قائلاً "لكننى لا أستطيع أن أترك الصبى". وتحرك كيم حركة سريعة تلقائية كأنما ليتبع اللاما لكنه ضبط أعصابه وتوقف. ولم يسمعا ما يدل على أن الحراس اعترضوا اللاما فى الخارج. كان اللاما قد اختفى عن الأنظار.

وجلس كيم رابط الجأش فوق سرير الكاهن. كان يُعَزِّى نفسه بأن اللاما قد وعده بألا يترك المرأة أرملة الراچــا من مدينة كولو، وأما باقى الأمور فليست لها أهمية تُذكر. وكان مسرورًا لأن الكاهنين كانا متحمسين بوضوح، ويتحادثان بصوت خفيض، وقد أخذ الأب فــكتور يحاول إقناع بينيت بخطة ما، والأخير فيما يبدو لا يصدق ما يقال. كان ذلك كله جديدًا ومثيرًا ولكن كيم كان يغالب النعاس. واستدعيا بعض الرجال إلى داخل الخيمة. وكان العقيد من بينهم دون شك، حسبما تنبأ به أبوه، وسأله الجميع أسئلة لا تعد ولا تحصى، أساسًا بصدد المرأة التى كانت ترعاه، وأجابهم كيم عنها جميعًا إجابات صادقة. ويبدو أنهم لم يكونوا يرون أن المرأة من خيرة الأوصياء.

وقال كيم فى نفسه إن هذا أحدث ما يمر به من خبرات، وفى يده، إذا شاء، أن يهرب إن عاجلاً أو آجلاً، إلى دنيا الهند الكبيرة الرمادية التى لا شكل لها، بعيدًا عن الخيام وكهان الجْيش والعقداء، وإذا كان الإنجليز يريدون ريثما يتسنى ذلك أن ينبهروا فسوف يبذل قصارى جهده لإبهارهم. إذ إنه أيضًا رجل أبيض.

وبعد كثير من الأحاديث التى لم يستطع أن يفهمها، سلموه إلى صف ضابط برتبة رقيب وأصدروا له تعليمات صارمة بألا يسمح له بالفرار. وأدرك أن الفرقة سوف تتجه إلى أومبالا وأنه سوف يرسل إلى مكان يدعى ساناوار (مدينة فى البنجاب جنوب أمبالا) وأن تكاليف تعليمه سوف يشارك فيها المحفل الماسونى وأفراد الفرقة.

وقال الأب فكتور "إنها معجزة تتجاوز كل شىء خارق أيها العقيد" بعد أن ظل يتحدث دون توقف عشر دقائق كاملة. "واختفى صديقه البوذى بعد أن أخذ اسمى وعنوانى. لا أستطيع أن أفهم على وجه الدقة إن كان سوف يدفع شيئًا فى مقابل تعليم الصبى أو كان يقوم بإعداد نوع من السحر الخاص به". ثم قال إلى كيم "لسوف تشعر يومًا ما بالامتنان إلى صديقك الثور الأحمر. لسوف تصبح على أيدينا رجلاً فى ساناوار، ولو دفعنا ثمنًا لذلك جعلك بروتستانتيًا".

وقال بينيت "بالتأكيد – بكل تأكيد".

وقال كيم "لكنكم لن تذهبوا إلى ساناوار".

"ولكننا سوف نذهب إلى ساناوار أيها الرجل الصغير. فذلك أمر القائد العام، وهو أهم بعض الشىء من ابن أوهارا".

"لن تذهبوا إلى ساناوار. ستذهبون إلى الحرب".

وارتفعت موجة من الضحك فى الخيمة كلها.

"عندما تعرف فرقتك معرفة أفضل قليلا لن تخلط بين خط المسير وخط المعركة. نرجو أن نذهب للحرب فى وقت ما".

وقال كيم "أعرف كل ذلك". ثم شد قوسه ليرمى رمية مخاطرة، فماداموا لن يسيروا إلى الحرب فهم على الأقل يجهلون ما علمه هو من الحديث الذى دار فوق الشرفة فى أومبالا.

"أعرف أنكم لا تحاربون الآن، ولكننى أقول لكم إنكم حالما تصلون إلى أومبالا سوف تذهبون للحرب، إلى الحرب الجديدة. إنها حرب يخوضها ثمانية آلاف رجل، ويطلقون فيها المدافع".

"هذا صريح. هل تضيف قدرة التنبؤ إلى مواهبك الأخرى؟ امض به أيها الرقيب. آته بحلة من حلل غلمان الطبول، واحرص على ألا يفلت من بين أصابعك. من قال إن عصر المعجزات قد مضى؟ أظن أننى سوف آوى إلى الفراش فذهنى المسكين أصابه الوهن".

وبعد ساعة كان كيم يجلس فى الطرف الأقصى من المعسكر، صامتًا مثل حيوان برى، بعد أن اغتسل لتوه اغتسالاً شاملاً، مرتديًا حلة عسكرية بشعة كان قماشها 'يشكّه' فى ذراعيه وساقيه.

وقال الرقيب "صغير مدهش إلى أبعد الحدود. يظهر فجأة وهو يتولى أمر كاهن براهمينى عجيب أصفر الرأس، وقد عُلقت فى رقبته شهادات المحفل الماسونى الخاصة بأبيه، ويتحدث عن ثور أحمر لا يعلم إلا الله معناه. ويتبخر البراهمينى العجيب دون تفسير، ويجلس الصبى القرفصاء على سرير كاهن الفرقة ويتنبأ بحرب تسيل فيها الدماء للناس كلهم. الهند مكان موحش لمن يتقى الله. سوف أربط رجله وحسب إلى عمود الخيمة حتى لا يهرب من السقف. ماذا قلت عن الحرب؟".

وقال كيم "ثمانية آلاف رجل، إلى جانب المدافع. قريبًا جدًّا وسوف ترى".

"إنك عفريت صغير مسلٍّ. ارقد هنا بين صبيان الطبل واخلد إلى النوم. وسوف يراقبك هذان الغلامان أثناء الرقاد".

الفصل السادس

الآنَ أَذْكُرُ يا رِفَاقِى -
يا صُحْبَةَ اللَّهْوِ القَديمِ على بِحَارٍ لَمْ تَزَلْ بِكْرًا!
الآنَ أذكرُ كيفَ عَامَلْنَا رِجَالاً فى حِمَى الوَحشيَّةْ!
خَيْرَاتُهُمْ كُنَّا نُبَادِلُها بِصبغَاتِ الذَّهَبْ!
وهناكَ فى أَقْصَى الجَنُوبِ وبعْدِ آلافِ الفَرَاسِخِ
مُنْذُ أعوامٍ ثَلاثِينْ
ما كنتُ عِنْدَهُمو نَبِيلاً إسْمُهُ ڤـالْدِيزْ
بَلْ كنتُ إنْسَانًا وَحَسْب
وأنَا الذى عَرَفُوهُ بَلْ عَشِقُوهْ!

(أنشودة دييجو ڤـالْدِيزْ)

وفى أولى ساعات الصباح هُدمت الخيام البيضاء واختفت وسلكت الفرقة الجوالة طريقًا جانبيًا إلى أومبالا دون أن تمر بحذاء محطة الراحة، وكان كيم يمشى بجانب عربة من عربات البضائع وتنهال عليه سهام التعليقات من جانب زوجات الجنود، وتلاشت الثقة فى الهرب التى كان يتمتع بها الليلة البارحة إذ اكتشف أنه يخضع للرقابة الدقيقة، فالأب ڤكتور فى جانب وبينيت فى الجانب الآخر.

وتوقف الطابور فى ساعة العصر. وحضر جندى مراسلة على ظهر جمل برسالة سلمها إلى العقيد. وبعد أن قرأها تحدث إلى ضابط برتبة رائد. ومن مؤخرة الطابور، على مسافة نصف ميل، سمع كيم صخبًا مرحًا غامضًا ينهل عليه من خلال الغبار الكثيف. ثم ضربه أحدهم على ظهره صائحًا "قل لنا كيف عرفت يا ذراع الشيطان الصغيرة؟ أرجوك أيها الأب العزيز انظر إن كنت تستطيع أن تجعله يحكى".

وتهادى مُهْرٌ بجوار الطابور حتى استقر بجوار قوس السرج على ظهر حصان الكاهن.

"والآن يا بُنَىَّ! تحققت نبوءتك فى الليلة الماضية. صدرت إلينا الأوامر بأن نركب القطار فى أومبالا إلى الجبهة فى الغد".

وقال كيم "ما معنى ذلك؟" كانت الكلمات المستخدمة فى الإشارة إلى 'الجبهة' و'ركوب القطار' جديدة عليه.

"سوف نذهب إلى الحرب، كما تسميها".

"طبعًا سوف تذهبون إلى الحرب. قلت ذلك ليلة أمس".

"فعلاً ولكن... يا قوى الظلام! كيف عرفت؟".

وتلألأت عينا كيم. وأقفل شفتيه، وأومأ برأسه، وبدا عليه تعبير لا يوصف. وتقدم الكاهنان خلال الغبار، وتنادى الجنود من رتبة 'النفر' إلى 'الرقيب' إلى الملازم الثانى، موجهين الانتباه إلى الصبى. وكان العقيد، على رأس الطابور، يحدق فيه بدهشة. وقال "من المحتمل أنها كانت شائعة من شائعات السوق. ولكن، حتى لو صح هذا..." وأشار إلى الورقة فى يده "ولكن هذا أمر يغيظ! لم يُتخذ القرار إلا فى الساعات الثمانى والأربعين الماضية!".

وقال الأب فكتور "هل يوجد الكثير من أمثالك فى الهند؟ أم تُراكَ فلتة من فلتات الطبيعة؟".

وقال الصبى "الآن وقد أخبرتكم، هل تدعونى أرجع إلى صديقى العجوز؟ لو لم يكن قد أدرك المرأة التى من كولو، فأخشى أن يموت".

"ولكننى رأيت فيه رجلاً قادرًا على أن يعتمد على نفسه مثلك. كلا! لقد جلبتَ لنا الحظ الحسن وسوف نصنع منك رجلاً. سوف أعيدك إلى عربة بضائعك ثم أجئ إليك هذا المساء".

وعلى مدى الساعات الباقية من النهار وجد كيم نفسه موضع الاهتمام

الخاص بين عدة مئات من الرجال ذوى البشرة البيضاء. ولم تفقد سحرها قصةُ ظهوره فى المعسكر واكتشاف نسبه، والنبوءة التى أدلى بها، عندما تكررت روايتها. وشاهد امرأة بيضاء ضخمة لا شكل لها فوق كومة من لوازم الفراش، وإذ بها تسأله دون إيضاح إن كان يظن أن زوجها سوف يعود من الحرب. وفكر كيم وقد اكتسى وجهه سمات الجد ثم قال إنه سيعود، فقدمت المرأة إليه طعامًا. كان هذا الموكب الكبير، الذى يعزف الموسيقى من حين لآخر، هذا الحشد الذى يتكلم ويضحك بيسر بالغ، يشبه من عدة وجوه أحد الاحتفالات فى مدينة لاهور. لم تَلُحْ حتى الآن بادرة على العمل الشاق، فقرر أن يستمتع بالمشهد إلى أقصى حد. وفى المساء حضرت بعض الفرق الموسيقية لمقابلتهم، وصاحبت دخول الفرقة الجوالة معسكرها بالقرب من محطة أومبالا للسكك الحديدية. كانت هذه ليلة طريفة. جاء رجال من فرق أخرى لمقابلة 'الجوالين'، وخرج بعض 'الجوالين' للقيام بزياراتهم الخاصة، وكان أفراد حرس الطوارئ يهرعون لإعادتهم، ويقابلون حرس الطوارئ من فرق غريبة وهم يؤدون العمل نفسه، وبعد فترة، دوت الأبواق دويًا هائلاً تدعو إلى حضور المزيد من حرس الطوارئ والجنود للسيطرة على الصخب. ورغم أن فرقة الجوالة قد أثبتت ما اشتهرت به من حيوية دافقة، فإن أفرادها اصطفوا فى صباح اليوم التالى على رصيف القطار، بنظام محكم وعلى خير وجه، ثم ركبوا القطار تاركين من خلفهم كيم مع المرضى والنساء والأولاد، ووجد كيم نفسه يصيح لهم بحماس صيحات الوداع عندما انطلقت القطارات. كانت حياته بصفته إنجليزيًّا ممتعة حتى الآن، ولكنه كان 'يقربها' بيد حذرة. ثم أمروه بالمسير عائدًا، يراقبه أحد صبيان الطبل، إلى ثكنات خاوية مطلية بالجير، تغطى أرضياتها القمامة والدوبار والورق، وتُرجع أسقُفُها أصداءَ وَقْع أقدامه الموحشة. ومثلما يفعل أبناء البلد تكور على سرير نُزِعَ فَرْشُهُ ونام. وإذا برجل غاضب يدب بأقدام ثقيلة على الشرفة مقبلا ويوقظه قائلاً إنه مُعَلِّم. كان ذلك كافيًا لكيم فدخل قوقعته. كان يستطيع بصعوبة إدراك مغزى شتى لافتات الشرطة المكتوبة بالإنجليزية فى مدينة لاهور لأنها تمس أسباب

راحته، وكان من بين الزوار الكثيرين للمرأة التى كانت ترعاه رجل ألمانى غريب الأطوار يتولى رسم المناظر الخاصة بفرقة مسرح جوالة من الطائفة الزرادشتية (التى تؤمن بإله فوق الجميع والصراع الكونى بين روح الخير وروح الشر). وقال الرجل لكيم إنه كان 'وراء المتاريس' فى عام ١٨٤٨ (أى حارب فى الثورات التى اجتاحت المدن الأوروبية آنذاك) ومن ثم – هذا ما فهمه كيم على الأقل – فسوف يعلم الصبى الكتابة فى مقابل الطعام، وكان كيم قد تعلم حروف الهجاء مفردة من قبل، لكنه لم ير فيها خيرًا.

وقال كيم، موجسًا الشر، "لا أعرف شيئًا. اتركنى!" وهنا أمسكه الرجل من أذنه وجره إلى غرفة فى جناح بعيد يجلس فيها اثنا عشر صبيًّا من صبيان الطبل على مقاعد خشبية، وأمره أن يجلس ساكنًا إن لم يستطع أن يفعل غير ذلك. ونجح كيم فى ذلك. وشرح الرجل شيئًا ما بخطوط بيضاء على سبورة سوداء لمدة لا تقل عن نصف ساعة، واصل فيها كيم نعاسه الذى كان قد أوقظ منه، وكان يبغض بشدة ما آلت إليه الأحوال الآن، فلقد كان هذا هو الانضباط والنظام المدرسى الذى قضى ثلثى سِنِىِّ حياته الصغيرة فى تحاشيه. وفجأة خطرت له فكرة جميلة، ودهش لأنها لم تخطر له من قبل.

وصرف الرجل التلاميذ، وكان كيم أول من وثب من خلال الشرفة إلى ضوء الشمس والهواء الطلق.

وصاح صوت حاد فى أعقابه "أنت هناك! قف! توقف! واجبى أن أرعاك. أوامرى ألا أدعك تغيب عن ناظرى. إلى أين تمضى؟".

كان ذلك هو صبى الطبل الذى ظل يلازمه طوال عصر ذلك اليوم، وكان سمينا على وجهه نَمَشٌ وفى نحو الرابعة عشرة من عمره، وشعر كيم بأنه يمقته من نعل حذائه الطويل إلى شرائط قبعته.

وقال كيم بعد لحظة تفكير "إلى السوق. لشراء الحلوى. من أجلك".

"لا. السوق مكان محظور. إذ ذهبت إليه ضُربت 'علقة'. ارجع".

لم يكن كيم يعرف معنى كلمة ’محظور‘، ولكنه أراد أن يبدى الأدب مؤقتًا فقال "ما أقرب مكان أستطيع الذهاب إليه؟".

"أقرب؟ تقصد أبعد! يمكننا أن نذهب حتى تلك الشجرة فى منتصف الطريق".

"إذن سأذهب إليها".

"لا بأس. لن أذهب أنا. الحر شديد. أستطيع مراقبتك من هنا. لا فائدة من الهرب. لو هربت فسوف يعرفونك من ملابسك. فأنت ترتدى ملابس الفرقة العسكرية. لا يوجد فى أومبالا حارس يعجز عن إعادتك بأسرع مما ذهبت".

ولكن كيم لم يكترث لذلك، وإن كان واثقًا أن ملابسه سوف ترهقه إن حاول الجرى، فمضى متكاسلاً إلى الشجرة القائمة فى ركن شارع خالٍ يؤدى إلى السوق وجعل يرقب أبناء البلد المارين به. كان معظمهم من خدم الثكنات المنتمين إلى أحط الطوائف. ونادى كيم أحد الكناسين (أحط طائفة وتعمل بجمع القمامة والفضلات). وإذ بالكناس يرد عليه رَدًّا سريعًا به من البذاءة ما لم يكن يستدعيه الموقف، معتقدًا بطبيعة الحال أن الغلام الأوروبى يعجز عن مجاراتها، وخاب ظنه حين سمع إجابة كيم السريعة بصوت منخفض. كان كيم قد أفرغ فيها حنقه على ما يثقله من أغلال، ممتنًا للفرصة التى جاءته أخيرًا، فرصة سَبِّ شخص بأفضل لغة يجيدها. ثم أضاف قائلاً "اذهب الآن إلى أقرب كاتب خطابات فى السوق وقل له أن يجيئنى. أود أن أكتب خطابًا".

"ولكن... أى نوع أنت من أبناء ذوى البشرة البيضاء حتى تحتاج إلى كاتب خطابات؟ ألا يوجد مُعَلِّمٌ فى الثكنات؟".

"نعم. وجهنم زاخرة برجال من النوع نفسه. افعل ما أمرتك به – أنت يا أحط حفار وكناس. أمك تزوجت تحت سلة! أنت يا من تعبد لال بيج" وكان كيم يعرف رب الكناسين. "افعل ما طلبته منك وإلا فسوف نتكلم مرة أخرى".

وانطلق الكناس مسرعًا. وتمتم لأول كاتب خطابات يصادفه فى السوق

قائلاً "عند الثكنات ولد أبيض ينتظر تحت شجرة وليس ولدًا أبيض. وهو يحتاج إليك".

وقال كاتب الخطابات المهندم "وهل سيدفع؟" ثم حمل مكتبه الصغير وجمع أقلامه والشمع الذى يختم به الخطاب فى نظام بديع.

"لا أدرى. ليس مثل غيره من الصبيان. اذهب لترى. الأمر جدير بعنائك".

وكان كيم يتململ نافد الصبر عندما لاح الكاتب الشاب النحيل، ابن طائفة 'كايث' (فى أوتار برادیش، مقاطعة لوكناو). وما إن عرف أنه على مسمع منه حتى رفع صوته بشتائم جزلة.

وقال كاتب الخطابات "أتناول أجرى أولاً. شتائمك قد رفعت السعر. ولكن من أنت يا من تلبس هذه الملابس وتتكلم بهذا الأسلوب؟".

"آها! هذا فى الخطاب الذى سوف تكتبه. حكاية لا تُصَدَّق. لكننى لست فى عجلة من أمرى. أستطيع الاستعانة بكاتب آخر. مدينة أومبالا زاخرة بهم مثل لاهور".

وقال الكاتب "أربع آنات". وبدأ يجلس وينشر قماشه فى ظل جناح مهجور من أجنحة الثكنات.

وجلس كيم القرفصاء بصورة آلية إلى جواره - القرفصاء التى لا يستطيعها إلا ابن البلد - على الرغم من السروال السخيف الذى يحد حركته.

وجعل الكاتب يخالسه النظرات.

وقال كيم "هذا هو الأجر الذى تطلبه من الإنجليز. فما الأجر الحقيقى لى؟".

" 'أنّا' ونصف. كيف أثق أنك لن تهرب بعد كتابتى الخطاب؟".

"أنا ممنوع من الذهاب إلى ما بعد هذه الشجرة، كما إن علينا تدبير طابع البريد".

"لا أتقاضى عمولة على ثمن طابع البريد. قل لى مرة أخرى أى نوع من الصبيان البيض أنت؟".

"سيذكر هذا فى الخطاب، وهو مرسل إلى محبوب على، تاجر الخيول فى سراى كشمير، فى لاهور. فهو صديقى".

وتمتم كاتب الخطابات وهو يغمس ريشته فى المحبرة "يا عجبًا من بعد عجب! وهل يُكتب الخطاب باللغة الهندية؟".

"بالتأكيد. إذن إلى محبوب على. ابدأ الكتابة. **أتيت مع الرجل العجوز إلى أومبالا بالقطار. وفى أومبالا أبلغتُ الخبر الخاص بأصالة نسب الفرسة السمراء.** كان كيم قد قرر من بعد ما شاهده فى الحديقة ألا يكتب عن فحول الخيل البيضاء.

"أبطئ قليلاً. ما علاقة الفرسة السمراء بالموضوع؟ هل هو محبوب على، التاجر العظيم؟".

"ومن غيره؟ كنت ولا أزال أعمل لديه. إلى المزيد من الحبر. مرة أخرى اكتب: **نفذت الأمر حرفيًا. ثم اتجهنا سيرًا على الأقدام إلى بيناريس. لكننا فى اليوم الثالث وجدنا فرقة عسكرية معينة.** هل كتبت هذا؟".

وتمتم الكاتب وكله آذان "نعم. فرقة من المشاة".

"**دخلت المعسكر وقبضوا علىّ، وبفضل التميمة المعلقة فى رقبتى، وأنت تعرفها، أثبتوا أننى ابن رجل من رجال الفرقة، وفقًا للنبوءة الخاصة بالثور الأحمر، وأنت تعرف أنها كانت على أفواه الناس فى سوقنا**". وانتظر كيم حتى يغوص نصل هذا السهم فى قلب كاتب الخطابات، وتنحنح ثم استأنف إملاءه قائلاً: "**وجاء كاهن فكسانى حلة، وأعطانى اسمًا جديدًا... ولكن كاهنًا آخر كان أحمق. الحلة ثقيلة الوطأة ولكنى إنجليزى والحزن فى قلبى ثقيل**

الوطأة أيضًا. وهم يرسلوننى إلى المدرسة ويضربوننى. لا أحب الهواء والماء هنا. تعال إذن وساعدنى يا محبوب على، أو ابعث لى ببعض النقود، فليس معى ما يكفى دفع أجر كاتبْ هذا الخطاب".

وقال الكاتب "كاتب هذا الخطاب؟ بل إنى أنا الذى أخطأتُ فجعلتك تخدعنى. أنت ماهر مثل حسين بوكس الذى كان يزيف طوابعٍ البريد فى نوكلاو. ولكن يالها من قصة! يا لها من قصة! هل هى صادقة حقًا؟".

"لا فائدة من الكذب على 'محبوب على'. ومن الأفضل مساعدة أصدقائه بإعارتهم طوابع بريد. وعندما تأتى النقود سوف أدفع".

وغمغم الكاتب فى تشكك وأخرج طابع بريد من مكتبه وأغلق الخطاب وختمه بالشمع وسلمه إلى كيم، وذهب. كان 'محبوب على' اسمًا ذا سلطان فى أومبالا.وصاح كيم خلف الرجل "هذا هو السبيل لإضافة حسنات لكشف حسابك عند الأرباب".

ورد الرجل عاليا من فوق كتفه "ضاعف الأجر لى عندما تصل النقود".

وقال صبى الطبل عندما عاد كيم إلى الشرفة "عَمَّ كنتَ تحادث ذلك الأسود؟ كنت أراقبك".

"كنت أحادثه وحسب".

"ألا تتحدث بلغة السود نفسها؟".

"كلا! كلا! لا أتكلم بها إلا قليلاً".

"سوف تدوى الأبواق للعشاء بعد نصف دقيقة. يا الله! أتمنى لو كنتُ ذهبتُ مع الفرقة إلى الجبهة. ما أفظع البقاء هنا والاقتصار على المدرسة. ألا تكرهها؟".

"من كل قلبى".

"لو عرفت أين أذهب لهربت، ولكن، كما يقول الرجال، ليس المرء إلا

سجينًا دون قيود فيٍ هذه الهند اللعينة. لا يستطيع الفرد أن يهرب إلا قُبض عليه فورًا. لقد مللتُ وسئمت".

"هل كنتَ فى إنجلترا؟".

"لم أحضر إلا فى موسم التجنيد الأخير مع أمى. كان ينبغى أن أظل أنا فى انجلترا. ما أجهلك من شحاذ صغير! ألم تنشأ وتترعرع فى هذه البالوعة؟".

"بالتأكيد. حدثنى قليلاً عن إنجلترا. والدى كان إنجليزيًا".

ولم يصدق كيم بطبيعة الحال، وإن لم يقل هذا، كلمة واحدة مما ذكره صبى الطبول عن ضاحية من ضواحى مدينة ليـفـربول، كانت تمثل إنجلترا له، ولكن الحديث ساعد على تزجية الوقت حتى موعد العشاء، وكان وجبة غير شهية على الإطلاق، قدمت للأولاد وبعض المرضى فى ركن من أركان الثكنة. ولولا أن كيم كتب ما كتب إلى 'محبوب على'، لداهمه ما يشبه الاكتئاب. لم تكن لامبالاة أبناء البلدِ جديدة عليه، ولكن هذا الإحساس الشديد بالوحشة وسط ذوى البشرة البيضاء كان يحز فى نفسه، وهكذا شعر بالامتنان عندما جاء جندى ضخم ساعة العصر واصطحبه إلى الأب فكتور الذى يقيم فى جناح آخر عبر ساحة الاستعراض المتربة، وكان الكاهن يقرأ خطابًا إنجليزيًا مكتوبًا بحبر أرجوانى، فألقى على كيم نظرة بها من الدهشة ما فاق كل دهشة سابقة.

"وهل يروق لك يا بنى ما مر بك إلى الآن؟ لم يَرُقْ لك قطعًا؟ لابد أن الأمر شاق شاق إلى حد بعيد على حيوان برى. اسمعنى الآن: تلقيت رسالة عجيبة من صديقك".

"وأين هو الآن؟ هل هو بخير؟ أواه! ما دام يعرف كتابة الخطابات فلا بأس"."هل أنت مغرم به إذن؟".

"طبعًا مغرم به. وكان هو مغرمًا بى".

"هذا ما يلوح لى من ظاهر الخطاب. ألا يستطيع أن يكتب الإنجليزية؟"

"كلا. لا يستطيع فى حدود ما أعلم، ولكنه طبعًا وجد كاتب خطابات يجيد كتابة الإنجليزية، وهكذا أرسل لى. أرجو مخلصًا أن تفهمنى".

"هذا ما يوضح الأمور. هل تعرف شيئًا عن شئونه المالية؟" وبدا على وجه كيم أنه لم يكن يعرف.

"وكيف أعرف؟".

"هذا هو ما أسأل عنه. استمع الآن وانظر إن كنت تستطيع أن تفهم شيئًا منه. فلنتجاوز القسم الأول... الخطاب مرسل من طريق 'چـاجاذير'... **"أنا جالس على جانب الطريق فى تأمل عميق، واثقًا من رضى سعادتكم عن الخطوة الراهنة، ألا وهى مؤازرتى لما سوف تقومون به من أجل الله القدير. فالتعليم أكبر بركة إن كان من أفضل نوع"**. أقسم إن الرجل أصاب كبد الحقيقة هذه المرة! **"ولو تعطفتم يا صاحب السعادة وأَتَحْتُمْ لغلامى أفضل تعليم فى خاڤيير"** لابد أنه يقصد إرسالية القديس خاڤيير فى بلاد الكفار **"بناءً على محادثتنا فى خيمتكم فى يوم ١٥ الجارى"** انظر اللمسة العملية هنا! **"فسوف ينعم الله القدير عليكم حتى الجيل الثالث والرابع"** - واسمع الآن هذا! - **"ثق أن خادمكم المتواضع يا صاحب السعادة سوف يتكفل بالنفقات السنوية اللازمة، مرسلاً حوالة نقدية بمبلغ ثلاثمائة روبية كل عام لتغطية مصاريف التعليم الباهظ فى إرسالية القديس خاڤيير، فى لوكناو، واسمح بالوقت القصير اللازم لإرسال المبلغ من خلال الحوالة إلى أى مكان فى الهند تجعلونه سعادتكم عنوانًا لكم. وخادم سعادتكم لا يملك حاليًا مكانًا يضع فيه رأسه على الوسادة، ولكنه ذاهب إلى بيناريس بالقطار بسبب اضطهاد المرأة العجوز له بكثرة كلامها، وعدم رغبته فى البقاء فى أى بيت فى سهارنـــپــور**. والآن قل بالله ماذا يعنى ذلك؟".

"أظن أنها طلبت منه أن يصبح كاهنا فى سهارنـپــور، وهو لا يرغب فى ذلك بسبب طلبه لنهره. وهى كثيرة الثرثرة".

"الأمر واضح لك إذن؟ إنه يستعصى تمامًا علىّ. "**وهكذا أذهب إلى بيناريس حيث أجد العنوان وأرسل الروبيات إلى الصبى الذى هو إنسان عينى، وأرجوك من أجل الله القدير أن توفر له التعليم، وسوف يجد من يتوسل إليك نفسه ملزمًا بالدعاء فى خشوع لكم إلى الأبد. كتبه سوبراو ساتاى، من لم يوفق فى اختبار القبول بجامعة أللاهاباد، لحساب تيشو اللاما المبجل، كاهن سوخزن، الباحث عن نهر. العنوان طرف 'تيرثانكارز'، بيناريس. ملاحظة: اذكر أن الصبى إنسان عينى وسوف تُرسل الروبيات بحوالة نقدية، مقدارها ثلاثمائة فى السنة. من أجل الله القدير**". والآن: هل هذا جنون مطبق أم عرض مالى عملى؟ إننى أسألك لأن عقلى توقف".

"يقول إنه سوف يعطينى ثلاثمائة روبية فى السنة؟ إذن سوف يعطينى ذلك".

"هل هذا أسلوب نظرك للأمر؟".

" طبعًا، ما دام يقول ذلك".

وصَفَّر الكاهنُ بفمه ثم بدأ يخاطب كيم مخاطبة الأنداد.

"لا أصدق. ولكن سنرى. كان المفترض أن تذهب اليوم إلى دار الأيتام التابعة للجيش فى 'ساناوار'، حيث تتكفل الفرقة بالإنفاق عليك حتى تبلغ سن التجنيد. وكان المفترض أن تنشأ وفق مذهب الكنيسة الإنجليزية، فذلك ما تولى بينيت تدبيره. ولكن من ناحية أخرى، إذا ذهبت إلى إرسالية القديس خاڤيير، فسوف تتلقى تعليمًا أفضل، وكذلك تتلقى مبادئ الدين. هل ترى معضلتى؟".

لم يكن كيم يرى شيئًا، سوى رؤياه للاما متجها إلى الجنوب فى قطار من دون صبى يتسول من أجله.

"مثل معظم الناس سوف أتروى، فإذا أرسل صديقك النقود من بيناريس - يا قوى الظلام فى الأرض! كيف يتسنى لشحاذ أن يحصل على ثلاثمائة روبية؟ - فسوف تذهب إلى لوكناو وسأدفع أنا ثمن التذكرة، لأننى لا أستطيع

أن أمس مصاريف الدراسة إذا كنت أنتوى أن أجعلك كاثوليكيا، وهو ما قررته. وإذا لم يرسل النقود فسوف تذهب إلى بيت الأيتام العسكرى على حساب الفرقة. سأمنحه مهلة قدرها ثلاثة أيام، وإن كنت لا أصدق ذلك إطلاقًا. وحتى لو حدث، فإذا تخلف عن الدفع فيما بعد... ولكن الأمر يستعصى على ذهنى. أحمد الله على أننا لا نستطيع أن نناقش إلا خطوة واحدة كل مرة فى هذه الدنيا! لقد أرسلوا بينيت إلى الجبهة وتركونى هنا. لا يمكن أن يتوقع بينيت كل شىء".

وقال كيم بنبرات غامضة "قطعًا".

ومال رأس الكاهن إلى الأمام وقال "أدفع مرتب شهر كامل حتى أعرف ما يدور داخل رأسك المستدير الصغير هذا".

وقال كيم "لا شىء". وحك رأسه. كان يتساءل فى نفسه إن كان 'محبوب على' سوف يدفع له ما يصل إلى روبية كاملة. فإذا حدث سدد دَيْنَ كاتب الخطاب وكتب خطابات إلى اللاما فى بيناريس. وربما زاره 'محبوب على' فى المرة التالية التى يهبط فيها مع الخيول إلى ذلك الجنوب. ولابد أنه يعرف أن قيام كيم بتسليم الخطاب إلى الضابط فى أومبالا قد أدى إلى الحرب الكبرى التى ناقشها الرجال والصبيان بأصوات مرتفعة حول موائد العشاء فى الثكنات. ولكن، إن لم يكن 'محبوب على' قد علم بذلك، فليس من المأمون إطلاعه عليه. كان 'محبوب على' يقسو على الصبيان الذين يعرفون أكثر مما ينبغى أو يظنون ذلك.

وارتفع صوت الأب فكتور فقطع سيال فكر كيم قائلاً "ريثما تصلنى أنباء أخرى، لك أن تتصرف وتلهو مع غيرك من الغلمان، فسوف يعلمونك شيئًا، ولكننى لا أظن أنه سوف يروق لك".

ومضت ساعات النهار بطيئة إلى نهايته المملة. وصدرت إليه التعليمات بكيفية طىِّ ملابسه ونظام وضع حذائه عندما يريد الرقاد، والصبيان الآخرون يسخرون منه. ودوت الأبواق عند الفجر فأيقظته، وقبض عليه المُعَلِّمُ بعد

الإفطار ودفع بصفحة مليئة بالحروف التى لا معنى لها تحت أنفه، وأطلق عليها أسماء لا معنى لها وجعل يضربه دونما سبب. وخطر لكيم أن يدس السم له فى صورة أفيون يستعيره من أحد كناسى الثكنة، ولكنه رأى أن ذلك قد يكون خَطِرًا ما دام الجميع يأكلون معًا على مائدة واحدة مكشوفة، وهو ما كان كيم يمقته بشدة إذ كان يفضل أن يدير ظهره للدنيا عند تناول وجباته. ثم حاول أن يهرب إلى القرية التى حاول الكاهن فيها تخدير اللاما، القرية التى يقيم فيها الجندى الهرم، ولكن الحراس بعيدى النظر عند كل مخرج كانوا يردون الصبى الصغير ذا الحلة الحمراء على عقبيه. كان السروال والسترة يقيدان الجسم والعقل معًا، ومن ثم تخلى عن المشروع وعاد، بالأسلوب الشرقى، إلى انتظار ما يأتى به الزمن والمصادفة. ومرت ثلاثة أيام من العذاب فى الغرف الشاسعة البيضاء التى ترجع أصداء الأصوات. كان يخرج ساعة العصر يرافقه غلام الطبل، ولم يكن يسمع من رفيقه إلا الألفاظ التافهة القليلة التى كانت تشكل فيما يبدو شتائم الرجل الأبيض، وكان كيم يعرفها ويحتقرها جميعًا منذ زمن بعيد. وكان الغلام يستاء من صمت كيم وعدم اهتمامه ويعبر عن استيائه بضربه، وهو أمر طبيعى. ولم يُعجب كيم أى سوق من الأسواق داخل النطاق المسموح به. كان يعتبر كل أبناء البلد من السود، ولكن الخدم والكناسين كانوا يشتمونه شتائم مقذعة فى وجهه، وهو ما لم يكن يفهمه بسبب انخداعه بمواقفهم الخانعة تجاهه. وكان ذلك يعزى كيم بعض الشىء عن الضرب.

وفى صباح اليوم الرابع حَلَّ حُكْم السماء بذلك الغلام الطبال. كانا قد خرجا معًا تجاه حلبة سباق الخيل فى أومبالا ثم عاد الغلام وحده باكيًا، قائلاً إن أوهارا الصغير – الذى لم يسئ الغلام إليه بصفة خاصة – قد لَوَّحَ لرجل أسود ذى لحية قرمزية على ظهر جواد، وأن الأسود قد انقض على الغلام فجأة بسوط يلتصق بالجسم عند الضرب به، ثم التقط أوهارا الصغير وحمله على متن الحصان راكضًا بأقصى سرعة. وعندما بلغت هذه الأنباء سمع الأب فكتور مط شفته العليا فى ضيق. كان قد انزعج من قبل بما يكفى عندما وصله

خطاب من معبد 'تيرثانكارز' فى بيناريس وقد أرفقت به حوالة مالية من مدير مصرف محلىٍّ وبخط يده قيمتها ثلاثمائة روبية، إلى جانب دعاء عجيب إلى 'الله القدير' من أجله. وكان يمكن أن يزداد انزعاج اللاما عن انزعاج الكاهن لو كان اللاما قد عرف كيف ترجم كاتب الخطاب فى السوق عبارته التى كانت 'تحقيق الامتياز' فجعلها 'من أجل الله القدير'.

وجعل الأب فكتور يدير الحوالة فى يديه ثم صاح "يا قوى الظلام فى الأرض! وها هو ذا ينطلق الآن مع صديق آخر من أصدقائه غير الموثوق بهم. لا أدرى هل تزيد راحتى إذا أرجعته أم إذا فقدته. لا أستطيع أن أفهمه. كيف بحق الشيطان... نعم! إنه الرجل الذى أعنيه!.. كيف يستطيع أحد متسولى الشوارع أن يدبر المال اللازم لتعليم صبيان بشرتهم بيضاء؟".

وعلى بعد ثلاثة أميال، فى حلبة سباق الخيل فى أومبالا، كان 'محبوب على' يمسك بزمام فحل خيل رمادى من كابول، وكيم جالس أمامه على ظهر الجواد. وقال محبوب:

"ولكن أيها الصغير يا صديق العالم كله! لابد أن آخذ فى اعتبارى شرفى **أنا** وسمعتى. جميع الضباط الإنجليز فى جميع الفرق، وأومبالا كلها، يعرفون 'محبوب على'، وقد شاهدنى الرجل وأنا ألتقطك وأعاقب ذلك الغلام. ونحن على مرمى البصر الآن من أقصى أطراف السهل كله. كيف يمكن أن أختطفك أو أوضح سبب اختفائك إذا أنزلتك الآن وتركتك تفر إلى داخل المزارع؟ لسوف يحبسوننى. اصبر. من يولد انجليزيا يظل انجليزيا إلى الأبد. وعندما تصبح رجلاً – من يدرى؟ – فقد تبدى الامتنان إلى 'محبوب على'".

"خذنى إلى حيث أتجاوز هؤلاء الحراس حتى أغير هذه الحلة الحمراء. أعطنى بعض النقود حتى أذهب إلى بيناريس وأعود إلى صحبة اللاما صديقى من جديد. لا أريد أن أكون إنجليزيا، ولا تنس أننى سلمت الرسالة".

وقفز الجواد فجأة قفزة شاردة، إذ كان 'محبوب على' قد همز جنبه

بالمهماز ذى الطرف الحاد دون أن يدرى، فلم يكن ينتمى إلى النوع الجديد من راكبى الخيل الذين يلبسون الأحذية الإنجليزية الطويلة بمهمازها 'المهذب'، واستنتج كيم ما استنتجه من هذه 'الخيانة' فى موقف 'محبوب على'.

"لم تكن تلك إلا مسألة تافهة. كان المكان يقع فى الطريق المباشر إلى بيناريس، وقد نسيتها أنا والإنجليزى الآن، فأنا أرسل رسائل وخطابات كثيرة جدًا إلى الرجال الذين يسألوننى عن الخيل، ولا أستطيع أن أفصل فى ذاكرتى إحداها عن الأخرى. هل كانت تتعلق بفرسة سمراء كان بيترز الإنجليزى يريد أن يعرف نسبها؟".

ولمح كيم على الفور الفخ الذى نصبه محبوب، فلو قال كيم 'فرسة سمراء' لعلم محبوب أن الغلام يشتبه فى شىء ما بسبب استعداده لقبول التعديل، وهكذا أجاب كيم قائلاً:

"فرسة سمراء. لا. لا أنسى رسائلى بسهولة. كان ذلك فحل خيل أبيض".

"نعم. فعلاً. جواد عربى أبيض. ولكنك كتبت 'فرسة سمراء' إلىّ".

"وهل يقول الحقَّ أحدٌ لكاتب خطابات؟" وكان كيم فى هذه الإجابة يشعر بأن محبوب يضع راحة يده على قلبه.

وصاح صوت يقول "مرحبًا! قف يا محبوب أيها الخبيث!" واقترب رجل إنجليزى مسرعًا على ظهر مُهر صغير يُستخدم فى لعبة الـپـولو حتى أصبح بحذاء محبوب، وأضاف "لقد قطعت نصف طول البلد فى ملاحقتك. اسمع! هذا الحصان الكابولى (الأفغانى) الذى تملكه سريع. هل تعرضه للبيع؟".

"عندى بعض الخيل الصغيرة التى صنعتها السماء من أجل لعبة الـپـولو الرهيفة الصعبة. وليس له نظير. إنه...".

"يلعب الـپـولو ويقدم لك الأطباق على المائدة! نعم نعم! نعرف ذلك كله. ماذا بحق الشيطان فوق حصانك؟".

وقال محبوب بنبرة جادة "صبى. كان غلام آخر يضربه. كان أبوه جنديًا أبيض فى الحرب العظمى، الحربِ الأفغانية الثانية (١٨٧٨-١٨٨٠). وكان الصبى طفلاً فى مدينة لاهور. كان يلعب مع خيولى فى طفولته الأولى. وأعتقد الآن أنهم سيصنعون منه جنديًا. عثرت عليه فرقة أبيه أخيرًا، الفرقة التى ذهبت للحرب فى الأسبوع الماضى. ولكن لا أظن أنه يريد أن يصبح جنديًا. وأنا أتنزه معه. قل لى أين ثكناتك وسوف أنزلك هناك".

"دعنى أذهب. أستطيع أن أجد الثكنات بنفسى".

"وإذا هربت سيقول الجميع إننى الملوم".

"سوف يسرع عائدًا لتناول عشائه". وأضاف الإنجليزى "وهل له مكان آخر يهرب إليه؟".

"لقد ولد فى هذه البلاد. ولديه أصدقاء. ويذهب إلى حيث يشاء. وهو صغير ذكى. لن يتطلب الأمر إلا تغيير ملابسه وفى غمضة عين يصبح غلامًا هندوسيا من طبقة خفيضة".

وتفحص الإنجليزى الصبى قائلاً "لا شك فى ذلك" أثناء انطلاق محبوب فى اتجاه الثكنات، وأخذ كيم يصر على أسنانه. كان محبوب يسخر منه، شأنه فى ذلك شأن الأفغان الذين لا يحفظون العهد، إذ استمر يقول:

"سوف يرسلونه إلى مدرسة ويلبسونه أحذية طويلة ثقيلة ويلفونه بهذه الملابس! وعندها سوف ينسى كل ما عرفه. والآن، أى الثكنات ثكنتك؟".

وأشار كيم بيده - لم يكن يستطيع الكلام - إلى جناح الأب فكتور، الأبيض الناصع، بالقرب منهم.

وقال محبوب بنبرات الذى استغرق فى التفكير "ربما يصبح جنديًا عظيمًا. أو قل - على الأقل - جندى مراسلة صالح، أرسلته لتسليم رسالة ذات يوم من لاهور. رسالة تتعلق بأصالة نسب فحل خيل أبيض".

كان محبوب بذلك يزيد الطين بلة، وكان 'الطين' - إن صح التعبير - قاتلاً و'البلة' أشد وأنكى! وسمع الإنجليزى الذى كان قد نقل إليه ذلك الخطاب الذى أوقظ الحرب بمكر شديد ما قاله. وشاهد كيم 'محبوب على' يتلظى بالنار لخيانته، وأما هو فقد شاهد صفًا طويلاً رماديًا من الثكنات والمدارس ثم الثكنات بعدها. وجعل يحدق متوسلاً فى الوجه ذى الملامح الحادة لكنه لم يلمح أدنى بارقة على أن الرجل قد عرفه، ولكنه، حتى فى هذا الموقف العصيب، لم يخطر له قط أن يضع نفسه تحت رحمة الإنجليزى أو أن يفضح الأفغانى. وتعمد محبوب أن يحدق فى وجه الانجليزى الذى كان يحدق عامدًا فى وجه كيم، مرتعدًا معقود اللسان.

وقال تاجر الخيول "حصانى أُحسن تدريبه، غيره من الخيول تركل".

وقال الإنجليزى أخيرًا "آه" وهو يجفف غارب مهره المبلل بمقبض سوطه، ثم سأل "من الذى سيصنع من الصبى جنديًا؟".

"الفرقة التى عثرت عليه، حسبما يحكى، وخصوصًا الكاهن الإنجليزى للفرقة".

وقال كيم "ها هو ذا الكاهن!" كان يكاد يغص بالألفاظ أثناء إقبال الأب ڤكتور نحوهم عارى الرأس مغادرًا الشرفة.

وصاح الأب ڤكتور قائلاً "يا قوى الظلام على الأرض! كم من الأصدقاء المنوعين عندك يا أوهارا فى آسيا؟" أثناء نزول كيم من فوق الجواد ووقوفه بلا حول ولا قوة أمامه.

وقال الإنجليزى بنبرات مرحة "صباح الخير أيها الكاهن! أعرفك خير المعرفة من سمعتك. كنت أعتزم أن آتى قبل الآن لزيارتك. أنا كرايتون".

وقال الأب ڤكتور "من مصلحة المساحة العرقية؟" وأومأ الإنجليزى بالإيجاب. فأضاف الكاهن "أقسم إنى يسعدنى لقاؤك، إذن، وأدين بالشكر لك لإرجاعك هذا الصبى".

"لا أستحق الشكر أيها الأب. أضف إلى ذلك أن الصبى لم يكن ينتوى الفرار. أنت لا تعرف محبوب علىٍ". وكان محبوب على يجلس دون تعبير على وجهه فى ضوء الشمس. "سوف تعرفه بعد قضاء شهر فى الموقع. إنه يبيعنا كل خيولنا. هذا الصبى غريب إلى حد ما. هَلاَّ أخبرتنى ببعض معلومات عنه؟".

"أخبرتُك؟" وزفر الأب فكتور مضيفًا "بل أنت الوحيد الذى يمكنه أن يخرجنى من متاهتى. أخبرتك تقول؟ يا قوى الظلام! لا أصبر حتى أخبر أحدًا يعرف شيئًا عن أبناء البلد!".

وجاء سائس خيل فرفع العقيد كرايتون صوته محادثًا إياه باللغة الأُردية. "جميل جدا يا 'محبوب على'، ولكن ما فائدة إخبارى بكل هذه القصص عن المهر؟ لن أزيدك فطيرة عن ثلاثمائة روبية وخمسين".

ورد تاجر الخيول قائلاً "العقيد يشعر بالحر والغضب قليلاً بعد الركوب!" وبدا أنه ينظر نظرة المتفكه الذى يتمتع بموقف متميز، فأضاف "وسرعان ما يتبين مزايا حصانى بوضوح أكبر. سأنتظر حتى يستكمل حديثه مع الكاهن. سأنتظر تحت تلك الشجرة".

وضحك العقيد قائلاً "ويحك! السبب تطلعى إلى أحد خيول 'محبوب على'. إنه أيها الأب مصاص دماء عريق! انتظر إذن يا محبوب إن كان لديك الوقت. تفرغت الآن لك أيها الأب. أين الصبى؟ أوه! انفلت ليتآمر مع محبوب. غلام غريب الشأن. هل لى أن أطلب منك إرسال فرستى إلىَّ فى تكتم؟".

وجلس العقيد فى كرسىٍّ على الشرفة يستطيع أن يرى منه بوضوح كيم ومحبوب على يتناقشان تحت الشجرة. ودخل الكاهن المبنى لإحضار السيجار.

وسمع كرايتون كيم يقول بمرارة "ثق فى براهمينى قبل الثعبان، وفى الثعبان قبل العاهرة، وفى العاهرة قبل الأفغانى يا محبوب على".

واهتز رأس الرجل بلحيته الحمراء الطويلة بوقار قائلا "لا يغير هذا من الأمر شيئًا. ينبغى ألا يشاهد الأطفال السجادة أثناء نسجها على النول إلا بعد أن يتضح الرسم فيها. صدقنى يا صديق العالم كله، إننى أؤدى لك خدمة جليلة. لن يصنعوا منك جنديًّا".

وقال كرايتون فى نفسه "يا لك من خاطئ داهية يا محبوب! ولكنك لم تبتعد كثيرًا عن الصواب. فلا يجب إهدار مستقبل الصبى إن صح ما يقال عنه".

وصاح الكاهن من داخل المبنى "اسمح لى بنصف دقيقة، ولكننى أجمع الوثائق فى هذه القضية".

وقال محبوب على "لو قُدِّر لك - من خلالى - أن تتمتع برضى هذا العقيد الإنجليزى الباسل العاقل، فبلغت مراقى الشرف، فما الشكر الذى سوف تقدمه إلى محبوب على عندما تبلغ مبلغ الرجال؟".

وقال "لا لا! لقد رجوتك أن تدعنى أنطلق فى الطريق مرة أخرى، حيث السلامة لى، ولكنك بعتنى من جديد إلى الإنجليز. فكم سيدفعون لك ثمنًا لدمائى؟".

وقال العقيد فى نفسه "شيطان صغير مرح!" وقضم طرف سيجاره واستدار بأدب لمواجهة ڤكتور.

وقال محبوب على "ما هذه الخطابات التى يُلَوِّح بها الكاهن السمين أمام العقيد؟ قف خلف الجواد كأنك تفحص سرجى!".

"خطاب من اللاما صديقى كتبه من شارع 'چاجاذير'، يقول فيه إنه سوف يدفع ثلاثمائة روبية فى العام لتغطية مصروفات مدرستى".

"أوه! هل صاحب القبعة الحمراء العجوز من هذا النوع؟ وأى مدرسة تلك؟".

"الله أعلم. أظن أنها فى نوكلاو (أى لوكناو)".

"نعم فيها مدرسة كبيرة لأبناء الإنجليز وأنصاف الإنجليز. شاهدتها وأنا أبيع الخيول هناك. إذن فاللاما أيضًا أحب صديق العالم كله؟"

"نعم، ولم يكذب، ولم يُعِدْنى إلى الأَسْر".

"لا أَعْجَبَ من عجز الكاهن عن فك عقد الخيوط! ما أسرع ما يتحدث إلى العقيد الإنجليزى!" وجعل محبوب على يقهقه. "أقسم بالله!" وألقى نظرة سريعة ببصره الحاد على الشرفة قبل أن يقول "لقد أرسل اللاما صديقك حوالة مالية بخط اليد، فيما يبدو لى، وسبق لى التعامل بأمثالها. والعقيد الإنجليزى ينظر فيها".

وقال كيم بنبرات الضجر "وما فائدة هذا كله لى؟ لسوف ترحل أنت، وسوف يعيدوننى إلى تلك الحجرات الخالية حيث لا أجد مكانًا مريحًا للرقاد وحيث يضربنى الغلمان".

"لا أظن هذا. اصبر يا صغير. ليس جميع الأفغان لا عهد لهم - إلا فى الخيول".

ومرت الدقائق، خمس وعشر وخمس عشرة، والأب فكتور يتحدث بحميَّةٍ أو يطرح الأسئلة التى يجيب العقيد عنها.

"ها أنذا قصصت عليك قصة الصبى من البداية للنهاية، وأشعر براحة أشكر ربى عليها، فهل سبق أن سمعت شبيهًا بها؟".

وقال العقيد "على أية حال، فقد أرسل الرجل العجوز المال، والحوالات النقدية بخط يد 'جوبند ساهاى' صالحة للصرف فى أى مكان من هنا للصين. وكلما ازدادت معرفتك بأبناء البلد قلَّتْ قدرتك على توقع ما سوف يفعلونه أو يمتنعون عنه".

"فى هذا عزاء لى، ومن فم رئيس مصلحة المساحة العرقية. ما يشدنى هو

هذا المزج بين الثيران الحمر وأنهار الشفاء، فيا للوثنى المسكين! ثم هذه الحوالات النقدية بخط اليد والشهادات الماسونية. وبالمناسبة هل أنت ماسونى؟".

وقال العقيد بنبرات شاردة "فعلاً والله! ما دمت فتحتَ الموضوع. وهذا سبب منطقى إضافى".

"يسرنى أنك ترى المنطق فى هذا. ولكن المسألة كما قلت لك خليط من الأمور التى تستعصى على فهمى. أضف نبوءته إلى العقيد فى فرقتنا! كان يجلس على سريرى وقد تمزق قميصه الصغير فكشف عن بشرته البيضاء ولقد تحققت نبوءته! هل يعالجون الصبى من كل هذا الهراء فى مدرسة القديس خافيير؟".

وضحك العقيد قائلاً "رش عليه بعض الماء المقدس".

"فعلاً! أتوق إلى أن أفعل هذا يومًا ما. لكننى أرجو أن ينشأ ويُرَبَّى تربية الكاثوليكى الصالح. لا يقلقنى إلا ما عساه أن يحدث إذا تخلف الرجل الشحاذ العجوز...".

"اللاما، اللاما يا سيدى العزيز. وبعضهم من السادة فى مواطنهم".

"اللاما إذن! أقول إذا تخلف اللاما عن الدفع فى العام المقبل. لابد أن له ذهن التاجر الحصيف ما دام قد استطاع تدبير الأمر فى التو واللحظة. ولكنه من المحتوم أن يموت يومًا ما. والحصول على مال الوثنى لتوفير التربية المسيحية لأحد الأطفال...".

"لكنه قال صراحة ما يريده. ما إن عرف أن الغلام أبيض حتى اتخذ، فيما يبدو، الترتيبات المناسبة. أتنازل عن مرتب شهر وأعرف التفسير الذى قدمه فى معبد 'تيرثانكرز' فى بيناريس! اسمعنى أيها الأب! أنا لا أزعم أننى أعرف الكثير عن أهالى البلد، لكنه إذا قال إنه سيدفع فسوف يدفع، حيًّا أو

ميتًا. أقصد أن الذين يرثونه سوف يتحملون سداد الدين. نصيحتى إليك أن ترسل الصبى إلى لوكناو. فإذا كان كاهنكم الإنجليكانى يظن أنك سبقته بخطوة...".

"يالسوء حظ بينيت! أرسلوه إلى الجبهة بدلاً منى. قال 'داوطى' إنى غير لائق طبيًا وكتب شهادة بذلك. سوف أعلن حرمان 'داوطى' من رحمة الكنيسة إذا عاد حيًا! ولكن، بالتأكيد، يجب أن يقنع بينيت...".

"بالمجد، تاركًا لك الدين، فعلاً! لا أظن فى الواقع أن بينيت سوف يكترث لذلك. قل إننى أنا الملوم فى هذا. فأنا – أنا أوصى بشدة بإرسال الصبى إلى مدرسة القديس خاڤيير. وله أن يذهب إلى هناك باعتباره ابنًا يتيمًا لأحد الجنود فيُعفى من دفع ثمن تذكرة القطار. ولك أن تشترى له الملابس من مخازن الفرقة المخفضة الأسعار. وسوف يُعفى المحفل الماسونى من تحمل تكاليف تعليمه، وهو ما سوف يسر أعضاء المحفل. الأمر بالغ اليسر. لابد أن أذهب إلى لوكناو فى الأسبوع المقبل. وسوف أرعى الصبى فى طريقى، وأكلف خدمى بالعناية به وهَلُمَّ جرًّا".

"أنت رجل صالح".

"على الإطلاق. لا ترتكب هذا الخطأ. لقد أرسل اللاما النقود لنا لغرض محدد. ومن المستبعد أن نعيدها إليه. وعلينا أن نفعل ما يقول. هل اتفقنا إذن؟ هل نقول مثلاً إنك سوف تُسلمه إلىَّ يوم الثلاثاء القادم، كى نركب قطار الليل المتجه جنوبًا؟ لم يبق على ذلك إلا ثلاثة أيام، لن يتسبب فى ضرر كبير فى ثلاثة أيام".

"لقد أزحت أثقالاً رازحة على صدرى ولكن ماذا نفعل بهذا؟" ولوَّح بالحوالة النقدية "أنا لا أعرف جوبند ساهاى، ولا البنك التابع له، وقد لا يزيد عن فجوة فى أحد الجدران".

"لم تكن **أنت** يومًا ما ملازمًا فى الجيش عليك ديون! سأصرف الحوالة لك

إذا أردت وأرسل لك النقود فى 'بونات' وفق المعمول به".

"ولكن مع كل مشاغلك! هذا تكليف...".

"ليس فى هذا أدنى مشقة. أنا متخصص فى علم الأعراق، وهو مبحث أجده بالغ الإثارة، وأحب أن أكتب مذكرة فى إطار بعض الأعمال الحكومية التى أقوم بها الآن. إن تحويل الشارة الخاصة بالفرقة، مثل الثور الأحمر الذى تحكى عنه، إلى رمز وثنى يتبعه الصبى أمر بالغ الطرافة".

"لن أوفيك حقك من الشكر مهما أفعل".

"بل تستطيع أن تفعل شيئًا من أجلى! تعرف أننا – نحن المتخصصين فى علم الأعراق – نغار من مكتشفات بعضنا البعض. وهى لا تهم أحدًا سوانا بطبيعة الحال، ولكنك تعرف طبعَ هواة جمع الكتب. إذن، لا تَفُهْ بكلمة واحدة، مباشرة أو غير مباشرة، عن شخصية الصبى، عن مغامراته ونبوءته، وهلم جَرًّا. سوف أستقيها من الصبى فيما بعد – هل تفهمنى؟".

"قطعًا. ستكتب قصة رائعة. لن أقول كلمة واحدة لأحد حتى أرى القصة مطبوعة".

"شكرًا. هذا يمس شغاف قلب المتخصص فى علم الأعراق. والآن، لابد أن أعود إلى إفطارى. يالله! صاحبنا محبوب لا يزال هنا؟" وعندما رفع صوته خرج تاجر الخيول من مكانه فى ظل الشجرة مقبلاً فسأله العقيد "ماذا عندك؟".

قال محبوب "بالنسبة لذلك الحصان الصغير. عندما يولد مُهْرٌ ليصبح مُهْرًا يشارك فى لعبة الـــبـــولو – ليتابع الكرة متابعة لصيقة دون تعليم – أى عندما يعرف مثل هذا المهر فن اللعبة بالحدس – أقول إنه من الخطأ الفادح ترويض ذلك المهر حتى يصبح من أحصنة جر العربات الثقيلة يا سيدى!".

"وهذا ما أقوله أيضًا يا محبوب. سوف يقتصر المهر على لعبة الـــبـــولو". ثم التفت إلى الكاهن وقال "لا يفكر هؤلاء إلا فى الخيل يا أبى" وعاد يقول "أراك غدًا يا محبوب، إن كان لديك شيء جدير بالشراء".

وحياه التاجر بأسلوب الفرسان مُلَوِّحًا بيده، ثم همس إلى كيم الذى بدا عليه الألم قائلاً "اصبر قليلاً يا صديق العالم كله. جاءك السعد! بعد قليل سوف تذهب إلى نوكلاو، وخذ هذا حتى تدفع أجر كاتب الخطاب. أعتقد أننى سوف أراك من جديد مرات كثيرة"، ثم انطلق يخب بحصانه فى الطريق.

وصاح العقيد من الشرفة باللغة المحلية "أصغ إلىَّ: سوف أصحبك بعد ثلاثة أيام إلى لوكناو، فترى وتسمع أشياء جديدة طوال الوقت. وإذن عليك أن تظل فى مكانك ثلاثة أيام ولا تهرب. ستدخل المدرسة فى لوكناو".

وقال كيم فى شبه نشيج "وهل أقابل صديقى الربانى هناك؟".

"على الأقل لوكناو أقرب من أومبالا إلى بيناريس. ربما تذهب فى حمايتى. محبوب على يعرف ذلك، وسوف يغضب إذا عدت الآن إلى الطريق. وتذكر: لقد قيلت لى أشياء كثيرة لن أنساها".

وقال "سوف أنتظر. ولكن الأولاد سوف يضربوننى".

ثم دوت الأبواق معلنة موعد العشاء.

الفصل السابع

لخَيرْ مَنْ تَدُورُ فى السَّماءِ هذهِ الشُّموسُ المُثْقَلاَتُ
بالحَمْقَى مِنَ الأَقْمَارِ والنُّجومِ السَّاحبَاتِ للنُّجُومَ السَّابِحَاتْ؟
شُقَّ الطَّرِيقَ وَسْطَهَا.. ولا يُثِرْ مَسْرَاكَ أَخْفَتَ الأَصْوَاتْ!
حُرُوبُ هذِى الأَرْضِ ذاتُ حِطَّةٍ وفى السَّمَا الحُروبُ سَامِيَاتْ
يا مَنْ وَرِثْتَ هذِه الأَهْوَالَ والمُنَازَعَات والمُكَافَحَاتْ
مِنْ ذَنْبِ آدَمَ القَدِيمِ والآبَاءِ مَنْ مَضَى مِنْهُمْ وفَاتْ
انْظُرْ إلى السَّمَا فاستَفْتِ طَالِعًا يَقُولْ
ما الكَوْكَبُ النَّصِيرُ لَكْ.. وما الذى يَقْضِى عَلَيْكَ أن تزول!

(سير چــون كريستى)

فى العصر قال معلم المدرسة ذو الوجه الأحمر لكيم إن "اسمه قد شُطِبَ من القوة" وهو ما لم يكن يعنى أى شىء له حتى صدر الأمر له بالانصراف واللعب. وعندها أهرع إلى السوق حتى عثر على كاتب الخطابات اليافع، وكان كيم مدينًا له بثمن طابع بريد.

وقال كيم بنبرات العظمة "الآن أدفع، والآن أحتاج إلى كتابة خطاب آخر".

وقال كاتب الخطابات بنبرات مرحة "محبوب على فى أومبالا". كان بفضل عمله يمثل مكتبًا للمعلومات العامة 'المغلوطة'.

"ليس هذا موجهًا إلى محبوب، بل إلى كاهن. خذ قلمك واكتب بسرعة ما يلى: **"إلى تيشو اللاما، الرجل الربانى من التيبت، الذى يبحث عن نهر، ويقيم الآن فى معبد 'تيرثانكرز' فى بيناريس"**. خذ مزيدًا من الحبر! **تقرر أن أذهب بعد ثلاثة أيام إلى نوكلاو، حيث أدخل المدرسة فى نوكلاو. اسم المدرسة خاڤيير، ولا أعرف أين المدرسة، ولكنها فى نوكلاو"**.

وقاطعه الكاتب قائلاً "لكنى أعرف نوكلاو. أعرف أين المدرسة".

"أخبره بمكانها وسأعطيك نصف أنّا".

وانطلق القلم البسط يخمش الورق بنشاط. وقال الكاتب "لن يتوه عنه"! ثم رفع رأسه وقال "من الذى يراقبنا عبر الشارع؟".

وتطلع كيم فى لهفة فشاهد العقيد كرايتون بملابس ملعب التنيس.

"إنه رجل إنجليزى يعرف الكاهن السمين فى الثكنات. وهو يشير طالبًا أن أذهب إليه".

وقال العقيد عندما جاءه كيم يجرى "ماذا تفعل؟".

"لم أكن أحاول الهرب. كنت أرسل خطابًا إلى صديقى الربانى فى بيناريس".

"لم يخطر ذاك ببالى.هل قلت له انى سأصحبك إلى لوكناو؟ ".

"لا. لم أذكر ذلك. اقرأ الخطاب إن كان لديك شك".

"إذن لماذا أغفلت اسمى فى خطابك إلى ذلك الرجل الربانى؟" وارتسمت على وجه العقيد ابتسامة غريبة. فجمع كيم أطراف شجاعته بكلتا يديه وقال:

"قيل لى ذات يوم إنه لا يُستَحْسَنُ أن نكتب أسماء الأغراب المتصلين بأى موضوع، لأن ذكر الأسماء يؤدى إلى فشل العديد من الخطط الجيدة".

وأجاب العقيد "لقد أُحْسِنَ تعليمُك". فاحمر وجه كيم. وأضاف العقيد:

"إنى نسيت علبة السيجار فى شرفة الكاهن. أحضرها إلى منزلى هذا المساء".

وقال كيم "وأين منزلك؟" كان قد اهتدى بسرعة بديهته إلى أنه يخضع لاختبار من لون ما، فأخذ حذره.

واستمر العقيد فى طريقه قائلاً "سل أى شخص فى السوق".

وعندما عاد كيم إلى الكاتب قال "نسى علبة السيجار. ولابد أن آخذها إليه هذا المساء. هذا كل خطابى إلا أن تكتب ثلاث مرات '**تعال إلىّ! تعال إلىّ! تعال إلىّ!**' سأدفع الآن ثمن الطابع وأضع الخطاب فى صندوق البريد". ونهض حتى يمضى ثم عَنَّ له أن يسأل "من ذلك السيد ذو الوجه الغاضب الذى فقد علبة السيجار؟".

"ليس إلا السيد كرايتون... سيد بالغ الحمق، فهو عقيد إنجليزى من دون فرقة عسكرية".

"وما عمله؟".

"الله أعلم. إنه دائمًا يشترى خيولاً لا يستطيع أن يركبها، ويطرح ألغازًا عن مخلوقات الله، مثل النباتات والأحجار وعادات الناس. وتجار الخيول يسمونه أبا الحمقى، لأنهم يستطيعون أن يغشوه بسهولة شديدة فى الخيل. ومحبوب على يقول إنه أشد جنونًا من معظم السادة الآخرين".

وقال كيم "أوه" ومضى. كان قد اكتسب من خبرته القدرة على الحكم على الشخصية، وقال فى نفسه إن الحمقى لا تقدم لهم معلومات تؤدى إلى استدعاء ثمانية آلاف جندى وحشد المدافع. وليس من المعقول أن يتحدث القائد العام للجيش فى الهند كلها إلى الحمقى مثلما سمعه كيم يحادث كرايتون. بل ولم يكن من الممكن أن تتغير نبرات محبوب على، كما شهدها كيم تتغير، كلما ذكر اسم كرايتون، لو كان العقيد أحمق. ومن ثم – وهو ما دفع كيم إلى التواثب – فقد كان فى الأمر سر خاص من لون ما، ومن المحتمل أن محبوب على كان يتجسس لحساب العقيد مثلما قام كيم بالتجسس لحساب محبوب على. كما إن العقيد، شأنه فى ذلك شأن تاجر الخيول، كان يحترم بوضوح من لا يُبْدون أنهم أذكى مما ينبغى.

كان سعيدًا لأنه لم يكشف عن معرفته بمنزل العقيد، وعندما عاد إلى الثكنات واكتشف أنهم لم يعثروا على علبة سيجار نسيها أحد، فاض وجهه

بشرًا وسرورًا. كان هذا الرجل من النوع الذى يحبه، رجل يجيد المراوغة والتحايل ويلعب لعبة خفية. فإذا كانٍ قادرًا على الظهور بمظهر الأحمق، فإن كيم قادر أيضًا!.

لم يفصح عن شيء من آرائه عندما كان الأب ڤكتور يقضى صباح كل يوم من الأيام الثلاثة التالية فى الحديث عن مجموعة جديدة تمامًا من الأرباب وصغار الأرباب، وخصوصًا عن ربة تسمى 'مارى'، وفهم أنها مريم العذراء نفسها التى يؤمن محبوب على بمكانتها فى دينه. ولم يكشف عن أى انفعال عندما جره الأب ڤكتور بعد إحدى المحاضرات، وسار به من دكان إلى دكان لشراء قطع الملابس.

وعندما جعل صبيانُ الطبل يركلونه لأنه سيدخل مدرسة فُضْلى، لم يجأر بالشكوى، بل قرر أن ينتظر ما تسفر عنه الظروف بروحٍ شغوف. وقام الأب ڤكتور، الرجل الصالح، باصطحابه إلى المحطة، وأجلسه فى مقصورة خالية بالدرجة الثانية، متصلة بعربة الدرجة الأولى حيث يجلس العقيد كرايتون، ثم ودعه وداعًا حارًّا بكل صدق قائلاً:

"سيصنعون منك رجلاً يا أوهارا فى مدرسة القديس خاڤيير، رجلاً أبيض، وأرجو أن تكون رجلاً صالحًا. يعرفون كل شيء عن قدومك وسوف يضمن العقيد ألا تتوه أو تضل الطريق فى أى مكان. سبق أن حدثتُك عن الشؤون الدينية وأرجو على الأقل أن يكون لديك الآن تصور لها، وتذكر إذا سألك أحد عن دينك أن تقول إنك كاثوليكى. والأفضل أن تقول كاثوليكى رومانى، وإن كنت غير مُغرم بهذه الكلمة".

وأشعل كيم سيجارة زنخة - إذ كان حريصًا على شراء ذخيرة من السوق - ثم استلقى ليفكر. كانت عزلته فى الرحلة تجعلها بالغة الاختلاف عن الرحلة المرحة التى قطعها فى القدوم مع اللاما فى الدرجة الثالثة. وقال فى نفسه "الإنجليز لا يجدون مُتعة تذكر فى السفر. فعلاً! فأنا أنتقل من مكان لمكان مثل كرة فى أقدام اللاعبين. إنه قَدَرِى. لا يستطيع أحد أن يفر من قَدَرِه. ولكن

علىَّ أن أصلى للعذراء مريم، وأنا إنجليزى". ونظر فى حزن إلى حذائه الطويل. "لا. أنا كيم. هذا هو العالم الكبير، ولست سوى كيم. ومن كيم؟". وانطلق يفكر فى هويته، وهو ما لم يفعله قط من قبل، حتى غامت رأسه. خطر له أنه مجرد شخص لا قيمة له فى هذه الدوامة الهادرة التى تسمى الهند، وأنه متجه جنوبًا إلى مصير لا يعرفه.

وبعد فترة أرسل العقيد يستدعيه وتحدث إليه وقتًا طويلاً. وفى حدود ما فهمه كيم، كان عليه أن يجتهد ويلتحق بمصلحة المساحة فى وظيفة مساعد مهندس مساحة. فإذا أثبت امتيازه ونجح فى الامتحانات الخاصة، فسوف يكسب ثلاثين روبية فى الشهر عندما يبلغ السابعة عشرة من عمره، وتعهد العقيد كرايتون بأن يجد له العمل المناسب.

كان كيم يتظاهر فى البداية بأنه كان يفهم كلمة واحدةً – مثلاً – من كل ثلاث كلمات من هذا الحديث. ثم أدرك العقيد خطأه فأخذ يعيد ما قاله باللغة الأردية الحافلة بالصور المجازية، التى كان يتكلمها بطلاقة، فأحس كيم بالرضى. وقال كيم فى نفسه كيف يمكن لرجل أن يكون أحمق إن كان يعرف اللغة هذه المعرفة الوثيقة، وينتقل من مكان لمكان بهذا الأسلوب اللطيف الصامت، وإذا كانت عيناه تختلفان كل هذا الاختلاف عن العيون الممتلئة التى لا بريق فيها فى وجوه الإنجليز الآخرين؟

"نعم ويجب أن تعلم كيف ترسم صورًا للطرق والجبال والأنهار، وأن تحفظ هذه الصور فى عينك حتى يأتى الوقت المناسب لوضعها على الورق. وربما جاءنا اليوم الذى نعمل فيه معًا، بعد أن تصبح مساعد مهندس مساحة، فأقول لك 'اعبر هذه التلال وانظر ما يقع خلفها'. ثم يقول أحد الناس 'يعيش أشرار فى هذه التلال وسوف يقتلون مساعد المهندس إذا رأوا أنه يشبه الإنجليز' كيف تتصرف إذن؟".

وفكر كيم. هل من المأمون أن يرد على حيلة العقيد؟

"أقول ما قاله هذا الرجل الآخر".

"ولكن إن أجبتك 'سأمنحك مائة روبية حتى أعرف ما يقع خلف هذه التلال، أى فى مقابل صورة لأحد الأنهار وبعض الأخبار عما يقوله الناس فى القرى بذلك المكان؟'".

"أنَّى لى أن أعرف؟ ما زلت غلامًا. انتظر حتى أصبح رجلاً". وعندما شاهد تقطيب جبين العقيد قال "لكننى أظن أننى سوف أكسب الروبيات المائة بعد أيام معدودة".

"من أى طريق؟".

وهز كيم رأسه بعزم وتصميم قائلاً "لو كشفتُ عن أسلوب اكتسابها فربما سمعنى رجل آخر وسبقنى إليها. ليس من الحكمة بيع المعرفة بلا مقابل".

ورفع العقيد يده مُلَوِّحًا بروبية وقال "أخبرنى الآن". وارتفعت يد كيم إلى منتصف المسافة التى تفصله عن الروبية ثم هبطت.

"لا يا سيدى! لا! أعرف الثمن الذى سيُدفع فى الإجابة، لكننى لا أعرف سبب طرح السؤال".

قال كرايتون "خذها هدية منى إذن" وألقى إلى كيم بالروبية. ثم أضاف قائلاً "إن فيك روح خير، فلا تسمح بأن تضيع حدتها فى مدرسة القديس خاڤيير . ستجد فيها الكثير من الغلمان الذين يحتقرون الرجال السود".

فقال كيم "كانت أمهاتهم من نساء السوق". كان يعرف أن أشد ضروب الكراهية كراهية ابن الطائفة المختلطة لأصهاره.

"هذا صحيح. أنت انجليزى وابن انجليزى. ولذلك فلا تستسلم قط لمن يغويك باحتقار السود. كنت أعرف بعض الذين التحقوا حديثًا بخدمة الحكومة وكانوا يتظاهرون بأنهم لا يستطيعون أن يفهموا كلام الرجال السود أو عاداتهم، وعاقبتهم الحكومة بخصم نسبة من رواتبهم بسبب الجهل. لا توجد خطيئة أعظم من الجهل. تذكر هذا".

وأرسل العقيد يستدعى كيم عدة مرات على مدار الساعات الأربع والعشرين التى استغرقتها الرحلة الطويلة إلى الجنوب، وكان فى كل مرة يُفيض فى تفاصيل الموضوع نفسه.

وقال كيم أخيرًا فى نفسه "سوف نصبح جميعًا مشدودين إلى حبل واحد – العقيد ومحبوب على وأنا نفسى – عندما أصبح مساعد مهندس. سوف يستخدمنى العقيد مثلما استخدمنى محبوب على – فى ظنى – وهذا حَسَنٌ إذ أتاح لى أن أعود من جديد إلى الترحال. واعتياد هذا الملبس لا يخفف من شدته".

وعندما وصلا إلى محطة 'لوكناو' المزدحمة، لم يَلُحْ فيها أى أثر للاما. وشعر كيم بخيبة الأمل التى غُصَّ بها حلقه، والعقيد يدفعه إلى داخل عربة بالأجرة، ومعه حقائبه الأنيقة، ويرسله وحده إلى مدرسة القديس خافيير.

وصاح "لا أقول وداعًا لأننا سوف نلتقى ثانيًا. سنلتقى مرة أخرى ومرات كثيرة إن كنت ذا روح صالحة. ولكنك لم تختبر بعد".

وقال كيم "ألم أكن كذلك عندما جئتك" – وكان كيم قد تجاسر على مخاطبته بضمير المفرد الذى يفيد الندية – "بأصالة نسب ذلك الفحل الأبيض فى تلك الليلة؟".

وقال العقيد "فى النسيان فوائد كثيرة يا أخى الصغير". ملقيًا عليه نظرة اخترقت ألواح كتفى كيم وهو يتفحص ما بداخل العربة.

ولم يستعد كيم رباطة جأشه إلا بعد ما يقرب من خمس دقائق، فأخذ ينشق الهواء فى هذه المدينة الجديدة عليه نشق من يستعذبه قائلاً "مدينة غنية! أغنى من لاهور. لابد أن أسواقها رائعة! أيها السائق سر بالعربة قليلاً وسط الأسواق هنا".

"أُمِرْتُ أن آخذك إلى المدرسة" واستخدم السائق ضمير المفرد فى عبارته، وهو ما يعتبر فظًّا إن خوطب به رجل أبيض. فإذا بكيم يبين له خطأه

مخاطبًا إياه باللغة المحلية التى خرجت من فمه بطلاقة ووضوح تام، وإذا به ينتقل إلى جوار مقعد السائق بعد أن ساد التفاهم الكامل بينهما، ويوجه العربة هنا وهناك مبديًا تقديره لما يشاهده، مقارنًا إياه بغيره، مستمتعا به. لا أجمل من هذه المدينة إلا بومباى ملكة الجميع! إن أسلوب لوكناو مفرط الزخرفة سواء نظرت إليها من الجسر فوق النهر أو من أعلى مبنى 'إمامبارا' العظيم الذى يطل على المظلات والظُلَلِ المزركشة فى قصر 'شوتار مُنزل' والأشجار التى تقوم فى جنباتها. فلقد زانها الملوك بمبان خلابة، وأقاموا فيها جمعيات خيرية بأموالهم، وملأوها بالمتقاعدين عن العمل، وأغرقوها بالدماء. إنها المركز لشتى ضروب التعطل والتآمر والترف، وهى تشارك دلهى امتيازها بشيوع اللغة الأُردية النقية التى لن تسمعها فى مكان آخر.

وقال كيم "مدينة جميلة. مدينة فاتنة" وأسعد السائق أن يسمع المديح بصفته من أبناء لوكناو وأخبر كيم ببعض الحقائق المذهلة، ولو كان إنجليزيًّا ما تحدث إلا عن وقائع التمرد.

وأخيرًا قال كيم "نذهب الآن إلى المدرسة". كانت مدرسة "القديس خاڤيير فى بلاد الكفار" مدرسة عظيمة عريقة، تتكون من مبان بيضاء منخفضة، وتقوم فى بقعة شاسعة على ضفاف نهر 'جومتى'، على مبعدة من المدينة.

وقال كيم 'ما نوع الناس بداخلها؟".

"إنجليز صغار، وكلهم شياطين. ولكن إذا أردت الحق، وأنا أتولى أمر انتقال الكثير منهم ما بين المدرسة ومحطة السكة الحديدية، لم أر شخصًا فيه مقومات الشيطان الكامل مثلك – هذا الإنجليزى الصغير الذى أقوم الآن بتوصيله".

وبطبيعة الحال، قضى كيم سحابة نهاره مع بعض اللاهيات 'فى النوافذ العلوية' فى شارع معين، فلم يكن قد عَلَّمَهُ أحدٌ قط أن ذلك شائن، وبطبيعة الحال أيضًا فقد أبلى بلاءً حسنًا عند تبادل الإطراء. كان يوشك أن يرد على عبارة السائق الأخيرة البذيئة عندما لمحت عيناه فى غبش الغسق شخصًا

بجانب جدار طويل. وصاح كيم "قف! انتظر هنا. لن أذهب إلى المدرسة الآن".

وهتف السائق بتبرم "وماذا أتقاضى مقابل هذه المشاوير؟ هل الصبى مجنون؟ فى المرة الأخيرة كانت راقصة، وفى هذه المرة كاهن".

واستلقى كيم فى الطريق وهو يربت على القدمين المُتْرَبَتَيْنِ تحت الثوب الأصفر.

وجاءه صوت اللاما المنتظم الإيقاع قائلاً "إنى انتظرت هنا يومًا ونصف. لا! كان معى تلميذ. كان الذى أعطانى إياه صديقى فى معبد 'تيرثانكرز' حتى يكون مرشدًا لى فى هذه الرحلة. جئت من من بيناريس بالقطار، عندما وصلنى خطابك. نعم، أتناول الطعام الكافى. لا أحتاج إلى أى شىء".

"ولكن لماذا لم تمكث مع المرأة من كولو أيها الرجل الربانى؟ وكيف ذهبت إلى بيناريس؟ كان الحزن يثقل قلبى منذ افترقنا".

"كانت المرأة تضجرنى بفيض دافق من الكلام وطلب التمائم لأطفالها. وهكذا فارقتها وسمحت لها باكتساب الامتياز بمنحى بعض الهدايا. إنها على الأقل امرأة مبسوطة اليدين، ووعدتها أن أعود إلى منزلها إن دعت الحاجة إلى ذلك. وعند ذلك وجدت نفسى وحيدًا فى هذا العالم الكبير الرهيب، فخطر لى أن أركب القطار إلى بيناريس حيث أعرف رجلاً يقيم فى معبد 'تيرثانكرز'، وهو مثلى باحث أيضًا".

وقال كيم "آه! نهرك! كنت قد نسيت النهر".

"بهذه السرعة يا تلميذى؟ لم أنسه أنا قط. لكننى عندما تركتك بدا لى أنه من الأفضل أن أذهب إلى المعبد للتشاور، فالهند كما ترى بلاد شاسعة، وربما سبقنا بعض الحكماء، اثنان أو ثلاثة، فتركوا سجلا لمكان نهرنا. ويدور الجدل فى معبد تيرثانكرز حول هذا الأمر، فالبعض يقولون شيئًا وغيرهم يقول شيئًا آخر. إنهم رجال مهذبون".

"فليكن. ولكن ماذا تفعل الآن؟".

"أكتسب الامتياز بمساعدتك يا تلميذى على بلوغ الحكمة. أرسل لى الكاهن المرافق للفرقة التى تعبد الثور الأحمر خطابًا يقول فيه إن كل شىء سوف يجرى وفقًا لما أريده من أجلك. أرسلت النقود التى تكفى عامًا واحدًا ثم جئت كما ترانى كيما أرقبك وأنت تدخل أبواب التعليم. وانتظرت يومًا ونصف، ليس لأننى كنت مدفوعًا بحبى لك – إذ لا ينتمى هذا إلى **الطريق** – ولكن، كما قالوا فى معبد تيرثانكرز، لأنه ما دامت النقود قد دفعت من أجل التعليم فمن الصواب أن أشرف على إتمام الأمر. لقد أزالوا شكوكى بكل وضوح. كنت أخشى احتمال أن يكون قدومى مدفوعًا بالرغبة فى رؤيتك، وقد ضلل مسارى الضبابُ الأحمر، ضباب الحب. ولكن الأمر ليس كذلك... أضف إلى هذا أننى رأيت منامًا مقلقًا".

"ولكن أيها الرجل الربانى! لم تنس قطعًا مسارنا فى الطريق وكل ما حدث فيه! لابد أن مجيئك كان مدفوعًا إلى حد ما بالرغبة فى رؤيتى؟".

وارتفع صوت السائق شاكيًا "الخيل باردة وموعد إطعامها قد فات".

وصاح كيم "اذهب إلى جهنم وامكث فيها مع عمتك سيئة السمعة!" كان قد التفت إلى السائق ناهرًا مزمجرًا ثم عاد يقول للاما "أنا وحيد فى هذه البلد، ولا أعرف أين أذهب ولا ما سوف يحدث لى. كان قلبى فى ذلك الخطاب الذى أرسلته إليك. وباستثناء محبوب على، وهو أفغانى، ليس لى صديق غيرك أيها الربانى. لا ترحل وتتركنى".

وأجاب اللاما بصوت مرتعش "إنى نظرت فى هذا أيضًا. من الواضح أننى سوف اكتسب الامتياز من وقت لآخر، إن لم أعثر على النهر قبل ذلك، بأن أؤكد لنفسى أن قدميك قد وجدتا الحكمة. لا أعرف ما سوف يعلمونك، ولكن الكاهن كتب لى قائلاً إنك سوف تتلقى تعليمًا أفضل من جميع أبناء الانجليز فى الهند كلها. ومن ثم فسوف أعود إليك بين الحين والحين. وربما أصبحت مثل ذلك الإنجليزى الذى منحنى هذه النظارة" وأخذ اللاما يمسح

العدسات بعناية قبل استكمال عبارته "فى بيت العجائب فى لاهور. هذا أملى، فلقد كان نبعًا للحكمة، أكثر حكمة من الكثير من رؤساء الأديرة... ومرة أخرى، ربما سوف تنسانى وتنْسى لقاءاتنا".

وقال كيم بانفعال شديد "كيف أنساك وقد أكلت خبزك؟".

ونحىَّ اللاما الصبى قائلاً "لا! لا! لابد أن أعود إلى بيناريس. وبين الفينة والفينة، ما دمتُ عرفتُ عادات كتاب الخطابات فى هذه البلد، سوف أرسل إليك خطابًا، ومن وقت إلى وقت سوف آتى وأراك".

وقال كيم فى نبرات كالولولة "ولكن إلى أى عنوان أرسل خطاباتى؟". وجعل يتعلق برداء اللاما وقد نسى تمامًا أنه إنجليزى.

"إلى معبد 'تيرثانكرز' فى بيناريس. هذا هو المكان الذى اخترته حتى أجد نهرى. لا تبك واسمع فإن الرغبات كلها وهم، وتمثل قيدًا جديدًا يشد المرء إلى العجلة. اذهبْ إلى أبواب التعليم. دعنى أبصرك تذهب... هل تحبنى؟ إذن فاذهب وإلا انفطر قلبى... سوف أعود من جديد. قطعًا سوف أرجع مرة أخرى".

وظل اللاما ينظر والعربة الصغيرة تهدر عجلاتها داخلة المجمع المدرسى ثم انطلق يخطو خطواته الواسعة، مستخدمًا النشوق ما بين خطوة وخطوة.

وأما 'أبواب التعليم' فقد أُغلقت بقعقعة عالية.

للصبى الذى وُلِدَ وتَرَبَّى فى البلد أخلاقه وعاداته التى لا تشبه أخلاق أبناء أى بلد أخرى وعاداتهم، ويسلك أساتذته فى معاملته طرقًا لا يفهمها المعلم الإنجليزى. ومن ثم فلا أظن أنك تهتم بخبرات كيم فى مدرسة القديس خاڤيير باعتباره واحدًا من بين مائتين أو ثلاثمائة من الصغار المبكرى النضج، معظمهم لم ير البحر فى حياته. كان يتلقى العقوبات المعتادة للدخول فى المناطق المحظورة عند حلول وباء الكوليرا فى البلد. كان ذلك قبل أن يتعلم كتابة اللغة الإنجليزية الصحيحة، ولذلك كان يضطر إلى الاستعانة بكاتب

خطابات فى السوق. كان يُتهم بطبيعة الحال بتهمة التدخين وباستخدام الشتائم اللاذعة ذات النكهة الأصيلة التى تفوق كل ما سُمِعَ من قبل حتى فى مدرسة القديس خافيير. وتعلم الاغتسال بالدقة والإحكام اللذين يتميز بهما اغتسال أبناء البلد، وكان فى أعماق قلبه يرى الإنجليزى قذرًا إلى حد ما. وكان يمارس 'المقالب' المعهودة مع العمال الصابرين الذين يحركون المراوح فى غرف النوم التى كان الصبيان يتمددون فيها فى الليالى الحارة، ساهرين يقصون القصص حتى الفجر، وكان يوازن فى صمت بين نفسه وبين رفاقه الذين يعتمدون على أنفسهم.

كان فى المدرسة أبناء صغار موظفى السكك الحديدية والتلغراف ومصلحة الرى، وأبناء ضباط الصف الذين تقاعد بعضهم وعمل البعض الآخر قُوَّادًا عَامِّين لجيوش الراجــات الإقطاعيين، وأبناء قادة رجال البحرية الهندية، وموظفى الحكومة المتقاعدين، وأصحاب المزارع، وأصحاب الحوانيت التى تورد البضائع لمقر الحكومة البريطانية فى كالكتا، وأبناء المبشرين. وكان عدد لا بأس به من دارسى العلوم العسكرية المنتمين إلى عائلات أوراسية (أوربية آسيوية) عريقة ضربت بجذورها واستقرت فى حى 'ذرمتوالله' فى كالكتا – مثل عائلات بيريرا، ودى سوزا، ودسيلــڤــا. كان آباؤهم يملكون أن يعلموهم فى انجلترا، ولكنهم كانوا يحبون المدرسة التى تعلموا هم فيها، فتوالت الأجيال ذوات اللون الأصفر فى مدرسة القديس خافيير. وكانت مواطنهم تتراوح ما بين مدينة 'هاورا'، على ضفاف نهر 'هوجلى' ، التى تواجه كالكتا ويعيش فيها العاملون بالسكك الحديدية، وبين الثكنات العسكرية المهجورة كالتى تقوم فى مدينة 'مونجر'، على الضفة اليمنى لنهر الجانــچــيز شمالى كالكتا، ومدينة 'شونار' العريقة الحصينة على شاطئ النهر نفسه جنوبى بيناريس، وبين موقع مزارع الشاى المفقودة فى طريق 'شيلونج' عاصمة أسام شمالى كالكتا. والقرى التى كان آباؤهم من كبار الملاك فيها فى 'أوذ' أو 'ديكان' فى وسط الهند، أو فى مقار المبشرين على مسيرة أسبوع من أقرب خط للسكك الحديدية، أو الموانى التى تقع جنوبًا على مسافة ١٦٠٠ كم، فى مواجهة أمواج

البحر الهندية العاتية، ومزارع أشجار الكينا التى يستخرج منها عقار الكينين فى أقصى الجنوب. كانت قصص مغامراتهم فى ذاتها – التى لم تكن تعتبر فى نظرهم مغامرات فى طريق ذهابهم إلى المدرسة وعودتهم منها، كفيلة بإيقاف شعر رأس أى صبى غربى. كان من عادتهم الهرولة وحدهم مسافة ١٦٠ كم وسط الغابات، حيث تلوح دائمًا فرص تأخيرهم الممتعة بسبب النمور، ولكن متعة الاستحمام فى القنال الإنجليزى (المانش) فى شهر أغسطس لم تكن تضارع متعة أقرانهم فى نصف العالم الآخر إذا سكنت حركتهم تمامًا أثناء تشمم فهد من الفهود للهودج الذى يركبونه. وكان فى المدرسة صبيان فى الخامسة عشرة قضوا يومًا ونصف يوم فى جزيرة وسط النهر أثناء الفيضان، للإشراف على مخيم عُزِلَ فيه بعض الحجاج العائدين من مزار مقدس، حتى كادوا يفقدون رشدهم، والصبيان يرون فى هذا الإشراف حقًا لهم، وقص بعض كبار الصبيان قصة استيلائهم باسم القديس خاڤيير على فيل قابلوه مصادفة ويملكه أحد الراچـــات، عندما طمست الأمطار المنهمرة طريق العربات المؤدى إلى ضيعة أبيهم، وكيف كادوا يفقدون الفيل عندما غاصت أقدامه فى الرمال المتحركة. وقال أحد الصبيان – ولم يشكَّ أحدٌ فى صدقه – إنه قد ساعد والده فى صَدِّ هجوم شنه رجال من قبيلة 'أكا'، إحدى القبائل ذات الضراوة فى تلال أسام، من شرفة منزلهما باستخدام البنادق، فى الأيام التى كان يتجاسر فيها هؤلاء الرجال من 'صائدى الرؤوس' على مهاجمة المزارع المنفردة.

وكانت كل قصة تُروى بصوت منتظم الإيقاع لا انفعال فيه، وهو ما يتميز به من وُلِدَ فى هذا البلد، وكانت تمتزج بتأملات عجيبة، مستعارة دون وعى من حديث الحاضنات من نساء البلد، وبعبارات تبين أنها قد ترجمت فى تلك اللحظة من اللغة المحلية الدارجة. وشاهد كيم وسمع وشعر بالرضى. لم يكن ذلك من نوع الكلام الغث الذى يتكون من ألفاظ مفردة فى أفواه صبيان الطبل، بل كان يتناول حياة عرفها وفهم جانبًا منها. كان الجو يلائمه وأخذ يترعرع فيه يومًا بعد يوم. وأعطته المدرسة حلة التمارين الرياضية البيضاء

عندما بدأ دفء الجو، وأخذ يستمتع بألوان الترف الجسدى التى اكتشفها مثلما استمتع باستخدام قريحته الوقادة فى أداء المهام التى يكلفونه بها. وكانت سرعة بديهته كفيلة بإسعاد المعلمين الإنجليز، ولكنهم كانوا يعرفون فى هذه المدرسة وقدة الذهن المبكرة التى تنميها الشمس وأحوال المدرسة، مثلما كانوا يعرفون شبه الانهيار الذى يقع فى سن الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين.

ومع ذلك فقد تذكر ألا يُعلى قامته. فعندما كانت القصص تروى فى الليالى الحارة، لم يكتسح الحلبة كيم بذكرياته، فإن مدرسة القديس خافيير تحتقر الصبيان الذين 'يتقمصون تمامًا مكانة أولاد البلد'. ينبغى ألا ينسى المرء قط أنه انجليزى، وأنه عندما ينجح فى الامتحانات سوف يتولى إصدار الأوامر لأبناء البلد وتذكر كيم ذلك، إذ بدأ يفهم الغاية التى تؤدى الامتحانات إليها.

ثم حلت العطلة من أغسطس إلى أكتوبر، العطلة الطويلة التى فرضتها الحرارة والأمطار. وقيل لكيم إنه سوف يذهب إلى محطة ما فى الشمال، تقع فى التلال خلف أومبالا، حيث يتولى الأب ڤكتور تدبير أمر إقامته.

وقال كيم "مدرسة ثكنات؟" وكان قد سأل أسئلة كثيرة وخطرت له أسئلة أكثر.

وقال المُعَلِّم "نعم. أفترض هذا. لن يضر أن تقيم هناك بعيدًا عن المتاعب. يمكن أن يصحبك دى كاسترو اليافع حتى مدينة دلهى".

واستعرض كيم الأمر ناظرًا إليه من كل زاوية ممكنة. لقد اجتهد، تمامًا مثلما أشار العقيد عليه بالاجتهاد، ولكن عطلة الصبى شىء لا يملكه سواه، وكان ذلك ما استنبطه من أحاديث رفاقه، ولسوف تكون مدرسة الثكنات عذابًا بعد مدرسة القديس خافيير. أضف إلى ذلك أنه يستطيع الكتابة الآن، وكان هذا السحر ذا قيمة تعادل أى شىء آخر. ففى غضون شهور ثلاثة تعلم كيف يستطيع الرجال مخاطبة بعضهم البعض دون طرف ثالث، بتكلفة لا تزيد عن نصف 'آنّا' وبعض المعرفة. لم يتلق أى اتصال من اللاما، ولكن مازال الطريق موجودًا. كان كيم يتوق إلى الملاطفة التى كان يحسها حين يدخل

الطين الطرى البليل بين أصابع أقدامه، مثلما كان لعابه يسيل شوقًا إلى لحم الضأن المطبوخ بالزبد والكرنب، وإلى الأرز الذى انتثر فوقه الحبَّهان القوى الرائحة، وإلى الأرز المتبل بالزعفران الأصفر والثوم والبصل، وإلى الحلوى المحرمة التى تنضح بالزيت فى السوق. كان يعرف أنهم سوف يطعمونه لحم البقر الذى لم ينضج على النار فى صحفة فى مدرسة الثكنات، وأنه لابد أن يسترق الفرصة للتدخين. ولكن، من ناحية أخرى، كان إنجليزيا، وطالبًا فى مدرسة القديس خاڤيير، وأما ذلك الخنزير، محبوب على... لا! لن يختبر كرم ضيافة محبوب على، ومع ذلك... فقد قَلَّبَ الأمر على شتى وجوهه وحده فى عنبر النوم وانتهى إلى أنه قد ظلم محبوب على.

كانت المدرسة خالية، إذ سافر جميع المعلمين تقريبًا. وكان تصريح السفر بالقطار الذى أعطاه له العقيد كرايتون فى يده، وجعل كيم يزفر فى ضيق لأنه لم ينفق المال الذى أخذه من العقيد كرايتون أو من محبوب على فى العيش حياة صاخبة. كان لايزال يملك روبيتين وسبعة 'أنّات'، وكان صندوق متاعه الجديد يحمل الحروف الأولى من اسمه، والسرير المطوى قائم فى غرفة النوم الخالية. وقال كيم مومئًا إلى هذا وذاك "الإنجليز يرتبطون دائمًا بمتاعهم! فلتبقيا هنا!" ثم خرج إلى الأمطار الحارة، مبتسمًا بسمة الذى يشعر بالذنب، واتجه إلى منزل معين كان قد لاحظ شيئًا ما فى واجهته قبل فترة ما...

"أيها الكناس! هل تعرف إلى أى نوع من النساء ننتمى فى هذا الحى؟ عار عليك!".

وقال كيم "وهل وُلدت أنا يوم أمس؟" ثم جلس القرفصاء بأسلوب أبناء البلد على بعض الحشايا فى غرفة علوية. ثم قال " كل ما أريده قليل من الصبغة وثلاثة أمتار من القماش للمساعدة فى تنفيذ 'حركة' فكهة! هل هذا كثير؟".

"ومن تكون هى؟ أنت أصغر كثيرًا، بالنسبة لزملائك الإنجليز، من ممارسة هذه الشيطنة".

"أوه! هى؟ إنها بنت مُعَلِّمٍ مُعَيَّنٍ فى فرقة بالثكنات. لقد ضربنى مرتين لأننى تَسَلَّقْتُ السور عليهم مرتديا هذه الملابس. وأريد أن أذهب الآن فى زى صبى بستانى. فالمُسِنُّونَ شديدو الغيْرة".

"هذا صحيح. لا تحرك رأسك حتى أضع الصبغة على وجهك".

"لا تبالغى فى السواد يا غانية! لا أريد أن أبدو حبشيًّا".

"أوه! الحب لا يكترث لهذه الأمور. وكم عمرها؟".

وقال كيم الذى لا يستحى "اثنتا عشرة سنة، فى ظنى، اصبغى الصدر قليلاً كذلك. فربما مزق أبوها ردائى، فإذا تعريت..." وضحك.

وجعلت الفتاة تعمل بهمة ونشاط، فغمست قطعة من القماش فى صبغة بنية يدوم لونها فترة أطول من أى عصير للجوز.

"والآن أرسلى وأحضرى القماش اللازم للعمامة. ويلى! لم أحلق شعر رأسى! ولا شك أنه سوف يخلع عمامتى!".

"لست حلاقًا ولكنى سأتصرف. لقد ولدت لتحطيم القلوب! كل هذا التنكر من أجل ليلة واحدة؟ اذكر أن الصبغة لا تزول" وجعل جسمها يهتز من القهقهة حتى ارتفع صليل أساورها وخلخالها. "ولكن من الذى سيدفع لى أجر ذلك؟ لا تستطيع حنيفة نفسها أن تقدم لك صبغات أفضل".

وقال كيم بنبرات وقورة "ثقى فى الأرباب يا أختى". وجعل يحرك عضلات وجهه بعد أن جفت الصبغة ثم قال "وإلى جانب هذا، هل سبق لك المساعدة على صبغ وجه انجليزى من قبل؟".

"لم يسبق لى حقا. ولكن 'الحركة الفكهة' ليس نقودًا!".

"إن قيمتها تزيد على النقود".

"اسمع يا ولدى! إنك دون أدنى شك أشد أبناء الشيطان فى انعدام الحياء، ولم أعرف مثلك من يضيع وقت فتاة فقيرة بمثل هذا اللهو ثم تقول ألا تكفى

الفكاهة؟ لسوف تبلغ شأوًا بعيدًا فى هذه الدنيا!" ثم حيته تحية الراقصات ساخرة منه.

وقال كيم "غير مهم. أسرعى فاحلقى شعر رأسى كله". وجعل كيم ينقل ثقله من ساق لساق، وعيناه تتوهجان بالمرح وهو يتأمل ما ينتظره من أيام حافلة. وأعطى الفتاة أربع 'أنّات'، ثم أهرع هابطًا السلم فى هيئة هندوسى خفيض الطائفة، وقد اكتمل تنكره فى جميع التفاصيل. وكان أول مكان يقصده مطعمًا تناول فيه كل ما لذ وطاب من أطعمة فاخرة تنضح بالدهون.

وعلى رصيف محطة لوكناو شاهد اليافع دى كاسترو مرتديًا حلته 'ذات الحرارة الشائكة' وهو يدخل مقصورة بالدرجة الثانية، ودخل كيم عربة من عربات الدرجة الثالثة فأشاع فيها المرح وأحياها. وشرح لرفاقه أنه يعمل مساعدًا لأحد الحواة، وأن هذا الحاوى كان قد مضى وتركه مريضًا بالحمى، وأنه سوف يلاقى سيده فى أومبالا. وكلما تغير رفاق المقصورة أدخل كيم تعديلات على قصته أو زخرفها بكل الأغصان النابتة فى شجرة خياله التى تفتحت براعمها، وازداد انطلاقها فى كل اتجاه لأنه كان قد حُرم من استخدام اللغة المحلية فترة طويلة. وغادر القطار فى أومبالا واتجه شرقًا، ضاربًا قدميه فى أراضى الحقول التى غمرتها مياه الرى فى اتجاه القرية التى كان الجندى الهرم يقيم فيها.

وفى نحو ذلك الوقت كان العقيد كرايتون فى بلدة سيملا الجبلية شرقى أومبالا (العاصمة الصيفية للحكومة البريطانية) وكان قد تلقى برقية من لوكناو تقول إن الصغير أوهارا قد اختفى. وكان محبوب على فى تلك البلدة يبيع الخيول، فأسرّ العقيد إليه بالنبأ ذات صباح أثناء تجواله على ظهر فرس فى حلبة سباق 'أنانديل'.

وقال تاجر الخيول "وماذا فى ذلك؟ الرجال مثل الخيل يحتاجون إلى الملح فى أوقات معينة، فإذا لم يكن ذلك الملح فى المذود لَعِقُوه من الأرض. لقد عاد إلى الانطلاق فى الطرق فترة ما، بعد أن أضجرته المدرسة. كنت أعرف أنه

سيسأمها. فى المرة القادمة سوف أصحبه إلى 'الطريق' بنفسى. لا تقلق يا سيد كرايتون. اعتبره مُهْرًا قد انطلق ليتعلم لعبة الـــبــولو وحده".

"إذن فلم يمت، فى اعتقادك؟".

"قد يموت بالحمى. لا أخشى على الصبى إلا ذلك. والقرد لا يسقط بين الأشجار".

وفى صباح اليوم التالى، وفى حلبة سباق الخيل نفسها، انطلق الجواد الذى يركبه محبوب حتى أصبح بحذاء جواد العقيد.

وقال تاجر الخيول "كما تصورت تمامًا، مر بمدينة أومبالا على الأقل وأرسل منها خطابًا إلىَّ، بعد أن علم من الأسواق أننى هنا".

وقال العقيد "اقرأ". لم يكن من المعتاد أن يبدى رجل فى منصبه اهتمامًا بشريد صغير نشأ وترعرع فى هذا البلد، ولكن العقيد تذكر محادثتهما فى القطار، وكان كثيرًا ما يجد نفسه فى الشهور الأخيرة يفكر فى الصبى الغريب الصامت الرابط الجأش. كانت مراوغته بطبيعة الحال تمثل قمة الوقاحة، ولكنها كانت تنم على قوة أعصابه وسعة حيلته.

وبرقت عينا محبوب وهو يوقف جواده فى وسط السهل الصغير الضيق، حيث من المحال أن يقترب أحد دون أن يُرى.

" '**صديق النجوم، وصديق العالم كله...**'".

"ما هذا؟".

وقال محبوب "اسم نطلقه عليه فى مدينة لاهور". واستأنف قراءة الخطاب قائلاً " '**يستأذن صديق العالم كله فى الذهاب إلى الأماكن التى يريدها. وسوف يعود فى اليوم المحدد. أرسلوا من يحمل صندوق متاعى وفراشى. فإذا كنت قد أخطأتُ فلتمتد يد الصداقة حتى تحول دون سوط الكارثة**'. لايزال فى الخطاب كلام ولكن..".

"غير مهم. اقرأ".

" 'بعض الأمور يجهلها من يأكل بالشوكة. من الأفضل الأكل بكلتا اليدين فترة ما. تلطف فى حديثك مع من لا يفهم هذا حتى تبشر الحصيلة بالخير". الأسلوب الذى صيغت فيه الألفاظ أسلوب كاتب الخطابات بطبيعة الحال، ولكن تأمل مدى حكمة الصبى فى صوغ الأفكار حتى لا تفصح عن أى شىء إلا للعالمين ببواطن الأمور!".

وضحك العقيد قائلاً "هل هذه يد الصداقة التى تحول دون سوط الكارثة؟".

"انظر مدى حكمة الصبى. إنه يود أن يعود إلى السير فى الطريق من جديد. كما قلت. ولما لم يكن يعرف إلى الآن عملك...".

وتمتم العقيد قائلاً "لست واثقًا كل الثقة من ذلك".

"فقد لجأ إلىَّ لتحقيق المصالحة بينكما. أليس حكيمًا؟ يقول إنه سيعود. إنه يعمل وحسب على إحكام معرفته. وانظر فى الأمر يا سيدى! لقد مضت عليه ثلاثة أشهر فى المدرسة. كأنه المُهر الذى لم يعتد الشكيمة فى فمه. وأنا أشعر من ناحيتى بالسعادة، فالمُهر يتعلم اللعبة الآن".

"نعم ولكن يجب ألا يذهب وحده مرة أخرى".

"لماذا؟ كان يذهب وحده قبل أن يصبح فى حماية السيد العقيد. وعندما يحين له أن يلعب اللعبة الكبرى فلابد أن يلعبها وحده! وحده، مخاطرًا برأسه. **وعندها** إذا خطر له أن يبصق أو يعطس أو يجلس بأسلوب يختلف عن أسلوب من يراقبهم، فربما قُتل. لماذا تمنعه الآن؟ تذكر ما يقوله الفارسيون: ابن آوى الذى يعيش فى برية مازانديران لا تصيده إلا كلاب مازانديران".

"صحيح. هذا صحيح يا محبوب على. وما دام لن يصاب بأذى، فلست أرجو خيرًا من هذا. ولكنها وقاحة كبرى من جانبه".

وقال محبوب "إنه لا يقول لى أنا نفسى أين يذهب. ليس غبيًّا. وعندما يقضى الوقت اللازم سوف يأتى إلىَّ أنا، وقد حان لصائغ اللآلئ أن يسيطر عليه. إنه ينضج بسرعة أكبر مما ينبغى، كما يقول الإنجليز".

وتحققت هذه النبوءة حَرْفيًا بعد شهر واحد. كان محبوب قد ذهب إلى أومبالا لإحضار شحنة جديدة من الخيول، وقابله كيم فى طريق 'كالكا' ساعة الغسق راكبًا وحده، وطلب كيم منه صَدَقَةً فشتمه محبوب على، فرد كيم بالإنجليزية. ولم يكن أحد على مسمع منهما، فلم يسمع أحد شهقة الدهشة التى ندت من محبوب.

"أووه! وأين كنت؟".

"رائحًا غاديًا – غاديًا رائحًا".

"تعال تحت شجرة، بعيدًا عن البلل، وتحدث!".

"أقمتُ فترة ما مع رجل عجوز بالقرب من أومبالا، ثم مع أسرة من معارفى فى أومبالا. وذهبت مع أحد أفرادها إلى دلهى جنوبًا. دلهى مدينة رائعة عجيبة. ثم عملت سائسًا لثور استأجرنى صاحبه لجر عربة لنقل الزيت، لكننى سمعت عن حفل كبير به موائد حافلة فى ' پـاتيالا' فاتجهت إليها بصحبة رجل يعمل بصناعة الألعاب النارية. كانت الموائدة زاخرة حقًا". وربت كيم على بطنه. "رأيت الراچـات، والأفيال المزينة بالزخارف الذهبية والفضية، وأوقدوا جميع الألعاب النارية (الصواريخ) فى وقت واحد، وهو ما أدى إلى مقتل أحد عشر شخصًا، كان من بينهم صاحبى صانع الألعاب النارية، ودفعنى الانفجار فاصطدمت بخيمة لكننى لم أُصَبْ بسوء. ثم عدتُ إلى البلدة مع فارس من طائفة السيخ، وعملت لديه سائسًا للخيل فى مقابل خبزى. ومن ثم هنا!".

وقال محبوب على "شوباش!" (أحسنت!)

ولكن ماذا يقول السيد العقيد؟ لا أريد أن أتعرض للضرب".

"يد الصداقة حالت دون سوط الكارثة. ولكن عندما تنطلق فى الطرق فى المرة القادمة سوف تكون فى صحبتى. لم يحن الوقت بعد".

"بل حان وكاد يفوت فى نظرى. فقد تعلمت أن أقرأ الإنجليزية وأكتبها قليلاً فى المدرسة، وسوف أصبح سيدًا من جميع الوجوه عما قريب".

وضحك محبوب قائلاً "اسمع هذا اللغو!" وهو يتأمل الصبى الصغير المبلل الذى يتراقص تحت المطر. وألقى عليه التحية الساخرة صائحًا "سلام أيها السيد!" ثم أضاف "والآن اسمع: هل تعبت من السير فى الطريق أم تود أن تواصل المسير إلى أومبالا معى وتعود إلى العمل مع الخيول؟".

"سآتى معك يا محبوب على".

الفصل الثامن

أَدِينُ بِدَيْنٍ لِتُرْبَةِ أَرْضِـى التى أَنْبَتَتْنِى

ودَيْنٍ يَزِيدُ لهذى الحَيَاةِ التى قَدْ غَذَتْنى

ولكنَّ دَيْنِى الأَهَمَّ إلى اللهِ إذْ قَـدْ حَبَانِى

بِرأْسٍ له جَانِبَانِ.. وَمُنْفَصِلاَنْ.

وإنِّى لأُوثِرُ أنْ أَتَهَادَى بِغَيْرِ حِذَاءٍ ولا قُمْصَانْ

ولا خُبْزَ أو تَبْغَ أو خِلاَّنْ

ولكنَّنى لَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ أَتَصَوَّرَ نَفْسِى

وقد ضَاعَ جَنْبٌ مِنَ الجَانِبيْن برأسى

(الرجل ذو الجانبين)

وقال محبوب "إذن حلفتك باسم الله أن تستبدل الأزرق بالأحمر" مشيرًا إلى اللون الهندوسى لعمامة كيم الحقيرة.

ورد عليه كيم بالمثل القديم "إنى مستعد لتغيير دينى وفراشى، بشرط أن تدفع أنت تكاليف ذلك".

وجعل التاجر يضحك حتى كاد يسقط من فوق صهوه جواده. وعندما وصلا إلى دكان على مشارف المدينة أُجْرِىَ التبديل المطلوب، فأصبح كيم، ظاهريًّا على الأقل، مُسْلِمًا.

واستأجر محبوب على غرفة علوية تطل على محطة السكك الحديدية، وأرسل فطلب من المطعم وجبة مطبوخة مصحوبة بأرقى الحلوى المزينة باللبن الزبادى واللوز، ونسميها نحن 'بالوشاى'، وأفخر أنواع التبغ من لوكناو.

وقال كيم "هذا أفضل من بعض اللحوم الأخرى التى أكلتها مع رجال

طائفة السيخ". ثم جلس القرفصاء مبتسمًا وأضاف "وهم قطعًا لا يقدمون لنا مثل هذا الطعام فى المدرسة".

وقال محبوب "أرغب فى أن أسمع أخبار تلك المدرسة نفسها" وأخذ يلتهم الكُفْتَةَ المطبوخة من لحم الضأن المتبل والمحمرة فى السمن مع الكرنب وحلقات البصل المحمرة. ثم قال "ولكن قل لى أولاً، بصدق ودون حذف شىء، أسلوب هروبك. فالواقع يا صديق العالم كله".. وأرخى الحزام فى وسطه بعد أن ازدرد ما ازدرد.. "لا أعتقد أنه من الشائع أن يهرب انجليزى وابن انجليزى من هناك".

وقال كيم "وأنى لهم ذلك؟ إنهم لا يعرفون البلد. لم يكن الأمر عسيرًا". ثم بدأ يحكى قصته. وعندما وصل إلى موضوع التنكر والمقابلة مع الفتاة فى السوق، تخلى محبوب عن وقاره، فأخذ يضحك بصوت مرتفع ويضرب فخذه بيده.

"شوباش! شوباش! أوه! أحسنت أيها الصغير! ماذا يمكن أن يقول ناظم عقود الفيروز عن هذا؟ والآن، ببطء، دعنا نسمع ما حدث بعد ذلك، خطوة خطوة، دون حذف شىء".

وهكذا، خطوة بخطوة، قص كيم مغامراته، وكان يقطعها سعاله حين يصل دخان التبغ الأصيل إلى رئتيه.

وقال محبوب بصوت أجش لنفسه "قلتُ... **قلتُ** إن المُهر انطلق ليلعب الــپــولو. الثمرة ناضجة بالفعل، إلا أن عليه أن يتعلم تقدير المسافات والسرعات، واستخدام المقياس والبوصلة، اسمع! لقد أبعدتُ سوط العقيد عن جلدك، وليست هذه بالخدمة الهينة".

"صحيح" وزفر كيم فى رزانة مرددًا "كل هذا صحيح".

"ولكن يجب ألا تظن أن هذا السلوك – أعنى الهروب والعودة – مقبول بأية صورة".

"كانت عطلتى يا حاج. لقد ظللتُ عبدًا على امتداد أسابيع كثيرة. ولم لا أهرب ما دامت المدرسة مغلقة؟ وانظر أيضًا كيف أننى، بفضل إقامتى مع أصدقائى أو عملى لكسب خبزى عند طائفة السيخ، قد وفرت للسيد العقيد مصاريف باهظة".

وتحركت شفتا محبوب تحت شاربه الإسلامى المهذب، قائلاً:

"وما حفنة من الروبيات" – وفتح الأفغانى راحة يده باستهانة قبل أن يستكمل عبارته "بالنسبة للسيد العقيد؟ إنه ينفقها لغرض معين، لا حُبًّا فيك على الإطلاق".

وقال كيم ببطء "ذلك ما كنت أعرفه من زمن بعيد".

"ومن أخبرك؟".

"السيد العقيد نفسه. لم يقل ذلك صراحة ولكن بوضوح لن يستعصى على أى فرد إن لم يكن غبيًّا. نعم، قال ذلك لى فى القطار ونحن ذاهبان إلى لوكناو".

"فليكن. إذن سأخبرك بالمزيد، يا صديق العالم كله، وإن كان فى إخبارى إياك إعارة لرأسى لك".

وقال كيم باستمتاع عميق "لقد رَهَنْتَها عندى فى أومبالا عندما وضعتنى فوق الحصان بعد أن ضربنى غلام الطبل".

"تكلم بوضوح أكبر. فى وسع الدنيا كلها أن تكذب فيما عدانا نحن، أنا وأنت، فروحك كذلك رهن إشارتى لو اخترت أن أرفع أصبعى هنا".

فقال كيم "وذلك معروف لى أيضًا" وجعل يصلح من وضع الجمرة المتقدة فوق تبغ الشيشة، ثم قال "إنه رباط وثيق جدًّا بيننا. والواقع أن موقفك أقوى بمراحل من موقفى، إذ من عساه أن يفتقد غلامًا مات ضربًا أو ربما أُلقى به فى بئر على جانب الطريق؟ ولكن أناسًا كثيرين هنا وفى سيملا وعبر

الممرات الجبلية سوف يقولون "ماذا حدث لمحبوب على؟" لو وُجد ميتًا بين خيوله. ولا شك أيضًا أن السيد العقيد سوف يقوم بالتحرى والتحقيق. ولكن من ناحية أخرى" – وتغضن وجه كيم بغضون الدهاء – "لن يطول تحقيقه عما ينبغى حتى لا يتساءل الناس 'وما شأن هذا العقيد الإنجليزى بتاجر الخيول؟' ولكننى، لو قدر لى أن أحيا...".

"بل سوف تموت قطعًا...".

"ربما، لكننى أقول **لو** قدر لى أن أعيش، فلن يكون غيرى على علم بأن شخصًا ما قد أتى ليلاً، ربما مثل لصٍّ عاديٍّ، إلى غرفة محبوب على فى السراى وقتله هناك، إما قبل أو بعد أن يبحث هذا اللص بحثًا دقيقًا فى حقائب سرجه وبين طيات نعل خُفه. هل هذه أنباء تذكر للعقيد أم لعله يقول لى... ولم أنس أنه أرجعنى لإحضار علبة سيجار **لم يكن** قد تركه... 'وما محبوب على بالنسبة إلىَّ؟'".

وارتفعت فى الجو كتلة من الدخان الكثيف. وتلت ذلك فترة صمت ثم تكلم محبوب على برنة إعجاب قائلاً "ورغم وجود كل هذه الأشياء فى ذهنك ترقد وتنهض من جديد وسط جميع الأبناء الصغار للإنجليز فى المدرسة وتتلقى التعليم بكل وداعة من معلميك؟".

وقال كيم بنبرات دمثة "إنه أمْرٌ صَدَرَ إلىَّ، ومن أنا حتى أجادل فى أمر صادر؟".

وقال محبوب "ابنٌ مُحْكَمُ الصنع لإبليس! ولكن ما هذه القصة عن اللص وعن البحث؟".

فقال كيم "ذلك ما رأيته فى الليلة التى نمت فيها أنا واللاما صديقى فى الغرفة المجاورة لغرفتك فى سراى كشمير. كنتَ تركتَ الباب دون إغلاقه بالقفل، وهو ما ليس من عادتك يا محبوب. ودخل ذلك الرجل بثقة من يعرف أنك لن تعود بسرعة. فوضعتُ عينى على ثقب فى لوح من الألواح الخشبية

ناجم عن سقوط إحدى العقد، فوجدته يبحث كأنما يريد شيئًا – لا سجادة أو مهمازًا أو سرجًا أو إناء نحاسيًا – بل شيئًا صغيرًا أُخْفِىَ بعناية فائقة. وإلا فلماذا يغرس مئبارًا من الحديد فى نعلىْ خُفِّك؟".

وصاح محبوب على وقد ارتسمت على شفتيه بسمة لطيفة "ها!" ثم قال "وعندما رأيت هذه الأشياء ما القصة التى شكلتها لنفسك يا بئر الحقيقة؟".

"لم أُشَكِّلْ شيئًا، بل وضعتُ يدى على التميمة التى لا تفارق سطح بشرتى أبدًا، وعندما تذكرت أصالة نسب فحل خيل أبيض وأننى قضمت قطعة من خبز رجل مسلم، ذهبت إلى أومبالا بعد أن رأيتُ أننى قد حُمِّلْتُ أمانة ثقيلة. فى تلكم الساعة كنت أستطيع لو اخترت إهدار روحك. لم أكن أحتاج إلا إلى أن أقول لذلك الرجل 'لدىَّ هنا ورقة عن حصان لا أستطيع أن أقرأها' وعندها؟" وتطلع كيم، من تحت حاجبيه، إلى محبوب كمن يخالسه النظر.

"وعندها لن يتاح لك إلا أن تشرب الماء مرتين، وربما ثلاث مرات بعدها". وأضاف محبوب ببساطة "ولا أعتقد أكثر من ثلاث مرات".

"صحيح. نظرت فى ذلك قليلاً ولكن الأهم كان اعتقادى أننى أحبك يا محبوب. ولذلك ذهبت إلى أومبالا، كما تعرف. وأما ما لا تعرفه فهو أننى ظللت كامنًا فى كلأ الحديقة حتى أنظر ما عسى العقيد كرايتون الإنجليزى أن يفعل عندما يقرأ المكتوب عن أصالة نسب فحل الخيل الأبيض".

"وماذا فعل؟" إذ كان كيم قد ابتسر المحادثة.

وسأله كيم "هل تقدم الأخبار أنت حُبًّا فى السامع أم تبيعها له".

"أبيعها. وأشتريها الآن منك" وأخرج محبوب قطعة نقدية بأربع 'أنَّات' من حزامه ولوح بها أمام كيم.

وقال كيم "ثمانية!" بصورة آلية مدفوعًا بالميل إلى المساومة فى الشرق.

وضحك محبوب وأعاد قطعة النقود إلى مكانها قائلاً "التعامل فى تلك

السوق أيسر مما ينبغي. اسمع يا صديق العالم كله: أخبرني حُبًّا! أرواحنا في أيدي بعضنا البعض".

"وهو كذلك. شاهدت القائد العام الإنجليزي داخلاً إلى حفل العشاء الضخم. رأيته في مكتب العقيد الإنجليزي، ورأيتهما معًا يقرءان ما كُتب عن أصالة نسب فحل الخيل الأبيض. وسمعت الأوامر نفسها التي صدرت بشأن شن حرب كبرى".

وأومأ محبوب بأعمق عينين متوهجتين صائحًا "ها! لُعِبَتْ اللُّعبةُ ببراعة. انتهت تلك الحرب الآن، وأرجو أن يكون الشر قد وُئِدَ في مهده، بفضل جهدي... وفضلك أنت. وماذا فعلت بعد ذلك؟".

"استخدمت الخبر شصًّا أصيدُ به القُوتَ والتكريم بين القرويين في قريةٍ وَضَعَ كاهنُها مُخَدِّرًا في طعام اللاما صديقي، ولكنني أخفيتُ كيس نقود الرجل العجوز فلم يجد البراهميني شيئًا. وهكذا كان غاضبًا في الصباح. ها! ها! كما استغللتُ الخبر عندما وقَعْتُ في أيدي تلك الفرقة البيضاء صاحبة الثور!".

واكفهر وجه محبوب وقال "كان ذلك حُمقًا! لم تُجعل الأخبار حتى يُلقى بها يمينًا ويسارًا كأنها أقراص وقود الجلة! بل لابد أن تستعمل بحساب مثل الحشيش".

"ذلك ما أراه الآن. كما إن ذلك لم يعد عليَّ بأي خير. ولكن ذلك كان منذ زمن طويل" ولوح بيده السمراء النحيلة كأنما لينحي الأمر كله مضيفًا "ومنذ تلك اللحظة وأنا أفكر تفكيرًا عميقًا، وخصوصًا في الليالي التي قضيتها تحت المروحة في المدرسة".

وقال محبوب بسخرية مبالغ فيها وهو يمسح لحيته القرمزية "هل من المسموح به السؤال عما كان يمكن أن يؤدي إليه تفكير من ولد في السماء؟".

وقال كيم بالنبرات نفسها "مسموح!" ثم أضاف "يقولون في نوكلاو إنه لا ينبغي لأحد السادة أن يعترف بأنه أخطأ لرجل أسود".

ودس محبوب يده بسرعة فى صدره، إذ إن وصف الأفغانى بالسواد إهانة يهرق فيها الدم، ثم تذكر شيئًا فضحك وأضاف "تكلم أيها السيد! الرجل الأسود يسمعك".

وقال كيم "لكننى لست من السادة وأقول إننى أخطأتُ حين شتمتُك يا محبوب على، فى ذلك اليوم فى أومبالا حين ظننتُ أن أفغانيًّا خاننى. كنت قد فقدتُ الوعى، إذ كان قد 'قبض' علىَّ لتوى، وكنت أتمنى أن أقتل غلام الطبل منخفض الطائفة الذى رأيتَه معى. وأقول الآن يا حاجِ إنك أحسنتَ صنعًا، وأرى الطريق واضحًا أمامى لأداء الخدمة الصالحة. سأظل فى المدرسة حتى أنضج".

"لا فُضَّ فوك! خصوصًا ما دامت تلك اللعبة تتطلب تعلم تقدير المسافات والأعداد وأساليب استخدام البوصلة. وفى التلال من فوقنا رجل ينتظر حتى يعلمك".

سأتلقى التعليم بشرط واحد: أن أُمنح وقتى الخاص دون مساءلة عند إغلاق المدرسة. اطلب من العقيد ذلك من أجلى".

"لكن لم لا تسأل العقيد أنت بلغة الإنجليز؟"

"العقيد فى خدمة الحكومة. وهو يُرْسَلُ هنا وهناك بكلمة واحدة، ولابد أن ينظر فى كل ما يفيده فى الترقى. هل ترى مدى ما تعلمته فى نوكلاو! أضف إلى ذلك أننى لم أعرف العقيد إلا من ثلاثة أشهر. لكننى أعرف رجلاً يدعى محبوب على منذ ست سنوات. وإذن! سأذهب إلى المدرسة. ولكن حين تغلق المدرسة فلابد أن أتحرر وأمضى إلى الحياة بين أهلى. هذا وإلا مت!".

"ومَنْ أهلك يا صديق العالم كله؟".

وقال كيم "هذه البلد العظيمة الجميلة" ولوح بيده مشيرًا إلى فضاء الغرفة الصغيرة التى بنيت جدرانها من الصلصال وحيث تتوقد بشدة نار المصباح الزيتى فى الكوة التى وضع فيها وسط دخان التبغ. ثم أضاف "كما إننى أود أن أرى صديقى اللاما مرة أخرى، وأيضًا أحتاج إلى نقود".

وقال محبوب بأسىً "هذه حاجة كل فرد. سوف أعطيك ثمانى 'أنّات'، فإن حوافر الخيل لا تأتى بالمال الكثير، ولابد أن يكفيك هذا المبلغ أيامًا كثيرة. وأما فى باقى الأمور، فأنا راض تمامًا، ولا حاجة بى للمزيد من الكلام. أسرع باكتساب العلم، وبعد ثلاث سنوات، وربما أقل، تستطيع تقديم العون، حتى لى أنا".

وقهقه كيم كما يقهقه الصبيان قائلاً "وهل كنت حتى الآن عائقًا شديدًا؟".

واعترض محبوب بصوت أجش قائلاً "لا تقدم إجابات. أنت الآن سائس خيلى الجديد. اذهب فارقد وسط رجالى، وهم بالقرب من طرف المحطة الشمالى، مع الخيول".

"لسوف يطردوننى إلى الطرف الجنوبى للمحطة إذا ذهبت دون تصريح منك".

وتحسس محبوب حزامه، وبلل أصبعه الإبهام بخَتَّامَةٍ بالحبر الصينى ثم طبع البصمة على قطعة من الورق اللين المحلى. كان الناس من مدينة بلخ فى شمال أفغانستان إلى بومباى فى الهند يعرفون البصمة ذات الأطراف غير المستوية، ذات الندبة القديمة المائلة فى وسطها.

"يكفى أن تُظهر هذه لرئيس أتباعى. سآتى فى الصباح".

وسأله كيم "من أى طريق؟".

"من الطريق القادم من المدينة. لا يوجد غيره، وبعدها نعود إلى السيد العقيد. لقد نجيتك من علقة!".

"يا ألله! وما العلقة إذا كان الرأس غير ثابت على الكتفين؟".

"وانسل كيم بهدوء فى ظلام الليل، ودار نصف المسافة حول المنزل، حريصًا على محاذاة الجدران بدقة واتجه مباشرة إلى المحطة على بعد ميل أو نحو ذلك. ثم دار دورة واسعة وعاد أدراجه بتمهل، إذ كان فى حاجة إلى اختراع قصة يحكيها إن سأله رجال محبوب أى سؤال.

كان الرجال يخيمون فى قطعة أرض خربة بجانب السكة الحديدية، ولما كانوا من أهل البلد فقد تكاسلوا بطبيعة الحال عن إنزال حمولة العربتين اللتين تقف فيهما خيول محبوب وسط شحنة من الخيول البلدية التى اشترتها شركة ترام بومباى. وكان رئيسهم مُسْلمًا نحيلا ويبدو عليلاً، وسرعان ما اعترض طريق كيم، لكنه هدأ عندما شاهد بصمة إبهام محبوب على الورقة.

وقال كيم بلهجة تنم على الضيق "لقد تكرم الحاج وألحقنى بخدمته. فإن شككت فى ذلك فانتظر حتى يأتى فى الصباح. وريثما يكون ذلك أرجو منك مكانًا بجوار المدفأة".

وتبع ذلك ارتفاع أصوات الغمغمات المعتادة غير الرامية لشىء والتى لا غنى لأبناء البلاد عنها فى كل مناسبة، ثم خبت الضجة ورقد كيم خلف 'العقدة' الصغيرة من أتباع محبوب، فى مكان يكاد يقع تحت عجلات إحدى عربات الخيل، والتحف ببطانية مستعارة. لم يكن الرقاد بين قوالب الطوب ونفايات صوابير العربات فى ليلة عالية الرطوبة، بين الخيول المكدسة والأفغانيين الذين لم يغتسلوا، مما يحبه كثير من الصبيان ذوى البشرة البيضاء، ولكن كيم كان بالغ السعادة. كان تغيير المنظر، والخدمة والبيئة يمثل الأنفاس لخياشيمه الصغيرة، وعندما خطرت له صورة السُرُرِ البيضاء المنمقة فى مدرسة القديس خاڤيير، المرصوصة فى صف واحد تحت المراوح لم يجد فيها من المتعة إلا ما كان يجده فى تكرار جدول الضرب بالإنجليزية.

وقال فى نفسه والنوم يغالبه "إنى عجوز! يزداد عمرى سنة فى كل شهر، كم كنت صغيرًا، بل وأحمق عندما نقلت رسالة محبوب إلى أومبالا. وحتى عندما كنت مع تلك الفرقة البيضاء، كنت صغيرًا وضئيلاً ولا حكمة عندى. لكننى أتعلم الآن فى كل يوم، وبعد ثلاثة أعوام سوف يخرجنى العقيد من المدرسة ويسمح لى بالانطلاق فى الطرق مع محبوب للتحقق مع أصالة أنساب الخيول، أو ربما انطلقت وحدى، أو ربما عثرت على اللاما وذهبت معه. نعم، هذا أفضل. أن أعود إلى المسير تلميذًا مع اللاما صديقى عندما

يعود إلى بيناريس". وبدأت الأفكار تتباطأ وتأتى مفككة غير مترابطة. كان قد بدأ يهبط عالم الأحلام الجميل عندما التقطت أذناه بعض الهمسات التى كانت حادةً و'نحيلة'، ولكنها كانت تعلو على الأزيز الرتيب حول المدفأة. كان مصدرها مختفيًا خلف عربة الخيل ذات الأديم الحديدى. وأرهف سمعه لما يدور:

"لم يصل إلى الآن إذن؟".

"وأين عساه يكون إلا فى المدينة صاخبًا لاهيا؟ ومن ذا الذى يبحث عن فأر فى بركة للضفادع؟ هيا نخرج من هنا. ليس الرجل الذى نطلبه".

"يجب ألا يعود إلى ما وراء الممرات الجبلية مرة ثانية. بهذا صدر الأمر".

"اسْتَأْجِرْ امرأةً تتولى تخديرَهُ. لن نتكلف إلا بضع روبيات. ولن تتوافر الأدلة".

"إلا المرأة نفسها. يجب أن تكون الخطة أكثر إحكامًا. واذكر المكافأة المرصودة لمن يأتى برأسه!".

"نعم ولكن للشرطة ذراعًا طويلة، ونحن أبعد ما نكون عن الحدود! ليتنا كنا الآن فى بيشاور!".

وقال الصوت الثانى ساخرًا "نعم، فى بيشاور! إن بيشاور زاخرة بأقاربه، مليئة بالمخابئ والنسوة اللاتى سوف يتخفى وراء ملابسهن. نعم! خير ما يناسبنا بيشاوار أو جهنم فعلاً!".

"إذن ما الخطة؟".

"أيها المغفل، ألم أخبرك بها مائة مرة؟ انتظر حتى يأتى للرقاد، ثم نطلق عليه طلقة واحدة تصيبه. والعربات سوف تحول بيننا وبين المطاردة. كل ما نحتاجه هو أن نعود بسرعة فنعبر الخطوط ونمضى فى سبيلنا. لن يروا

مصدر الطلقة. انتظر هنا على الأقل حتى الفجر. أى نوع من '**الفقراء**' أنت حتى ترتعد من السهر قليلاً".

وقال كيم فى نفسه "أها!" وعيناه مغلقتان. "محبوب من جديد! فعلاً، ليست أصالة نسب فحل خيل أبيض مما يحسن بيعه إلى السادة! أو ربما كان محبوب يبيع أنباءً أخرى. ماذا تفعل الآن يا كيم؟ لا أعرف مكان إقامة محبوب، وإذا حضر إلى هنا قبل الفجر سوف يطلقان الرصاص عليه. ولن يعود هذا بالفائدة عليك يا كيم. وليس هذا من اختصاص الشرطة، فلن تفيد الشرطة محبوب فى شيء، كما إننى" وقهقه بصوت شبه مرتفع "لا أذكر أى درس فى نوكلاو يمكن أن يساعدنى. الله الله! إن كيم هنا وهما هناك. لابد أولاً إذن أن يصحو كيم ويمضى، بأسلوب يحول دون الاشتباه فيه. المرء يوقظه الكابوس... هكذا...".

وغطى وجهه بالبطانية ثم نهض فجأة وهو يصرخ صرخة رهيبة يتخللها صراخ الهذيان الذى يتسم به انتفاض الآسيوى من نومه على كابوس!.

وجاءت الأصوات فى الصرخة "أور – رو رو – رو رو! يا لالالالا! 'نارايان'! شوريل! شوريل!".

كان 'نارايان' اسمًا لروح مقدسة تمشى على الماء، وكانت 'شوريل' شبحًا بالغ الخبث لامرأة ماتت أثناء وضع طفلها. وكان يشاع أنها 'تسكن' الطرق الموحشة، وقد انعكس وضع قدميها عند الكعبين، وتقود الرجال إلى العذاب.

وازداد ارتفاع عويل كيم المرتعش، حتى وثب أخيرًا فوقف على قدميه ومشى مشية المتخبط من أثر النوم، والمخيم يلعنه لأنه أيقظ النوام. وبعد نحو عشرين مترًا عاد إلى الرقاد، بعد أن تأكد أن صاحبى الهمسات يستطيعان سماع آهاته وأناته، وهو يستعيد رباطة جأشه. وبعد بضع دقائق انحدر تجاه الطريق ثم تسلل خارجًا فى الظلام الحالك.

وانطلق يخوض بسرعة فى الماء الضحل حتى وصل إلى مجرى من مجارى الصرف فهبط خلفه واستلقى بحيث أصبحت ذقنه فى مستوى أحجار الإفريز، وكان هذا الموقع يمكنه من مشاهدة كل من يمر فى المنطقة ليلاً دون أن يراه أحد.

ومرت عربتان أو ثلاث عربات بأصوات مجلجلة متجهة إلى الضواحى، ثم مر شرطى يسعل، ومن بعدهما رجل أو رجلان مسرعان، وكانا يغنيان للاحتماء من الأرواح الشريرة. وبعدها ارتفعت قعقعةُ حوافر حصان بحدواتها الحديدية.

وقال كيم فى نفسه "ربما يكون هذا محبوب" عندما تردد الحصان قليلاً أمام الرأس الصغير فوق حافة المجرى المائى.

وهمس قائلاً "أنت يا محبوب على! حذار حذار!".

وشد الراكب زمام حصانه فجأة فتوقف رافعًا قائمتيه الأماميتين، ثم أرغم دابته على السير إلى المجرى المائى.

وقال محبوب "لن أعود أبدًا إلى ركوب فرس ذى حدوات حديدية للعمل ليلاً. إن حديد الحدوة مغناطيس يجتذب جميع المسامير فى المدينة!" وانحنى ليرفع الحافر فى قائمة الفرس الأمامية، وهو ما جعل رأسه يقترب إلى مسافة قدم من رأس كيم. وتمتم كيم هامسًا "اهبط.. لا ترفع رأسك. الليل زاخر بالعيون".

"وراء عربات الخيل رجلان ينتظران قدومك. وسوف يطلقان النار عليك عندما ترقد، لأن البعض قد رصد مكافأة لمن يأتى برأسك. سمعتهما وأنا نائم قرب الخيول".

"وهل رأيتهما؟" ثم صاح فى فرسه "اثبت يا والد الشياطين!".

"لا".

"هل كان أحدهما يلبس لباس '**الفقراء**'؟".

"قال أحدهما للآخر 'أى نوع من **الفقراء** أنت حتى ترتعد من السهر قليلاً؟".

"جميل. عد أنت إلى المخيم ونم. لن أموت الليلة".

وانطلق محبوب على فرسه واختفى. وسار كيم عائدًا بحذاء المجرى المائى حتى وصل إلى نقطة تواجه مكان رقاده الثانى، ثم انسل عبر الطريق مثل ابن عرس ولف نفسه من جديد بالبطانية.

وقال لنفسه فى رضى "أصبح محبوب يعرف على الأقل. ولا شك أنه كان يتحدث حديث من كان يتوقع ذلك. لا أعتقد أن هذين الرجلين سوف ينتفعان بسهر الليلة".

ومرت ساعة، ورغم صلابة اعتزامه السهر طول الليل، نام نومًا عميقًا، وبين الفينة والفينة كان يمر أحد قطارات الليل هادرًا على القضبان الحديدية على مسافة تقل عن سبعة أمتار منه، ولكنه كان يتمتع بما يتمتع الشرقى به من عدم اكتراث للضجيج على الإطلاق، ولم يؤد الصخب حتى إلى نسج حلم من أحلام نومه.

وأما محبوب فما كان أبعده عن النوم. كان يشعر بالضيق الشديد لأن البعض من خارج قبيلته، ممن لا يتضررون إطلاقًا من غرامياته العارضة، يطاردونه طلبًا لروحه. كان رد فعله الأول والطبيعى هو أن يعبر الخط الحديدى فى مكان بعيد ثم يدور مقبلاً من جديد فينقض على من يرجوان 'الخير' له من الخلف ويقتلهما على الفور. وخطر له هنا خاطر أحزنه وهو أن فرعًا آخر من فروع الحكومة، لا علاقة له على الإطلاق بالعقيد كرايتون قد يطلب منه تفسيرًا لما حدث، وهو ما يصعب عليه تقديمه، وكان يعرف أنهم هنا، جنوب الحدود، يثيرون ضجة كلما وجدوا جثة شخص أو شيئًا من هذا القبيل، وهو ما كان يراه مدعاة للسخرية الشديدة. لم يساوره مثل هذا القلق منذ

أن أرسل كيم إلى أومبالا بالرسالة، وكان يأمل أنه قد صرف النظر نهائيًا عن الاشتباه فيه.

ثم برق فى ذهنه خاطر عبقرى.

قال لنفسه "الإنجليز يقولون الحق دائمًا، ولذلك نظهر نحن دائمًا فى هذا البلد كالحمقى! أقسم بالله لأقولنّ الحق لرجل إنجليزى! ما فائدة الشرطة الحكومية إذا كان اللصوص يستطيعون أن يسرقوا خيول رجل من كابول، ومن عرباتها نفسها؟ هذا المكان لا يقل سوءًا عن بيشاور! ينبغى أن أقدم شكوى لمخفر الشرطة. والأفضل إبلاغ ذلك لبعض الإنجليز الشبان العاملين بالسكك الحديدية! إنهم متحمسون وحين يقبضون على بعض اللصوص يصبح ذلك مذكورًا لهم ومصدر تكريم".

وربط حصانه خارج المحطة ودخل بخطوات واسعة إلى الرصيف.

وهتف إنجليزى شاب يعمل مساعدًا لمدير الحركة فى المحطة عندما رآه "مرحبًا يا محبوب على!" كان واقفًا ينتظر ركوب القطار، فارع الطول، مصفوف الشعر، متين البنية، يرتدى حلة قطنية بيضاء دكناء "ماذا تفعل هنا؟ تبيع الملابس أم ماذا؟".

"لا! لست قلقًا على خيولى، بل أتيت أبحث عن لطف الله. عندي عربة محملة بالخيول، فهل يمكن لأحد أن يأخذ أحدها دون علم السكة الحديدية؟".

"لا أعتقد هذا يا محبوب، ولك أن تطالب بالتعويض إن حدث ذلك".

"شاهدت رجلين يُقعيان تحت عجلات إحدى العربات طول الليل تقريبًا. ولما كان **الفقراء** لا يسرقون الخيل لم يعد يشغلنى الأمر. أود أن أقابل شريكى لطف الله".

"ماذا شاهدت؟! ولمْ تَشْغَلْ ذهنك بالأمر؟! أقسم إننى أشكر المصادفة التى جمعتنى بك! وما شكلهما؟".

"إنهما وحسب من **الفقراء**. وربما لم يزد ما يأخذانه عن بعض الحبوب من إحدى العربات، فعدد كبير منها يقف على القضبان، ولن تكتشف الدولة أبدًا ما نقص منها. جئت إلى هنا أبحث عن شريكى لطف الله...".

"انس الآن شريكك. أين عربات خيولك؟".

"بالقرب من جانب أقصى بقعة يرفعون فيها المصابيح للقطارات".

"كشك الإشارات؟ نعم".

"وعلى القضبان فى أقرب موقع من الطريق الممتد على يميننا، وهو يطل هكذا على الخط الحديدى. أما عن لطف الله فهو رجل طويل أنفه مكسور ومعه كلب صيد فارسى...".

كان اليافع قد أهرع لإيقاظ شرطى شاب متحمس، لأن السكك الحديدية قد تكبدت الكثير، كما قال، من أعمال السطو فى ساحة البضائع. وقهقه محبوب على بلحيته المصبوغة.

"سيدخلان بالأحذية الطويلة فيحدثان ضجة ثم يعجبان لعدم وجود '**فقراء**'. إنهما فى غاية الذكاء، السيد بارتون والسيد الشاب".

وانتظر دون أن يفعل شيئًا بضع دقائق، متوقعًا أن يراهما يسرعان على طول الخط مشمرين عن ساعد الجد. وانسابت قاطرة خفيفة خلال المحطة، ولمحت عينه بارتون فى كابينة القاطرة.

وقال محبوب على "لقد ظلمت ذلك الطفل! ليس مغفلاً على الإطلاق! فإن استخدام قاطرة فى القبض على لصٍّ لعبة جديدة!".

وعندما جاء محبوب على إلى مخيمه فى الفجر لَمْ يَرَ أحدٌ أنَّ أَنْبَاءَ ما حدث بالليل جديرةٌ بأنْ تُروى له، باستثناء صبى صغير من سائسى الخيل كان الرجل العظيم قد عينه أخيرًا فى خدمته، وكان محبوب قد استدعاه إلى خيمته الصغيرة للمساعدة فى حزم بعض الأمتعة.

وهمس كيم أثناء انحنائه فوق بعض حقائب السروج "عرفت كل شيء، جاء سيدان فى القطار وكنت أجرى غاديًا رائحًا فى الظلام على هذا الجانب من العربات عندما تحرك القطار ببطء ثم وقف. وانقضّا على الرجلين الجالسين تحت العربة - اسمع يا حاج! ماذا أفعل بهذه القطعة من التبغ؟ هل ألفها فى ورقة وأضعها تحت كيس الملح؟ - نعم! وطرحاهما أرضًا. ولكن أحد الرجلين وجه لأحد السيدين ضربة بقرن الظبى الذى يحمله **الفقير**"، وكان كيم يعنى السلاح الدنيوى الوحيد الذى يحمله **الفقراء** ويتكون من قرنين متصلين من قرون الظبى الهندى"، فإذا بالدم يسيل منه. وهكذا التفت السيد الثانى الذى كان قد بدأ بضرب الرجل الآخر فأفقده الوعى حتى يضرب من طَعَنَ صاحبه بمقبض بندقية قصيرة سقطت من يد الغائب عن الوعى. واشتبك الجميع معًا كأنما أذهب الغضب عقولهم".

وابتسم محبوب بسمة الاستسلام الورع لما كتبه القدر. ثم قال "لم تعد هذه قضية مدنية بل إنها جناية! هل قلت بندقية؟ السجن عشر سنوات على الأقل".

"ثم استلقى الاثنان بلا حراك، لكننى أظن أنهما كانا على شفا الموت عندما وُضِعًا فى القطار. كان رأساهما يتحركان هكذا. وعلى الخط الحديدى دماء كثيرة. أتود أن تأتى لترى؟".

"شاهدت الدم من قبل، السجن هو الحكم المؤكد، وقطعًا سوف يتخذان أسماء كاذبة، وقطعًا لن يراهما أحد زمنًا طويلاً. كانا من خصومى. يبدو أن مصيرك ومصيرى مشدودان بخيط واحد. يا لها من قصة تروى لناظم الدر! أسرع الآن بحزم حقائب السرج وأطباق الأكل. سوف نأخذ الخيل ونرحل إلى سيملا".

وبسرعة - وفق مفهوم الشرقيين للسرعة - وسط الشروح المطولة، والشتائم والألفاظ الشاردة، والإهمال، ومرات لا تحصى من التحقق من عدم نسيان الأشياء الصغيرة، انفض المخيم غير المنظم، وساق الرجال الخيل المتوترة القلقة فى طريق كالكا، فى ساعة الفجر المنعشة تحت الأمطار

المنهمرة. ولما كان جميع من يرجون رضى الأفغانى يعتبرون كيم مساعده المفضل، فقد أعفوه من العمل. وسار الموكب فى طريقه مارًّا بأيسر السبل ولم يكن يتوقف إلا كل بضع ساعات فى مأوى ما على جانب الطريق. كان السادة يسافرون بأعداد كبيرة فى طريق كالكا، وكما يقول محبوب على، يرى كل سيد شاب أنه لابد أن يعتبر نفسه قادرًا على الحكم على الخيل، وحتى لو كان غارقًا فى الديون التى يدين بها للمرابين، فلابد أن يتظاهر بأنه يستطيع الشراء. وكان هذا سبب توقف السادة، واحدًا بعد الآخر، أثناء سفرهم فى العربات، للتحادث مع التاجر. كان بعضهم يبالغ فيهبط من العربة ويتحسس أرجل الخيل، ويطرح أسئلة فارغة، أو – بسبب جهله وَحَسْبُ باللغة المحلية – يوجه إهانات شديدة للتاجر الذى لا يُغضبه شىء.

وبينما كان كيم يملأ غليونه بالتبغ تحت شجرة، مال إليه محبوب وهو يقول لمن يختصه بأسراره "عندما بدأت التعامل مع السادة وكان ذلك عندما كان السيد العقيد 'سودى' قائدًا لقلعة أباظاى وأغرق أرض معسكر المفوض عمدًا لإغاظته، لم أكن أعرف مدى حمقهم، وهو ما أغضبنى. مثلما تقول...". وقص على كيم قصة مَثَلٍ يُسَاءُ استخدامه بلا قصد مما جعل كيم يضحك حتى استلقى على وجهه. وجعل محبوب ينفث الدخان ببطء قائلاً "لكننى أرى الآن أنهم مثل بقية الناس: حُكماء فى بعض الأمور، وبالغو الحمق فى غيرها. ومن بالغ الحمق أن تستخدم الكلمة الخطأ مع أحد الغرباء، فرغم أن القلب لا يضمر أية إساءة فكيف يتسنى للغريب أن يعرف ذلك؟ والأرجح أن يطلب الحقيقة بخنجر فى يده".

وقال كيم بنبرات رزينة "صحيح. كلامك صحيح، فالحمقى يتكلمون عن قطة عندما يُؤتى بامرأة إلى الفراش مثلاً، وقد سمعتهم بنفسى".

"ومن ثم، فبالنسبة لشخص فى موقفك، يجدر بك خصوصًا أن تذكر هذا بالوجهين معًا. فوسط السادة لا تنس أبدًا أنك سيد، ووسط أهل الهند، تذكر دائمًا أنك..." وتوقف وقد ارتسمت على شفتيه بسمة الحيرة.

"ماذا أنا؟ مسلم، هندوسى، چـانى، أم بوذى؟ هذه عقدة عويصة".

"أنت بلا شك كافر، ولهذا فسوف تغدو ملعونًا. هذا ما يقوله قانونى، أو أظن أنه يقوله. ولكنك أيضًا صاحبى وصديق العالم كله وأنا أحبك. وهذا ما يقوله قلبى. أمر العقائد هذا مثل لحم الخيل. فالحكيم يعرف أن الخيل ذات خير، وأنها يمكن أن تأتى بالأرباح، وأما أنا فإنى مسلمٌ سُنّيٌّ صالحٌ وأكره رجال منطقة 'الطيرة' الجبلية بالقرب من ممر خيبر، ويمكن أن أعتقد الشىء نفسه عن جميع الأديان. ويتضح لك الآن أن الفرسة الصينية إذ نُقلت من رمال موطنها الأصلى إلى غربى البنغال فسوف تتعثر، بل إن ذلك ينطبق حتى على فحول الخيل البلخية، ولا توجد خيل أفضل من خيول بلخ، لولا أن أكتافها ثقيلة قليلاً، إذ لن تكون لهذه الفحول قيمة فى الصحارى الشمالية الشاسعة إلى جوار جِمال الثلوج التى رأيتُها. وعلى هذا أقول من قلبى إن الأديان مثل الخيل. لكل منها امتيازه فى بلده".

"ولكن صديقى اللاما يقول شيئًا مختلفًا تمامًا".

"أوه! إنه عجوز من التيبت ويعيش فى الأحلام. وبقلبى بعض الغضب يا صديق العالم كله لأنك تجد قيمة كبيرة فى رجل لا يكاد يعرفه أحد".

"هذا صحيح يا حاج. ولكننى أرى هذه القيمة، وقلبى منجذب إليه".

"وقلبه إلى قلبك، حسبما أسمع. القلوب مثل الخيل. فهى تروح وتغدو برغم الشكيمة فى الفم أو المهماز فى الجنب". ثم التفت وقال مشيرًا بيده "ناد ذلك الرجل! نبه على جول شيرخان أن يدفع بحراس ذلك الفحل إلى الحظيرة بصرامة أكبر! لا نريد شجارًا بين الخيول فى كل مكان نستريح فيه، وسوف يجامع الفحل ذو اللون الأدكن تلك الفرسة السوداء بعد قليل..."، وعاد يقول "اسمعنى الآن! هل تتطلب راحةُ قلبك أن ترى ذلك اللاما؟".

وقال كيم "هذا جزء من العقد المبرم معى. فإذا لم أره، وإذا سُلب منى فسوف أترك المدرسة فى نوكلاو ثم.. ثم.. إذا ذهبتُ فمن يستطيع العثور علىّ مرة أخرى؟".

"هذا صحيح. لم يُربط مُهْرٌ برباط فى عقبه أخف من رباطك"، وجعل محبوب يومئ برأسه.

"لا تخف". وكان كيم يتحدث كأنما كان من الممكن أن يختفى فى تلك اللحظة. "قال صديقى اللاما إنه سوف يأتى لزيارتى فى المدرسة...".

"متسولٌ وقَصْعَتُهُ فى حضور أولئك الصغار الإنجـــ..." .

وقاطعه كيم بحدة قائلاً "ليسوا جميعًا كذلك! فكثير منهم يجرى دمُ الطوائفِ الخفيضةِ فى عروقهم، ويكسو عُيُونَهُمْ بالزرقة وأَظْفَارَهُمْ بالسواد! أبناء أمهاتٍ يَكْنِسْنَ الطرقات! أصهار الكناسين!".

ولا حاجة بنا لمتابعة باقى أصول الأنساب، ولكن كيم شرح وجهه نظره بوضوح ومن دون انفعال، وهو يَمُصُّ عُقْلَةً من عُودٍ من قَصَبِ السكر.

وقال محبوب وهو يعطى الصبى غليونه لينظفه "اسمع يا صديق العالم كله! لقد قابلت كثيرًا من الرجال والنساء والغلمان، وعددًا غير قليل من السادة. ولم أصادف فى حياتى كلها عفريتًا مثلك".

"ولماذا؟ ما دمتُ أقول لك الحق دائمًا".

"ربما كان هذا هو السبب بعينه، فهذا العالم ذو أخطار على الصادقين الشرفاء"، ورفع محبوب على نفسه من الأرض، وضبط وضع حزامه ثم ذهب إلى الخيول.

"أو يبيع الحق لك؟".

كان فى نغمة كيم ما جعل محبوب يتوقف ويستدير قائلاً"أى شيطنة جديدة؟".

وقال كيم وقد افتر ثغره عن ابتسامة "ادفع ثمانى أنات أخبرك! الأمر يتعلق بسلامتك".

"أيها الشيطان!" ودفع محبوب النقود.

"هل تذكر تلك المسألة الصغيرة، مسألة اللصوص الذين تسللوا فى الظلام، عندما كنا فى أومبالا؟".

"ما داموا كانوا يطلبون روحى، لم يغب ذكرهم عن بالى تمامًا. لماذا؟".

"وهل تذكر سراى كشمير؟".

"سأشد أذنك حالاً أيها السيد!".

"لا داعى لذلك أيها الأفغانى. كل ما هناك أن **الفقير** الثانى الذى ضربه السيدان فأفقداه الوعى كان هو الرجل الذى جاء لتفتيش أركان غرفتك فى لاهور. شاهدت وجهه عندما ساعدوه على ركوب القاطرة. إنه الرجل نفسه".

"ولماذا لم تخبرنى من قبل؟".

"لسوف يدخل السجن وينعم بالسلامة عدة سنوات. لا يوجد ما يدعو للإفصاح عن أكثر مما يلزم فى لحظة دون سواها. أضف إلى ذلك أننى لم أكن أحتاج إلى النقود لشراء الحلوى".

وقال محبوب على "الله كريم! هل ستبيع رأسى يومًا ما ببعض الحلوى إن تاقت نفسك إليها؟".

لسوف يذكر كيم حتى يوم مماته تلك الرحلة الطويلة البطيئة من أومبالا، عبر قرية كالكا، جنوبى سيملا، وعبر حدائق 'پـيـنـچـور' القريبة، حيث قصر شيش محل، حتى سيملا. وعلت المياه فجأة أثناء المسير فى نهر جوجر ففاضت بعنف واكتسحت الشاطئ فأسقطت أحد الأحصنة، وكان أثمنها قطعًا، وكادت أن تغرق كيم بين جلاميد الصخر الراقصة. وفى مكان متقدم من الطريق مر فيل من أفيال الحكومة فأصاب الخيول بالذعر وجعلها تجرى على غير هدى، ولما كان المكان زاخرًا بالكلأ الذى تحبه، فقد استغرق تجميعها من جديد يومًا ونصف يوم. ثم قابلوا إسكندر خان مقبلا مع بضعة خيول رديئة من المحال بيعها – بقايا 'عنقوده' – وكان على محبوب الذى يملك من الخيل

فى ظفر أصبعه الخنصر أكثر مما يملك اسكندر خان فى جميع خيامه، أن يشترى اثنين منها، وهو ما كان يعنى قضاء ثمانى ساعات فى المفاوضات الشاقة وتدخين مقادير لا تحصى من التبغ. ولكن الرحلة كلها كانت متعة صافية، فالطريق يتلوى، ويصعد ويهبط، ويلتف حول الأشواك النامية، ومشهد الصبح وهو يشرق على امتداد الثلوج النائية، ونباتات الصبار بفروعها، فى طبقة من فوق طبقة على جوانب التلال الحجرية، وأصوات ألف قناة من قنوات الماء، و'ثرثرة' القرود، ومشهد أشجار الدردار الرزينة التى تعلو كل دوحة منها فوق دوحة بأغصان تتدلى، والمساحات الشاسعة من السهول المنبسطة على البعد من تحتهم، والصليل الذى لا يتوقف نتيجة اصطدام قرون الثيران التى تجر العربات، واندفاع الخيول التى يقودها الرجال عندما تنحرف إحدى العربات بشدة فى أحد المنحنيات، والتوقف لأداء الصلاة، وكان محبوب يراعى تعاليم دينه بدقة فى التَّيَمُّمِ ورفع الأذان فى وقت الصلاة، والاجتماع لتبادل الأحاديث فى المساء فى محطات الراحة، والجمال والثيران تجتر طعامها برزانة معًا، والسائقون ذوو الصلابة يتلقون الأخبار الخاصة بالطريق: كانت كل هذه الأشياء تسمو بقلب كيم إلى دنيا من النغم فى صدره.

وقال محبوب على "ولكن عندما ينتهى الغناء والرقص، يأتى السيد العقيد، وليست فى هذا حلاوة مماثلة!".

"أرض بديعة. أرضٌ بالغةُ الجَمَال أرضُ هذه الهند، وأرض الأنهار الخمسة أبدع من كل أرض!" كان صوت كيم يقترب من الغناء. "ولسوف أعود إليها إن رفع محبوب على أو العقيد يدًا أو مد قدمًا لمعاكستى. وأقول مرة أخرى "من تُراه يستطيع العثور علىَّ؟ انظر يا حاج! هل هذه مدينة سيملا؟ الله! ما أبدعها من مدينة!".

"لايزال أخو والدى يذكرها، وقد كان رجلاً عجوزًا عندما حُفر بئر ماكيسون (١٨٠٧-١٨٥٣) فى بيشاور، ولم يكن فى المدينة آنذاك إلا منزلان".

وقاد الخيول هابطًا من الطريق الرئيسى إلى سوق سيملا السفلى، كأنها حظيرة أرانب تكتظ بالسكان وترتفع أرضها من الوادى صاعدة إلى مبنى البلدية بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة، ويستطيع من يعرف طريقه هنا أن يتحدى كل رجال الشرطة فى عاصمة الهند الصيفية، إذ ما أعجب ما تتصل كل شرفة بغيرها، وكل زقاق بغيره، وكل مخبأ بسواه بدهاء ومكر! فهنا يعيش من يلبون حاجات المدينة الهانئة، مثل الذين يجرون العربات الجميلة التى تركبها النساء ليلاً ويقامرون حتى الفجر، وهنا تجد البقالين، وبائعى الزيوت، والجوالين الذين يبيعون التحف، وتجار الحطب، والكهان، والنشالين، والموظفين من أبناء البلد فى الحكومة. وهنا تناقش الغانياتُ أمورًا يُفترض أنها من أعمق أسرار مجلس الهند، وهنا يتجمع الوكلاء من الباطن، بل من باطن الباطن، لنصف الولايات الهندية. وهنا أيضًا كان محبوب على يستأجر غرفة، ذات أبواب تغلق بإحكام أشد من أبواب الغرف فى لاهور، وذلك فى منزل رجل مسلم يعمل بتجارة الأبقار. وكان المكان مكان المعجزات أيضًا، إذ دخله فى الغسق كيم فى صورة صبى خيول مسلم، وبعد ساعة خرج منه فى صورة يافع أوراسى (أوربى آسيوى) – إذ كانت صبغة الفتاة فى لوكناو من أفضل الصبغات فلم تشحب بسرعة – وكان يلبس ملابس صبيان الحوانيت وإن لم تكن تناسب جسمه تمامًا.

وقال محبوب على "كلمت السيد كرايتون، وللمرة الثانية نجحت يد الصداقة فى تجنيبك سوط الكارثة. وهو يقول إنك قد ضيعت ما مجموعه ستون يومًا فى التجوال فى الطرق، ومن ثم فقد فات موعد إلحاقك بأى مدرسة فوق التل".

"قلتُ إن عطلاتى من شأنى وحدى. ولن أذهب إلى المدرسة مرتين. هذا جزء من العقد المبرم معى".

"لم يعرف العقيد كرايتون أمر هذا العقد بعد. وقد تقرر أن تقيم فى منزل السيد لورجان حتى يحين موعد عودتك إلى نوكلاو".

"أوثر أن أقيم عندك يا محبوب".

"أنت لا تعرف مقدار هذا التكريم. لقد طلبك السيد لورجان بنفسه. لسوف تصعد التل وتسير فى الطريق عاليه، وهناك لابد أن تنسى فترة ما أنك شاهدتنى أو حادثتنى يومًا ما، أنا محبوب على الذى يبيع الخيول إلى السيد كرايتون الذى لست تعرفه. إننى آمرك بهذا فتذكر هذا الأمر".

وأومأ كيم. ثم قال "جميل. ومن هو السيد لورجان؟ لا لا".. إذ لمح نظرة محبوب الحادة القاطعة كحد السيف.. "أقصد أننى لم أسمع اسمه من قبل قط" ثم خفض صوته قائلاً "هل هو واحد مِنًّا؟".

ورد محبوب على قائلاً "ما هذا الحديث بضمير الجمع أيها السيد؟ نحن؟" ثم قال بالنبرات التى يخاطب بها الأوروبيين، "أنا أفغانى، وأنت إنجليزى ابن إنجليزى. والسيد لورجان لديه حانوت وسط الحوانيت الأوروبية. سيمْلاَ كلها تعرف هذا واسأل هناك، واسمع يا صديق العالم كله، إنه رجل لابد من طاعته إلى آخر طرفة من طرفات جفونه. الناس تقول إنه يمارس السحر، ولكن لا ينبغى أن يعنيك ذلك. اصعد واسأل. هنا تبدأ اللعبة الكبرى".

الفصل التاسع

كان 'صدوقْسُ' ابْنًا لحكيم يُدْعَى 'يِلْثَ' الأَبَ
رَأْسَ عَشِيرةِ غِرْبَانِ الجُبّ
ورَعَاهُ 'إتْسُوثُ' الدُّبّ
كَىْ يَجْعَلَهُ مِنْ أَهْلِ الطِّبّ.

كانَ ذَكِيًّا وسَرِيعَ التَّحْصِيلْ
وجَسُورًا يَتَحَدَّى التَّهْوِيلْ
إذ رَقَصَ أشَدَّ الرَّقَصَاتِ مَهَابَةْ
كَىْ يُسْعِدَ قَلْبًا لِلدُّبِّ جَمِيلْ!

(أسطورة أوريجون)

وأقبل كيم بكل مشاعره على الدورة الثانية من دورات العجلـــة. لـــسوف يصبح سَيِّدًا من جديد فترة ما، وكان تتملكه تلك الفكرة، وهكذا ما إن وصـــل إلى الطريق العريض الصاعد إلى مبنى بلدية سيملا حتى بحث عن شـــخص يبهره بمكانته. كان طفل هندوسى فى نحو العاشرة من عمره يجلس القرفصاء تحت أحد أعمدة الإنارة.

وسأله كيم "أين منزل مستر لورجان؟".

وجاءته الإجابة "لا أفهم الإنجليزية". ومن ثم تحول كيم إلى اللغة المحلية. "سوف أريه لك".

وانطلقا معًا فى غبش الغسق الموحى بالأسرار والحافل بضروب الصخب الصاعدة من المدينة فى سفح التل، وأنفاس الريح الباردة تهب من قمة جبـــل 'چـــاكو' الذى تكلل هامته أشجار الدردار التى تناطح النجوم. وكانت أضواء

المنازل المتناثرة على جميع المستويات تشكل - إن صح هذا التعبير - سماء مزدوجة. كانت بعض الأضواء ثابتة، وبعضها ينتقل مع العربات الصغيرة بركابها من السادة اللاهين الصرحاء الذين خرجوا لتناول العشاء.

وقال مرشد كيم "إنه هنا"، وتوقف عند شرفة ينسحب الطريق الرئيسى داخلها. لم يمنعهما باب، ولكن ستارة من الخرز المشبوك فى البوص، كانت تقسم أضواء المصابيح خلفها قسمين.

وقال الغلام فى صوت لا يكاد يعلو على زفرة "لقد وصل". ثم اختفى. كان كيم واثقًا أن الغلام قد أُمر بالجلوس فى مكانه حتى يرشده إلى المنزل منذ البداية، ولكنه تجاسر فأزاح الستارة. رأى رجلاً ذا لحية سوداء، يلبس نظارة شمس خضراء، جالسًا إلى منضدة، وأخذت يداه البيضاوان القصيرتان تلتقطان كرات صغيرة تتلألأ واحدة واحدة من صينية أمامه، وجعل يدخلها فى خيط حريرى مائل وهو يترنم بلحن لنفسه. وأحس كيم أن الغرفة كانت تحفل من خلف دائرة الضوء بأشياء ذات رائحة تشبه رائحة كل معبد فى أى مكان فى الشرق. والتقطت خياشيمه عبير المسك، وشذا خشب الصندل، وأريج زيت الياسمين الفواح.

وتكلم كيم أخيرًا قائلاً "لقد حضرت"، وكانت الروائح قد أنسته أنه يجب أن يكون من السادة فقال عبارته باللغة المحلية.

"تسعة وسبعون، ثمانون، إحدى وثمانون": كان الرجل يعد لنفسه وهو ينظم اللآلئ لؤلؤة لؤلؤة بسرعة كبيرة حتى كاد كيم أن يعجز عن متابعة أصابعه. وخلع الرجل نظارة الشمس الخضراء وجعل ينظر بثبات إلى كيم نصف دقيقةٍ كاملة. واتسعت حدقتا العينين ثم ضاقتا ضيق طرف الدبوس، كأنما وفق إرادة الرجل. وتذكر كيم **فقيرًا** لدى بوابة تاكسالى يتمتع بهذه الموهبة ويتكسب منها، خصوصًا عندما يلعن الحمقاوات. وحدق كيم باهتمام فى الرجل. كان صديقه **الفقير** ذو السمعة السيئة يستطيع تحريك أذنيه، كالعنزة

تقريبًا، وشعر كيم بالأسف لأن هذا الرجل الجديد لم يستطع محاكـاة **الفقيـر** المذكور.

وفجأة قال السيد لورجان "لا تخف".

"ولماذا أخاف؟".

"سوف تنام هنا الليلة وتمكث معى حتى يحين موعد العودة إلى نـوكلاو، هذا أمر".

وكرر كيم العبارة الأخيرة قائلاً "إنه أمر. ولكن أين أنام؟".

"هنا، فى هذه الغرفة" ولوّح السيد لورجان بيده مشيرًا إلى الظلام الـسائد من خلفه.

وقال كيم برباطة جأش "فليكن.. الآن؟".

وأومأ الرجل ورفع مصباحًا فوق رأسه. وعندما غمرهما النور ظهـرت فجأة فى الجدران مجموعة أقنعة رقص الـشياطين، تتـدلى فـوق الـستائر المزركشة بأشكال الشياطين التى ترقص تلك الرقصة الرهيبة، وكانت بعضها أقنعة ذات قرون، أو متجهمة أو تعبر عن الرعب الأبله. وشـاهد فـى أحـد الأركان محاربًا يابانيًّا يلبس الدروع وفوق رأسه الريش ويهدده بحربـة ذات فأس فى يده، إلى جانب عشرات الرماح والسيوف والخناجر التى تعكس ضوء المصباح المتأرجح. ولكن ما أثار اهتمام كيم أكثر من كل هذه الأشـياء – إذ كان قد شاهد أقنعة رقص الشياطين فى متحف لاهور – كان الطفل الهندوسى الذى تركه فى مدخل البيت، بعينيه الساجيتين، فقد لمحه جالسًا القرفصاء تحت منضدة اللآلئ وعلى شفتيه القرمزيتين بسمة صغيرة.

وقال كيم فى نفسه "أظن أن السيد لورجان يريد إخافتى، وأنا واثق أن ابن الشيطان تحت المنضدة يرغب أن يشهد خوفى". ثم قال بصوت مرتفع: "هـذا المكان يشبه بيت العجائب. أين فراشى؟".

وأشار السيد لورجان إلى لحاف 'بلدى' فى أحد الأركان بجوار الأقنعة البشعة والتقط المصباح وخرج تاركًا الغرفة حالكة السواد.

وقال كيم وهو يبدأ رقاده "هل كان هذا السيد لورجان؟" ولم تأته إجابة، لكنه كان يستطيع أن يسمع الغلام الهندى يتنفس، فاهتدى بالصوت وزحف على الأرض حتى اصطدم بشىء فى الظلام فصاح "أجب أيها الشيطان! هل هذا أسلوب الكذب على شخص إنجليزى؟"

وتصور أنه سمع صدى قهقهة فى الظلام، ولما كان من المحال أن تصدر عن رفيقه ذى البدن اللين، لأنه كان يبكى، رفع كيم صوته ونادى "يا سيد لورجان! يا سيد لورجان! هل أصدرت الأمر بألا يكلمنى خادمك؟".

"هذا أمر". جاء الصوت من خلفه فأفزعه.

وتمتم قائلاً "لا بأس". ثم قال وهو يسعى مرة أخرى إلى لحافه "ولكن تذكر أنى سوف أضربك فى الصباح، فأنا لا أحب الهندوس".لم تكن تلك ليلة بهيجة، إذ كانت الغرفة تفيض بالأصوات والموسيقى. واستيقظ كيم مرتين على صوت ينادى اسمه. وهب فى المرة الثانية باحثًا عنه، وانتهى بكدمة فى أنفه عندما اصطدم بصندوق كان قطعًا يتكلم بلسان بشرى، وإن لم تكن اللهجة بشرية على الإطلاق. وبدا أنه ينتهى ببوق من الصفيح، ومرتبط بأسلاك إلى صندوق أصغر على الأرض، وذلك على الأقل فى حدود ما استطاع الحكم عليه باللمس. وكان الصوت الأجش ذو الأزيز يخرج من البوق. وحك كيم أنفه وقد بلغ الحنق به مبلغه فقال فى نفسه باللغة الهندوسية:

"قد يصلح هذا مع شحاذ من السوق ولكنى سيد وابن سيد، كما إن عندى مزية تفوق ذلك بكثير وهى أننى تلميذ فى نوكلاو. نعم" وتحول هنا إلى الإنجليزية "صبى فى مدرسة القديس خاڤيير. اللعنة على عيون المستر لورجان! إنها آلة من نوع ما تشبه ماكينة الخياطة. يا لها من صفاقة **بالغة** من جانبه! نحن لا نخاف بهذا الأسلوب فى لوكناو.. أبدًا!" ثم عاد للغة الهندوسية "ولكن ماذا يكسب **هو**؟ ليس إلا تاجرًا، وأنا فى دكانه. ولكن السيد كرايتون

عقيد، وأظن أن السيد كرايتون أمر بأن يحدث هذا. **ما أشد** ما سأضرب هــذا الهندوسى فى الصباح! ما هذا؟".

كان الصندوق ذو النفير يصب فى الهواء سلسلة من الشتائم البالغة البذاءة التى لم يسمعها أحد من قبل، ولا كيم نفسه، وبصوت مرتفع لا ينم عن اهتمام، حتى أن شعر رأسه وقف لحظة عابرة. وعندما توقف ذلك الـشىء لالتقــاط أنفاسه، اطمأن كيم إلى صوت الأزيز الخافت الــذى يــشبه صـــوت ماكينـــة الخياطة.

وصرخ قائلاً "اخرس!" ومن جديد سمع قهقهةً جعلته يحزم أمره "اخرس، وإلا حطمت رأسك!".

ولم يلتفت الصندوق إليه، فانقض كيم على البوق الصفيح فخلعــه فــسمع شيئًا يرتفع بصوت طَقَّة. كان بوضوح قد رفع غطاءً ما. وقال فى نفــسه لــو كان فى داخله شيطان فقد حان حينه، وقال وهو يتشمم الصندوق إن رائحتــه تشبه رائحة ماكينات الخياطة فى السوق. وقرر أن يُخرج ذلك الشيطان! فخلع سترته وحشرها فى فم الصندوق. وانثنى شىء طويل مستدير تحت الضغط ثم صدر الأزيز وتوقف الصوت، ولابد للأصوات أن تتوقف إذا حشرت ســترة مطوية ثلاث طيات فى الأسطوانة الشمعية وفى جهات تــشغيل فونــوغراف غالى الثمن. واستكمل كيم نعاسه بنفس مطمئنة.

وأفاق فى الصباح فوجد السيد لورجان يتطلع إليه.

وقال كيم بنبرة انجليزية قُحَّةٍ "أوه!" إذ كان قد عقد العزم على الاستمساك بمكانته الإنجليزية "سمعت بالليل صندوقًا يوجه إلىّ كلامًا بذيئًا. فأوقفته. هــل كان صندوقك؟".

ومد الرجل يده إليه.

وقال "فلنتصافح يا أوهارا. نعم. كان صندوقى. وأنا أحتفظ بهذه الأشــياء

لأن أصدقائى الراجـــات يحبونها. كان ذلك مكسورًا، واشتريته بثمن زهيـــد. نعم، إن أصدقائى الملوك شديدو الولع باللُّعَب، وهذا شأنى أحيانًا".

وتفحصه كيم، ناظرًا من زوايا عينيه. كان سيدًا ما دام يلـــبس الملابـــس الخاصة بالسادة، ولكن لهجة لغته الأردية وتنغيم لغته الإنجليزية يدلان علـــى أنه أبعد ما يكون عن ذلك. وكان فيما يبدو يفهم ما يدور فى ذهن كيم قبـــل أن يفتح الصبى فمه، ولم يبذل جهدًا فى شرح موقفه مثل الأب فكتور أو أســـاتذة المدرسة فى لوكناو. وأما أشد ما راق لكيم فكانت معاملته إياه معاملة الأنـــداد من الجانب الآسيوى.

"يؤسفنى أنك لن تستطيع ضرب غلامى هذا الصباح. يقول إنـــه ســـوف يقتلك بالسكين أو بالسم. إنه يغار، وهكذا أمرته أن يقبع فى الركن ولن أتكلـــم معه اليوم. لقد حاول لتوه أن يقتلنى. لابد أن تساعدنى فى إعداد الإفطار. فإن غيرته الشديدة تكاد تمنعنى من الوثوق به، مؤقتًا".

الواقع أنه لو كان سيدًا أصيلاً 'مستوردًا' من انجلترا لروى هذه القـــصة بصخب وانفعال شديد، ولكن السيد لورجان ذكرها بهدوء مثلما اعتاد محبوب أن يروى مغامراته الغرامية العابرة فى الشمال.

كانت الشرفة الخلفية للدكان مبنية على جانب التل نفـــسه، بحيـــث يطـــل الواقف فيها على الأنابيب الفخارية فى رؤوس مداخن الجيران، وفـــق العـــادة المتبعة فى سيملا. وانبهر كيم بالوجبة الفارسية الخالصة التى طهاهـــا الـــسيد لورجان بيديه، ولكن انبهاره كان أكبر بالدكان. كان متحف لاهور أكبر، ولكن العجائب هنا كانت أكثر. كانت هنا الخناجر الزخرفية و'عجلات الصلاة' من التيبت، وهى أشكال أسطوانية كتبت عليها نصوص مقدسة يديرها البوذى بيده عند الصلاة، وقلائد من الفيروز والكهرمان النقى، وأساور من حجر اليَـــشْب الكريم الأخضر، وأعواد البخور المعبأة بصورة غريبة فـــى آنيـــة مرصـــعة بالعقيق الأحمر الخالص، وأقنعة الشياطين التى رآها كيم ليلة أمـــس، وجـــدار مفعم بالمنسوجات ذات اللون الأزرق الطاووسى، وتماثيل مطلية بالذهب لبوذا،

والمحاريب الصغيرة المدهونة باللاكيه والتى تصلح للنقل، ومراجل روسية لعمل الشاى مزينة بالفيروز على الغطاء، وصلبان صفراء من العاج، جاءت كما يقول السيد لورجان من اليابان، على عكس ما هو متوقع، وسجاجيد فى بالات متربة، ذات رائحة بشعة، دُفع بها خلف ستائر ممزقة عفنة عليها زخارف هندسية، وأباريق مياه فارسية لغسيل الأيدى بعد الأكل، ومباخر نحاسية باهتة اللون، لا هى صينية ولا فارسية، وعلى أفاريزها رسوم لشياطين خيالية تجرى حولها! وأحزمة فضية فقدت بريقها وتُعقد مثل الأحزمة الجلدية الطبيعية، ودبابيس شعر من اليشب والعاج والكوارتز، وأسلحة من كل نوع وصنف، إلى جانب ألفٍ من بواقى التحف التى وُضعت فى صناديق أو فى أكوام، أو أُلقى بها وحسب فى الحجرة بحيث لم تبق مساحة خالية إلا حول منضدة التجارة ذات الأرجل غير الثابتة، حيث كان السيد لورجان يعمل.

وقال مضيف كيم وهو يتابع نظراته "ليست لهذه الأشياء قيمة، لكننى أشتريها لجمالها، وأبيع بعضها أحيانًا إذا راق لى مظهر الشارى. وأقوم بعملى على المنضدة، أو قل ببعض عملى".

وتألقت الغرفة وتوهجت فى ضوء الصبح، بأشعة حمراء وزرقاء وخضراء، كانت تشتبك فى عينى كيم ببريق ماسة أبيض ذى زرقة فتاكة هنا وهناك، فاتسعت حدقتا عينيه.

فقال لورجان "لا بأس بها إطلاقًا، أقصد هذه الأحجار. لن يضيرها التعرض للشمس. ثم إنها رخيصة. وأما الأحجار المريضة فالأمر يختلف معها تمامًا". ثم ملأ طبق كيم من جديد. "لا يوجد غيرى من يستطيع علاج حجر مريض ويعيد الزرقة إلى الفيروز. أما العقيق الأزرق، فأى أحمق يستطيع معالجته، وأما اللآلئ المريضة فليس لها غيرى. فلنفترض أنى مت اليوم! لن يبقى بعدها أحد.. لالا! لا تستطيع أن تفعل أى شىء بالجواهر. سوف يكفيك أن تتفهم قليلاً مسألة الفيروز... يومًا ما".

ومضى إلى طرف الشرفة ليعيد ملء القلة الثقيلة ذات المسام، المصنوعة من الفخار، من مرشح المياه قائلاً:

"هل تريد أن تشرب؟".

وأومأ كيم. كان السيد لورجان يقف على بعد خمسة أمتار فوضع إحدى يديه على القلة، وفى اللحظة التالية كانت عند مرفق كيم، ممتلئة إلى مسافة سنتيمتر من الحافة، ولا يدل على أسلوب انزلاقها إلى كيم غير تغضين طفيف فى المفرش الأبيض.

وقال كيم فى دهشة لا حدود لها "واه! هذا سحر!" وكانت بسمة السيد لورجان تدل على أنه يقدر مديح كيم.

"أعدها إلىّ!".

"سوف تنكسر".

"قلتُ أعدها إلىّ".

ودفعها كيم دفعة عشوائية فسقطت قبل الوصول وتحطمت إلى خمسين قطعة، وأخذت المياه تتسرب من خلال أخشاب الشرفة.

"قلت سوف تنكسر".

"لا يهم. انظر إليها. انظر إلى أكبر قطعة".

كان فى تلك القطعة بريق ماء يتلألأ فى قعرها كأنما كان نجمة على الأرضية. وركز كيم بصره فيها. ووضع السيد لورجان يده برفق على قفا كيم، وجعل يمر بكفه عليه، ماسًّا إياه مسًّا لطيفًا مرتين أو ثلاثًا، وهو يهمس "انظر! ستعود إلى الحياة من جديد قطعة قطعة. سوف ترتبط القطعة الكبرى أولاً بالأخريين إلى اليمين والشمال، إلى اليمين والشمال. انظر!".

وطلبًا للنجاة لم يستطع كيم أن يدير رأسه. كانت اللمسة الخفيفة تقبض عليه مثل الكماشة، وكان يحس بخدر خفيف كأنه الطنين اللذيذ يجرى فى

عروقه، ورأى قطعة كبيرة من الفخار حيث كانت من قبل ثلاثًا ومن فوقها الإهاب الغائم للإناء الكامل. كان يستطيع أن يرى الشرفة من خلالها، ولكن الإهاب كان يزداد سمكًا وتعتيمًا مع كل نبضة فى قلبه. ومع ذلك فإن القلة – ما أبطأ ما كانت الأفكار تجئ! – كانت القلة قد تحطمت أمام عينيه. وسرت موجة أخرى من النار اللاذعة فى رقبته والسيد لورجان يرفع يده عنها.

وقال السيد لورجان "انظر! إنها تعود سيرتها الأولى".

كان كيم يفكر حتى الآن باللغة الهندوسية، ولكن رعدة أصابته فبذل جهدًا يشبه جهد السباح أمام أسماك القرش، حين يُخرج نفسه نصف إخراج من الماء، فوثب ذهنه من الظلمة التى كانت تبتلعه لاجئًا إلى – جدول الضرب بالإنجليزية.

وهمس السيد لورجان "انظر! إنها تعود سيرتها الأولى".

كانت القلة قد تحطمت، نعم تحطمت، لا بالمعنى الذى يشيع فى اللغة المحلية، فلم يخطر ذاك بباله، بل إنها تحطمت فعلاً إلى خمسين قطعة، واثنين فى ثلاثة يساوى ستة، وثلاثة فى ثلاثة يساوى تسعة، وثلاثة فى أربعة يساوى اثنى عشر! وتعلق باستماتة بتكرار ذلك. وتلاشى الإهاب الغائم للإناء كأنه ضباب انقشع بعد أن فرك عينيه. وإذا أمامه الشظايا المكسورة، والماء المراق وقد بدأ يجف فى الشمس، ولاح من خلال فتحات الشرفة جدار المنزل الأبيض بأضلاعه من تحته، وثلاثة فى اثنى عشر يساوى ستة وثلاثين!.

وسأله السيد لورجان "انظر! هل تعود سيرتها الأولى؟".

وشهق كيم قائلاً "ولكنها محطمة. محطمة!" وكان السيد لورجان يهمهم بهدوء فى نصف الدقيقة الأخيرة، وكان كيم قد أزاح رأسه بقوة. "انظر! انظر! إنها قائمة كما كانت من قبل".

وكرر لورجان "إنها قائمة كما كانت من قبل" وهو يراقب الصبى بدقة وهو يدلك رقبته. وأضاف قائلاً "ولكنك الأول من بين كثيرين الذى يراها بهذه الحال". ومسح بيده على جبهته العريضة.

وسأله كيم فى ريبة "هل كان ذلك مزيدًا من السحر؟" كان الطنين اللاذع قد اختفى من عروقه، وأحس أنه يقظ منتبه إلى حد غير معتاد.

"لا لم يكن ذلك سحرًا. كان مجرد محاولة للتحقق من – وجود عيب فى إحدى الجواهر. فأحيانًا ما تتحطم جوهرة بالغة الروعة وتتناثر شظايا إذا أمسكها رجل فى يده وكان يعرف الأسلوب السليم. ولذلك فلابد من الحرص قبل تركيبها فى الحُلِيِّ. قل لى هل رأيت شكل الإناء؟".

"فترة قصيرة. بدأ ينمو كالزهرة من الأرض".

"وعندها ماذا فعلت؟ أقصد ماذا خطر ببالك".

"أووه! كنت أعرف أنه محطم، ولهذا فإن ذلك ما خطر ببالى – وكان **فعلاً** محطمًا".

"قل لى!هل فعل أحد معك هذا اللون من السحر نفسه من قبل؟".

وقال كيم "ولو كان، هل تظن أنى أسمح بتكراره؟ بل لابد لى من الفرار".

"ولم تعد الآن خائفًا؟".

"لم أعد الآن".

ونظر إليه السيد لورجان نظرات تتفحصه بدقة أكبر مما سبق ثم تمتم قائلاً: "سوف أسأل محبوب على، ليس الآن بل بعد عدة أيام. أنا مسرور بك، نعم، وأنا مسرور بك، لا، فأنت أول من ينقذ نفسه. أتمنى لو عرفت كيف تَأَتَّى لك أن ... ولكنك مصيب. لا ينبغى أن تفصح عن ذلك، حتى ولا لى أنا".

واستدار فى الظلمة الغسقية للدكان وجلس إلى المنضدة، وهو يفرك يده بلين. وسمعا صوت نهنهة طفيفة جَشَّاءَ من خلف كومة من السجاجيد. كانت من الطفل الهندوسى الذى أطاع الأمر فظل يواجه الحائط. كانت كتفاه النحيلتان ترتعدان كمدًا.

"إنه يَغَار. إنه شديد الغيرة! تُرى هل سيحاول دَسَّ السُّمِّ لى من جديد فى إفطارى فأقوم بإعداده من جديد؟".

وجاءت الإجابة باللغة الأردية "أبدًا! لا أبدًا!".

"وإن كان سيحاول قتل هذا الصبى الآخر أيضًا؟".

"أبدًا! لا! أبدًا!".

واستدار فجأة إلى كيم وقال "ماذا تعتقد **أنت** أنه سيفعل؟".

"أوه! لا أدرى! لم لا تدعه يذهب؟ ولماذا حاول دس السم لك؟".

"لأنه مغرم بى إلى حد كبير. لنفترض أنك كنت مغرمًا بشخص ما، ورأيت شخصًا آخر يأتى، فإذا بمن كنت مغرمًا به قد أقبل على هذا الوافد إقبالاً أكبر من إقباله عليك، ماذا كنت تفعل؟".

وجعل كيم يفكر فكرر لورجان العبارة ببطء باللغة المحلية.

فقال كيم بنبرات التأمل "يجب ألا أدس السم لذلك الرجل، لكننى كنت أضرب ذلك الغلام – هذا إذا كان ذلك الغلام مغرمًا بصاحبى. ولكننى كنت أسأل ذلك الغلام إن كان هذا صحيحًا".

"آه! يعتقد أن الجميع يجب أن يُغرموا بى".

"أظن إذن أنه مغفل".

فقال السيد لورجان إلى الكتفين المرتعدتين "هل تسمع؟ ابن السادة يرى أنك مغفل صغير. تعال إذن، وعندما يتكدر قلبك مرة أخرى لا تلجأ إلى الزرنيخ الأبيض بهذا الأسلوب المكشوف. لا شك أن الشيطان 'داسم' كان ربًّا على مفرش مائدتنا ذلك اليوم! ربما أصابنى ذلك بالمرض أيها الطفل فكان لا بد من استدعاء غريب لحراسة الجواهر. تعال!".

وزحف الطفل وقد تورمت عيناه من كثرة البكاء خارجًا من خلف البالة وألقى نفسه بعاطفة مشبوبة على قدمى السيد لورجان، مبديًا التطرف فى الندم إلى درجة يهرت كيم نفسه.

وقال الغلام "سوف أنظر فى كل محبرة، سوف أحرس الجواهر

بإخلاص! أرجوك يا والدى ووالدتى أن تطرد **هذا** من هنا!" وأشار إلى كيم بحركة خلفية من عقبه الحافى.

"لم يحن الوقت بعد. لم يحن بعد. بعد قليل سوف يمضى، لكنه الآن فى المدرسة، فى مدرسة جديدة، وسوف تكون أنت مُعَلِّمًا له. العب لعبة الجواهر معه، وسوف أتولى أنا الحساب".

ومسح الطفل دموعه على الفور واندفع إلى مؤخرة الدكان وعاد منها حاملاً صينية نحاسية.

وقال الطفل للسيد لورجان: "أعطها أنت لى. دعها تجىء من يدك أنت، حتى لا يقول إننى كنت أعرفها من قبل".

وأجاب الرجل "ترفق ترفق!" ثم أخرج من درج تحت المائدة نصف حفنة من الأحجار الكريمة الرخيصة ووضعها فى الصينية.

وقال الطفل "والآن!" وأخذ يلوح بصحيفة قديمة فى يده. "تأملها أيها الغريب أطول مدة تريدها. عُدَّها وتناوَلْها إذا أردت بيدك. أما **أنا** فنظرة واحدة تكفينى. وأدار إلى كيم ظهره فى كبرياء".

"ولكن ما اللعبة؟".

"عندما تنتهى من عدها وتناولها وتتأكد أنك تستطيع أن تتذكرها جميعًا، سوف أغطيها بهذه الصحيفة، وعليك أن تقول عددها للسيد لورجان. وسأكتب **أنا** إجابتى".

وقال كيم "أوه!" شاعرًا بأن غريزة المنافسة أُوقظت فى صدره. فانحنى على الصينية، ولم يكن بها سوى خمسة عشر حجرًا كريمًا، وبعد دقيقة قال "هذا سهل". وأما الطفل فوضع الصحيفة فوق الجواهر البراقة وكتب شيئًا فى دفتر حسابات محلى.

وقال كيم مسرعًا "تحت هذه الصحيفة خمسة أحجار زرقاء، أحدها كبير،

وآخر أصغر، وثلاثة أحجار صغيرة. وكذلك أربعة أحجار خضراء، أحدها مثقوب، وحجر أصفر شفاف وآخر مثل جذع الغليون، وحجران لونهما أحمر، إلى جانب... كنت عددت خمسة عشر حجرًا، لكنى نسيت اثنين. لالا! امنحنى بعض الوقت. أحدهما من العاج، صغير لونه بنى و... و... امنحنى مهلة...".

"واحد... اثنان..." وعد السيد لورجان ما ذكره كيم حتى عشرة. وهز كيم رأسه.

وانطلق الطفل يتحدث بصوت يتهدج ضحكًا قائلاً "اسمع حسابى أنا! لدينا أولا ياقوتتان صفراوان بهما عيوب، الأولى وزنها قيراط والثانية أربعة قراريط حسبما أتصور. والأخيرة مكسور من طرفها جزء. ولدينا فيروزة تركستانية، صافية اللون بها عروق سوداء، وفيروزتان عليهما نقوش، الأولى عليها اسم الله بالذهب، والثانية بها كسر عرضى، فمصدرها خاتم قديم، لا أستطيع أن أقرأ النقش عليها. ولدينا الآن خمسة أحجار زرقاء. وأربع زمردات معيبة، ولكن إحداها مثقوبة فى موضعين، وأخرى منحوتة قليلاً...".

وقال السيد لورجان دون انفعال "وأوزانها؟".

"ثلاثة وخمسة وخمسة، وأربعة قراريط، وفقًا لحسابى. ولدينا قطعة واحدة من كهرمان الغليون الأخضر العتيق، وياقوتة زرقاء مشغولة من أوروبا. ولدينا ياقوتة من بورما، وزنها قيراطان، ولا عيب فيها، وياقوتة أفغانية معيبة وزنها قيراطان. ولدينا قطعة عاج منحوتة من الصين تمثل فأرًا يمص بيضة، وأخيرًا، آها! كرة بلورية فى حجم حبة الفول فوق ورقة شجرة من الذهب".

وصفق الطفل عندما انتهى.

وقال السيد لورجان باسمًا "إنه معلمك".

وقال كيم وقد أحمر وجهه "ها! كان يعرف أسماء الأحجار. فلنحاول مرة أخرى! وليكن ذلك مع الأشياء الشائعة التى يعرفها كلانا.. أنا وهو".

وملأوا الصينية من جديد 'بالكراكيب' التى جُمعت من الدكان، بل والمطبخ، وكان الطفل يفوز فى كل مرة حتى جعل كيم يتعجب.

وجاء الطفل بهذا التحدى "ضع غمامة على عينى، ودعنى ألمس هذه الأشياء مرةً واحدة بأصابعى، لكننى سوف أتركك مفتوح العينين **رغم ذلك**".

وضرب كيم الأرض بقدمه غيظًا عندما نجح الطفل فى الفوز بهذا التحدى.

وقال "لو كان الأمر يخص الناس... أو الخيل، فسوف أُبلِي بلاءً حسنًا. وأما هذا اللعب بالملاقط والسكاكين والمقصات فهو تافه".

وقال السيد لورجان "عليك أن تتعلم أولاً قبل أن تُعَلِّمَ غيرك. أليس أستاذك؟".

"فعلاً. ولكن كيف ينجح هذا؟".

"بأدائه مراتٍ عديدة حتى يبلغ الكمال، فالأمر جدير بالأداء".

وارتفعت الروح المعنوية للغلام الهندى إلى أقصى حد فربت فعلاً على ظهر كيم.

وقال "لا تيأس. سأتولى بنفسى تعليمك".

وقال السيد لورجان "وأنا أضمن أن تتلقى خير تعليم"، وكان لايزال يتكلم باللغة المحلية، فأضاف: "غلامى هذا استثناء، وبالمناسبة، كان من الغباء أن يشترى كل هذا المقدار من الزرنيخ الأبيض، فى حين أننى كنت أعطيه إياه لو طلبه! أقول باستثناء غلامى هذا لم أقابل من يجدر بالتعليم أفضل منه منذ زمن بعيد. ولايزال أمامك عشرة أيام أخرى قبل العودة إلى نوكلاو حيث لا يُعلِّمون شيئًا يساوى الثمن الباهظ. أعتقد أننا سنغدو أصدقاء".

كانت الأيام العشرة تتميز بجنون لا نظير له، ولكن كيم كان يستمتع استمتاعًا لم يدعه يتأمل جنونها. كانوا فى الصباح يلعبون لعبة الجواهر،

بجواهر حقيقية أحيانًا، وأحيانًا أخرى بأكوام من السيوف والخناجر، بل وفى بعض الأحيان بصور أبناء البلد. وفى ساعات العصر كان كيم يتولى مع الغلام الهندوسى حراسة الدكان، جالسيْن فى صمت خلف بالة سجاجيد أو ستارة ويراقبان زوار المستر لورجان الكثيرين البالغى الغرابة. كان من بينهم راچات صغار، ومعهم رفقاء يسعلون فى الشرفة، جاءوا لشراء التحف، مثل الفونوغرافات واللعب الآلية. وكان من بينهم نساء يطلبن القلائد، ورجال بدا لكيم أنهم يطلبون النساء، وإن كان تفكيره قد فسد نتيجة التعليم المبكر، وبعض أبناء البلد من الولايات الإقطاعية المستقلة، متظاهرين بالسعى لإصلاح قلائد مكسورة – كانت أنهارًا من الضوء المسكوب على المنضدة – ولو أن غايتهم الحقيقية كانت جمع المال للمهرانات (زوجات الراچات) الغاضبات، أو صغار الراچات. وكان من بينهم سادة بنغاليون، وكان السيد لورجان يخاطبهم بتزمت ونبرات السلطة، ولكنه كان يعطيهم فى آخر كل مقابلة أموالاً فى صورة عملات فضية ونقود وأوراق نقدية. وأحيانًا ما كان يزوره زرافات من أهل البلد المغرمين بالحركات المسرحية ويلبسون معاطف طويلة ويناقشون القضايا الميتافيزيقية باللغتين البنغالية والإنجليزية، مما تعلم الكثير منه المستر لورجان، فلقد كان على الدوام يهتم بالأديان. وفى آخر النهار، كان يتوقع من كيم ومن الغلام الهندوسى – الذى كان اسمه يتغير وفقًا لمشيئة لورجان – تقديم وصف تفصيلى لكل ما شاهداه وسمعاه طول اليوم، وأن يبديا رأيهما فى شخصية كل رجل، كما يظهر من الوجه والكلام وأسلوب السلوك، وأن يقدما أفكارهما عما كان كل زائر يرمى إلى تحقيقه فى الواقع. وبعد العشاء كان يحلو للسيد لورجان أن يوجه اهتمامه إلى ما يمكن تسميته 'التنكر'، وكان يهتم اهتمامًا بالغًا بهذه اللعبة. كان يستطيع طلاء الوجوه بأسلوب معجز، فإذا وضع بالفرشاة لمسةً هنا ورسم خطًّا هناك تغير شكل الوجه بحيث لا يستطيع أحد أن يعرفه. وكان الدكان حافلاً بشتى أشكال الملابس والعمامات، وكان كيم يلبس أحيانًا ملابس مسلم صغير من عائلة كريمة، أو ملابس باعة الزيوت، وذات مساء – وكان ذلك مساءً بالغ المتعة –

لبس ملابس أحد ملاك الأراضى من طائفة 'أوذ'، بملابسه الكاملة غير المنقوصة، وكان بَصَرُ السيد لورجان حادًّا كعين الصقر قادرًا على اكتشاف أقل خطأ فى المكياج، وكان يستلقى على أريكة بالية من خشب 'التيك' ويقضى نصف ساعة فى إيضاح أسلوب هذه الطائفة أو تلك فى الحديث أو المشى أو السعال أو البصق أو العطس، ولما كانت مسألة الأسلوب ليست بذات أهمية كبرى فى الدنيا، كان يتولى إيضاح الأسباب. ولم يكن الغلام الهندوسى ماهرًا فى هذه اللعبة، فذهنه الصغير الذى كان فى حدة عمود الجليد فيما يختص بلعبة عد الجواهر لم يكن قادرًا على تطويع نفسه للنفاذ إلى روح شخص آخر، ولكن عفريتًا صحا داخل كيم وانطلق يغنى فرحًا وهو يرتدى ملابس التنكر، ويغير فى كل مرة لغته وحركات جسمه معها.

وجرف الحماس كيم ذات مساء فعرض على السيد لورجان أن يُمَثِّلَ له كيف يقوم تلاميذ طائفة معينة من **الفقراء**، من معارفه القدامى فى لاهور، بالتسول على جانب الطريق، ونوع اللغة التى يستخدمونها مع الإنجليز، ومع مزارع بنجابى ذاهب إلى السوق، ومع امرأة سافرة الوجه. وضحك لورجان ضحكًا شديدًا، وتوسل إلى كيم أن يظل كما كان، بلا حراك نصف ساعة، جالسًا القرفصاء، وعلى وجهه الرماد، شارد العينين، فى الغرفة الخلفية. وفى آخر تلك المدة دخل سيد بنغالى ضخم الجرم سمين تترجرج ساقاه اللتان تكسوهما جوارب طويلة بالدهون، فأطلق كيم عليه وابلاً من نفايات التسول على جانب الطريق. وأخذ السيد لورجان يراقب السيد الضخم بدلاً من أداء كيم التمثيلى، وهو ما جعل كيم يشعر بالضيق.

وقال البنغالى بنبرات ثقيلة وهو يشعل سيجارة "أظن، أرى أن هذا الأداء فذ إلى أقصى حد ويتميز بكفاءة فائقة. ولولا أنك أخبرتنى لتصورت أنك – أنك – تستهزئ بى. متى يتسنى له التأهل للتعيين مساعد مهندس مساحة؟ لأننى أعتزم **عندها** أن أطلبه رسميًّا عندى".

"هذا ما لا بد أن يتعلمه فى لوكناو".

"إذن مُرْهُ أن يسرع! طابت ليلتك يا لورجان". وانطلق السيد خارجًا بمشية تشبه مشية بقرة فى الوحل.

وعندما حان استعراض قائمة زوار النهار طلب لورجان من كيم أن يقول له من كان ذلك فى رأيه.

وقال كيم بلهجة مرحة "الله أعلم!" كان إذا استخدم هذه اللهجة مع محبوب على فربما كادت أن تخدعه، ولكنها عجزت عن ذلك تمامًا مع معالج اللآلـئ المعتلة.

"هذا صحيح. الله يعلم. لكننى أريد أن أعرف رأيك أنت".

وأخذ كيم يحدج رفيقه بنظرات جانبية، إذ كانت عين رفيقه قـادرة علـى استخلاص الحقيقة".

ثم قال كيم "أعتقد أنا أنه سوف يحتاج إلىَّ عندما أتخرج فـى المدرسـة، ولكن"، واتخذ لهجة من يدلى بسر عندما لمح إيمان السيد لورجان بمـا يفيـد الموافقة "لا أستطيع أن أفهم كيف يستطيع **هـو** أن يرتدى ملابس كثيرة ويتكلم لغات كثيرة".

"لسوف تفهم أشياء كثيرة فيما بعد. إنه يكتب القصص لعقيد معين. وهـو ذو شرف رفيع فى سيملا وحدها، والملاحظ أنه لا اسم له، بل رقم وحـرف فقط، هذا هو المعتاد بيننا".

"وهل رُصِدَتْ مكافأةٌ لمن يأتى برأسه أيضًا، مثل محـــ... مثـل كـل الآخرين؟".

"لم يحدث ذلك إلى الآن. ولكن إذا نهض صبى يجلس الآن هنـا وذهـب إلى... انظر الباب مفتوح!... حتى منزل معين لـه شـرفة مطليـة بـاللون الأزرق، ويقع خلف المبنى الذى كان يشغله المسرح القديم فى السوق السفلية، وهمس من خلال شيش النافذة قائلاً 'هورى شوندر موكرچـى حمـل أنبـاء الشهر الماضى السيئة' فربما نال هذا الصبى حزامًا مليئًا بالروبيات".

وقال كيم بسرعة "كم؟".

"خمسمائة – ألف – المقدار الذى يطلبه".

"جميل. وكم من الزمن يظل هذا الصبى فى قيد الحياة بعد إبلاغ الخبر؟". وابتسم كيم فى مرح وهو يكاد يلامس لحية السيد لورجان.

"آه! هذا أمر جدير بالتفكير الصائب. لو كان بالغ البراعة فربما ظل حَيًّا إلى آخر النهار، لا الليل. من المحال أن يظل حيًّا لآخر الليل".

"ما أجر السيد إذن ما دام هذا المقدار مرصودًا لمن يأتى برأسه؟".

"ثمانون، وربما مائة، وربما مائة وخمسون روبية. ولكن الأجر أهون جانب من جوانب العمل. ولكن الله يقضى بأن يولد بعض الناس، وأنت واحد منهم، الناس الذين يشتهون الانطلاق إلى الخارج مخاطرين بأرواحهم لاستطلاع الأخبار. قد تكون اليوم خاصة بأشياء بعيدة، وغدًا بجبل خبىء من نوع ما، وفى اليوم التالى ببعض الرجال القريبين الذين ارتكبوا حماقة ما ضد الدولة. وهؤلاء الناس قلة قليلة، ومن بين هذه القلة لا يزيد عدد الممتازين منهم عن عشرة. ومن بينهم أَعُدُّ ذلك السيد، وهو أمر عجيب. ما أعظم هذا العمل إذن وأَشَدَّ جاذبيته ما دام قادرًا على تدعيم قلب رجل بنغالى بجسارة كالحديد!".

"صحيح. ولكن الأيام تمر ببطء عندى. ومازلت صبيًّا، ولم أتعلم كتابة الإنجليزية إلا فى غضون شهرين. وحتى هذه اللحظة لا أجيد قراءتها. وأمامى سنوات وسنوات وسنوات طويلة قبل أصبح حتى مساعد مهندس مساحة".

"اصبر يا صديق العالم كله!" وأفزع هذا اللقب كيم ولكن لورجان أضاف: "ليت لى بعض السنوات التى تشعرك بالضيق. لقد ثبتت لى جدارتك باختبارات طفيفة. ولن يُنْسَى ذلك عندما أكتب تقريرى إلى السيد العقيد". ثم تحول إلى الحديث بالإنجليزية، ضاحكًا ضحكة عميقة:

"أقسم يا أوهارا إن لديك إمكانات كثيرة، ولكنك يجب ألا تتكبر وألا تتكلم.

يجب أن تعود إلى لوكناو وتصبح صبيًّا صغيرًا مطيعًا ولا تأبه إلا لكتابك، كما يقول الإنجليز، وربما استطعت فى العطلة المقبلة إذا شئت أن تعـود إلـىّ!". وتجهم وجه كيم. "أوه! أقصد إذا أحْبَبْت. فأنا أعرف أين تريد أن تذهب".

وبعد أربعة أيام حجز لورجان مكانًا لكيم وحقيبته الصغيرة فى مقعد خلفى فى إحدى العربات المتجهة إلى كالكا. وكان رفيقه هو البنغالى الـذى يـشبه الحوت، وكان يلف حول رأسه لفاحًا ذا حواش مسدلة، ويضع ساقه اليـسرى السمينة ذات الجورب المطرز تحته، ويرتعد ويزمجر من شدة برد الصباح.

وتساءل كيم فى نفسه "كيف تأتى لهذا الرجل أن يكون واحدًا مِنَّا؟"، وكان يتأمل ظهر الرجل الذى أخذ يترجرج كالهُلام والعربـة تبـدأ انطلاقهـا فـى الطريق، وجرفه هذا التأمل إلى أحلام ممتعة إلى أقصى حـد. كـان الـسيد لورجان قد أعطاه خمس روبيات، وهو مبلغ كبير، إلى جانب تأكيده له بحمايته إذا قبل العمل. وعلى عكس محبوب على، كان السيد لورجـان قـد تحـدث بصراحة فائقة عن المكافأة التى تتبع الطاعة، وأحس كيم بالرضى. ليته كـان مثل ذلك البنغالى يتمتع بوقار 'الحرف والرقم'، ومكافأة لمن يأتى برأسه! يومًا ما سيصبح كذلك وزيادة. وربما أصبح يومًا ما فى عظمة محبوب على تقريبًا! لابد أن يصبح نصف الهند أسطح منـازل بحثـه! ولـسوف يتبـع الملـوك والوزراء، مثلما كان فى الأيام الخوالى يتبع جولات وكلاء النيابة والمحـامين عبر مدينة لاهور من أجل محبوب على. وريثما يتحقق ذلك كـان المـستقبل أمامه غير كئيب على الإطلاق، ما دامت مدرسة القديس خـافيير تواجهـه مباشرة! لسوف يلاقى بعض الصبيان الجدد الذين سوف يحادثهم بلهجة من هو أرفع درجة، ولسوف يسمع القصص عن مغامرات العطلات. لايـزال يـذكر مارتن الصغير، ابن صاحب مزرعة الشاى فى بلدة مانيـپـور (تسمى إمفال الآن، فى شمال شرقى الهند بالقرب من الحدود مع بورما) ويذكر كيف كـان يتفاخر بأنه استطاع ببندقيته محاربة صائدى الرؤوس. ربما كان ذلك صحيحًا، ولكن مارتن الصغير لم يدفعه انفجار الألعاب النارية (الصواريخ) فى الهـواء لمسافة تبلغ نصف الفناء الأمامى لقصر فى پـاتيالا، ولم يحـدث لـه أن...

وانطلق كيم يروى لنفسه قصص مغامراته الخاصة فى الأشهر الثلاثة الأخيرة. ولو سُمح له بروايتها لأصاب بالشلل مدرسة القديس خاڤيير كلها، حتى كبار الغلمان الذين بدأوا يحلقون لحاهم، ولكن ذلك، بطبيعة الحال، غير وارد على الإطلاق. وسوف يأتى الوقت الذى تُرصد فيه مكافأةٌ لمن يأتى برأسه، كما أكد السيد لورجان ذلك له. فإذا تحدث الآن حديث الحمقى فلن يقتصر الأمر على استحالة رصد هذه المكافأة، بل إن العقيد كرايتون سوف ينبذه، وعندها سيقع تحت رحمة السيد لورجان، ومحبوب على، وذلك فى الفسحة القصيرة من الأجل المتبقى له.

كانت فلسفته تقوم على المثل الذى يقول "خسر فلان دلهى فى مقابل سمكة". وقال فى نفسه إنه يجدر به أن ينسى عطلته، وإن كان لايزال أمامه الاستمتاع باختراع مغامرات خيالية، وكذلك 'العمل' كما قال السيد لورجان.

لم يكن بين جميع الأولاد الذين كانوا يهرعون عائدين إلى مدرسة القديس خاڤيير من سُكور (منطقة فى باكستان الحالية) وسط الرمال إلى جالى (بلدة فى جنوبى سيلان) غلام تفعمه الفضيلة مثل كيمبول أوهارا، وهو يتأرجح فى العربة المتجهة إلى أومبالا خلف هورى شوندر موكرچى الذى كان اسمه فى دفاتر أحد أقسام مصلحة المساحة هو "راء ١٧".

وكأنما كان الأمر يتطلب حافزًا آخر، وجد كيم أن السيد يوفره له. فبعد وجبة هائلة فى كالكا، أخذ البنغالى يتكلم دون توقف. هل سيستكمل دراسته الجامعية؟ إذن فإنه، وهو الحاصل على الماچستير من جامعة كالكتا، سوف يشرح له مزايا التعليم. ونصحه بأن يحقق لنفسه مرتبة ممتازة بأن يهتم باللغة اللاتينية وبقصيدة 'الرحلة' الطويلة للشاعر وردزورث. ولكن هذا كان يونانيًا لا يُفهم عند كيم. وقال إن اللغة الفرنسية ذات أهمية حيوية أيضًا، وأفضل ما تؤدى إليه هو اختيارك للعمل فى شاندرنا جور، التى لا تبعد إلا أميالاً قليلة عن كالكتا. وأمام المرء مستقبل زاهر إذا اهتم بمسرحيتين هما **الملك لير** و**يوليوس قيصر**، مثلما فعل هو نفسه، فهما مسرحيتان يهتم الممتحنون بهما كثيرًا. وليست **الملك لير** حافلة بالإشارات التاريخية مثل **يوليوس قيصر**،

وثمن النسخة ٤ 'أنات' ولكن يمكنه الحصول عليها مستعملة من سوق 'بـاو' فى كلكتا بنصف الثمن. وأما ما هو أهم من وردزورث أو كبار المؤلفين مثل إدموند بيرك (١٧٢٩-١٧٩٧) الخطيب والكاتب الأيرلندى وچـوليوس هيـر (١٧٩٥-١٨٥٥) المترجم والمحرر، فهو فن قياس الأبعاد، ذلك العِلْم العظيم. فإذا استطاع الصبى أن يجتاز امتحاناته فى هذه الفروع، وهى التى لا تحتـاج - بالمناسبة - إلى كتب متخمة، أصبح فى إمكانه أن يسير وحسب فى منطقة ما وليس فى يده سوى بوصلة، معتمدًا على بصره الحـاد ونظرتـه السـديدة وحدها، فيرسم فى ذهنه صورة لتلك المنطقة يمكنه أن يبيعها بكميات ضـخمة من العملات الفضية. لكنه لما لم يكن من المتيسر أحيانًا تجوال المرء حـاملاً مقياس المسافات الثقيل، فقد يجمل بالصبى أن يعرف طول خطوته على وجـه الدقة، بحيث لو حُرم مما أطلق عليه هورى شوندر تعبير 'وسـائل المعاونـة العارضة'، استطاع قياس المسافات بخطواته. وأضاف هـورى شـوندر أن متابعة عَدّ آلاف الخطوات تقتضى، حسبما تعلم بالخبرة، حمل مسبحة حباتهـا إحدى وثمانون أو مائة وثمان، ولا أفضل من ذلك، لأن العـدد فيهـا 'يقبـل القسمة وقسمة حاصل القسمة إلى أرقام تقبل الضرب على أكثر من مستوى'. ومن خلال موجات الإنجليزية المتلاحقة استطاع كيم أن يدرك المرمى العـام للحديث، وهو الذى أثار اهتمامه إلى حد بعيد. فها هـى ذى حرفـة جديـدة يستطيع المرء أن يحمل أسرارها فى ركن من أركان رأسـه، وإزاء منظـر العالم الضخم الفسيح الذى ينبسط أمام عينيه، بدا له أنه كلما ازداد معرفة كان ذلك أفضل له.

وبعد أن قضى ذلك الأفغانى ساعة ونصفًا فى الحديث، قـال "أرجـو أن أتمتع بمعرفتك رسميًا يومًا ما. وريثما يحين ذلك، إذا سمحت باستخدامى هـذا التعبير، سوف أعطيك صندوق البلح هذا، وهو شىء عظيم القيمـة وكلفنـى روبيتين من أربع سنوات وحسب". كان الصندوق من النوع الرخيص، صـنع على شكل قلب وبه ثلاثة أقسام خصصت لحمل اللوز الهندى المتوافر دائمًـا، والليمون، وأوراق الأشجار العطرة، ولكنه كان يمتلئ بقوارير صغيرة. وقـال الرجل "هذه مكافأة امتيازك لما قمت به من تمثيل شخـصية رجـل عجـوز.

فالواقع، كما ترى، أنك صغير إلى الحد الذى يجعلك تظن أنك سوف تعيش إلى الأبد فلا تعتنى بصحة بدنك. فما أنكى وأَمَرَّ من أن يمرض المرء فى منتصف مهمة معينة. وأنا نفسى مغرم بالعقاقير، وهى فى متناول اليد لعلاج الفقراء أيضًا. وهذه عقاقير حكومية صالحة، مثل الكوينين وغيره. وأنا أهديك إياها تذكارًا. والآن وداعًا. عندى مهمة عاجلة هنا على جانب الطريق".

وانفلت الرجل خارجًا دون جلبة كالقطة إلى شارع أومبالا فاستوقف عربة عابرة فانطلقت بصليلها، وكيم معقود اللسان، يقلب الصندوق النحاسى بين يديه.

* * *

لا يكاد يهتم أحد بسجل تعليم غلام غير والديه، وكان كيم، كما تعرف، يتيمًا. وتقول الدفاتر فى مدرسة القديس خافيير إن تقارير تقدم كيم فى دراسته كانت تُرسل فى نهاية كل فصل دراسى إلى العقيد كرايتون وإلى الأب فكتور، وكانا يرسلان المال اللازم للمصاريف الدراسية فى المواعيد المقررة. ومن المسجل فى الدفاتر نفسها أن الصبى أبدى موهبة فائقة فى الدراسات الرياضية وفى رسم الخرائط، وفاز ذات يوم بجائزة هى كتاب **سيرة اللورد لورانس** (١٨١١-١٨٧٩) حاكم الهند العام، الصادر فى ١٨٨٣ لمؤلفه ر. بوزويرث سميث، فى جزءين مجلدين تجليدًا فاخرًا، ويباع بسعر تسع روبيات وثمانى أنات، لامتيازه فى تلك الدراسات. وتضيف الدفاتر أن الصبى لعب أثناء الفصل الدراسى نفسه فى فريق كرة القدم بالمدرسة فى المباراة مع فريق كلية أليغور الإسلامية (نسبة إلى بلدة أليغار، التى تقع بين نيودلهى وأجرا). وأن سنه كانت عندها أربعة عشر عامًا وعشرة شهور. كما أعيد تطعيمه، وهو ما نستدل منه على انتشار وباء الجديرى من جديد فى لوكناو، فى نحو ذلك الوقت نفسه. وتقول ملاحظات بالقلم الرصاص على هامش كشوف الحضور والغياب إنه عوقب عدة مرات على 'التحادث مع أشخاص لا تليق مخاطبتهم' ويبدو أنه حكم عليه مَرَّةً بعقوبات قاسية 'بسبب غيابه يومًا كاملاً بصحبة متسول فى الشارع'. وكان ذلك عندما تسلق البوابة وظل يناشد اللاما طوال الليل على ضفاف نهر 'جومتى' أن يصحبه للانطلاق فى المسير أثناء العطلة

التالية – مدة شهر واحد – أو حتى أسبوعًا قصيرًا. وظل اللاما يعارض ذلك برأس كأنه حجر الصوان، محتجًا بأن الوقت لم يحن. وقال الرجل العجوز وهما يأكلان الفطائر معًا إن مهمة كيم الآن هى الحصول على حكمة الإنجليز كلها، وبعدها ينظر اللاما فى الأمر. ويبدو أن 'يد الصداقة' قد نجحت بأسلوب ما فى إبعاد 'سوط الكارثة'، بتعبير كيم، إذ إنه اجتاز بعد ستة أسابيع، فيما يبدو، امتحانًا فى مبادئ المساحة 'بتقدير رفيع' وكان عمره آنذاك خمس عشرة سنة وثمانية أشهر. ومن هذا التاريخ تلزم دفاتر المدرسة الصمت. ولا يظهر اسمه بين الذين دِخلوا الامتحان السنوى للحصول على شهادة المساحة الهندية الثانوية، ولكنْ كُتب أمام اسمه بين أفراد تلك الدفعة 'خرج من المدرسة بناء على اتفاق'.

وقد أتى اللاما عدة مرات فى هذه السنوات الثلاث لزيارة لوكناو من معبد 'تيرثانكار' فى بيناريس، وقد ازدادت نحافته قليلاً وازداد اصفرار وجهه بعض الشيء، إن كان من الممكن تصور زيادة هذا وذاك، لكنه كان لايزال لطيفًا كما كان. وأحيانًا كان يأتى من الجنوب – أى من جنوب توتيكورين (فى طرف الهند الجنوبى الشرقى) – التى تبحر منها الزوارق النارية الرائعة إلى جزيرة سيلان حيث يعيش الكهنة الذين يعرفون لغة پالى (لغة الكتب المقدسة للبوذية)، وأحيانًا من مناطق الغرب الخضراء المطيرة حيث تحيط ألف مدخنة من مداخن مصانع القطن بمدينة بومباى، كما أتى مرة من الشمال، وقطع فى رحلة العودة ثمانمائة ميل لقضاء يوم فى الحديث مع 'حارس الصور' فى بيت العجائب. وكان يخطو خطواته الواسعة فوق الرخام المنحوت البارد فى المعبد – فكهنة المعبد كانوا يحسنون معاملة الرجل العجوز – فيغتسل ليزيل تراب الرحلة ثم يصلى قبل أن يرحل إلى لوكناو، بعد أن اعتاد ركوب القطار، فى الدرجة الثالثة. وعند عودته كان من الملاحظ، كما ألمح صديقه الباحث إلى رئيس الكهنة، أنه قد كفَّ مؤقتًا عن البكاء على فقدان نهره، أو رسم صور عجيبة لعجلة الحياة، لكنه كان يفضل الحديث عن جمال وحكمة تلميذ له تكتنفه الأسرار، ولم يكن أحد من رجال المعبد قد شاهده قط. نعم، لقد اقتفى آثار القدمين المباركتين (لبوذا) فى شتى أرجاء الهند، إذ كان أمين المتحف فى

لاهور لايزال يحتفظ بوصف بالغ الروعة لجولاته وتأملاته. لم يبق لــه فــى الدنيا إلا العثور على نهر السهم، لكنه قد بُيِّن له فى أحلامه أن ذلك أمر مــن المحال القيام به بأى أمل فى النجاح إلا إن كان هذا الباحث يــصطحب معــه التلميذ الأوحد الذى عُيِّنَ لإنجاح المسعى والذى اكتسب حكمة بالغة، كالحكمــة التى يتحلى بها حراس الصور ذوو الأشعر الأبيض. وأدلى للتدليل على ذلــك بالقصة التالية، على سبيل المثال، بعد أن أخرج علبة نشوقه وأســرع كهــان 'الــچــانية' الرحماء بالتزام الصمت، إذ قال:

"من زمن بعيد موغل فى القدم، عندما كان ديــڤــاداتا ملكًا على بيناريس – فليصغ الجميع إلى الحكاية البوذية الحكيمة!.. وقع فيل بُرْهَــةً فــى أسْــرِ صيادى الملك، وقبل أن يستعيد حريته كانت حلقة حديدية من الأصــفاد تغــل إحدى قوائمه. وحاول التخلص منها بجنون والغل فى قلبــه، فأخــذ يجــرى مخبولاً فى كل اتجاه فى الغابات طالبًا إخوته مــن الفيلــة حتــى يكــسروها. وحاولوا، الواحد بعد الآخر، إخراجها بخراطيمهم القوية عبثًا. وأخيرًا أعربوا عن رأيهم أن الحلقة لن تكسرها أية قوة حيوانية. وكان فى دغل قريب دغفــلٌ رضيع لايزال مبللاً بآثار الولادة، ولم يكن عمره يتجاوز يومًا واحدًا، وينتمى إلى عائلة الفيلة نفسها، ولكن أمه ماتت. ونسى الفيل المغلول آلامه قائلاً فــى نفسه "إن لم أساعد هذا الرضيع فسوف يموت تحت أقدامنا". وهكــذا وقــف لحراسة الصغير مستعملاً أرجله قلاعًا تحميه من حركة القطيع القلق. وســأل بقرة فاضلة أن تعطيه بعض اللبن، فتغذى الدغفل وترعرع، وإلى جواره الفيل ذو الحلقة الحديدية يَهْدِيه ويدافع عنه. فليصغ الجميع إلــى الحكايــة البوذيــة الحكيمة! تعرفون أن الفيل لا يبلغ أشده إلا بعد خمس وثلاثين ســنة، وعلــى امتداد خمسة وثلاثين موسمًا مطيرًا ظل الفيل ذو الحلقة الحديدية صديقًا للفيل الأصغَر، والقيد ينحر فى لحم جسده طوال الوقت.

"ثم حدث ذات يوم أن شاهد الفيل الشاب الحلقة الحديدية المنغرســة فــى اللحم فالتفت إلى الكبير وقال "ما هذه؟" فقال الفيل صديقه "إنها مصدر حزنى" وعندها مد الشاب خرطومه وفى لمح البصر أزالهــا قــائلاً "حــان الموعــد المضروب". وهكذا استراح الفيل الفاضل الذى انتظر صابرًا وأبــدى الــشفقة

والعطف، عندما حان الموعد المضروب، بفضل ذلك الدغفل نفسه الذى حول الكبير مسيرته لإعزازه وحبه – فليصغ الجميع إلى الحكاية البوذية الحكيمة! – فلم يكن الفيل إلا أناندا، ولم يكن الدغفل الذى كسر الحلقة سوى المولى نفسه...".

وعندها كان اللاما يهز رأسه هز الشفوق، وعلى صوت قعقعة حبات المسبحة التى لا تتوقف يحكى مدى صفاء قلب ذلك الدغفل وخلوه من خطيئة الكبر. كان فى تواضع التلميذ الذى هَبَّ حين رأى أستاذه جالسًا خارج 'أبواب العلم' فوثب من فوق الأبواب وإن كانت مُحكمة الإغلاق، واحتضن أستاذه بقلبه فى حضور المدينة التي يفعم الكبر بطونها. ما أعظم الجزاء الذى سوف يلقاه مثل هذا المعلم ومثل هذا التلميذ حينما يحين موعد سعيهما للحرية معًا!

هكذا تكلم اللاما، رائحًا غاديًا فى أرجاء الهند بخفة الخفاش. وقامت امرأة عجوز حادة اللسان تعيش فى قرية أشجار الفاكهة خلف سهارنپور بتكريمه مثلما كرمت المرأة أحد الأنبياء فى الكتاب المقدس (ملوك ثانى ٤/٩) ولكن غرفته لم تكن مثل غرفة ذلك النبى فوق الجدار. كان يقيم فى شقة فى الفناء الأمامى، وكان يجلس فيها يستمع لهديل الحمام من فوقه، وقد رفعت المرأة لثامها الذى لم تعد له فائدة وجعلت تتكلم عن أرواح كولو وشياطينها، وعن أحفاد لها لم يولدوا، وعن الولد الشقى ذى اللسان المنفلت الذى كلمها فى محطة الراحة. وحدث ذات يوم أيضًا أن شرد عن طريق العربات الكبير الخارج من أومبالا متجهًا إلى القرية نفسها التى حاول كاهنها تخديره فيها، ولكن السماء الشفوق التى تحرس اللاما وأمثاله أرسلته فى الغسق إلى باب الجندى السابق نفسه، بعد أن عبر الحقول الزاخرة بالمحاصيل، مستغرقًا فى تأملاته وغير مستريب بشيء. وفى منزل الجندى بدا أن بينهما سوء تفاهم خطير، إذ سأله الجندى الهرم عن سبب انطلاق صديقه الصغير، صديق النجوم، فى ذلك الطريق منذ فترة لا تزيد على ستة أيام.

وقال اللاما "هذا محال. لقد عاد إلى أبناء جلدته".

ولكن مضيفه جعل يؤكد ذلك قائلاً "كان يجلس فى هذا الركن منذ خمسة

أيام ويقص قصصًا طريفة. صحيح أنه اختفى فجأة على نحو ما بعد تبادل أحاديث حمقاء مع حفيدتي في الفجر، ولكنه ينمو بسرعة، فهو لا شك صديق النجوم نفسه الذي أدلى إليَّ بالخبر الصادق عن الحرب. هل افترقتما؟".

وقال اللاما "نعم... ولا! لم نفترق فراقًا مطلقًا، ولكن الوقت لم يَحِنْ للانطلاق في المسير معًا. إنه يكتسب الحكمة الآن في مكان آخر. علينا أن نصبر".

"لا يهم. لكنه إن لم يكن الصبي نفسه، فكيف تَأَتَّى له أن يتكلم دون توقف وباستمرار عنك؟".

وسأله اللاما بلهفة "وماذا قال؟".

"كلمات عذبة – مائة ألف منها – أنك أبوه وأمه ونحو ذلك. يؤسفني ألا يلتحق بخدمة الملكة. إنه لا يعرف الخوف".

وأدهشت هذه الكلمات اللاما، الذي لم يكن يعرف آنئذ بالتفاني الذي يبديه كيم في الالتزام بالعقد المبرم مع محبوب علي، والذي صادق عليه العقيد كرايتون بالضرورة ...

كان تاجر الخيول قد رَدَّ على العقيد عندما أشار إلى هذا إلى أن التسكع كالمشردين في أرجاء الهند في وقت العطلة عبث أي عبث قائلاً "من المحال الحيلولة بين المُهر الصغير وممارسة اللعبة" ثم أضاف قائلاً "إذا لم يُسمح له بأن يمضي ويعود كما يحلو له فلسوف ينتهك هذا الحظر. ومن ذا عساه أن يلحق به عندها؟ أصغ إليَّ أيها السيد العقيد، لا يحدث إلا مرة كل ألف عام أن يولد حصان مؤهل التأهيل الكامل لممارسة اللعبة مثل هذا المهر الصغير. ونحن في حاجة إلى رجال".

الفصل العاشر

ذاكَ صَقْرٌ قد قَضَى وَقْتًا طَوِيلاً

يَتَغَذَّى بَعْدَ أنْ شَبَّ بمهْدِهْ

لم يَعُدْ فَرْخًا ضَئِيلاً!

بلْ هُو الصَّقْرُ الذى مِنْ قَبْلِ صَيْدِهْ

ذَرَعَ الدُّنْيا وطَارْ

راكبًا حَشْدًا مِنَ الأَخْطَارْ

إنْ يكنْ صَقْرى علىَ القُفَّاز عِنْدِى

لَتَرَكْتُ الصَّقْرَ يَعْلُو ثم يَعْلُو فى السَّمَاءْ

بِرَفِيقٍ سَابِحًا فى شَاهِقِ الأَجْوَاءْ

إنه اليومَ لَصَيَّادُ العَلاءْ

رِيشُهُ الكَامِلُ قد زَانَ الجَنَاحْ

وله آدابُ صَيَّادٍ خَبِيرٍ سَاحَ فى الدُّنْيا وَجَاحْ

أَعْطِهِ صَدْرَ السَّما! فلقد أَنَشْأَهَا البَارِى لَهُ

ما عَسى أنْ يَسْلُبَ الصَّقْرَ الهَوَاءْ؟

(نوبة حراسة 'جاد')

لم يكن السيد لورجان يستخدم مثل محبوب التعبير المباشر، ولكن نصائحه لكيم لم تكن تختلف عن نصائح الأخير، وكانت النتيجة خيرًا على كيم. لقد عرف الآن مغبة مغادرة مدينة لوكناو مرتديا زى أبناء البلد، وإذا كان محبوب فى أى مكان يمكن إرسال خطاب إليه فيه، كان كيم يقصد مخيم صاحبه ويغير ملابسه تحت بصر الأفغانى الحذر. ولو كان لصندوق الألوان الصغير الذى

يستخدم فى إعداد خرائط المساحة الهندسية لسان ينطق، وهو الذى كان يستخدمه كيم فى خرائطه أثناء الفصل الدراسى، لقص قصصًا عن أفعال اليافع فى العطلات ولأدى الإفصاح إلى طرده من المدرسة. وذات يوم ذهب مع محبوب على إلى مدينة بومباى الجميلة، مع ثلاث عربات مليئة بأحصنة الترام، وكاد محبوب أن يستجيب لصديقه عندما اقترح كيم أن يبحر فى سفينة شراعية عبر المحيط الهندى إلى حيث تباع خيول الخليج العربية (على سواحل الخليج العربى) وهى التى كان كيم قد فهم من أحد أتباع تاجر خيول يدعى عبدالرحمن أنها تباع بأسعار أغلى من الخيول الأفغانية.

وغمس كيم يده فى طبق الطعام مع ذلك التاجر العظيم عندما دُعى محبوب وعدد ممن يدينون بالإسلام مثله إلى وليمة كبرى بمناسبة الحج. وعادا معًا بحرًا من طريق كراتشى الساحلية، على البحر العربى، (فى باكستان الآن) وعندها خبر كيم لأول مرة فى حياته دوار البحر، واقفًا فى الفتحة الأمامية لإحدى البواخر، وقد رسخ فى نفسه أن بعضهم قد دَسَّ السُّمَّ له. واتضح أن صندوق العقاقير الشهير الذى أخذه من الرجل المهيب عديم الجدوى، على الرغم من أن كيم أعاد ملء قواريره فى بومباى. وكان على محبوب أن يقوم بمهمة فى ثكنة 'كويتا' العسكرية التى تبعد عن لاهور بما يزيد على ٧٠٠ كيلو متر (فى بلوخستان، وهى الآن فى باكستان) وهناك استطاع كيم أن يكسب رزقه، باعتراف محبوب نفسه، وربما كسب المزيد، حين قضى أربعة أيام غريبة فى العمل مساعدًا للطهاة فى منزل رقيب سمين فى إدارة الميرة والتموين بالجيش، وتمكن فى لحظة مواتية من التقاط دفتر حسابات صغير صُنِعَ من الرق، من صندوق المكتب، وانكب عليه ينسخ ما فيه – كان فيما يبدو يتناول مبيعات الأبقار والجمال فقط – فى ضوء القمر، مستلقيًا على الأرض خلف كوخ خارجى، حتى انتهى من نسخه كله فى ليلة حارة واحدة. ثم أعاد دفتر الحسابات إلى مكانه، وبناءً على طلب محبوب، ترك خدمة ذلك الرجل دون أن يتلقى أجره، ثم عاد إلى الالتحاق بمحبوب على مبعدة عشرة كيلومترات على الطريق، والنسخة الجيدة فى صدره.

وأوضح محبوب المسألة قائلاً "ذلك الجندى سمكة صغيرة، ولكننا سوف نصيد به السمكة الكبيرة يومًا ما. وهو لا يفعل إلا أن يبيع الثيران بسعرين، سعر لنفسه وسعر للحكومة، ولا أظن أن ذلك خطيئة".

"ولماذا لا أستولى على الدفتر الصغير وننتهى من القضية؟".

"سيصاب بالخوف فى هذه الحالة ويخبر سيده. وعندها ربما يضيع علينا عدد كبير من البنادق الجديدة التى تحاول أن تشق طريقها من كويتا إلى الشمال. اللعبة شاسعة إلى الحد الذى لا نرى معه إلا جزءًا صغيرًا منها كل مرة".

قال كيم "أوهو!" وأمسك لسانه. كان ذلك فى عطلة الأمطار الموسمية، بعد أن فاز بجائزة التفوق فى الرياضيات. وأما عطلة عيد الميلاد المجيد فقد قضاها – باستثناء عشرة أيام خصصها لمتعه الخاصة – مع السيد لورجان، حيث قضى معظم الوقت أمام مدفأة يئز لهيبها، إذ كان طريق جاكو مغطى بما يزيد على ارتفاع متر من الثلوج، ولما كان الهندوسى الصغير قد رحل ليتزوج، فقد عمل كيم بمساعدة لورجان فى إدخال الجواهر فى خيوط العقود. وجعل كيم يحفظ سُوَرًا كاملة من القرآن عن ظهر قلب، حتى يستطيع قراءتها بأساليب وإيقاعات الفقهاء نفسها. كما أحاط كيم بأسماء وخصائص عقاقير محلية كثيرة، وكذلك بالتعاويذ التى لابد من ترديدها عند تقديمها للمرضى. وكان فى الأمسيات يكتب تمائم على رق الغزال، فى أشكال خماسية معقدة تكللها أسماء الشياطين – 'مُرَّة'، و'عوان' رفيق الملوك – وكلها مكتوب بطريقة عجيبة فى الأركان. والأهم من ذلك إرشاد كيم إلى أسلوب العناية بجسده، وكيفية الشفاء من نوبات الحمى، وبعض أنواع العلاج البسيطة اللازمة لأزمات الطريق. وقبل موعد الرحيل بأسلوع، أرسل السيد العقيد كرايتون إلى كيم ورقة امتحان مكتوبة – وهو ما كان من الظلم – حافلة بالمقاييس المختلفة والوصلات والزوايا.

وأثناء العطلة التالية خرج مع محبوب، ونذكر بالمناسبة هنا أنه كاد يموت

من العطش وهما يَخُبَّانِ فى الرمال على ظهر جمل إلى مدينة بيكانير الغامضة غربى دلهى إذ يكاد يبلغ عمق الآبار فيها ١٢٠ مترًا، وكلها مبطنة بعظام الجمال. لم تكن الرحلة مسلية من وجهة نظر كيم، لأن العقيد أمره، خرقًا للعقد، بإعداد خريطة لتلك المدينة 'البرية' ذات الأسوار. ولما كان غلمان الخيول المسلمون والمشرفون على تقديم النارجيلة لا يُتَوَقَّعُ منهم جَرٌّ سلاسل المقاييس حول عاصمة ولاية محلية مستقلة، اضطُر كيم إلى حساب المسافات سيرًا على قدميه مستعينًا بحبات مسبحة. وكان يستخدم البوصلة لمعرفة الاتجاهات وفقًا للظروف المواتية، أساسًا بعد هبوط الظلام، بعد الانتهاء من تغذية الجمال، مستعينًا بصندوق ألوان المساحة الهندسية الصغيرة، الذى يضم مصادر لستة ألوان وثلاثة فراجين. وعندما اكتمل العمل كان ما أنجزه لايختلف إلا قليلاً عند منظر مدينة 'چـايسالمر' الصحراوية. وضحك محبوب طويلاً وأشار إليه بإعداد تقرير مكتوب أيضًا، وهكذا جلس كيم فى ظل دفتر الحسابات الكبير الذى يضعه محبوب تحت سرجه المفضل وانطلق يعمل.

"لابد أن يتضمن تقريرك كل شىء شاهدتَه أو لمستَه أو فكرتَ فيه. اكتب كأن القائد العام الإنجليزى نفسه قد أقبل خُلْسَة مع جيش جَرَّار يريد الحرب".

"وما عدد أفراد الجيش الجرار؟".

"خمسون ألف رجل".

"حماقة! تذكر كيف كانت الآبار فى الرمال قليلة وسيئة. لن يقترب من هذا المكان ولا ألف رجل عطشان".

"إذن فاكتب ذلك. واذكر أيضًا كل الصدوع القديمة فى الأسوار، والأماكن التى يُقتطع الحطبُ منها. وصفْ مِزاج الملك وحالته النفسية. سأمكث هنا حتى تُباع جميعُ خيولى. وسوف أستأجر غرفة لدى المدخل، وسوف تعمل محاسبًا عندى. والباب عليه قُفْلٌ مُحكم".

وظل ذلك التقرير المكتوب بالخط الذى تتميز به مدرسة القديس خافيير،

والذى لا يمكن أن تخطئه العين بحروفه المتشابكة، وكذلك الخريطة التى انتشرت فيها الألوان البنية والصفراء والقرمزية، فى أرشيف المحفوظات حتى عهد قريب – عدة سنوات – إذ إن موظفًا كتابيًّا مهملاً دَسَّها فى الملفات فى مسودات الملاحظات التى كتبها "راء ٢٣" التابع لقسم مساحة 'سيستان' (فى أفغانستان) ولكن الحروف المكتوبة بالقلم الرصاص أصبحت باهتة اللون لا تكاد تقرأ. وترجم كيم التقرير، وهو يتصبب عرقًا فى ضوء المصباح الزيتى، على أسماع محبوب، فى اليوم الثانى من أيام رحلة العودة. ونهض الأفغانى فانحنى على حقائب سرجه المرقشة.

وقال محبوب مبتسمًا "كنت واثقًا أنك ستكون جديرًا بمكافأة من ملابس التكريم، ولهذا أعددتها لك. لو كنت أمير أفغانستان (وربما رأيناه يومًا ما) لملأْتُ فمك بالذهب". ووضع الملابس رسميًّا عند أقدام كيم. كان من بينها عمامة مزركشة بالذهب من طراز بيشاور، فى أعلاها قُمع، وقطعة كبيرة من قماش العمامة ذات حواش ذهبية، وصدار مزركش من طراز دلهى يُلبس فوق قميصٍ فى بياض اللبن، وأزراره على اليمين، فضفاض منسدل، وسروال أخضر حزامه من الحرير المفتول، وحتى لا ينقص الزى شيء، أضيف خُفٌّ من الجلد الروسى، يفوح شذاه العطر، وله أطراف مدببة مقوسة فيما يشبه الصلف إلى أعلى.

وقال محبوب بنبرات وقورة "ارتداء ملابس جديدة فى صباح يوم الأربعاء فأل حسن. ولكننا يجب ألا ننسى الأشرار فى هذه الدنيا. ولذلك!".

وتَوَّجَ هذه الروعة كلها التى قطعت أنفاس كيم انبهارًا بمسدس من عيار ٤٥مم يلفظ الفوارغ ذاتيًّا، بقشرة من النيكل، ومُزَيِّن بالأصداف.

"كنت أريد إحضار مسدس ذى عيار أصغر لكننى فضلت هذا لأنه يقبل الطلقات الحكومية. ويستطيع المرء الحصول عليها فى كل وقت، خصوصًا عبر الحدود. قف ودعنى أنظر إليك". وربت على كتف كيم قائلاً "لا أنهكَ الله

قوتك أبدًا أيها الأفغانى! لهفى على القلوب التى ستتحطم! لهفى على العيون تحت الأهداب تخالسك النظر!".

واستدار كيم، وتصلبت أصابع قدميه، وتمطى، ومر بيده بصورة تلقائية يتحسس شاربه الذى كان قد بدأ الظهور. ثم انحنى تجاه قدمى محبوب للتعبير السليم عن امتنانه ويداه ترتعدان وتربتان بسرعة، والغبطة فى قلبه تعقد لسانه. ولكن محبوب أسرع بمنعه مما كان ينتوى أن يفعل وعانقه.

وقال محبوب "ولدى! ما حاجتنا إلى تبادل الألفاظ؟ لكن أليس المسدس الصغير مبهجًا؟ يمكن إطلاق العبوات الست كلها بضغطة واحدة. ولابد من وضع المسدس فى الصدر ملاصقًا للبشرة، فذلك – إن صح التعبير – يحافظ على الزيت فى عُدَّته. لا تضعه فى أى مكان آخر، وإن شاء الله سوف تقتل به رجلاً ما يومًا ما".

وقال كيم بنبرة حزينة "فعلا! إذا قتل إنجليزىٌ رجلاً شنقوه فى السجن".

"صحيح. لكنك إن عبرت الحدود بخطوة واحدة وجدت الرجال أشد حكمة. احفظ المسدس الآن فى مكان آمن، ولكن عَمِّرْه أولاً بالرصاص. ما فائدة المسدس الخالى؟".

"عندما أرجع إلى المدرسة لابد أن أعيده إليك، فحمل المسدسات الصغيرة غير مسموح به. ألن تحتفظ لى به؟".

"اسمع يا ولدى! لقد سئمت تلك المدرسة حيث يحرمون المرء من أحلى سنوات عمره، كى يعلموه ما لا يستطيع أن يتعلمه إلا بالتجوال. حماقة لا أول لها ولا آخر. غير مهم. ربما ينقذك تقريرك المكتوب من استمرار الأسر، ويعلم الله أننا فى حاجة متزايدة إلى الرجال فى اللعبة".

وانطلقا معًا، وقد أغلق كل منهما فمه فى وجه الرمال التى تذروها الرياح، عبر الصحراء المريرة إلى 'چوذپور'، حيث قام محبوب وابن أخيه الوسيم حبيب الله بعقد صفقات تجارية كثيرة، ثم اتجه كيم بملابسه الأوروبية

التى أخذت تضيق عليه بسرعة إلى القطار حيث ركب فى الدرجة الثانية عائدًا إلى مدرسة القديس خاڤيير. وبعد ثلاثة أسابيع كان العقيد كرايتون منهمكًا فى تقدير أثمان بعض الخناجر التيبتية فى دكان لورجان حين فوجئ بثورة محبوب على المباشرة، وقام السيد لورجان بتوفير الدعم الاحتياطى له.

قال تاجر الخيول "اكتمل نمو المُهر! انتهى الأمر! فقد اعتاد الشكيمة وتعلم السرعات الصحيحة أيها السيد! من الآن فصاعدًا، ويومًا بعد يوم، سوف ينسى ما تعلمه إذا واصلتم الألاعيب معه. ألقوا الحبل على الغارب له ودعوه يمضى. نحن فى حاجة إليه".

"لكنه صغير جدًا يا محبوب، ألا يزال فى السادسة عشرة؟".

"عندما كنت أنا في الخامسة عشرة، كنت قتلت رجلاً وأنجبت رجلاً أيها السيد!".

"يا لك من وثني صفيق!" والتفت كرايتون إلى لورجان ولكن ذا اللحية السوداء أومأ موافقًا على حكمة الأفغانى ذى اللحية المصبوغة باللون القرمزى.

قال لورجان "لو كان الأمر بيدى لاستخدمته من زمن طويل. كلما صغرت سنه زاد نفعه. ولهذا دائمًا ما أعيِّن طفلاً لمراقبة جواهرى الثمينة حقًّا. لقد اختبرته بكل السبل الممكنة، لكنه الغلام الوحيد الذى عجزتُ عن جعله يرى ما ليس موجودًا".

وسأله محبوب "فى 'البنورة؟' فى بقعة الحبر؟".

"لا. بل تحت يدى كما قلت. لم يحدث لى ذلك من قبل قط. ومعنى هذا أن لديه القوة الكافية، لكنك أيها العقيد كرايتون تظن أن جعل شخص يفعل ما تريده أنت لهو ولعب. وكان هذا منذ ثلاث سنوات. ولقد علمته الكثير منذ ذلك الحين أيها العقيد. أعتقد أنك الآن تهدر مواهبه".

وغمغم كرايتون قائلاً "ربما تكون على صواب. ولكن، كما تعرف، لا يوجد عمل فى المساحة الهندسية يناسبه حاليًا".

وقاطعه محبوب قائلاً "أطلق سراحه! دعه يمضى! من ذا الذى يتوقع من مُهْرٍ أن يحمل أثقالا كبيرة أول الأمر؟ دعه يجرى مع القوافل، مثل الفصيل مع الجمال، من باب التفاؤل. وددت لو أخذته أنا ولكن...".

وقال لورجان "توجد مهمة صغيرة قد ينفعنا فيها إلى أقصى حد.. فى الجنوب" كانت نبراته تفيض عذوبة، وقد أغلق جفنيه الثقيلين.

وقال كرايتون بسرعة "أ-٢٣ يتولى ذلك الآن. لا ينبغى أن يذهب هناك. أضف إلى ذلك أنه لا يجيد اللغات التركية (فى أواسط آسيا)".

وقال لورجان بإصرار "ما عليك إلا أن تُطْلِعَهُ على شكل ورائحة الخطابات التى نريدها وسوف يعود إلينا بها".

وقال كرايتون "لا. تلك مهمة تتطلب رجلاً بالغًا".

كانت المهمة عسيرة وتنحصر فى تبادل خطابات بالغة الإثارة وغير مصرح بها بين شخص يزعم لنفسه السلطة القصوى فى جميع الأمور المتعلقة بالدين الإسلامى فى شتى أرجاء العالم، وبين شاب من أسرة ملكية حوسب على اختطاف النساء داخل الأراضى التابعة للحكم البريطانى. كان كاهن الإسلام الكبير ذا نبرات قاطعة تتميز بالغطرسة الزائدة، وكان الأمير الشاب مكتئبًا وحسب بسبب فرض القيود على امتيازاته والانتقاص منها، لكنه لم يكن ينبغى له أن يواصل المراسلات التى قد تؤدى ذات يومٍ إلى الإساءة إليه. والواقع أنه قد عُثر على أحد الخطابات فعلاً ولكن الذى عَثَرَ عليه وُجد مقتولا على جانب الطريق فى وقت لاحق، فى ملبس تاجر عربى، على نحو ما أرسله "أ-٢٣" من معلومات عندما تولى تلك المهمة.

وأدت هذه الحقائق، وعدد من غيرها مما لا ينبغى نشره، إلى أن يهز كل من محبوب وكرايتون رأسه.

وقال تاجر الخيول بمجهود واضح "دعه يخرج مع اللاما الأحمر. إنه مغرم بالرجل العجوز، وعلى الأقل سوف يتعلم قياس المسافات بخطواته على حبات المسبحة".

وقال كرايتون، وهو يبتسم لنفسه "سبق لى أن تعاملت مع العجوز، من خلال الخطابات. إلى أين يمضى؟".

وقال محبوب "يذرع الأرض جيئة وذهابًا، كما ظل يفعل فى هذه السنوات الثلاث. إنه يطلب نهرًا يأتى بالشفاء. لعنة الله على كل..." وسيطر محبوب على لسانه ثم قال "وهو يبيت فى معبد 'تيرثانكار' أو فى 'بوذ جايا' عندما يعود من جولاته. ثم يذهب لمقابلة الغلام فى المدرسة، كما نعلم، إذ عوقب الغلام على ذلك مرتين أو ثلاثًا. إنه مخبول فعلاً ولكنه رجل مسالم. ولقد سبقت لى مقابلته. كما تعامل معه البنغالى أيضًا عدة مرات. وجعلنا نراقبه ثلاث سنوات. ورغم عدم شيوع اللامات الحمر فى الهند، فأحيانًا ما يضيع الأثر ممن يقتفيه".

وقال لورجان بنبرات تأمل "هؤلاء البنغاليون بالغو الغرابة. هل تعرف ما يريده هورى البنغالى حقًا؟ يريد أن يصبح عضوًا فى الجمعية الملكية، من خلال الكتابة عن الأعراق المختلفة. صدقانى، لقد أخبرته بكل خصائص اللاما التى أخبرنى بها محبوب والصبى، كما ذهب هورى البنغالى إلى بيناريس، على حسابه الخاص فيما أعتقد".

وقال كرايتون باقتضاب "لا أعتقد أنا ذلك". كان قد دفع تكاليف رحلة هورى إذ كان يدفعه حب استطلاع بالغ التوقد إلى معرفة ماهية اللاما الحقيقية".

"وهو يلجأ إلى اللاما للحصول على معلومات عن 'اللامية' ورقصات الشياطين، والتعاويذ والتمائم، بل فعل ذلك عدة مرات فى هذه السنوات الثلاث. يا للبتول المقدسة! كان يمكننى أن أحيطه بكل ذلك منذ ثلاث سنوات. أظن أن تقدم هورى البنغالى فى السن لم يعد يسمح له بالتجوال. وهو يفضل أن يجمع المعلومات عن طبائع السلوك والعادات. نعم، إنه يريد أن يصبح عضوًا فى الجمعية الملكية".

"أفلا يعتقد هورى أن الصبى ممتاز؟".

"بل ممتاز جدا. لقد قضينا معًا بعض الأمسيات الممتعة فى بيتى الصغير، لكننى أرى أنه من الإهدار أن نلحقه بهورى فى مجال الدراسات العرقية".

"لا يناسب ذلك تجربته الأولى. ماذا ترى فى ذلك يا محبوب؟ دعنا نترك الصبى ينطلق مع اللاما ستة أشهر. وبعدها نرى ما ينبغى فعله. لسوف يكتسب خبرة".

"لديه الخبرة الآن يا سيدى، فعلاً! إنه كالسمكة التى تتحكم فى المياه التى تسبح فيها. ولكن جميع الأسباب تبرر إطلاق سراحه من المدرسة".

وقال كرايتون، كأنما يكلم نفسه "لا بأس إذن. له أن يذهب مع اللاما، فإذا قرر البنغالى هورى أن يراقبهما معًا، كان ذلك خيرًا وبركة. لن يوقع الصبى فى أى أخطار، على نحو ما يوقعه محبوب. غريب هذا الأمر! أقصد رغبته فى الانضمام إلى الجمعية الملكية. ولكنها رغبة بشرية خالصة أيضًا. لا يَفْضُلُه أحد حاليًا فيما يتعلق بدراسة الأعراق – هورى!".

لم يكن للإغراء بالمال أو الترقى أن يصرف كرايتون عن عمله بمصلحة المساحة الهندية، ولكن الطموح كان يكمن في أعماق قلبه بأن يصبح زميلاً فى الجمعية الملكية (للبحث العلمى) وبأن يضع الحروف الأولى التى ترمز لذلك اللقب بعد اسمه. وكان يعرف أنه يمكن الحصول على مرتبة شرف من نوع ما بالقدرة على الابتكار ومعونة الأصدقاء، لكنه كان يعرف أيضًا أنه لن يلتحق بالجمعية إلا بالعمل الدائب – بأبحاث تمثل حياة مكرسة لذلك – وهو ما دفعه إلى أن يُمْطِرَهَا على مَرِّ سنوات طويلة بالدراسات عن العقائد الدينية الآسيوية الغريبة والعادات المجهولة. إن تسعة رجال من عشرة سوف يفرون من شدة الضجر إذا حضروا إحدى الأمسيات العلمية للجمعية الملكية، ولكن كرايتون كان الرجل العاشر، وأحيانًا ما كانت نفسه تتوق إلى الغرف المزدحمة فى لندن التى يتيسر فيها العيش، حيث يقف رجال مهذبون ذوو شعر فضى، وذوو رؤوس صلعاء، لا يعرفون شيئًا عن الجيش، وينتقلون بين التجارب بمطياف الضوء، وبين النباتات القصيرة لأراضى التندرا المتجمدة،

والآلات الكهربائية لقياس سرعة الطيران، والأجهزة القادرة على تشريح عين أنثى البعوض إلى قطع يقل سمكها عن كَسْرٍ صغير من المليمتر. الحق والمنطق يقولان إنه كان ينبغى أن يطمح إلى الجمعية الجغرافية الملكية، ولكن الرجال تحكمهم المصادفة مثل الأطفال فى اختيارهم للعب. وهكذا ابتسم كرايتون، وأحسن الظن بهورى البنغالى الذى تحفزه رغبة مماثلة.

وألقى خنجره الزائف وتطلع إلى محبوب.

وعرف تاجر الخيول دلالة نظرته فقال "ما أقرب وقت نستطيع إخراج المُهْر فيه من الاصطبل؟".

وغمغم الرجل قائلاً "إذا أمرت بإخراجه الآن فما تظن أنه سوف يفعل؟ لم أساعد قط من قبل على تعليم مثل هذا الشخص!".

وأجاب محبوب بسرعة "سيأتى إلىّ. سنتولى أنا والسيد لورجان إعداده للانطلاق فى المسير".

"إذن فليكن. فلينطلق ستة أشهر كما يحلو له. لكن من ترى سيرعاه؟".

وأمال لورجان رأسه قليلاً وقال "لن يبوح بشىء، إن كان ذلك ما تخافه، أيها العقيد كرايتون".

"ليس إلا صبيًّا، على أية حال".

"نعم، ولكن، أولاً ليس لديه ما يبوح به، وثانيًا فهو يعرف العواقب. لا! إنه مولعٌ بمحبوب ولَعًا شديدًا، ويحبنى إلى حد ما".

وقال تاجر الخيول ذو النزعة العملية "وهل يتقاضى مرتبًا؟".

"تكاليف الطعام والماء فقط. عشرون روبية فى الشهر".

من مزايا العمل بالجهاز السرى أنه لا يجلب القلق بشأن مراجعة الحسابات. فالجهاز يفتقر إلى التمويل إلى حد مضحك، بطبيعة الحال، ولكن الأموال المتوافرة يديرها أشخاص معدودون لا يطلبون أذون صرف أو

حسابات تفصيلية. ولمعت عينا محبوب ببريق يذكرك بحب طائفة السيخ للمال. بل إن وجه لورجان الجامد تغير. خطر بباله قابل الأعوام حين يدخل كيم مجال اللعبة الكبرى فيمارسها، وهى التى لا تتوقف لا ليلاً ولا نهارًا فى شتى أرجاء الهند. كان يتطلع إلى التشريف والتكريم على أفواه القلة المختارة، بسبب تلميذه. لقد سبق للسيد لورجان أن جعل 'راء-٢٣' ما أصبح عليه 'راء-٢٣'، بعد أن كان شخصًا حائرًا صفيقًا كذابًا خفيض القدر من رجال المقاطعة الشمالية الغربية.

ولكن فرح هؤلاء السادة كان فرحًا شاحبًا ضبابيًّا إن قورن بفرح كيم حين استدعاه مدير مدرسة القديس خاڤيير وانتحى به جانبًا هامسًا إن العقيد كرايتون أرسل يطلبه. "أفهم يا أوهارا أنه وجد لك مكانًا للعمل مساعد مهندس مساحة فى مصلحة الرى. والسبب يرجع إلى دراستك للرياضيات. ما أسعد حظك فعلاً، فأنت مازلت فى السادسة عشرة، ولكنك تدرك بطبيعة الحال أن عملك لن يصبح دائمًا حتى تنجح فى امتحانات الخريف. وإذ فيجب ألا تظن أنك قد انطلقت للدنيا الواسعة للاستمتاع بها أو أن سعدك اكتمل. أمامك قدر كبير من العمل الشاق، ولن تستطيع قبل تثبيتك فى وظيفة دائمة أن ترقى، كما تعلم، إلى أربعمائة وخمسين فى الشهر". وعندها أسدى المدير له نصائح قيِّمة فيما يتعلق بسلوكه، وتصرفاته، وأخلاقه. وأما الآخرون، من يكبرونه سنًا، ممن لم يرتقوا إلى مرتبة التوظف، فقد جعلوا يرددون الكلمات التى لا تصدر إلاّ عن أبناء الجنسية المختلطة - الهندية الإنجليزية - إذ أخذوا يشيرون إلى المحاباة والفساد. بل إن يافعًا يدعى كازاليت، وكان والده متقاعدًا يعيش فى شونار، جعل يلمح إلماحًا عامًا بأن اهتمام العقيد كرايتون بكيم كان مصدره أبويًّا، أى إنه كان ابنًا غير شرعى للعقيد. ولكن كيم لم يَرُدَّ على ذلك، بل ولم يستخدم اللغة أصلاً، إذ كان يشغل باله ما سوف يلقاه من المتع، وخطاب محبوب الذى وصله فى اليوم السابق، وكان مكتوبًا بالإنجليزية وبأسلوب رشيق، ويحدد فيه موعدًا للقاء عصر ذلك اليوم فى منزل لو ذكر اسمه وحسب لوقف شعر رأس مدير المدرسة هَلَعًا...

وقال كيم لمحبوب فى محطة القطار فى لوكناو ذلك المساء عند ميزان الأمتعة: "أخشى أن يسقط السقف فوقى آخر الأمر وأن أكون واهمًا. هل انتهى الأمر فعلاً يا والدى؟".

وفرقع محبوب أصابعه للدلالة على حسم تلك القضية، وكانت عيناه تتوهجان كالجمر المتقد.

"إذن أين المسدس حتى أحمله؟".

"بهدوء! أمامك نصف سنة تنطلق فيها دون قيد فى كعبيك. تلك حدود ما طلبتُه من السيّد العقيد كرايتون. وسوف تتقاضى عشرين روبية فى الشهر. والعجوز ذو القبعة الحمراء يعرف أنك قادم".

"سأدفع لك عمولة على مرتبى لمدة ثلاثة أشهر". وكان صوت كيم جادًّا "نعم روبيتان فى الشهر. ولكننا يجب أولاً أن نتخلص من هذه الملابس". وجعل يشد سرواله القطنى الخفيف وياقة قميصه. "أحضرت معى كل ما أحتاج إليه فى الطريق. وأُرْسِلَتْ حقيبةُ ملابسى إلى منزل السيد لورجان".

"وهو يرسل إليك تحياته... أيها السيد!".

"السيد لورجان رجل بالغ المهارة. ولكن ما عساك أنت أن تفعل؟".

"أذهب إلى الشمال مرة أخرى، فى إطار اللعبة الكبرى، وهل يوجد غير ذلك؟ أمازلت مصممًا على اتباع العجوز ذى القبعة الحمراء؟".

"لا تنس أنه هو الذى جعلنى ما أنا عليه، وإن لم يكن يدرى. كان يرسل فى كل عام المال الذى علمنى".

وغمغم محبوب قائلاً "كنت لأفعل الشىء نفسه، لو لاحت الفكرة لعقلى الغبى. هيا بنا. أضيئت المصابيح ولن يلحظ أحد وجودك فى السوق. سنذهب إلى منزل حنيفة".

وفى الطريق إلى ذلك المنزل أعطاه محبوب النصحية نفسها تقريبًا التى

أعطتها والدة ليموئيل لابنها، ومن الغريب أيضًا أن يتسم محبوب بالدقة فى الإشارة إلى الكتاب المقدس حين قال إن حنيفة ومثيلاتها يدمرن الملوك (**أمثال ٣١/٣**).

وأضاف محبوب فى خبث "وأذكر ما قاله 'شخص ما' حين قال 'ثق فى حية قبل أن تثق فى عاهرة، وفى عاهرة قبل الأفغاني يا محبوب علي!' وكل هذا صحيح باستثناء الأفغانى، فأنا أفغانى. وأُصَدِّقُ ما تَصْدُقُ عليه المقولةُ اللعبةُ الكبرى، إذ لا تفشل جميع الخطط إلا بسبب النساء، فإذا بنا فى الفجر مذبوحون! وقد حدث ذلك لفلان بن فلان" وانطلق يسرد أشد التفاصيل فحشًا.

وقال كيم "إذن لماذا..." وتوقف متمهلاً أمام دَرَجٍ قذر ينتهى أعلاه بالظلمة الدافئة لغرفة علوية، فى الجناح الواقع خلف دكان التبغ الذى يملكه 'عظيم الله'، والذين يعرفون المكان يسمونه قفص الطيور، إذ إنه يزخر بأصوات الهمس والصفير والشقشقة.

كانت الغرفة، بوسائدها القذرة ونارجيلاتها التى تُركت من دون إتمام تدخينها، تفوح منها رائحة التبغ العفن البشعة. وفى أحد الأركان كانت ترقد امرأة ضخمة لا شكل لها ترتدى ملابس خضراء من الشاش، وتتحلى بجواهر محلية ثقيلة فى جبينها وأنفها وأذنها ورقبتها ومعصمها وذراعها ووسطها وكعبها. وعندما كانت تستدير كنت تسمع صلصلةً مثل قعقعة الأوانى النحاسية. وكانت فى الشرفة قطة نحيلة تموء جوعًا. وقام كيم فى حيرة بفحص ستائر الباب.

وقالت حنيفة "أهذا هو الموضوع الجديد؟" وخرجت كلماتها متكاسلة من دون أن تكترث لرفع مبسم الشيشة من فمها وأضافت "يا بُخْتانوس الكريم!" كانت مثل معظم مثيلاتها تحلف بالجن، فعادت تهتف "يا بختانوس! ما أبهى منظره!".

وشرح محبوب الأمر لكيم قائلاً "هذا فى نطاق بيع حصان!" فضحك كيم.

وقال كيم وهو يقبع بجوار المصباح "كنت أسمع هذا الحديث منذ يومى السادس. فما الذى يؤدى إليه؟".

"إلى الحماية. الليلة نغير لونك. نومك فى غرف مسقوفة أكسبك لونًا أبيض كاللوزة! ولكن حنيفة لديها سر لون يلتصق بالجلد، لا طلاء يوم أو يومين. كما سوف نحصنك ضد مخاطر الطريق. هذه هديتى **أنا** إليك يا ولدى. أخرج كل ما تحمله من أشياء معدنية وضعها هنا. استعدى يا حنيفة".

وأخرج كيم بوصلته وصندوق ألوان المساحة وصندوق قوارير الأدوية التى ملأها، وكان يحمل معه هذه الأشياء فى انتقالاته ويعتز بها اعتزازًا طفوليًّا شديدًا.

ونهضت المرأة ببطء وسارت وهى تمد يديها أمامها قليلاً، وعندها أدرك كيم أنها عمياء. وتمتمت قائلة "لا لا! الأفغانى يقول الحق. اللون عندى لا يذهب بعد أسبوع أو شهر، ومن أحميهم محصنون تحصينًا شديدًا".

وقال محبوب "عندما يغدو المرء فى مكان بعيد وحده، فليس من الخير له أن يبدو فجأة ملطخًا مجذومًا. كنت أتولى الأمر أنا ما دمت فى صحبتى! وإلى جانب هذا فإن الأفغان ذوو بشرة بيضاء. اخلع ملابسك حتى الوسط وانظر كم ابيضّ لونك". وعادت حنيفة تتحسس طريقها من غرفة داخلية. فأضاف محبوب "لا يهم! إذ لا تستطيع أن ترى" وأخذ قصعة رصاصية من يدها المثقلة بالخواتم.

وبدا أن الصبغة السائلة لزجة ذات لون أزرق، فجرب كيم استخدامها بقطعة من القطن على ظاهر يده، ولكن حنيفة سمعته.

فصاحت "لا لا! ليست هذه هى الطريقة الصحيحة، بل لابد من الشعائر الصحيحة. فالتلوين أهون الأمور، وسوف أمنحك الحماية الكاملة من الطريق".

وقال كيم فيما يشبه الفزع "بالسحر؟" لم تَرُقْ له عيناها البيضاوان مكفوفتا البصر. وشعر بيد محبوب على رقبته تدفعه فانحنى حتى لم يعد أنفه يبتعد عن خشب الأرضية إلا سنتيمترات معدودة.

"لا تتحرك. لن تصاب بالأذى يا ولدى. فأنا قُربانك!".

لم يكن كيم يستطيع أن يرى ما تفعله المرأة، لكنه ظل يسمع صلصلة حُلِيِّها دقائق كثيرة. وأُوقِدَ عُودُ ثقابٍ فشتت الظلام، والتقطت أذنه أصوات الهرير والأزيز الصادرة عن احتراق حبات البخور، ثم امتلأت الغرفة بالدخان، ثقيلاً عاطرًا خانقًا. وأثناء استسلامه للنعاس سمع أسماء الشياطين، مثل 'زولبازان'، ابن إبليس الذى يعيش فى الأسواق ومحطات الراحة، فيثير الخبائث الفاحشة فيها، ومثل 'دولهان' الذى يغشى المساجد متخفيًا ويقيم فى أخفاف المؤمنين ويمنعهم من إقامة الصلاة، ومثل 'مزبوط'، رب الأكاذيب والذعر. وظلت حنيفة تتكلم فَطَوْرًا كانت تهمس فى أذنه، وطَوْرًا يبدو أنها تتكلم من مسافة شاسعة، وجعلت تلمسه بأصابعها اللينة البشعة، ولكن محبوب لم يُرْخِ قبضته على رقبة كيم قط، حتى زفر الصبى زفرة استرخى جسمه معها وغاب عن الوعى.

وقال محبوب فى ضيق "يا الله! ما أشد مقاومته! لولا المخدرات ما استطعنا النجاح قط! أظن هذا يرجع إلى دمه الأبيض. ابدئى الدعوات. هيئى له الحماية الكاملة".

وارتفع صوت حنيفة فيما يشبه الأنين هاتفة "**أيها السامع! يا من تسمع بأذنين، عليك الحضور. أصغ إلىَّ أيها السامع!**" وكانت عيناها العاطلتان موجهتين إلى الغرب. وامتلأت الغرفة بأصوات الأنين والنخير.

ومن الشرفة الخارجية رفع رجل ضخم الجرم رأسًا غليظًا مستديرًا وجعل يسعل بعصبية.

وقال بالإنجليزية "لا تقاطع يا صديقى هذه الطقوس من استحضار الأرواح الباطنة. أظن أنه يسبب لك إزعاجًا شديدًا ولكن المراقب المتنور لن يشعر بذرة من الضيق".

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)) كان وجه حنيفة يواجه الشمال وتبدو فيه دلائل قلقلة بشعة، وكأنما كانت تصدر من السقف أصوات ترد عليها.

وعاد هورى البنغالى إلى كراسته، مستندًا إلى قاعدة النافذة، ولكن يده كانت ترتجف. كانت حنيفة تجلس القرفصاء وقد غمرتها نشوة مثل نشوة التخدير وتهز جذعها بقوة إلى الأمام وإلى الخلف عند رأس كيم، وجعلت تستحضر شيطانًا من بعد شيطان، بالترتيب القديم لهذه الطقوس، وتقوم بتقييدهم حتى يبتعدوا عن كل ما يفعله الصبى.

وردت{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ }. ومن جديد جاءت الردود ذات الصفير عليها.

وقال البنغالى "أتصور أن تأثير ذلك ليس خبيثًا على الإطلاق؟" وكان يرقب عضلات الحلق وهى ترتعد وتنتفض أثناء كلام حنيفة بعدة لغات. "ليس من المحتمل أن تكون قد قتلت الصبى؟ وإن صح هذا أرفض أن أكون شاهدًا عند المحاكمة... ماذا كان آخر الشياطين المفترضة المذكورة؟".

وقال محبوب باللغة المحلية "اسمع يا بنغالى! أنا لا أكترث لشياطين الهند، ولكن أبناء إبليس يختلفون اختلافًا شديدًا، وسواء كانوا مهذبين أو مرعبين فهم لا يحبون الكفار".

وقال هورى البنغالى "إذن ترى أننى يجب أن أذهب؟" ونهض نصف نهوض قائلاً "إنها بطبيعة الحال ظواهر غير مادية. فالفيلسوف هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) يقول إنها..."

وانتهت 'أزمة' حنيفة، كما تنتهى دومًا هذه الأمور، بنوبة من العويل المتشنج، وبعض الزبد على شفتها. ورقدت مسلوبة القوى دون حراك إلى جوار كيم، وتوقفت الأصوات المخبولة.

"واه! انتهى ذلك العمل. أرجو أن ينال الصبى خيرًا من ورائه، وحنيفة قطعًا ملكة الدعوات. ساعدنى على نقلها جانبًا يا أفغانى. لا تخف".

وقال هورى الأفغانى "كيف أخاف ما لا وجود له على الإطلاق؟" وكان يتكلم الإنجليزية حتى يُطَمْئن نفسه. ومع ذلك فما أفظع أن يخشى المرء السحر الذى يبحث فيه مُضْمِرًا هذا الاحتقار، فى سبيل جمع الفولكلور للجمعية الملكية، وبعقيدة "نابضة" بوجود جميع قوى الظلام.

وقهقه محبوب. كان قد سبق له الخروج فى بعض المهام مع هورى. فقال "فلننته من التلوين. يتمتع الصبى الآن بالحماية المؤكدة إذا... إذا كانت لأرباب الهواء آذان تسمع. إننى صوفى [يقصد 'حر التفكير'] ولكن إذا استطعت الوقوف فى مأمن من امرأة أو من فحل خيل أو من شيطان فلماذا تستدير حتى تصيبك ركلة؟ أطلقه على الطريق أيها الأفغانى وتأكد من عدم اصطحاب العجوز ذى القبعة الحمراء له إلى مكان لا تستطيع الوصول إليه فيه. لابد أن أعود إلى خيولى".

وقال هورى الأفغانى "لا بأس. إنه الآن مشهد غريب".

وفى نحو الهزيع الثانى، وقت السَّحَر، استيقظ كيم من نوم ألف عام. وكانت حنيفة فى ركنها تغط غطيطًا ثقيلاً، ولكن محبوب كان قد ذهب.

وسمع كيم صوتًا مداهنًا عند مرفقه يقول "أرجو ألا تكون قد أحسست بالخوف. إنى أشرفت على العملية كلها، وكانت بالغة الإمتاع من زاوية الدراسات العرقية. كانت 'دعوات' من الطبقة الأولى".

وقال كيم "هه!" بعد أن تعرف على هورى الأفغانى الذى ارتسمت على شفتيه بسمة تودد وتزلف.

وقال الرجل "كما إنى شرفت بأن أحضرت حلتك الحالية من لورجان. لم أعتد رسميًا أن أحمل أمثال هذه البضائع إلى المرؤوسين ولكنى..." وقهقه قائلاً "أقصد أن حالتك تعتبر فى الدفاتر حالة استثنائية. وأرجو أن يذكر المستر لورجان ما فعلت".

وتثاءب كيم وتمطى. كان ممتنًا للقدرة على التلوى والاستدارة فى ملابس فضفاضة مرة أخرى.

"ما هذا؟" كان كيم ينظر بغرابة إلى الحقيبة الثقيلة المحملة بروائح أقصى الشمال.

وقال هورى الأفغانى وهو ينحدر إلى الشرفة لتنظيف أسنانه بماء إحدى القلل: "أوهوه! هذا رداء لا يلفت الأنظار يلبسه التلميذ الذى يلتحق بخدمة لاما يدين باللامية. إنه كامل من جميع الوجوه. ورأيى أنه لا ينتمى إلى دين صديقك العجوز على وجه الدقة بل هو ضرب فرعى من ضروبها. لقد أرسلت دراسة عن هذه الموضوعات، لكن لم تحظ بالنشر، إلى **المجلة الآسيوية الفصلية**، ولكن الغريب أن يكون الرجل العجوز نفسه بلا تَدَيُّنٍ على الإطلاق. ليس ذا خصوصية قط!"

"هل تعرفه؟"

ورفع هورى الأفغانى يده ليبين أنه يؤدى الطقوس المقررة التى تصاحب تنظيف الأسنان وما إلى ذلك بين البنغاليين من ذوى التربية الحميدة. ثم ألقى بالإنجليزية كلمات صلاة ذات طبيعية تأليهية تدعى 'أريا-سوماج'، وهى الحركة الهندوسية الإصلاحية الحديثة التى تعارض تأثير المسيحية، وملأ فمه بأوراق الشجر العطرة وبعض اللوز الهندى، قبل أن يقول:

"نعم نعم. قابلته عدة مرات فى بيناريس، وكذلك فى 'بوذجايا'، حتى أطرح عليه بعض الأسئلة الخاصة بالدين وبعبادة الشياطين أيضًا. إنه من أنصار 'اللاأدرية الخالصة مثلى".

وتقلبت حنيفة فى رقادها، ووثب هورى البنغالى بتوتر إلى المبخرة النحاسية التى بدا لونها مُسْوَدًّا أغْبَرَ فى ضوء الصبح، فمر بأصبعه على سناج المصباح المتراكم ثم رسم به خطًا مائلاً على وجهه.

وسأله كيم باللغة المحلية "من مات فى هذا المنزل؟"

وأجاب الأفغانى "لم يمت أحد، ولكن ربما كانت لها عين حسود، هذه الساحرة".

"وماذا تفعل الآن إذن؟"

"سآخذك إلى طريق بيناريس، إذا كنت ذاهبًا إليها، وأخبرك بما يجب أن يكون معروفًا لنا **نحن**".

"سأذهب. ومتى يحين موعد القطار؟" ووقف كيم ونظر حوله، وتطلع إلى الغرفة الموحشة وإلى وجه حنيفة الذى كانت تعلوه صفرة الشمع، وأشعة الشمس الأولى تتسلل عبر أرضية الغرفة وسأله "ألا بد أن ندفع المال لهذه الساحرة؟"

"لا! لقد رقَتْكَ رُقْيَةً تحميك من كل الشياطين والأخطار، باسم شياطينها. كان ذلك ما يريده محبوب" ثم تحول إلى الإنجليزية قائلاً "معلوماته عفى عليها الدهر، فى رأيى أنا، ما دام يمارس هذه الخزعبلات. إنه لا يزيد عن كلام من البطن كالسحرة...".

وفرقع كيم أصابعه بصورة تلقائية ليصرف عن نفسه أى شرور يمكن أن تكون قد أصابته بسبب ما فعلته حنيفة، وكان واثقًا أن محبوب لم يكن يتوقع أى شر، فقهقه هورى مرة أخرى. ولكن كيم حَرَصَ فى عبوره الغرفة على ألا يخطو فوق ظل حنيفة المرقش المربع على الأرض. فالساحرات عندما تأتيهن نوبة معينة قد يقبضن على كعب روح رجل يخطو فوق ظلالهن.

وعندما خرجا إلى الهواء الطلق قال الأفغانى "والآن عليك أن تصغى بانتباه. تتضمن هذه الطقوس التى شهدناها توفير تمائم فعالة للرجال فى جهازنا. فإذا مسست رقبتك مَسًّا رفيقًا فسوف تعثر على تميمة فضية صغيرة، ورخيصة جدًا. إنها تميمتنا **نحن**. هل تفهم؟"

"نعم. نعم. لرفع الروح المعنوية". وجعل يتحسس رقبته.

"تقوم حنيفة بإعدادها مقابل روبيتين واثنتى عشرة أنّا، نعم، وهى مجهزة

بجميع أنواع تعاويذ إخراج العفاريت من الجسم. إنها شائعة فعلاً، لكنها تتكون في جانب منها من المينا السوداء، وفي داخل كل منها ورقة مليئة بأسماء الأولياء الصالحين المحليين وأمثالهم. هذه مسؤولية حنيفة، تفهمني؟ ولا تقوم حنيفة بإعدادها إلا لنا، لكنها إن لم تفعل فإننا عندما نحصل عليها نضع في كل منها، قبل توزيعها، قطعة صغيرة من الفيروز. ولدى المستر لورجان ما يقدمه منها. ولا يوجد مصدر آخر لها. ولكنى أنا الذى ابتدعت هذا كله. وهو بطبيعة الحال عمل غير رسمي قطعًا، لكنه ذو فائدة عملية للمرؤوسين. والعقيد كرايتون لا يعرف. فهو أوروبي. والفيروز ملفوف في ورق... نعم. هذا هو الطريق إلى محطة السكة الحديدية... فلنفترض الآن أنك ذهبت مع اللاما، أو معي يومًا ما، وهو ما أرجوه، أو مع محبوب. ولنفترض أنك وقعت في مأزق. أنا رجل أعرف الخوف، بل أنا خَوَّافٌ فعلاً، ولكنى أصارحك أننى وقعت في مآزق يزيد عددها عن شعر رأسي. قل 'أنا ابن التميمة'. جميل جدًّا".

"لا أفهمك تمامًا. ينبغي ألا تتكلم الإنجليزية هنا".

"لا بأس بهذا، فأنا بنغالي وحسب أستعرض معرفتي باللغة الإنجليزية أمامك. نحن البنغاليين الذين يتكلمون الإنجليزية نقصد استعراض معرفتنا بها". وألقى هوري وشاحه على كتفيه في تبختر، ثم عاد يقول "كما كنت أوشك أن أقول: 'ابن التميمة' تعبير قد يعني أنك عضو في طائفة 'سات بهاي'، أو الإخوة السبعة، وهي تجمع ما بين الهندوسية والتانترية. والشائع بين الناس أنها جمعية انقرضت، لكننى كتبت مذكرات تثبت أنها لا تزال موجودة. افهمني، إن هذا كله من ابتكاري. جميل جدًّا. وجمعية 'سات بهاي' تضم كثيرًا من الأعضاء، وربما يُمَكِّنُكَ الانتماء إليها من فرصة البقاء، بدلاً من قطع رقبتك المحتوم! إنها مفيدة على أية حال. أضف إلى ذلك أن أولاد البلد البلهاء - إن لم يزد الانفعال بهم عن الحد - دائمًا ما يتوقفون للتفكير قبل أن يقتلوا رجلاً يقول إنه ينتمي إلى منظمة معينة. تفهمني؟ ولك أن تقول إذن عندما تقع في مأزق 'أنا ابن التميمة' وربما استطعت عندها أن تلتقط أنفاسك

فعلاً. وهذا يقتصر فقط على أشد المآزق، أو على الدخول فى مفاوضات مع أحد الغرباء. هل تفهمنى حق الفهم؟ جميل جدًا. ولكن افترض الآن أننى جئتك، أو جاءك أى فرد آخر من أفراد الجهاز، فى زى مختلف تمام الاختلاف. لن تعرفنى عندها إلا إذا اخترت أنا ذلك، وأراهنك على هذا. وسوف أثبت لك ذلك يومًا ما. فلنفترض أننى جئت فى هيئة تاجـــر 'لاداخى' – أو سوى ذلك – وقلت لك 'تريد أن تشترى أحجارًا كريمة؟' فتقول 'هل أبدو لك رجلاً يشترى الأحجار الكريمة؟' فأقول أنا 'بل حتى أفقر الفقراء يستطيع أن يشترى الفيروز أو 'التركيان'. "

وقال كيم "هذا هو كِشْرِى. أو الخضراوات بالكارى".

"هو كذلك فعلاً. فتقول 'أرنى التركيان'، فأقول 'طبخته امرأة، وربما لم يعجبك مذاقه'. ثم تقول 'لا دخل للطائفة حينما يذهب الرجال... للبحث عن 'التركيان'. لاحظ الوقفة القصيرة بين كلمتى 'الرجال' و'للبحث'. هذا هو السر كله. الوقفة القصيرة بين هاتين الكلمتين".

وكرر كيم عبارة الاختبار.

"لا بأس بهذا. إذن سوف أريك فيروزى أنا إن كان لدينا الوقت فتعرف من أكون ثم نتبادل الآراء والوثائق وهذه الأشياء كلها. وهذا ينطبق على أى رجل آخر من رجالنا. أحيانًا نتكلم عن 'الفيروز' وأحيانًا عن 'التركيان' ولكن دائمًا مع مراعاة الوقفة القصيرة بين الألفاظ. الأمر بالغ السهولة. أولاً 'ابن التميمة'، إذا وقعت فى مأزق. ربما يساعدك هذا وربما يفشل. إذن اذكر ما قلته لك عن 'التركيان'، إذا أردت إجراء معاملة رسمية مع أحد الغرباء. وبطبيعة الحال، ليست لديك الآن مهام رسمية. فأنت – هاهاها! – 'كمالة عدد' تحت الاختبار! عينة فريدة فعلاً. لو كنتَ آسيويًّا بالمولد لاستُخْدِمْتَ فورًا، ولكن عطلتك التى ستمتد إلى نصف عام ترمى إلى تخليصك من الطابع الإنجليزى، تفهمنى؟ اللاما ينتظر قدومك، إذ أخبرته أنا بصورة شبه رسمية أنك قد اجتزت جميع امتحاناتك وسوف تحصل فى وقت قريب على وظيفة

حكومية. أوهو! إنك تتناول أجر التمثيل! تفهمنى؟ فإذا استُدْعِيتَ لمساعدة أبناء التميمة فاحرص على أن تحاول ذلك فعلاً.. دعنى أودعك الآن يا زميلى العزيز وأرجو أن – آه – تُوَفَّقَ" ثم تنحنح.

وتراجع هورى الأفغانى خطوة أو خطوتين وسط الجمهور فى مدخل محطة لوكناو ثم – ذهب! وأخذ كيم نَفَسًا عميقًا وتحسس جسده فى كل مكان، فوجد أنه يستطيع الإحساس بوجود المسدس المطلى بالنيكل فى صدره تحت الثوب ذى اللون الأدكن، وأن التميمة كانت تتدلى حول رقبته، وفى جيوبه قصعة التسول والمسبحة والخنجر، إذ لم ينس المستر لورجان أى شىء، وكان فى متناول يده أيضًا صندوق الألوان والأدوية والبوصلة، كما كان يحمل فى حزام بالٍ قديم مخصص لوضع النقود فى فجوة منه مرتب شهر كامل، وكان الحزام مزركشًا بأنساق من أشواك القنفذ البرى. لم يكن الملوك أغنى منه! واشترى بعض الحلوى فى كأس من ورق الشجر من تاجر هندوسى، وجعل يلتهمها بلذة انتشاء حتى أمره أحد رجال الشرطة بالنزول من الدرج.

الفصل الحادى عشر

أعْطِ الرَّجُلَ إذَا لَمْ يَكُ قد خُلِقَ لِصَنْعَتِهِ
ويُمَارِسُ أَعْمَالاً لا يَعْــرِفُها
أسْيَافًا يَقْذِفُها ثُمَّ يَعُودُ فيلقفُها
عُمُلاتٍ يُلْقيها لتَرِنَّ فيمسكُها
وخَــلائِقَ يُؤْذِيها كىْ يَشْفِيها
وثعابيَن لِيَسحرَها كىْ يَسْبِيها
فالرَّجُلُ سَيَجْرَحُهُ نَصْلُ سَكَاكِينِهْ
وستَعْصيه ثُعَابِينُهْ
وسَيَفْضَحُه عَجْزُ أفانِينِهْ
وسَيَسْخَرُ منه القَوْمُ ويَحْتَقِرُونَهْ
إنْ لَمْ يَكُ قد وُلِدَ بِمَوْهِبَةِ السَّاحِرِ وشُجونِهْ!
بَعْضُ الذَّرَّاتِ مِنَ المِلْح أو الأزْهَارِ العَجْفَاءْ
وعَصًا عَــارِيَةٌ أو فاكِهةٌ تُلْقَى بأيَادٍ رَعْنَاءْ
ستَفِــى بالحَاجَــةِ وتُدَعِّمُ قُــوَّتَهُ الخَرْقَاءْ
إنْ لَمْ تُحْكِمْ صَــوْغَ التَّعْوِيذَةِ فى المَحْفِلْ
أَطْلَقْتَ الضحكَاتِ عَلَيْك تَدَوِّى وتُجَلْجِلْ!

(لكن الرجل إذا كان إلخ

(أغنية الساحر، القصيدة ١٥)

وتلا ذلك رد فعل طبيعى.

قال في نفسه "الآن أصبحت وحيدًا.. وحدة تامة! لا يوجد فى الهند كلها من يشعر بعمق هذه الوحدة مثلى! لو مت اليوم، فمن عسى أن يحمل النبأ... ولمن؟ وإذا عشت، والله لطيف بعباده، سوف تُرصد مكافأة لمن يأتى برأسى، لأننى من أبناء التميمة... أنا، كيم".

ما أندر ذوى البشرة البيضاء وأكثر الآسيويين الذين يلقون بأنفسهم فى لجة الدهشة، إن صح هذا التعبير، بتكرار أسمائهم عدة مرات لأنفسهم، وإطلاق الذهن فى شطحات يتأملون فيها ما يدعى الهوية الشخصية. وكلما كبر المرءُ فى السن هجرته القوة، لكنها ما دامت متوافرة فقد تهبط على المرء فى أية لحظة.

"من كيم؟ كيم... كيم؟".

وجلس القرفصاء فى ركن من حجرة الانتظار الصاخبة، فى ذهول أقصى أية أفكار أخرى، فطوى يديه فى حجره، وتقلص إنسانُ كل عَيْن فأصبح فى حجم رأس الدبوس. كان يشعر أنه لن تمر دقيقة واحدة، بل نصف ثانية، حتى يصل إلى حل لهذا اللغز المستعصى، ولكن ذهنه هبط بسرعة، كما يحدث دائمًا، من هذه 'الأعالى' هبوط طائر جريح، فمرَّ بيده على عينيه وهز رأسه.

وتوقف أمامه فى تلك اللحظة رجل هندوسى ربانى طويل الشعر، وكان قد اشترى تذكرة لتوه، وجعل يحدق فيه بتركيز واهتمام.

وقال الرجل بنبرة حزينة "لقد تُهْتُ أنا أيضًا عنه! باب من أبواب الطريق. ولكنه ظل موصدًا أمامى أنا سنوات كثيرة".

وقال كيم فى خجل "عَمَّ تتحدث؟".

"كنت تتساءل فى أعماق روحك عما تكون النفس. دَهَمَتْكَ النوبة فجأة. أعرف ذلك. ومن عسى أن يعرف إلا إياى؟ إلى أين تذهب؟".

"إلى كاشى (بيناريس).".

"ليس هناك أرباب. لقد جربتها كلها. أنا ذاهب إلى پـراياج (اللاهأباد) للمرة الخامسة، وأبحث عن الطريق إلى التنوير. ما دينك؟".

وقال كيم "أنا أيضًا باحث" مستخدمًا إحدى كلمات اللاما المفضلة. ثم أضاف وقد نسى مؤقتًا زيه الشمالى "ولو أنه.. لا يعلم إلا الله ما أبحث عنه".

ودس الرجل الهرم عكاز الربانيين تحت إبطه وجلس على رقعة حمراء من جلد الفهد أثناء نهوض كيم عندما سمع الإعلان عن قدوم قطار بيناريس.

وقال الرجل "فليصحبك الأمل فى رحلتك يا أخى الصغير. الطريق طويل إلى أقدام **الواحد**، لكن ذلك ما نَشُدُّ الرحال إليه جميعًا".

وزال عمق شعور كيم بالوحدة بعد ذلك، وقبل أن يقطع القطار مسافة عشرين ميلاً وهو جالس فى المقصورة المزدحمة، كان قد انهمك فى تسلية جيرانه بسلسلة من الحكايات الرائعة عن مواهبه ومواهب أستاذه السحرية.

وبدت بيناريس له مدينة بالغة القذارة، وإن كان من الممتع اكتشاف مدى احترام ملبسه. ثلث عدد السكان على الأقل يعبدون دائمًا مجموعة ما من الملايين الكثيرة من الأرباب، وهكذا فهم يبجلون شتى ألوان الربانيين. ووجد كيم من أرشده إلى معبد 'تيرثانكار' الذى يقع خارج المدينة بمسافة تبلغ نحو ميل، بالقرب من سرناث، وكان المرشد فلاحًا من الپنچاب قابله مصادفة، من طائفة 'كامبوه' التابعة دينيا لطريق چولندر، وكان الرجل قد دعا جميع أرباب موطنه عبثًا لشفاء طفله الصغير، وكان يقصد بيناريس فى محاولة أخيرة.

وقال الرجل "أنت من الشمال؟"، وهو يشق طريقه وسط الزحام فى الشوارع الضيقة ذات الروائح العفنة، تمامًا مثل ثوره الأليف فى موطنه.

وقال كيم "نعم. أعرف الپنچاب. كانت أمى بهرانية (من بيهار) ولكن والدى من 'أمريتسار'، القريبة من 'چنديالا'. كان كيم يدرب لسانه على تلبية حاجات الرحلة.

" 'چنديالا'؟ تقصد 'چولندور'؟ أوهو! إذن فنحن جيران إلى حد ما".
وأومأ الرجل بحنان إلى طفله الذى كان ينهنه بين ذراعيه وقال "ومن تخدم؟"

"أخدم رجلا بالغ الربانية فى معبد 'تيرثانكارز' ".

"كلهم بالغو الربانية. وبالغو الطمع". وكان صوت الفلاح الشمالى ينضح بالمرارة فأضاف "لقد رحلت إلى الأعمدة ووطئت المعابد حتى تهرأت قدماى، ولم يتحسن حال الطفل ذرة واحدة. وأمه مريضة كذلك... اهدأ إذن أيها الصغير... غَيَّرْنَا اسمه عندما دهمته الحمى. وألبسناه ملابس أنثى. لم نترك شيئًا إلا فعلناه ما عدا – وقلت ذلك لأمه عندما دفعتنى إلى الرحيل إلى بيناريس، وكان ينبغي أن تصحبنا – ما عدا الاستعانة بساخي سروار سلطان، إذ قلت إنه أفضل من يفيدنا. فنحن نعلم كرمه، وأما الأرباب فى هذه السهول فهى من الأغراب".

واستدار الطفل على وسادته بين ذراعى والده المفتولتين القويتين وجعل ينظر إلى كيم من تحت جفنين أثقلهما المرض.

وقال كيم بنبرة اهتمام مُطَمْئِنَةٍ "وهل راح كل ذلك عبثًا؟".

وقال الطفل بشفتين تشققتا من الحمى "عبثًا... عبثًا".

وقال الفلاح بفخار "لقد وهبته الأرباب عقلاً راجحًا على الأقل. من كان يظن أنه كان يصغى إلينا بهذه المهارة؟ هذا هو معبدك! إننى رجل فقير، وقد تعامل معى عدد كبير من الكهنة، ولكن ابنى هو ابنى، فإذا كان تقديم هدية إلى أستاذك يمكن أن تشفيه... أقصد أننى حائر لم أعد أقدر على التفكير".

ونظر كيم فى الأمر وقد انتفش زهوًا. لو حدث ذلك منذ ثلاث سنوات لاستفاد على الفور من الموقف وذهب إلى حال سبيله بلا تردد، ولكن مجرد الاحترام الذى يلقاه من الفلاَّح يثبت أنه أصبح رجلاً. أضف إلى ذلك أنه أصيب بالحمى وذاق عذابها مرة أو مرتين، وكان يعرف ما يكفى لتبين مظاهر التضور جوعًا.

"ادع الأستاذ وسوف أتنازل له عن أفضل زوج من ثيرانى فى سبيل شفاء الطفل".

وتوقف كيم عند الباب الخارجى المُحَلىَّ بالنقوش فى مدخل المعبد. وقابله رجل يلبس ملابس بيضاء من طائفة أوزوال التى تدين بالـچـانية فى ولاية جوچـارات، وكان موطنه 'أچمير'، وهى بلدة جنوب غربى ' چـايبور'، بعد أن تطهر لتوه فى المعبد من خطايا الربا الفاحش، وسأل كيم عن عمله.

"أنا تلميذ اللاما تيشو، وهو رجل ربانى من التيبت، موجود هنا. إنه الذى طلب منى القدوم وسوف أنتظره. قل ذلك له".

وهتف الفلاح بإلحافٍ من فوق كتفه "لا تنس الطفل!" ثم بدأ صوته يهـدر باللغة الـپـنـچـابية صائحًا "يا أيها الربانى! ويا تلميذ الربانى! يا أربـاب فوق جميع العوالم! انظروا إلى العذاب جالسًا على الباب!" كانت تلك الصيحة مألوفة إلى أقصى حد فى بيناريس، حتى أن المارة لم يديروا رؤوسهم قط.

ودخل الأوزوالى الذى استعاد الصفاء مع أبناء البشر يحمل الرسالة فـى الظُّلمة من خلفه، وكرت الدقائق الشرقية المطمئنة التى لا تحصى ومـرت، إذ كان اللاما نائمًا فى صومعته، ولم يجرؤ أى كاهن على إيقاظه. وعندما عادت طقطقة حبات مسبحته إلى خرق السكون فى المبنى الـداخلى حيـث عُلِّقـت الصور الهادئة 'للأرشات'، أى الذين "بلغوا الكمال" بقهر الرغبات الأرضـية وبلوغ النيرڤـانا، همس كاهن مبتدئ قائلاً "التلميذ هنا" فقام الرجل العجـوز يخطو خطوات واسعة، ناسيًا إكمال صلاته.

وما إن لاحت قامته المديدة فى المدخل حتى جرى الفلاح إليـه، ورفـع الطفل أمامه صائحًا "انظر إلى هذا أيها الربانى، وإذا قضت مشيئة الأربـاب فسوف يعيش! سوف يعيش!".

ودس يده فى حزام وسطه وأخرج عملة فضية صغيرة.

والتفتت عينا اللاما إلى كيم وقال "ما هذا الآن؟" ولاحظ كـيم أن اللغـة

الأُردية التى يتكلمها اللاما الآن زاد نقاؤها ووضوحها عما كانت عليه من زمن طويل، تحت المدفع الكبير، ولكن والد الطفل لم يسمح لهما بالحديث وحدهما.

وقال كيم "إنها حُميّ وحسب. تغذية الطفل قاصرة".

"إنه يشمئز من كل شىء. وأمه ليست هنا".

"لو سُمح لى فسوف أعالجه أيها الربانى".

"عجبًا! هل جعلوك طبيبًا؟ انتظر هنا" ثم جلس اللاما مع الفلاح على أولى درجات سُلَّم المعبد، وقام كيم – وهو يرقبهما بطرف عينيه – بفتح صندوق أدويته الصغير ببطء. كان يحلم أحلام يقظة فى المدرسة بأن يعود إلى اللاما فى زى السادة، وأن يمازح اللاما قبل أن يكشف عن شخصيته، ولكنها كانت أحلام صبى وحسب. لقد وجد الآن فرصة أكبر للتمثيل فى قيامه بالبحث فى القوارير الصغيرة، وقد ارتسم على وجهه شرود الذهن وانعقد حاجباه، متمهلاً هنا وهناك للتفكير والتمتمة ببعض الدعوات فى لحظات التوقف. كانت لديه حبوب كوينين، وأقراص لحم ذات لون بنى أدكن، من لحم البقر على الأرجح، ولكن ذلك لم يكن يعنيه. ورفض الطفل أن يأكل، ولكنه جعل يمص أحد الأقراص بنهم، قائلاً إنه أحب المذاق المالح.

"إذن خذ هذه الأقراص الستة" وأعطاها كيم للرجل. "احمد الأرباب، وضع ثلاثة فى لبن يغلى والثلاثة الأخرى فى الماء. وبعد أن يشرب اللبن، أعطه هذا" وكان نصف حبة كوينين، "ودثره جيدًا حتى يدفأ. واجعله يشرب الماء الذى أذيبت فيه الثلاثة الأخرى، ونصف هذه الحبة البيضاء عندما يصحو. وريثما يكون ذلك خذ، هذا دواء بُنِّى آخر يمكنه أنْ يَمُصَّهُ فى طريق العودة للمنزل".

وقال ابن طائفة الكامبوه وهو يختطف الأدوية اختطافًا "ياللأرباب! ما أعمق الحكمة!".

كان ذلك أقصى ما يستطيع كيم أن يتذكره من العلاج الذى تلقاه عندما دهمته الملاريا فى خريف أحد الأعوام، باستثناء الرَّطانة التى أضافها حتى يبهر اللاما.

"اذهب الآن! عد إلينا فى الصباح".

وقال الفلاح "ولكن الثمن... الثمن" وفتح صدره بكتفيه القويتين قائلاً "ولكن ابنى هو ابنى. إنه الآن يعود صحيحًا فكيف أرجع أنا إلى أمه وأقول إننى طلبت العون على جانب الطريق ولم أقدم فى مقابل ذلك ولو قصعة من اللبن الرائب؟".

وقال كيم بنبرات لينة "إنهم متشابهون! فلاحو الشمال! يقال إن أحدهم وقف على بعض الروث أثناء مرور أفيال الملك فصاح 'أيها السائق! بكم تبيع هذه الحُمُرَ الصغيرة؟'".

وانطلقت الضحكات هادرة من فم الفلاح، وجعل يكتمها بسيل من الاعتذارات إلى اللاما. "هذا ما يقال فى وطنى نفسه، وما يتحدث الناس عنه فعلاً. فهكذا شأننا نحن فلاحى الشمال جميعًا. لسوف آتى غدًا مع الطفل، ولتهبط عليكما معًا بركات أرباب منازل الناس، فهم أربابُ خَيْرٍ صغار. والآن يا ولدى، ستعود لنا العافية. لا تبصقْ القرصَ أيها الأمير الصغير! يا ملك قلبى، لا تبصقْه، وسوف نصبح من أقوياء الرجال والمصارعين والضاربين بالهراوات عند طلوع الصبح".

ومضى وهو يغنى بصوت خافت ويتمتم. والتفت اللاما إلى كيم، وأطلت روحه المحبة القديمة من عينيه الضيقتين.

"شفاء المرضى يكسب المرء الامتياز. ولكن عليه أن يكتسب المعرفة. لقد أديت ذلك بحكمة يا صديق العالم كله".

وقال كيم "أنت الذى جعلتنى حكيمًا أيها الربانى" كان كيم قد نسى التمثيلية الصغيرة التى انتهت لتوها، ونسى مدرسة القديس خاڤيير، ونسى دمه الأبيض،

بل ونسى حتى اللعبة الكبيرة وهو ينحنى مثلما يفعل مسلمو الهند ليلمس قدمى أستاذه فى تراب المعبد الـچـانى. "أنا مدين لك بتعليمى. إذ أكلتُ خبزك ثلاث سنوات. مدتى انقضت. لقد أطلق سراحى من المدارس، وها أنذا أعود إليك".

"هذه مكافأتى. ادخل! ادخل! وهل كل شىء على ما يُرام؟" ودلفا إلى المبنى الداخلى، حيث تميل أشعة شمس الأصيل الذهبية عبره. ثم قال اللاما "قف حتى أنظر إليك. هكذا!" وجعل يتطلع مُدَقِّقًا. "لم يعد الآن طفلاً بل أصبح رجلاً، ناضج الحكمة، ويسير كالأطباء. إنى أحسنتُ صُنْعًا... أحسنت صنعًا عندما سَلَّمْتُكَ إلى المسلحين فى تلك الليلة الحالكة. هل تذكر أول يوم لنا معًا تحت المدفع الكبير؟".

وقال كيم "نعم! وهل تذكر حين وثبتُ من العربة فى أول يوم ذهبت فيه إلى...".

"أبواب التعليم؟ حقا. واليوم الذى أكلنا فيه الفطائر معًا خلف النهر فى نوكلاو. آها! ما أكثر ما تسولتَ من أجلى، ولكنى فى ذلك اليوم تسولتُ من أجلك".

وقال كيم "ولهذا سبب قوى. كنت آنذاك طالبا داخل أبواب التعليم، وأرتدى ملابس السادة" ثم استأنف حديثه بلهجة مازحة "لا تنس يا ربانى أنى لا أزال من السادة بفضلك أنت".

"صحيح. وسيد يكنون له بالغ التقدير والاحترام. تعال إلى صومعتى يا تلميذى".

"وكيف عرفت ذلك عنى؟".

وابتسم اللاما. ثم قال "أولاً بفضل خطابات من الكاهن الشفوق الذى قابلناه فى معسكر المسلحين، ولكنه عاد الآن إلى وطنه، وكنت أرسل المال بعد ذلك إلى أخيه". ولم يكن العقيد كرايتون، الذى حمل مسؤولية الوصاية على الصبى

خلفًا للأب ڤكتور الذى رحل مع الفرقة الجوالة إلى إنجلترا، أخًا للكاهن المذكور، "لكننى لا أفهم خطابات السادة. ولابد من ترجمتها لى. ولهذا اخترت سبيلاً أوثق. كان يحدث كثيرًا عندما أعود بعد رحلة من رحلات بحثى إلى هذا المعبد، فلقد كان المعبد دائمًا عُشًّا آمنًا لى، أن يأتى شخص طالبًا التنوير. كان رجلاً من مدينة 'ليه' (عاصمة مقاطعة لاداخ شرقى كشمير) وكان يقول إنه هندوسى لكنه سئم تلك الأرباب جميعًا" وأشار اللاما إلى صور 'الأرشات' المعلقة.

وقال كيم وقد برقت عيناه فجأة "رجل سمين؟".

"سمين جدًّا. لكننى لاحظت قليلاً أن ذهنه كان مشغولاً تمامًا بأشياء غير مفيدة، مثل الشياطين والتمائم وأشكال وطرائق حفلات شُربنا الشاى فى الأديرة، وطرائق تدريبنا للمبتدئين على الانخراط فى سلكنا. رجل زاخر بالأسئلة، لكنه كان صديقًا لك يا تلميذى. وقال لى إنك تسير فى طريق تكريم عظيم فى فن الكتابة. وأرى الآن أنك طبيب".

"نعم أنا كذلك... كاتب عندما أكون من السادة، لكننى أُنَحِّى ذلك عندما آتى تلميذًا لك. لقد انتهيت من السنوات المخصصة للسادة!".

وقال اللاما وهو يومئ موافقًا "كأنك مبتدئ أنهى تدريبه؟ وهل تحررت من المدارس؟ لا أريدك أن تفتقر إلى النضج".

"بل تحررت تمامًا. وفى الوقت المناسب ألتحق بخدمة الحكومة كاتبًا...".

"لا كمقاتل. هذا جميل".

"لكنى جئت أولاً للتجوال، معك. ومن ثم فأنا هنا. من يتسول لك هذه الأيام؟" وقد أضاف العبارة الأخيرة، مدركًا حرج موقفه.

"كثيرًا جدًّا ما أتسول لنفسى. ولكنى كما تعرف نادرًا ما أكون هنا، إلا عندما أعود لأبحث عن تلميذى. لقد طفت بأرجاء الهند من أولها لآخرها، إما

سيرًا على قدميَّ أو بالقطار. إنها بلد كبيرة رائعة! وأما هنا حين أستريح فكأننى فى التيبت، موطنى".

وجال ببصره فى الصومعة الصغيرة النظيفة راضيًا عما يشهد، فالوسادة المنخفضة كانت مقعدًا له، وكان يجلس القرفصاء عليها واضعًا ساقًا فوق الأخرى على هيئة بوذا الذى انتهى من التأملات، وكانت أمامه منضدة سوداء من خشب 'التيك' الصلب، لا يزيد ارتفاعها عن نصف متر، وعليها فناجين شاى نحاسية. وكان يقوم فى الركن هيكل عبادة صغير، أيضًا من خشب التيك الزاخر بالنقوش، ومن فوقه رسم مزركش بحواف ذهبية للبوذا جالسًا وأمامه مصباح، ومبخرة، وزوج من أصص الزهور.

"الأمين على الصور فى بيت العجائب اكتسب الامتياز بإهدائى هذه منذ عام واحد" - وكان يتابع نظرات كيم فى الأشياء، ثم أضاف "عندما يكون المرء بعيدًا عن وطنه فإن هذه الأشياء تذكره بالوطن. ولابد لنا من تبجيل المولى لأنه هدانا إلى الطريق. انظر!" وأشار إلى كومة عجيبة البنيان من الأرز الملون تكلِّلها حلية زخرفية معدنية بالغة الغرابة. "عندما كنت رئيسًا للدير فى موطنى الأصلى، وقبل وصولى إلى المعرفة الفُضْلَى، كنت أقدم ذلك القربان يوميًّا. إنه التضحية بالدنيا فى سبيل المولى. وهكذا نقوم نحن جميعًا من أهل التيبت بتقديم الدنيا كلها يوميًّا إلى القانون الممتاز. ولا أزال أفعل ذلك حتى الآن، وإن كنت أعرف أن الواحد الممتاز يتجاوز كل أنواع المضايقة والاسترضاء". ونشق السعوط من علبته.

وتمتم كيم قائلاً "أحسنت أيها الربانى" ثم غاص متمهلاً فى إحدى الوسائد وقد غمرته السعادة وشعر بالتعب.

وضحك العجوز ضحكة مكتومة وقال "كما إننى 'أكتب صورًا' لعجلة الحياة. كل ثلاثة أيام صورة. كنت منهمكًا فى ذلك، أو ربما أغمضت عينى قليلاً، عندما جاءونى بنبأ قدومك. جميل أن تصحبنى هنا، سوف أريك فنى، لا

من أجل الفخر، بل لأنك لابد أن تتعلم. لا يلم السادة بأطراف الحكمة **كلها** فى هذه الدنيا".

وسحب من تحت المنضدة صفحة من الورق الصينى ذى الرائحة الغريبة، والفراجين ومحبرة هندية. كان قد رسم الخطوط الرئيسية الصارمة الصافية للعجلة الكبرى، بأسلاكها الستة التى تشدها إلى المركز الذى يشتبك فيه الخنزير والثعبان والحمامة (الجهل والغضب والشهوة) وأما أقسامه فيشير كل منها إلى الجنة وإلى النار وإلى جميع الفرص المتاحة فى حياة الإنسان. ويقول الناس إن بوذا نفسه كان قد رسمها مستخدمًا حبات الأرز أول الأمر، فوق التراب، حتى يعلم تلاميذه سبب الأشياء. وأدت عصور كثيرة إلى بلورتها فى صورة أحد الأشكال التقليدية البالغة الروعة الزاخرة بالأشكال الصغيرة التى يدل كل خط فيها على معنى محدد. ولا يستطيع ترجمة الأمثال الرمزية المصورة إلا أقل القليل، ولا يوجد فى العالم كله من يستطيع رسمها دون نسخها من صورة سابقة إلا عشرون، وأما من يستطيع أن يرسم ويشرح فلا يزيد عددهم عن ثلاثة من هؤلاء.

وقال كيم "تعلمتُ فن الرسم إلى حد ما. ولكن هذه أعجوبة ما بعدها أعجوبة".

فقال اللاما "لقد استَغْرَقَتْ كتابتُها سنواتٍ عديدةً. وقد كنت يومًا أستطيع مواصلة العمل فيها ما بين موعد إشعال المصابيح والذى يليه. سوف أعلمك ذلك الفن، بعد الاستعداد اللازم له. وسوف أُطلعك على معنى العجلة".

"نعود للتجوال إذن؟".

"إلى الترحال وإلى بحثنا. لم أكن أنتظر إلا قدومك. وقد شُرِحَ ذلك بوضوح لى فى مائة حلم من الأحلام، خصوصًا ما رأيته فى المنام ليلة أول يوم أبصر فيه أبواب التعليم تغلق، أى إننى من غيرك لن أعثر أبدًا على نهرى. وكنت المرة بعد المرة أُقصى ذلك عن ذهنى، خشية أن يكون وهمًا. ولهذا لم أصحبك معى فى اليوم الذى قابلتك فيه فى لوكناو، عندما أكلنا

الفطائر: رفضت اصطحابك حتى يحين الموعد وتحلُّ اللحظة الميمونة. وكم قطعتَ من مسافات ما بين التلال والبحر، وما بين البحر والتلال، لكن ذلك كان عبثًا. ثم تذكرت الحكاية البوذية الحكيمة".

وقص على كيم حكاية الفيل ذى الحلقة الحديدية، كما قصها عدة مرات على كهنة الـچـانية.

وانتهى بأن قال فى هدوء "لا حاجة إلى شهادة أخرى. لقد أُرسِلْتَ عونًا لى، فلما حرمتُ أنا من العون، لم يؤد بحثى إلى شىء. وهكذا سوف نخرج معًا من جديد، وثمرة بحثنا مؤكدة".

"وأين نذهب؟".

"وهل يهم ذلك يا صديقى العالم كله؟ نتيجة البحث كما قلت مؤكدة. إن دعت الحاجة انبجس النهر من الأرض أمامنا. إننى حققت امتيازًا عندما أرسلتك إلى أبواب العلم، وأعطيتك جوهرة هى الحكمة. وقد رَجَعْتَ، كما أرى الآن، تابعًا للطبيب ساكيا مونى، الذى تكثر هياكله فى التيبت. هذا يكفى. فنحن معًا، وكل شىء كما كان، يا صديق العالم كله، يا صديق النجوم، وتلميذى!"

ثم تكلما عن الشئون الدنيوية، ولكن كيم لاحظ أن اللاما لم يطلب معرفة أى تفاصيل عن الحياة فى مدرسة القديس خاڤيير، ولا أبدى أدنى اهتمام بمعرفة أخلاق وعادات السادة. كان ذهنه يجوب أقطار الماضى وحده، فأعاد إحياء كل خطوة من خطوات أولى رحلاتهما معًا، وهو يفرك يديه ويقهقه، حتى حلا له أن يتكور عندما جاءه وَسَنُ الشيوخ المفاجئ.

وظل كيم يتطلع إلى آخر شعاع من أشعة الشمس المتربة وهو يخبو فى المبنى، وأصابعه تلهو بالخنجر والمسبحة. وتصاعد صخب مدينة بيناريس، أقدم جميع مدن الأرض اليَقْظَى دومًا أمام الأرباب، ليلاً ونهارًا، وجعل الصخب يصك الجدران كأنه هدير البحر عند انكسار الموج. وكان أحد كهان الـچـانية يمر من وقت لآخر عابرًا المبنى حاملاً قربانًا صغيرًا إلى الصور،

ويكنس الطريق أمامه خشية أن يحرم كائنًا حيًّا من حياته (إذ إن الجانية تبجل جميع صور الحياة، والكنس يجعله يتجنب قتل حشرة من الحشرات). وتلألأ ضوء أحد المصابيح، ثم سمع كيم صوت صلاة، فأخذ يرقب النجوم وهى تشرق نجمًا من بعد نجم فى الظلام الساجى اللزج حتى غلبه النعاس فنام عند قاعدة أحد الهياكل. كانت أحلامه تلك الليلة باللغة الهندوستانية، من دون كلمة انجليزية واحدة...

وفى نحو الثالثة صباحًا قال كيم "أيها الربانى! لا تنس الطفل الذى أعطيناه الدواء!" حين شاهد اللاما الذى استيقظ من أحلامه أيضًا يتهيأ للخروج والانطلاق. وأضاف كيم "سوف يحضر الفلاح إلينا عندما يطلع نور الصباح".

فجلس اللاما على الوسائد وعاد إلى مسبحته وهو يقول "خير إجابة! كنت أوشك فى لهفتى على ارتكاب خطأ". ثم أضاف بنبرات حزينة "العجائز مثل الأطفال قطعًا. فإذا أرادوا شيئًا فلابد أن ينالوه على الفور وإلا اضطربوا وبكوا! كم من مرة وأنا أسير فى الطريق ضربت الأرض بقدمى بسبب اعتراض عربة تجرها الثيران لى، أو بسبب سحابة من الغبار وحسب. لم يكن شأنى كذلك عندما كنت شابًا، من زمن طويل جدًّا. ومع ذلك، فمن الخطأ أن...".

"ولكنك عجوز فعلاً أيها الربانى".

"قُضِى الأمر. وُضِعَ فى الدنيا سبب، وسواء كان المرء شيخًا أو شابًّا، مريضًا أو صحيح البدن، عالمًا أو جاهلاً، فمن ذا الذى يستطيع السيطرة على نتيجة ذلك السبب؟ هل تتوقف العجلة إذا أدارها طفل أو سكران؟ اسمع يا تلميذى، هذه دنيا كبيرة فظيعة".

وتثاءب كيم وقال "أراها حسنة. هل لديك طعام؟ لم آكل منذ مساء أمس".

"نسيت حاجتك. لدينا هنا شاى لذيذ من التيبت وأرز بارد".

"لا نستطيع المسير وفى البطن هذا وحده". وشعر كيم بكل اشتهاء

الأوروبى إلى اللحم، وهو ما لا يتاح فى معبد چـانى. لكنه لم يخرج بقصعة التسول فى تلك اللحظة بل أسكن جوعه ببعض الأرز البارد حتى مطلع الفجر. وجاء الفجر بالفلاح الذى انطلق لسانه وأخذ يتهته معربًا عن امتنانه.

صاح قائلاً "فى الليل انحسرت الحمى وتصبب العـرق. تحسـسه هنـا! بشرته نضرة جديدة! لقد أحب الأقراص المالحة وشرب اللبن بنهم". وسـحب الوشاح من فوق وجه الطفل فابتسم فيما يشبه النعاس لكيم. واجتمعت 'عقـدة' صغيرة من كهنة الـچـانية عند باب المعبد فى صمت وإن كانـت عيـونهم تراقب ما يحدث بدقة. كانوا يعرفون، وكان كيم يعرف أنهم يعرفـون، كيـف التقى الرجل العجوز بتلميذه. ولما كانوا فئة مهذبة فإنهم لم يقحموا أنفسهم أثناء الليل لا بالحضور ولا بالكلام ولا بالإيماء. ومن ثَمَّ سَدَّدَ كيم دَيْنَه لهـم عنـد شروق الشمس.

قال كيم "اشْكُرْ أرباب الـچـانيين يا أخى". فلم يكن يعرف أسماء تلـك الأرباب ثم أردف قائلاً "انحسرت الحمى فعلاً".

وقال اللاما "أبصروا! انظروا!" وابتسم بسمة عريـضة لمـضيفيه فـى السنوات الثلاث المنصرمة، وأضاف "هل شهدتم من قبل مثل هذا التلميذ؟ إنه يتبع مولانا الشافى".

والمعروف أن الـچـانيين يعترفون رسـميًا بجميـع أربـاب العقيـدة الهندوسية، وكذلك بالثعبان وبما يسمى 'لينجام'، وهو القضيب المصنوع عادة من الحجر، رمز الرب 'شيـڤـا'، رب الخلق. وكل منهم يضع حول رقبته، مثل البراهيمنيين، الخيط المميز للطائفة، ويستمسكون بكل ما ينص عليه قانون الطوائف. ولكنهم تمتموا معلنين رضاهم لأنهم كانوا يعرفون اللاما ويحبونـه، ولأنه كان شيخًا كبيرًا، ولأنه كان ينشد الطريق، ولأنه كان ضيفهم، ولأنه كان يسهر الليل فى المناقشات مع رئيس الكهنة، باعتباره مفكرًا ميتافيزيقيًـا حُـرًّا يغالى فى تفتيق الحجج.

وانحنى كيم فوق الطفل وقال "تذكر! ربما يعود هذا الكدر مرة أخرى".

وقال أبوه "فإذا كانت لديك الآن التعويذة الصحيحة...".

"لكننا سوف نرحل بعد قليل".

وقال اللاما إلى الـچـانيين "هذا صحيح. نمضى الآن إلى البحث الـذى تحدثتُ كثيرًا عنه. كنت أنتظر حتى يبلغ تلميذى أشُدَّه. وانظـروا إليـه الآن! سوف نتجه شمالاً. لن أنظر أبدًا بعد الآن إلى مكان راحتى هذا، يا ذوى النوايا الطيبة".

ونهض المزارع صائحًا وبين يديه الطفل "لكننى لست متسولاً!".

وهتف أحد الكهنة "اسكت. لا تزعج الرجل الربانى".

وهمس كيم قائلاً "اذهب الآن. وقابلنا تحت جسر السكة الحديدية الكبيـر، ومن أجل جميع أرباب الـبـنـچـاب أحضر الطعـام: الكـارى، والبقـول والفطائر المقلية فى الدهن، والحلوى. وخصوصًا الحلوى. أسرع!".

كان شحوب الجوع جميلاً على وجه كيم، وقـد انتـصب واقفًـا بقامتـه الفارعة، وبدنه النحيف، فى أثوابه الفضفاضة الدكناء، واضعًا إحدى يديه على المسبحة واليد الأخرى فى وضع منح البركة، وهو الذي نقله نقلاً صادقًا مـن اللاما. وقد يقول الإنجليز إذا شاهدوه إنه يشبه كاهنًا شابًا مُصَوَّرًا فى الزجاج الملون بنوافذ الكنائس، وإن لم يكن إلا يافعًا ما زال ينمو وقد خـارت قـواه جوعًا.

كانت شعائر الوداع طويلة رسمية، انتهت ثلاث مرات وتجـددت ثـلاث مرات. ولم يشارك فيها **الباحث** الذى كان قد دعا اللاما إلى ذلك المأوى مـن التيبت القصية ــ وهو زاهد ذو وجه فضى أصلع الرأس ــ بل استغرق فـى تأملاته، كحاله دائمًا، بين الصور. وأما الآخرون فقد تجلت نزعاتهم البـشرية الصادقة، فألحوا على الرجل حتى يَقْبَلَ هداياهم الصغيرة – صـندوق لـوز، وعلبة أقلام حديدية جديدة، وحقيبة طعام، وأمثال ذلك – وجعلوا يحذرونه من أخطار العالم الخارجى، ويتنبؤون بخاتمة سعيدة للبحث. وكان كيم فى أثنـاء

ذلك يزداد شعوره بالوحدة، فجلس القرفصاء على الدرج، وجعل يسب نفسه بلغة مدرسة القديس خافيير.

وانتهى بأن قال فى نفسه "إنها غلطتى أنا. فعندما كنت مع محبوب، كنت آكل خبز محبوب، أو خبز السيد لورجان، وفى مدرسة القديس خافيير ثلاث وجبات يوميًا. وأما هنا فلابد فعلاً أن أعتمد على نفسى. أضف إلى ذلك أننى لا أتدرب التدريب الناجع. من لى بطبق من اللحم البقرى الآن!... هل انتهيت أيها الرجل الربانى؟".

ورفع اللاما يديه معًا وردد كلماتِ 'مباركة' ختامية منغومة بلغة صينية مزخرفة ثم قال "لابد أن أتكئ على كتفك" والمعبد يغلق أبوابه، مضيفًا "أظن أن عضلاتنا تصلبت".

لم يكن من اليسير تحمل ثقل رجل طوله ١٨٠ سم والسير به أميالاً فى الشوارع المزدحمة، كما كان كيم مُحَمَّلاً بلفائف وحزم وضع فيها ما يلزم المسير، وتنفس الصعداء عندما وصلا إلى ظل جسر السكة الحديدية.

وقال كيم بحسم قاطع "سنأكل هنا" عندما لاح ابن طائفة كامبوه مقبلاً فى ثوب أزرق، وعلى شفتيه ابتسامة، فى إحدى يديه سلة، وفى اليد الأخرى طفله.

وصاح من مسافة خمسين مترًا "هيا يا ربَّانِيَّان!"، وكانا يقفان فى مكان منخفض تحت القسم الأول من الجسر بعيدًا عن عيون الكهنة الجائعين. فأضاف قائلاً "أرز وكارى لذيذ، وفطائر ساخنة معطرة بالراتنج، واللبن الرائب والسكر". وخاطب صغيره قائلاً "يا ملك حقولى! فلنثبت لهذين الربانيين أننا، فلاحى چولندر، نستطيع دفع ثمن الخدمات... سمعت أن الچانيين لا يتناولون طعامًا لم يطبخوه بأيديهم، ولكن بالحق" وألقى بنظره بعيدًا وبأدب على النهر العريض واستأنف عبارته "إن غابت العيون غاب التمييز بين الطوائف".

وقال كيم وهو يدير ظهره ويملأ نصف طبق للاما "وأما نحن فنتجاوز كل الطوائف".

وجعلا يلتهمان الطعام اللذيذ فى صمت. ولم يدرك كيم، حتى لعق آخر آثار الحلوى اللزجة من خنصره، أن الفلاح كان أيضًا قد تهيأ للرحيل.

وقال بأسلوب فظ "إذا كان طريقُنا واحدًا فسآتى معكما. يندر أن يصادف المرء صانع معجزات، والطفل لايزال واهنًا. لكننى لست قصبة لينة" والتقط هراوته – وكانت من الخيزران الصلب وتزيد على متر ونصف طولاً، وبها حلقات ثابتة من الحديد المصقول – ورفعها فى الهواء، مضيفًا "يقال إن فلاحى الشمال مولعون بالشجار، ولكن هذا غير صحيح. بل نحن مثل جواميسنا إلا إذا عارضنا أحد".

وقال كيم "فليكن. العصا الصلبة منطق مقنع".

وجعل اللاما يتطلع فى هدوء إلى أعلى النهر، حيث كانت أعمدة الدخان المتصلة مطموسة على البعد وهى تتصاعد من محارق جثث الموتى على ضفة النهر (حيث يحرق الهندوس جثث موتاهم ويبعثرون الرماد فى النهر المقدس). وبين الفينة والفينة كان يطفو جزء من جثة لم يكتمل إحراقها بعد أن جرفها التيار العاتى، على الرغم من جميع ما تنص عليه نظم البلدية ولوائحها.

وقال ابن طائفة كمبوه وهو يضم طفله إلى صدره الغزير الشعر "لولاك لكنتُ ذهبتُ اليوم إلى هناك، مع هذا الصغير. يقول الكهنة لنا إن بيناريس مدينة مقدسة – وهو ما لا يتشكك أحد فيه – وإنه تُستحب الوفاةُ فيها. لكننى لا أعرف أربابهم، كما إنهم يطلبون المال، وعندما يقوم المرء بالصلاة يبرز كاهن حليق الرأس ويحلف إنها لن تعود بفائدة إلا إذا قام بالصلاة مرة أخرى.اغتسل هنا! اغتسل هناك! صُبَّ الماء، اشرب الماء، اغتسل، انثر الأزهار... ولكن دائمًا ادفع للكهنة. كلا! أنا أفضل البنچاب، ومكان التقاء النهرين فى چولندر أجود الأراضى".

ونهض اللاما قائلاً "قلت مرات عديدة – فى المعبد على ما أظن – إننا إذا قصدنا الشمال فسوف ينفتح النهر تحت أقدامنا. وهكذا نتجه شمالاً. أذكر مكانًا بهيجًا تحيط به أشجار الفاكهة، حيث يستطيع المرء أن يمشى ويتأمل. والهواء أبرد أيضًا، فهو يهب من الجبال ومن ثلوج الجبال".

وقال كيم "ما اسمه؟".

"أنَّى لى أن أعرف؟ ألم تقل أنت... لا! كان ذلك بعد أن هب الجيش من الأرض وذهب بك. كنت أقيم هناك للتأمل فى غرفة مقابلة لبرج الحمام، إلا حين كانت المرأة تتكلم دون توقف".

وضحك كيم قائلاً "أوهو! امرأة بلدة كولو! المكان قريب من سهارنپور".

وسأل الفلاح بنبرات حذرة "كيف تُحَرِّكُ الروحُ أستاذك؟ هل يذهب مشيًا على الأقدام تكفيرًا عن خطايا سالفة؟ نحن أبعد ما تكون عن دلهى".

وقال كيم "لا! سوف أتسول للحصول على تذكرة القطار". فالمرء لا يصرح بامتلاك النقود فى الهند.

"أستحلفكما إذن باسم الأرباب فلنركب العربة النارية (أى القطار). فأفضل مكان لابنى فى أحضان أمه. لقد فرضت الحكومة علينا ضرائب كثيرة، ولكنها تقدم لنا شيئًا حسنًا أوحد، وهو القطار الذى يصل الأصدقاء بعضهم ببعض ويُوَحِّدُ بين الملهوفين. شيء رائع هذا القطار".

وتكدسوا جميعًا فيه بعد ساعتين، وناموا فترة اشتداد حر النهار. وجعل ابن طائفة كمبوه يمطر كيم بعشرة آلاف سؤال عن اللاما وعما يحترفه أو يفعله فى الدنيا، وتلقى بعض الإجابات الغريبة. وكان كيم قانعًا بمعرفة الأمكنة التى يمرون بها وبالتطلع إلى مشهد الأراضى المنبسطة فى الشمال الغربى، وبالحديث مع الجماعات المتغيرة من رفقاء السفر. ولا تزال مسألة التذاكر، وقيام الكمسارى بقطعها، تمثل للفلاحين الهنود ضربًا من القهر الغامض حتى

اليوم. فهم لا يفهمون لماذا يقوم بعض الأغراب بقطع أجزاء كبيرة من 'التعويذة' بعد أن دفعوا ثمن شراء هذه القطعة السحرية من الورق. وهكذا فإن المناظرات بين المسافرين والكمسارية الأوراسيين تطول وتتسم بفورات الغضب. وتدخل كيم في بعض المناظرات بتقديم النصيحة بنبرات جادة قصد بها التعتيم على القضية واستعراض حكمته أمام اللاما وابن طائفة الكمبوه المبهور به. ولكن الأقدار أرسلت له في محطة 'سومنا رود' أمرًا شغل تفكيره، إذ دخل المقصورة، والقطار يوشك على التحرك، شخص نحيف قمئ ضئيل الجرم، من طائفة مهراتا (وهي طائفة هندوسية من غربيِّ الهند) حسبما استطاع كيم أن يحدس من ربطة العمامة المُحكمة. كان في وجهه جرح، وكان قميصه المنسوج من الشاش ممزقًا تمزيقًا شديدًا، وعلى إحدى ساقيه ضمادات. وقال لهم إن عربة ريفية انقلبت وكادت تقتله، وإنه ذاهب الآن إلى دلهي حيث يقيم ابنه. وأنعم كيم النظر إليه. لو كان كما يزعم قد انقلب عدة مرات في الأرض لظهرت على جلده آثار خدوش من الحصى. ولكن جروحه جميعًا كانت فيما يبدو 'نظيفة'، ومجرد السقوط من العربة من المحال أن يبث في النفس الرعب الشديد الذي يبدو على الرجل، وعندما أخذ الرجل بيدين مرتعشتين يربط ما انشق من ملبسه حول الرقبة كشف عن تميمة حولها من النوع الذي يسمى تميمة 'رفع الروح المعنوية'. كانت التمائم شائعة بلا شك، لكنها بصفة عامة لا تُعَلَّقُ من سلك نحاسي بقشرة ذات مربعات، وما أقل التمائم التي تتضمن المينا السوداء فوق الفضة. ولم يكن في المقصورة غيرهما سوى الفلاح واللاما، وكانت المقصورة لحسن الحظ من النوع القديم ذي الجدران السميكة الصلبة. وتظاهر كيم بأنه يحك صدره وفي غضون ذلك رفع تميمته. وما إن رآها المهراتا حتى تغير تعبير وجهه تمامًا وعَمَدَ إلى إظهار تميمته بوضوح على صدره.

وواصل المهراتا حديثه إلى الفلاح قائلاً "نعم، كنت في عجلة من أمري، والعربة كان يقودها ابن فاعلة حشر إحدى عجلاتها في أخدود شقته المياه،

وإلى جانب الإصابات التى لحقت بى فقدتُ فى الحادث طبقًا كاملاً من 'التركيان'. كنت ابن التميمة [سعيد الحظ] فى ذلك اليوم".

وقال الفلاح وقد انحسر اهتمامه "خسارة كبيرة". كانت خبرته بمدينة بيناريس قد جعلته شكّاكًا.

وقال كيم "ومن طبخه؟".

ورفع المهراتا عينيه قائلاً "امرأة".

فقال الفلاح "ولكن كل النساء يطبخن التركيان. إنه كارى لذيذ، حسبما أعرف".

فقال المهراتا "نعم كارى جميل".

فقال كيم "ورخيص. ولكن ما شأن الطائفة؟"

وأجاب المهراتا "لا دخل للطائفة عندما يذهب الرجال... للبحث عن التركيان" محافظًا على الإيقاع المنصوص عليه. ثم سأل كيم "في خدمة من أنت؟"

وقال كيم "فى خدمة هذا الربانى" مشيرًا إلى اللاما السعيد الذى يغالب النوم، وإن كان قد انتبه وانتفض عند سماع الكلمة التى يحبها، قائلاً:

"آه، أَرْسَلَتْهُ السماءُ لمساعدتى واسمه صديق العالم كله. ويُدْعَى أيضًا صديق النجوم. وهو يمشى باعتباره طبيبًا، بعد أن حان موعده. ما أعظم حكمته".

وقال كيم بصوت خفيض "وابن التميمة"، عندما أسرع الفلاح بإعداد غليون خشية أن يتسول منه المهراتا.

وسأل المهراتا "ومن هذا؟" وهو يلقى نظرة من طرف عينه بعصبية.

"رجل شفيتُ أنا – بل شفينا نحن ابنه، وهو يدين لنا بدين كبير. قم فاجلس بجوار النافذة، يا من تنتمى إلى چولندور. فهنا شخص مريض".

"بَرْحَى! لا رغبة عندى أنا أن أختلط بعاطلين قابلتهم مصادفة! ليست لى آذان طويلة. ولست أنا بالمرأة التى ترغب فى استراق السمع للأسرار. وقام الفلاح بتثاقل وانتقل إلى ركن قصيٍّ.

وصاح المهراتا، مستغلاً إشارة كيم إلى أنه مريض "هل لديك أية خبرة بالعلاج؟ إنى وقعت فى كارثة عمقها عشرة فراسخ".

وهتف كيم قائلاً "هذا الرجل مصاب بجروح وكدمات فى كل مكان بجسمه. سأحاول أن أشفيه. لم يتدخل أحد بين الطفل وبينى".

وقال الفلاح بوداعة "أنا أستحق اللوم. إنى مدين لك بحياة ولدى. أنت صانع معجزات، وأنا واثق".

وانحنى كيم على رقبة المهراتا قائلاً "أرنى جروحك". كانت دقات قلبه تكاد تخنقه، فلقد كانت هذه هى اللعبة الكبرى على أشُدِّها. وأضاف "والآن، قُصَّ علىّ قصتك يا أخى ريثما أقرأ تعويذة".

"أتيت من الجنوب، حيث مقر عملى. قتلوا واحدًا مِنّا على جانب الطريق. هل سمعت؟" وهز كيم رأسه. فلم يكن بطبيعة الحال يعرف أى شىء عن سلف أ-٢٣، الذى قُتل فى مكان ما بالجنوب وهو يرتدى زى تاجر عربى. وقال المهراتا "وبعد أن عثرت على خطاب معين كنت أُرْسِلْتُ للبحث عنه، انطلقت. فررتُ من المدينة وأَهْرَعْتُ إلى بلدة 'مهاو' (بين دلهى وبومباى). كنت واثقًا كل الثقة أن أحدًا لا يعرف بأمرى فلم أغيّر مظهر وجهى. وعندما وصلت إلى 'مهاو' اتهمتنى امرأة بسرقة مجوهرات فى البلدة التى غادرتها. ثم رأيت أننى أصبحت مطلوبًا مُطَارَدًا ففررت من 'مهاو' ليلاً بعد أن رشوت رجال الشرطة الذين كانوا قد تلقوا الرِّشَا من قبل لتسليمى دون استجواب إلى أعدائى فى الجنوب. ثم اختبأت فى مدينة شيتور القديمة (إلى الغرب من مدراس) على هيئة تائب لجأ إلى المعبد، لكننى لم أستطع التخلص من الخطاب الذى كان فى عهدتى. وهكذا دفنتُه تحت حَجَرِ الملكة فى شيتور فى البقعة المعروفة لنا جميعًا".

ولم يكن كيم يعرفها، لكنه لم يكن ليقطع حبل القصة ولو أوتى الدنيا ومـــا فيها.

"لاحظ أننى عندما دخلت شيتور دخلت أراضى الملوك، إذ إن بلدة كوتــه التى تقع شرقيها خارج حدود سلطة قانون الملكة، ومن بعدها شــرقًا مدينــة چــايــپور (عاصمة ولاية راچــپوتانا) وچواليور (جنــوبى أجــرا) لكننــى تسللت من مدينة باندا (جنوبى أجرا) حيث سمعت بوجود تهمة ضدى بــأننى قتلتُ شخصًا ما عمدًا فى البلدة التى غادرتها، قتل صبى. كانوا قد أَعَدُّوا الجثة والشهود فى انتظارى".

"لكن ألا يمكن أن تحميك الحكومة؟".

"نحن ممارسى اللعبة خارج نطاق الحماية. فــإذا مُتْنَــا مُتْنَــا. وتُــشْطَبُ أسماؤنا من السجل – وينتهى الأمر! وفى بلدة باندا، حيث يعيش واحــد مِنَّــا، خطر لى أن أضلل من يقتفون أثرى بتغيير مظهر وجهى، وهكذا حوَّلْت نفسى إلى مهراتا. ثم أتيت إلى أجرا (على نهر الجانــچيز، جنوب غربــى دلهــى) وأردت العودة لاسترجاع خطابى. كنت واثقًا ثقة تامة أننى ضللتهم. ولهذا لــم أرسل برقية إلى أى أحد بمكان الخطاب، إذ أردت أن يُنْــسَبَ الفــضل لــى وحدى".

وأومأ كيم. كان يعرف هذا الشعور خير المعرفة.

"ولكن بينما كنت أسير فى أحد شوارع أجرا إذا برجل يصيح مطالبًا بديْن أدين له به، مصطحبًا شهودًا كثيرين ومصرًا على تقديمى للمحاكمة فى التــو واللحظة. ما أمهرهم فى الجنوب! وقال إنه تعرف علىّ باعتبارى وكيلاً له فى صفقات القطن. فليحترق بنار الجحيم على ما فعله!".

"وهل كنت وكيله؟".

"ياللحمق! كنتُ الرجل الذى يطلبونه فى مسألة الخطاب! انطلقتُ فــدخلتُ شادر الجزارين وخرجت من بيت اليهودى، الذى كان يخشى إثــارة الــشغب

وظل يدفعنى حتى خرجت. وسرت على قدميّ إلى 'سومنا رود'، إذ لم تكن نقودى تكفى غير تذكرة إلى دلهى، وهناك، بينما كنت راقدًا فى حفرة وأشعر بالحمى، إذا بشخص يثب من بين الشجيرات ويضربنى ويجرحنى ويفتشنى من ناصية رأسى إلى أخمص قدمى. وكان ذلك على مسمع من القطار!".

"ولماذا لم يقتلك على الفور؟".

"ليسوا حمقى إلى هذا الحد. أما إذا قُبض علىَّ فى دلهى بناء على رغبة المحامين، وبتهمة القتل الثابتة، فسوف يُسَلَّمُ جسدى إلى الولاية التى تريده، فأعود تحت الحراسة، وأموت موتًا بطيئًا حتى أكون عبرة لباقى أفرادنا. ليس الجنوب بلدى، فأنا أسير فى دوائر كالجَدْى الأعور. لم أذق طعامًا منذ يومين. أنا مرصود". ثم لمس الضمادة القذرة على ساقه قائلاً "بحيث يعرفون أننى فى دلهى".

"أنت آمن فى القطار على الأقل".

"إن قُدِّر لك أن تعيش عامًا واحدًا فى هذه اللعبة الكبيرة فلن تعود إلى قول ذلك! لسوف تنهال البرقيات ضدى فى دلهى، واصفة كل ما يسترنى من الثياب البالية. وسيبرز عشرون، بل مائة إذا لزم الأمر، للشهادة بأنهم رأونى أقتل ذلك الصبى. ولن تكون لك فائدة!".

كان كيم يعرف من أساليب أهل البلد فى الهجوم ما يكفى للثقة بأن أركان القضية سوف تكتمل، حتى بالنسبة للجثة. وكانت أصابع المهراتا تنتفض ألمًا من حين لآخر.

وأخذ الفلاح يحملق فيهما بوجه مكفهر، واللاما مشغول بمسبحته، وكان كيم أثناء ذلك يواصل تظاهره بفحص رقبة الرجل بأسلوب الأطباء، ويدبر خطته ما بين التعاويذ التى يرددها.

"ألديك من السحر ما يصلح لتغيير شكلى؟ هذا وإلا مت، إن ظللت وحدى

خمس دقائق أو عشر، ولولا أننى تحت ضغط شديد.... أقصد حتـى أتمكـن من...".

وقال الفلاح بنبرات الغيرة "ألم تَشْفِهِ بعد يا صانع المعجزات؟ لقد ترنمت بالتعاويذ وقتًا كافيًا".

فقال كيم "لا! لا يوجد علاج لجروحه، فى نظرى، إلا أن يظل ثلاثة أيـام فى أردية كاهن". وهذا تكفير شائع عن الذنوب، كثيرًا ما يأمرُ التاجرَ السمينَ به مُعَلِّمُهُ الروحى.

ورد الفلاح قائلاً "الكاهن يحاول دائمًا تحويل شخص آخر إلـى كـاهن". كان ابن طائفة كمبوه، مثل معظم من يؤمنون بالخرافات إيمانًـا راسـخًا، لا يستطيع منع لسانه من السخرية بالكنيسة.

"وهل سيصبح ابنك كاهنًا إذن؟ حان موعد جرعة أخرى من الكوينين".

وقال الفلاح "نحن فلاحى الشمال كالجاموس" ولانت نبراته من جديد.

ومَسَّ كيم بطرف أصبع ينضح بالمرارة شفتى الطفل الواثقتين فيه وقـال بلهجة صارمة إلى الوالد "لم أطلب شيئًا سوى الطعام. هل تستكثر ذلك علـىَّ؟ سأمضى لأشفى رجلاً آخر. هل تسمح لى أيها الأمير؟".

ورفع الرجل يديه الضخمتين فى توسل قائلاً "لالا! لا تسخر هكذا منى!".

"يسرنى أن أشفى هذا الرجل. وسوف تكسب امتيازًا بمساعدتى. ما لـون الرماد فى غليونك؟ أبيض. هذا يبشر بالخير. هل بين أغذيتك كـركم أصـفر طازج؟".

"أنا... أنا..."

"افتح ربطتك!".

كانت فيها المجموعة المعهودة من 'الكراكيب' مثل قطع القماش، وأدويـة الدجالين، والهدايا الرخيصة، وكيس ملئ بما يسمى 'أطا'، وهو دقيـق بلـدى

رمادى اللون خشن الحبوب، وبعض التبغ غير الراقـــى، وجـــذوع غلايـــين مبهرجة تافهة، وعلبة من مسحوق الكارى، وقد ربطها الرجل كلها فى لحاف. وجعل كيم يقلبها، مصطنعًا نظرات الساحر 'السفلى' الحكيم، متمتمًـــا بـــدعوة إسلامية.

وهمس إلى اللاما قائلاً "هذه حكمة تعلمتها من السادة". ولم يكن يقول غير الحق حين يذكر المرء التدريب الذى تلقاه على يدى لورجان. وأضاف "فـــى طالع هذا الرجل شر عظيم، بينته النجوم لى، وهو يضنيه. هل أُزيله؟".

"يا صديق النجوم! لقد أحسنت فى كل ما فعلت. افعل ما يحلو لك. شـــفاء آخر؟" وشهق المهراتا صائحًا "أسرع! أسرع! قد يتوقف القطار".

وقال كيم "شفاء فى ظل الموت"، وجعل يمزج دقيق الفلاح برماد الفحـــم والتبغ فى قاعدة الغليون ذات اللون الطوبى الأحمر. وأما أ-٢٣ فلم يتفوه قـــط بل خلع عمامته، وهز رأسه فتهدّل شعره الأسود الطويل.

وغمغم الفلاح "هذا طعامى... أيها الكاهن".

فصاح كيم "جاموس فى المعبد! هل تجاسرت حتى تنظر فترى ذلك؟ كُتب علىَّ أن أمارس الأسرار أمام الحمقى، ولكن احرص على عينيك. هل تعلوهما الآن غشاوة؟ أنقذتُ طفلك، وفى مقابل هذا تقوم بـــ... عار عليـــك!" وأجفـــل الرجل أمام نظرات كيم الحادة، إذ كان جادًا كل الجد. "هل ألعنك أم تُرى..." والتقط الغطاء الخارجى للربطة وألقاه فوق الرأس المنحنية قائلاً "إذا جـــرؤت على أن تخطر ببالك رغبةٌ فى المشاهدة، فلا... لا نجاة لك، حتى على يـــدىَّ! اجلس! اخرس!".

"أنا أعمى... أبكم. تجنب اللعن! تعال، تعال يا طفلى، سنلعب الاستغماية. أرجوك، من أجلى، ألاّ تنظر من تحت الغطاء".

وقال أ – ٢٣ "ألمح الأمل. ما خطتك؟".

وقال كيم "هذه هى الخطوة التالية" وهو ينزع فانلة الرجل الخفيفة. وتردد 'أ-٢٣' قليلاً، إذ كان مثل أبناء الشمال الغربى يكره تعرية جسده.

وقال كيم وهو يعريه حتى الوسط "ألا يضحى المرء بطائفته فـى سـبيل إنقاذ عنقه؟ لابد أن نجعلك من طائفة **ساذو** الصفراء كلك! اخلـع ملابـسك، اخلعها بسرعة وبعثر شعر رأسك على عينيك وأنا أنثر الرماد. والآن فلأضع علامة الطائفة على جبهتك". وأخرج من صدره صندوق التلـوين المـساحى الصغير واختار صبغة قرمزية قاتمة.

وقال 'أ-٢٣' "هل أنت مبتدئٌ وحسب؟" بنبرات الـذى يكـافح مـستميتًا لإنقاذ روحه، وهو يخلع كل أردية جسمه حتى لم يعد يلـبس إلا مـا يـستر عورته، وكيم يضع علامة طائفة متقنة على جبهته التى لطخها الرماد.

وأجاب كيم "لم أدخل اللعبة إلا منذ يومين يا أخى. ضع مزيدًا من الرماد على صدرك".

وقال صاحبه "هل قابلت... طبيبًا لِلآلئ المريضة؟" وهو ينـشر شـريط نسيج عمامته الطويل المربوط بإحكام، واستطاع بسرعة أن يحوله إلى حـزام ذى تلافيفَ عجيبةٍ معقدةٍ يمر فوق ظهره وبين رجليه كشأن طائفة ساذو تمامًا.

وقال كيم "ها! هل أدركت المهارة التى اكتسبتُها منه إذن؟! لقد كان مُعَلِّمًا لى فترة ما. لابد أن نعالج ساقيك. والرماد يشفى الجروح. ضع المزيد منه".

"كنتُ مصدر اعتزازه يومًا ما، لكنك كدت تتفوق علىّ. الأربـاب لطيفـة بنا! أعطنى **هذا**!"

وكان المقصود علبة من الصفيح تحتوى على حبوب أفيون لمحها وسـط 'كراكيب' حزمة الفلاح. وابتلع أ-٢٣ نصف حفنة من الحبوب قـائلاً "إنهـا مفيدة فى حالات الجوع والخوف والبرد الشديد. كما إنها تكسب العيينين لونًا أحمر". كانت نبراته نبرات من يبرر ما فعل، ثم أضاف "سوف أجـرؤ الآن

على ممارسة اللعبة. لا ينقصنا إلا دليل انتماء لجماعة 'تونج' السرية مثل طائفة سانو. ألا نستفيد من هذه الملابس القديمة؟".

وطوى كيم بعض الملابس طيًّا دقيقًا وحشرها فى فراغات قميص الرجل، وتناول أنبوبةَ طلاءٍ أصفر بُنىٍّ فمرَّ به على ساقى الرجل وصدره فى خطوط عريضة على خلفية الدقيق والرماد والكركم.

"إنها ملوثة بدم يكفى لشنقك أيها الأخ".

وقال كيم "ربما، ولكنْ لا يوجد ما يدعو إلى إلقائها من النافذة... قد انتهينا". وكان صوته ينبض بالفرحة الصافية لطفل يتمتع باللعبة. ثم صاح "استدر يا فلاح وانظر!"

وقال ابن طائفة كمبوه "فلتحمنا الأرباب!" مذهولاً وهو يرفع الغطاء من فوق رأسه فبدا مثل جاموس خرج من بين عيدان القصب. وأضاف "ولكن أين ذهب المهراتا؟ ماذا فعلت؟".

كان كيم قد تلقى التدريب على يد السيد لورجان، ولم يكن أ-٢٣ ممثلاً يُسْتَهَانُ ببراعته. ففى مكان التاجر المرتعد المنكمش الخائف الذى يقبع فى الركن ظهر رجل من طائفة سانو، شبه عارٍ، ملطخًا بالرماد، وعلى جسده الخطوط البُنية، وشعره بلون التراب. وكان عيناه المنتفختان - فالأفيون سريع التأثير إذا تناوله شخص جائع - تبرقان وتسطعان بالوقاحة والشهوة الحيوانية، وساقاه معقودتان تحته، وحول عنقه تتدلى مسبحة كيم البنية، وعلى كتفيه قطعة من القماش القطنى المطرز بالزهور لا يتجاوز طولها مترًا واحد. ودفن الطفل وجهه فى حضن أبيه الذاهل.

"ارفع وجهك يا أميرى الصغير! إننا مسافران مع سحرة، لكنهم لن يضروك. لا لا! لا تبك... ما معنى شفاء طفل ذات يوم وقتله خوفًا فى اليوم التالى؟".

"سوف يبتسم الحظ للطفل طول حياته. فلقد شهد شفاءً عظيمًا. فى طفولتى كنت أصنع رجالاً وأحصنة من الصلصال".

وقال الطفل "وأنا أيضًا أصنعها. فلدينا السير بَنَاسْ الذى يأتى ليلاً ويبعث الحياة فى الجميع خلف كومة قمامة مطبخنا".

"وإذن فأنت لا تخاف أى شيء. صحيح أيها الأمير؟".

"كنت خائفًا لأن والدى كان خائفًا. شعرت بذراعيه ترتجفان".

وقال كيم "يا لك من رجل فى جُبْن الدجاج!"، وأثارت الفكاهة الضحك حتى من الفلاح الذى غمره الخجل. وأضاف كيم "لقد شفيتُ هذا التاجر الفقير. وعليه أن يهجر مكاسبه ودفاتر حساباته ويجلس على جانب الطريق ثلاث ليال حتى يتغلب على خبث أعدائه. فالنجوم ضده".

وقال الفلاح "ليت عدد المرابين يقل باطراد! هذا قولى. ولكن سواء كان من طائفة 'ساذو' أو من غيرها فعليه أن يدفع ثَمَنَ ردائى على كتفيه".

ورد كيم قائلاً "ثم ماذا؟ لكنك الآن تحمل طفلك على كتفك، وكنت ستلقيه فى محرقة الموتى من يومين فقط، ولايزال لدىَّ أمر. لقد أديتُ ذلك فى حضورك لأن الحاجة فرضته. لقد بَدَّلْتُ صورته وروحه. ومع ذلك فإذا تصادف أيها الرجل المنتمى إلى چولوندور أن تذكرتَ ما شاهدتَه هنا، سواء بين الحكماء الجالسين فى ظل الدوحة بالقرية، أو فى بيتك نفسه، أو بصحبة كاهنك عندما يبارك ماشيتك، فسوف يصيبُ الطاعونُ جاموساتك، وتشتعل النيران فى قش سقفك، وتنتشر الفئران فى مخزن قمحك، وتتنزل لعنة الأرباب على حقولك حتى تغدو قاحلة مجدبة تحت أقدامك وبعد حرثها بمحراثك". وكان ما قاله كيم يمثل جانبًا من لعنة تقليدية تعلمها من أحد **الفقراء** فى بوابة تكسالى فى أيام براءته. ولم تفقد نضرتها عندما كررها.

وهتف الفلاح "توقف أيها الربانى! توقف! لا تلعن البيت. لم أشاهد شيئًا! لم أسمع شيئًا! أنا بقرتك!" وحاول الإمساك بقدم كيم الحافية التى كانت تضرب أرضية العربة ضربات منتظمة.

فقال كيم "لكنك ما دمت سمحتَ بمساعدتى ببعض الدقيق وقليل من

الأفيون وغيره من التفاهات التى شرَّفتُهْا باستخدامى إياها فى فنى، فسوف تعيد الأرباب إليك البركة". وألقاها عليه كيم بكل تفاصيلها الدقيقة، وهو ما وَهَبَ الرجل إحساسًا غامرًا بالراحة. وكانت من بين ما تعلمه من السيد لورجان.

وحَدَّقَ اللاما فيما يدور من خلال نظارته كما لم يحدق أثناء إجراء التنكر.

وقال آخر الأمر "يا صديق النجوم! لقد اكتسبتَ حكمة عظيمة. حذار من أن تؤدى إلى الفخر أو الكبرياء. لا يتسرعُ رجلٌ يضع **القانون** نُصْبَ عينيه فيتحدث عن أى شيء شهده أو صادفه".

وصاح الفلاح "لا... لا... لا حقًّا!" فقد كان يخشى أن يضاعف الأستاذ ما قاله تلميذه. وأما 'أ-٢٣'، فإنه كان مطمئنًا، مكتفيًا بالأفيون الذى هو اللحم والتبغ والدواء للآسيوى المنهك.

وهكذا فى صمت الرهبة وسوء الفهم العميق، انسل الجميع داخلين دلهى فى وقت إشعال المصابيح تقريبًا.

الفصل الثانى عشر

مَنْ عَرَفَ الشَّوْقَ إلى البَحْرِ؟

وإلى مَنْظَرِ مَاءٍ مِلْحٍ يمتدُّ بِغَيْرِ حُدُودْ؟

وإلى إحْدَى الأَمْوَاجِ يُطارِدُها الرِّيحُ إلى البَرّ

فَتَجِيشُ وتَتَوَقّفُ كىْ تَنْطَلِقَ وتَتَكَسَّرْ؟

وإلى البَحْرِ إذَا هَبَّ بلاَ زَبَدٍ مَرْفُوعَ الصَّدْرِ

لِيَعْلوَ فى الجَوِّ بلوْنٍ أَغْبَرْ؟

وإلى صَفْحَةِ هذا اليَمِّ السَّاجِى فى حِجْرِ مَدَارِ الحَرّ؟

وإلى أنْ يَسْمَعَ صَوْتَ الإعْصَارِ وقد زَاغَ البَصَرُ ويَهْدِرْ؟

مَنْ تاقَ إلى ذَلِكَ أَجْمَعَ فى البَحْر

كىْ يَجِدَ بأنَّ البَحْرَ يُمثِّلُ دُنْيا تَتَغَيَّرْ

وبأنَّ البَحْرَ دَوَامًا تحتَ جَمِيعِ الأَشْيَاءِ سَيَظْهَرْ؟

فالبَحْرُ كَفِيلٌ، لا شىءَ سِوَاهُ، أن يَمْلأَ كُلَّ كِيَانِهْ

وكذاكَ يَتُوقُ رِجَالُ الجَبَلِ إلى الجَبَلِ وأرْكَانِهْ!

(البحر والجبال)

وقال 'أ-٢٣' مستترًا بضجيج الرصيف "عادت رباطة جأشى. كنت ذاهلاً بسبب الجوع والخوف، وإلا لَخَطَر ببالى أسلوبُ هذا الفرار من قبل. كنتُ مصيبًا، إذ إنهم جاءوا للقبض علىَّ. لقد أنقذتَ رأسى".

وتقدمت مجموعة من رجال شرطة البنجاب ذوى سراويل صفراء، يقودهم انجليزى شاب يعانى حرارة الجو ويتفصد العرق منه، ففرقت الجمهور الذى يتزاحم على العربات. وكان من خلفهم شخص سمين ضئيل الجرم

يتبختر فى خفاءٍ مثل القطة، وكان منظره يوحى بأنه مساعد أنيق لأحد المحامين.

وقال 'أ-٢٣' "هل ترى السيد الشاب الذى يقرأ من ورقة؟ إن أوصافى مخطوطة فى يده. إنهم يفحصون ركاب القطار عربة عربة. مثل الصيادين يلقون الشباك فى بِرْكة".

وعندما وصلت المجموعة إلى عربتهم كان 'أ-٢٣' يَعُدُّ حبات مسبحته وهو يهز معصمه بانتظام، وكان كيم يسخر منه لأنه فَقَدَ تحت تأثير المخدر الحلقات الحمراء التى يتميز بها أفراد طائفة ساذو، وكان اللاما مستغرقًا فى تأملاته لا يحول نظره يمنة أو يسرة، والفلاح منهمك فى جمع منقولاته وهو يلقى النظرات خفية على من حوله.

وقال الإنجليزى بصوت مرتفع "لا يوجد هنا إلا زمرة من المجاذيب". وواصل سيره وسط إحساس يعلو ويهبط بالقلق، فرجال الشرطة المحلية يوحون بالابتزاز لأبناء البلد فى كل مكان فى الهند.

وهمس 'أ-٢٣' قائلاً "المشكلة الآن تكمن فى إرسال برقية بالمكان الذى خبأت فيه الخطاب الذى أُرْسِلْتُ للعثور عليه. لا أستطيع الذهاب إلى مكتب التلغراف بهذه الهيئة".

"ألا يكفى أننى أَنْقَذْتُ رقبتك؟".

"كلاَّ! ما دامت المهمة لم تكتمل. ألم يقل لك ذلك قط معالج اللّآلئ المريضة؟ ها قد أتى سيد آخر! آه!".

كان ذلك مأمور شرطة المقاطعة، وكان يميل إلى الطول، شاحب الوجه، ويلبس حزامه وخُوذَتَهُ ومِهْمَازَيْه المصقولين وسوى ذلك، ويتبختر فى مشيته ويبرم شاربه الأدكن.

وقال كيم ببشاشة "ما أحمق رجال الشرطة من السادة!".

وتطلع 'أ-٢٣' بجفنين شبه مغلقين وتمتم بصوت مغاير "أصبت! سأذهب لأشرب بعض الماء. حافظ على مكانى".

وانطلق خارجًا مندفعًا فى حماقة فكاد أن يقع فى أحـضان الإنجليـزى، فتلقى الشتائم منه بلغة أردية غير مُحْكَمَة.

"هل أنت سكران؟ لا يجب أن تتخبط فى الناس كأنك تملك محطة دلهى يا صديقى".

ودون أن يحرك 'أ-٢٣' عضلة واحدة من عضلات وجهه، أجاب الرجل بسيل من أقذع الشتائم، وهى التى تَهَلَّلَ لها وجه كيم بطبيعة الحال. فلقد ذَكَّرَتْهُ بغلمان الطبل وبكناسى الثكنات في أومبالا فى الوقت العصيب الذى مر به أيام دراسته الأولى.

وقال الإنجليزى ببطء متكلف "عُدْ إلى عربتك يا صديقى المغفل!".

وبدأ ابن طائفة ساذو الأصفر يتراجع فى احترام خطـوة خطـوة، وهـو يخفض صوته أثناء عودته إلى العربة، مستمطرًا اللعنات على مأمور الشرطة وذريته إلى آخر أحفاده، وكان يحلف هنا بلعنة كاد أن يثب كيم فَزَعًـا عنـد سماعها، ألا وهى لعنة حجر الملكة، ولعنة الكتابة تحت حجر الملكة، ولعنـة أنواع من الأرباب أسماؤهم جديدة تمامًا.

واحتقن وجه الإنجليزى غضبًا وقال "لا أعرف ما تقول، لكنه ضَرْبٌ من الوقاحة البذيئة. كُفَّ عن هذا!"

وتظاهر 'أ-٢٣' بأنه لم يفهم، فأخرج تذكرة القطار فى وقـار فانتزعهـا الإنجليزى من يده فى غضب!

وغمغم الفلاح فى ركنه صائحًا "ابتزاز! يا له من قهر!" ثم أضاف "وهذا كله فى سبيل التفكه أيضًا" كانت قد ارتسمت على شفتيه بسمة عريضة حـين سمع لسان ابن طائفة الساذو الطليق وقال "لـم تفلـح اليـوم تعاويـذك أيهـا الربانى!".

وكان ابن طائفة ساذو يسير خلف رجل الشرطة مُدَاهِنًا متوسلاً، وأما عامة المسافرين المشغولين بأطفالهم الرُضَّع وأمتعتهم فلم يلحظوا ما حدث. وتسلل كيم خلفه، إذ تذكر فجأة أنه سمع هذا الإنجليزى الغبى الغاضب يتحدث عن شخصيات عليا مع سيدة عجوز بالقرب من أومبالا قبل ثلاث سنوات.

وهمس ابن طائفة ساذو "لا بأس" وهو يحاول أن يتحرك وسط حشد الصائحين والمنادين والحائرين، إذ وجد كلبَ صيدٍ فارسيًّا بين قدميه، وقفصًا مليئًا بالصقور الصارخة التى يشرف عليها أحد مُرَبِّى الصقور من راجپوت أسفل ظهره. وأضاف "لقد ذهب الآن ليرسل خبرًا عن الخطاب الذى خَبَّأْتُه. قالوا لى إنه فى پيشاوار. كان ينبغى أن أعرف أنه فى الجانب الآخر، مثل التمساح الذى كلما طَلَبْتَه وَجَدْتَهُ فى المخاضة الأخرى. لقد أنقذنى من حاضر البلاء، لكننى مدين لك بحياتى".

وقال كيم "أهو أيضًا واحدٌ مِنَّا؟" وخفض رأسه تحت إبط جَمَّال ينضح بالدهن من ميوار واصطدم فابتعد عن سرب من نساء السيخ العجائز لا يكففن عن الثرثرة.

"لا نَقِلُّ عن أعظمهم! لقد ابتسم الحظ لكلينا! سوف أُبلغه بما فعلت. فأنا آمن فى ظل حمايته".

واخترق أحد أطراف الحشد الذى يحاصر العربة، وجلس القرفصاء بالقرب من أريكة قريبة من مكتب التلغراف.

"عُدْ إلى العربة وإلا شغلوا مكانك! لا تخف على العمل يا أخى، ولا على روحى. فلقد مَنَحْتَنِى فرصة التقاط أنفاسى، وأرسانى السيد ستريكلاند على البر. ربما عملنا معًا فى إطار اللعبة بعد اليوم. وداعًا!".

وأهرع كيم إلى عربة القطار. كان يشعر بالزهو والحيرة، ولكنه يشعر ببعض الضيق لعدم قدرته على فتح مغاليق الأسرار من حوله.

وقال فى نفسه "إننى مبتدئ وحسب فى هذه اللعبة. هذا مؤكد. لم أكن

أستطيع أن أثب إلى بر الأمان كما استطاع ابن طائفة ساذو. كان يعلم أن الظلام يشتد تحت المصباح. لم يكن يخطر ببالى أن أنقل الأنباء مستترًا بالتظاهر باستمطار اللعنات... وما كان أذكى السيد! غير مهم، إنى أنقذت روح إنسان.." ثم التفت إلى اللاما الجالس فى مكانه فى المقصورة التى كانت قد ازدحمت بالركاب وهمس قائلاً: "أين ابن طائفة كمبوه أيها الربانى؟".

وقال اللاما "سيطر عليه الفزع" وكانت فى نبراته لمسة مكر رقيق، مضيفًا "شاهدك وأنت تحيل المهراتا إلى رجل من طائفة ساذو فى طرفة عين، حماية له من الشر. وهزه ذلك هزًّا. ثم شاهد الساذو يقع مباشرة فى أيدى الشرطة، بسبب تأثير فنك. وعندها حمل ابنه وفرَّ قائلاً إنه شاهدك تحوّل تاجرًا هادئًا إلى رجل وقح يتقاذف الشتائم مع السادة، فخشى أن يأتيه مصير مشابه. أين الساذو الآن؟".

وقال كيم "مع الشرطة... ولكننى أنقذت طفل الكمبوه".

وجعل اللاما ينشق السعوط متمهلاً ثم قال:

"آه يا تلميذى! انظر كف هُزِمْتَ! لم تَشْفِ طفل ابن طائفة كمبوه إلا لتكتسب امتيازًا. ولكنك رميت المهراتا بسحر كبير، مرتكبًا ما يدعو للفخر والكبرياء، إذ لاحظت ذلك، وكنت تلقى نظرات جانبية لتبث الحيرة فى عقل رجل عجوز وفلاح أحمق، ومن ثَمَّ منبع الكارثة والريبة".

وبذل كيم جهدًا يفوق سِنَّهُ فى ضبط النفس. لم يكن يختلف عن سائر الصبية فى كراهية 'أكل التراب' أو إساءة الحكم عليه، ولكنه رأى نفسه محشورًا فى عصا مشقوقة. وانطلق القطار مغادرًا دلهى إلى قلب الليل.

وتمتم كيم قائلاً "صحيح. لقد أسأتُ فيما أغضبتُك فيه".

"أكثر من هذا يا تلميذى. لقد أطلقت عملاً فى الدنيا، ومثل حجر يُلقى به فى بِرْكة ماء، تتداح دوائرُ من عواقبَ لا تستطيع أن تعرف مداها".

كان الجهل مفيدًا لغرور كيم ولاطمئنان اللاما، إذا ذكرنا وصول برقية

إلى سيملا في تلك اللحظة، مكتوبة بشفرة سرية، تفيد وصول 'أ-٢٣' إلى دلهي، وأهم من ذلك، تحدد مكان خطاب كان مُكلَّفًا بالعثور عليه. ونذكر بالمناسبة أن شرطيًّا زاد حماسه عن الحد فألقى القبض عليه -- بتهمة جريمة قتلِ عَمْدٍ ارتُكِبَتْ في ولاية في أقصى الجنوب - على أحد سماسرة القطن من أجمير، وكان الرجل غاضبًا أشد الغضب وهو يشرح قضيته إلى ضابط انجليزي يدعى مستر ستريكلاند على رصيف محطة دلهي أثناء انطلاق 'أ-٢٣' من خلال الشوارع الخلفية حتى ينفذ إلى قلب مدينة دلهي المغلق. وبعد ساعتين وصلت عدة برقيات إلى الوزير الغاضب في إحدى ولايات الجنوب، تبلغه بأن المطاردين قد فقدوا كل أثر لمهراتا مصاب ببعض الجروح، وفي الوقت الذي توقف فيه القطار الذي كان يتهادى عند محطة سهارنپور، كانت آخر الحلقات المنداحة على سطح الماء نتيجة الحجر الذي ساعد كيم على إلقائه، تصعد درجات مسجد في قصبة بلاد الروم البعيدة (استامبول) حيث أدت إلى انزعاج رجل ورع يؤدي الصلاة.

وأدى اللاما صلاته باستفاضة تحت تعريشة كَرْمٍ ذات أنداء بالقرب من الرصيف، مبتهجًا بأشعة الشمس الصافية، ووجود تلميذه. وقال "سندير ظهرنا لهذه الأشياء" مشيرًا إلى القاطرة النحاسية وقضبان السكة الحديدية البراقة. "إن اهتزاز ذلك القطار، وإن كان شيئًا رائعًا، أحال عظامي إلى ماء! سوف نستعمل الهواء النقي من هذه اللحظة".

وقال كيم "فلنذهب إلى منزل امرأة 'كولو'، وهو يسير بمرح في ظل أكوام اللفائف. كانت سهارنپور في الصباح الباكر نظيفة ذات روائح طيبة. وخطرت بباله صور الصباح في أيام مدرسة القديس خاڤيير فزادت من رضاه المضاعف ثلاثًا.

"أين كان مولد ومصدر هذا التعجل الجديد؟ الحكماء لا يجرون كالدجاج في ضوء الشمس. لقد قطعنا مئات ومئات من الفراسخ، وإلى الآن لم أنفرد بصحبتك لحظة واحدة. كيف تستطيع تلقي العلم والحشود تدفعك هنا وهناك؟

وكيف أستطيع أنا أثناء التعرض لفيض من الألفاظ أن أستغرق فى تأمل **الطريق**؟".

وابتسم التلميذ قائلاً "تظن أن لسانها لن يقل طوله بتقدمها فى السن؟".

"ولن تقل رغبتها فى التمائم. أذكر مرة كنت أتحدث فيها عن عجلة الحياة".

– وأدخل اللاما يده فى صدره باحثًا عن آخر نسخة أعدها لها – "لم تكن تود الاستطلاع إلا عن الشياطين التى تحاصر الأطفال. لسوف تكتسب امتيازًا باستضافتنا – بعد قليل – فى مناسبة لاحقة – لا تسرع! لا تسرع! سوف نتجول بتمهل فى انتظار **سلسلة الأشياء**. البحث مؤكد النجاح".

وهكذا سارا بتمهل شديد عبر حدائق الفاكهة المزهرة الشاسعة ووسطها، عن طريق أمينأباد، و'سهايجونج، و'أكرولا بمخاضتها' و'فوليا' الصغرى، والطريق إلى تلال 'سواليك' فى الشمال دائمًا، ودائمًا من خلفها الثلوج. وبعد أن ناما نومة طويلة هانئة تحت النجوم لليلة غير مطيرة، بدأت مسيرتهما الوقورة المتمهلة خلال قرية نفضت عن عيونها النوم، وفى اليد قصعة التسول، والصمت يلفهما، وإن كانت عيونهما تعصى **القانون الأسمى** بالنظر من طرف السماء إلى طرفها الآخر. وكان كيم يعود بخطوات لطيفة على التراب إلى أستاذه فى ظل شجرة مانجو وارفة أو فى الظل الهزيل لشجرة سنط أبيض فى وادى 'ضون' للطعام أو الشراب فى تمهل. وفى الظهيرة، بعد الحديث والتجوال قليلاً، ناما، وهكذا كانا يواجهان الدنيا منتعشيْن بعد أن برد الهواء. وعندما حل الليل دخلاً أرضًا جديدة: كانت قرية مختارة لمحاها فى أقصى أطراف السهل المنبسط الشاسع قبل الوصول إليها بثلاث ساعات وناقشا أمرها طويلاً فى الطريق إليها.

وهناك قَصَّا قصتهما – وكانت قصة جديدة كل ليلة من شفتى كيم – ولقيا فى القرية ترحيبًا، سواء كان ذلك من الكاهن أو رئيس القرية، كما هى العادة فى الشرق العطوف.

ولما قَصُرَتْ الظلال وازداد اتكاء اللاما على كتف كيم ثِقَلاً، كان أمامهما دائمًا اللجوء إلى عجلة الحياة، وبَسْطِ صورتها تحت الأحجار التى مسحاها، وكان اللاما يستخدم قشة طويلة فى شرحها دورة من بعد دورة. هنا يجلس الأرباب عاليًا، وكانوا أحلامًا من أحلام. وهنا سماؤنا وعالم أنصاف الأرباب، فرسان يتقاتلون فوق الجبال. وهنا الآلام المفروضة على الحيوانات، أرواح صاعدة أو هابطة فى سُلَّم الوجود ومن ثم لا ينبغى التعرض لها بأذى. وهنا صنوف من جهنم، حارة وباردة، ومأوى الأشباح المعذبة. فليدرس التلميذ المتاعب الناشئة عن الإسراف فى الطعام، المعدة المنتفخة والأمعاء الملتهبة. وهكذا أبدى التلميذ الطاعة، وبرأس منحنٍ وأصبعٍ أسمرَ منتبهٍ جعل يدرس ما يشير إليه المؤشر. ولكنهما عندما وصلا إلى عالم البشر، الزاخر بالنشاط عديم الفائدة، وهو الذى يقع مباشرة تحت ضروب جهنم، شرد ذهنه، فعلى جانب الطريق كانت العجلة نفسها تدور سائرة لا تتوقف، من أكل وشرب وتجارة وزواج وشجار، وكلها تنبض بدفء الحياة. وكثيرًا ما كان اللاما يجعل الصور الحية مادة للنص الذى أعده، ويطلب من كيم الذى كان على استعداد كامل لذلك أن يلحظ كيف أن جسد الإنسان يتخذ ألف ألف صورة، بعضها مرغوب وبعضها مكروه فى نظر الرجال، ولكنها فى الحقيقة لا هذا ولا ذاك قط، وأن يلحظ كيف أن الروحَ الغبيةَ، الأَمَةَ للخنزير وللحمامة وللثعبان - فى اشتهائها اللوز، وهو النير الجديد للثيران والنساء أو كرم الملوك - كُتب عليها أن تتبع الجسد خلال جميع ضروب الجنة وجميع صنوف النار، ثم تبدأ الدورة من جديد مرة أخرى. أحيانًا كانت تمر امرأة أو يمر رجل فقير بهما ليشهد تلك الطقوس - لم يكن الدافع غير ذلك - عند نشر الخريطة الصفراء الكبيرة، وكان يلقى إليهما ببعض الزهور أو حفنة من القواقع التى تستخدم نقودًا، أو يتركها على حافة الخريطة. وكان يكفى هؤلاء البسطاء أنهم قابلوا رجلاً ربانيًّا ربما دفعه عمله إلى تذكرهم فى صلواته.

وقال اللاما عندما استيقظت نوازع كيم اللاهية "عالجهم إن كانوا مرضى. عالجهم إن أصابتهم الحمى، ولكن حذار أن تستخدم السحر قط! تذكر ما حدث للمهراتا".

وأجاب كيم "كل عمل إذن شر؟" وهو يستلقى تحت دوحة عند تفرع طريق 'ضون' مراقبًا النمل الذى يجرى فوق يده.

"الامتناع عن العمل خير، إلا لاكتساب الامتياز".

"قيل لنا داخل أبواب التعليم إن الامتناع عن العمل غير لائق للسادة وأنا منهم".

"اسمع يا صديق العالم كله" وصوب اللاما بصره مباشرة إلى كيم وقال "إننى رجل عجوز، تُمْتِعُنِى المظاهرُ مثل الأطفال. فى عيون من يتبعون **الطريق** لا يوجد أبيض أو أسود، هندوسى أو تيبيتى. فكلنا أرواح تسعى للهروب. ومهما تكن الحكمة التى اكتسبتها من السادة، فعندما نصل إلى نهرى سوف تتحرر من جميع الأوهام، وأنت إلى جوارى. فعلاً! عظام جسدى موجوعة تطلعًا إلى ذلك النهر، مثلما أوجعتنى فى القطار. ولكن روحى تجلس فوق عظامى. البحث موثوق النجاح!".

"أجبتنى عن السؤال فهل أطرح سؤالا آخر؟".

وأومأ اللاما برأسه الجليل.

"كنت أتناول خبزك ثلاث سنوات، كما تعرف. فمن أين أيها الربانى أتت...".

"فى التيبت ثروة كبيرة مما يَعُدُّ الناس". وعادت إلى اللاما رباطة جأشه، فقال "أتمتع فى موطنى بوهم الشرف والتكريم. وأنا أطلب ما أريد. ولا أبدى اعتبارًا للحساب. فهذا شأن الدير الذى أنتمى إليه. فعلاً! المقاعد العليا السوداء فى الدير، والمبتدئون، كلهم فى خير حال!".

وقص بعض القصص، راسمًا بأصبعه أشكالاً فى التراب، عن الطقوس الفاخرة الهائلة فى كاتدرائيات محصنة ضد الانهيارات الجليدية؛ وعن المواكب ورقصات الشياطين، وعن مسخ الرهبان والراهبات خنازير؛ وعن مدن مقدسة ترتفع خمسة آلاف متر فى الهواء، وعن المكائد ما بين دير ودير، وعن

أصوات تتردد بين الجبال، وعن ذلك السراب الغامض الذى يتـراقص فـوق الثلج الجاف؛ وتحدث حتى عن 'لهاسا' (عاصمة التيبت) وعن الـدلاى لامـا الذى رآه وعشقه.

كان كل نهار رائع طويل يشرق فيعلو خلف كيم كجدار يفصله عن جنسه وعن لغته الأم. فعاد إلى اللغة المحلية فى تفكيـره وفـى أحلامـه، وأصـبح بصورة آلية يتبع شعائر اللاما فى الطعام والشراب وما إليهما. وكان تحـول ذهن الرجل العجوز إلى ديره يزداد كلما ركز بصره على الثلوج الصامدة. لم يعد يقلقه أمر نهره، بل إنه كان بين الفينة والفينة يحدق طـويلاً طـويلاً فـى بعض الكلأ أو غصن صغير، متوقعًا كما يقول انشقاق الأرض وتقديم بركاتها، لكنه كان قانعًا بصحبة تلميذه، منبسط الأسارير للنسيم العليل الذى يهـب مـن وادى 'ضُونْ'. لم تكن هذه جزيرة سيلان أو مدينة 'بوذجايا' أو بومبـاى أو بعضَ أطلالٍ مشتبكةٍ بالكلأ مثل التى ساقته قدماه إليها، فيما يبدو، قبل عامين. كان يتكلم عن تلك الأماكن كلام دارس لا أثر للزهو فيه، بل مثل باحث يمشى على الأرض هَوْنًا، وبنبرات الشيخ الحكيم الحليم الذى تنير بـصيرته كـل معرفة. وتدريجيًا، كانت كل قصة يُثير ذكراها شيء على جانب الطريق، ولم يكن بينها رابط، فتحدث عن كل جولاته فى شتى ربوع الهند، حتـى أصـبح كيم، بعد أن كان يحبه بلا سبب، يحبه الآن لخمسين سبب وجيه. وهكذا ظـلا يستمتعان، فى سعادة عليا، بذلك كله، ممتنعيْن، كما تنص **القاعدة** العليا، عـن استخدام خبيث الألفاظ، وعن مد العين إلى ما فى أيدى الغير، وعن الإفـراط فى الطعام، أو النوم على سُرُرٍ مرتفعة، أو ارتداء ملابس فاخرة. كانت المعدة تدلهما على وقت الطعام، والناس يأتونهما بطعامهما، كما يُقال. كانا يُعَـامَلاَن معاملة الرؤساء فى القرى التى توقفا فيها – أمينأباد، وسهايجونج، وأكـرولا بمخاضتها، وفوليسا الصغرى – وفى الأخيرة منح كيمُ البركة لامرأة 'خسرت نفسها'.

ولكن الأنباء تنتشر بسرعة فى الهند، وسرعان ما انطلق عبـر أراضـى المحاصيل خادم ذو شارب أبيض، نحيف أعجـف مـن طائفـة أوريـا (أى

أوريسى)، حاملاً سلة فواكه وصندوقًا من أعناب كابول وبرتقالهـا المُـذَهَّب، وتوسل إليهما أن يشرفا سيدته بالحضور، بعد أن أضناها هجر اللاما لها هـذه الفترة الطويلة.

وقال اللاما "تذكرت الآن!" كان يتحدث بلهجة من يواجه عرضًا جديدًا كل الجدة، فأضاف "إنها فاضلة لكنها مفرطة الثرثرة".

كان كيم يجلس على طرف مذود بقرة، يحكى الحكايات لأبناء حَدَّادٍ فـى القرية.

فقال "لن تطلب إلا ابنًا آخر لابنتها. لم أنسها. فلندعها تكـسب الامتيـاز. أرسلْ لها أننا سوف نأتى".

وقطعا سبعة عشر كيلو مترًا عبر الحقول فى يـومين، وعنـدما وصـلا أغرقهما فيض التكريم، إذ كانت العجوز تحافظ على تقاليد الـسخاء الجميلـة، فأجبرت زوج ابنتها على اتباعها، وكانت تسيطر عليه نساء الأسرة فَيُهَـادِنُهُنَّ بالاقتراض من المرابى. لم يكن كر السنين قد أضعف لـسانها أو ذاكرتهـا، فأطلت من شباكٍ عُلْوِىٍّ رُكِّبتْ فيه القضبان التى تستدعيها الحيطة وانطلقـت تثنى على كيم، على مسمع مما يزيد على عشرة من الخدم، بألفاظ لو سـمعها الأوروبيون لأصيبوا بالهلع والفزع.

وعاد صوتها الحاد يقول "لكنك ما زلت 'الولد الشقى' الـشحاذ الـذى لا يستحى كما كنت عندما قابلناك فى محطة الراحة. لم أنسك، فادخل واغتـسل. والد ابن ابنتى مسافر ويغيب عنا فترة ما. وهكذا فالمرأة مسكينة لا صوت لها ولا نفع".

وبرهانًا على ذلك انطلقت تلقى خِطابًا حماسيًّا على أهل المنزل كلهم، ولم تُعْفِ أحدًا أو شيئًا فى الخطاب حتى أُحْضِرَ الطعامُ والشراب، وفى المـساء – المساء الذى شاع فيه أريج الدخان، وكسا الحقول لونٌ نحاسىٌّ أدكنُ فيـروزىٌّ – راق لها أن تأمر بإحضار هودج وإنزاله فى الفناء الأمامى غير المنظم على

ضوء المشاعل التي يتصاعد دخانها، ومنه – من خلف ستارة لم تُحْكِمْ إغلاقها – بدأت الثرثرة.

قالت "لو كان الرجل الربانى قد أتى وحده لاستقبلته استقبالاً مختلفًا، لكنه ما دام فى صحبة هذا الوغد، فلابد أن نحرص ونحتاط".

وقال كيم "أيتها المهرانية" – مختارًا كالعادة أوسع الألقاب دلالة – "هل أُلام أنا إذا كان رجل جليل القدر من السادة، ومن رجال الشرطة السادة، هو الذى أثنى على جمال المهرانية قائلاً...".

"اسْكُتْ! كان ذلك أثناء الحج. وعندما نسافر... أنت تعرف المثل".

"قائلاً إن وجهها يحطم القلوب وينشر ألوان البهجة؟".

"كيف تذكرت ذلك! صحيح، فقد قال هذا. وكان ذلك فى وقت زهرة جمالى". وضحكت ضحكة مكتومة مثل ببغاء تسعدها قطعة من السكر. "والآن قُصَّ علىَّ أخبار أسفارك، فى حدود ما لا يدعو للخجل. كم يتعلق بأهداب عينيك من العذارى وزوجات مَنْ منَ الرجال؟ هل تحمل التحية من بيناريس؟ كنت أود أن أعود إليها هذا العام ولكن ابنتى – ليس لدينا سوى ولدين. أفٍّ أفٍّ! هذا من أثر هذه السهول المنخفضة. أصبح الرجال اليوم أفيالاً فى كولو. لكننى أود أن أطلب من الرجل الربانى – تنحَّ أنت أيها الوغد – تميمة ضد مغص الانتفاخ الشديد الوطأة الذى يستولى فى زمن المانجو على ابن بنتى الأكبر، إذ أعطانى منذ عامين رُقْيَةً بالغة القوة".

وقال كيم "يا أيها الربانى!" وهو يتفجر مرحًا ناظرًا إلى وجه اللاما الذى اكتسى دلائل ندم وأسى.

"صحيح. أعطيتها رقية ضد الانتفاخ".

وقالت المرأة بحدة "الأسنان، الأسنان، الأسنان!".

وقال كيم مقتطفًا ما قاله اللاما له "عالجهم إن كانوا مرضى" وأضاف بِلَذَّةٍ غامرة "ولكن لا تستخدمْ السحر إطلاقًا. تذكر ما حدث للمهراتا".

فرد اللاما قائلاً "كان ذلك منذ عـامين، بعـد أن أرهقنـى إلحافهـا دون توقف". وتأوه اللاما مثل 'القاضى الظالم الذى تأوه من قبله' **(إنجيـل لوقـا ١٨/٢)**. ثم قال "وهكذا يحدث – لاحظ يا تلميذى – أن ينحرف الراغبون فى اتباع الطريق أنفسهم عنه بسبب امرأة عاطلة. لم تتوقف عن الحديث إلىّ أثناء مرض الطفل ثلاثة أيام كاملة".

"تمامًا! وإلى من عساى أن أتحدث؟ لم تكن أم الصبى تعرف شيئًا، وأمـا والده – فى الليالى الباردة – فكان لا يقول إلا "صلِّ إلى الأرباب"، ثم يستدير فى فراشه، فعلاً، ويَغِطُّ فى نومه!".

"أعطيتها التميمة. وماذا فى طوق رجل عجوز؟".

وقال كيم مقتطفًا ما ذكره اللاما بالحرف "الامتناع عن الفعـل خيـر، إلا لاكتساب الامتياز!".

"آه يا تلميذى! لو هجرتنى سأصبح وحيدًا".

وقالت العجوز "وجد أسنانه اللبنية بسهولة على أية حال. ولكن لا يختلف كاهن عن كاهن".

وسعل كيم بشدة، فلم يكن يقبل بسبب سنه الصغيرة ذلاقة اللسان الأهـوج للمرأة، وقال "الإلحاف على الحكماء فى غير موعده يجلب المصائب".

وقالت المرأة فيما يشبه الطعنة المصحوبة بإشارة بسبابتها التى لايزال كيم يذكرها "عندى ببغاء تتكلم، فوق الاصطبل، وقد حفظت اللهجة التى يتكلم بهـا كاهن الأسرة. ربما نسيت تكريم ضيوفى، لكنك إن كنت شاهدته [أى الطفـل] وهو يجمع قبضتيه ضاغطًا على بطنه التى كانت منتفخة مثل قرعـة عـسلية شبه ناضجة، ويصيح 'الألم هنا!' لصفحت عنى. نفسى تراودنى بـشراء دواء الطبيب. فهو يبيعه بثمن زهيد ولا شك أنه يجعله سـمينًا مثـل ثـور الـرب شيـفـا نفسه. إنه لا يتناقض مع أنواع العلاج الأخرى، ولكننى شَكَكْتُ فـى صلاحيته للطفل بسبب لون القوارير الذى لا يبشر بالخير".

وكان اللاما قد استتر بضجيج المونولوج فانسحب فاختفى فى ظلمة الغرفة التى أُعدت له.

وقال كيم "لابد أنك أغضبتِه!".

"قطعًا لا. فهو مرهق منهك، وقد نسيت ذلك لأننى جـدة. لا ينبغـي أن يشرف على الطفل إلا الجدة، فلا تصلح الأمهات إلا للحمل. وغدًا عندما يرى كيف كبر ابن ابنتى سوف يكتب لى التميمة. ويمكنه عندها أيضًا أن يحكم على عقاقير الطبيب الجديدة".

"ومن هو الطبيب أيتها المهرانية؟".

"جوَّال، مثلك، ولكنه بنغالى بالغ الحصافة من داكا، أستاذ فـى الطـب. أراحنى من تعب جاءنى بعد تناول اللحم بحبة صغيرة كان مفعولها يشبه أداء شيطان طليق. إنه يواصل أسفاره الآن بين البلاد، فيبيـع مستحـضرات ذات قيمة عظمى. بل إن لديه أوراقًا مكتوبة بالإنجليزية تَذْكُرُ ما فعله مـن أجـل الرجال ذوى الأصلاب الضعيفة والنساء ذوات الكسل. وقد مكث هنا أربعـة أيام ولكنه عندما علم بقدومكما فَضَّل، فيما يبدو، الاختفـاء، فبـين الأطبـاء والكهنة ما بين الثعبان والنمر فى شتى أرجاء الدنيا".

وبينما كانت تلتقط أنفاسها بعد هذا الوابل من الألفاظ، كان الخادم العجوز الجالس دون تقريع من أحد على حافة ضوء الشعلة يتمتم قائلاً "هذا المنـزل يشبه حظيرة أبقار لجميع المحتالين والـ... كهنة. فليمتنع الصبى عـن أكـل المانجو... ولكنْ من ذا الذى يستطيع أن يجادل الجدة؟" ثم رفع صوته قـائلاً باحترام "أيتها السيدة الجليلة! الطبيب نائم بعد أن تناول اللحم. إنه فى المنـزل الواقع خلف برج الحمام".

وانتصب شعر رأس كيم ككلب صيد اشتم فريسة. وقال فى نفسه ما أجمل أن يتحدَّى ويَهْزِمَ فى النقاش بنغاليًّا تعلم فى كالكتا وبائع عقاقير ثرثار! ستكون لعبة طريفة! ولم يَبْدُ له أن نَبْذَ اللاما، ونَبْذَهُ هو نفسه بالمناسبة، من أجل ذلـك

الرجل أمر جميل. كان يعرف تلك الإعلانات الإنجليزية الغريبة 'غير الشرعية' فى الصفحات الأخيرة للصحف المحلية، لأن الصبيان فى مدرسة القديس خافيير كانوا يأتون بها أحيانًا خلسة حتى يضحكوا منها بين أقرانهم، إذ كانت اللغة التى يصف فيها المرضى الممتنون لشفائهم أعراض أمراضهم بالغة السذاجة وتكشف عن الكثير. وأما الخادم الذى كان حريصًا بل تواقًا إلى الإيقاع بين طُفَيْلِىٍّ وطفيلىٍّ آخرَ فقد تسلل بهدوء إلى برج الحمام.

وقال كيم فى نبرة احتقار 'محسوبة' "ليس فى جَعْبتهم سوى الماء الملون وقدر عظيم من الصفاقة، ويجدون فريستهم بين الملوك المعتلين والبنغاليين المصابين بالتخمة، ومصدر ربحهم هو الأطفال... الذين لم يولدوا بعد".

وضحكت المرأة وقالت "لا تكن حسودًا. التمائم أفضل.. صحيح؟ لم أنكر **أنا** ذلك قط. تأكد أن صاحبك الربانى قد كتب لى تميمة ناجعة قبل طلوع الصبح".

ودَوَّى صوتٌ غليظٌ مُتَّئِدُ النبراتِ وسط الظلام يقول "لا ينكر إلا الجهلة" وظهر الرجل فتقدم فجلس القرفصاء مستأنفًا عبارته 'لا ينكر إلا الجهلاء قيمة التمائم. ولا ينكر إلا الجهلاء قيمة الأدوية".

وقال كيم "فأرٌ وجد قطعة من الكُرْكُمِ، فقال 'سأفتح دكان بقالة' ".

وبدأ الاشتباك الحق فى القتال وسمعا السيدة العجوز تتصلُّبُ كى تَنْتَبِهَ لما يقال.

قال "يعرف ابن الكاهن اسم حاضنته وثلاثة أرباب ويقول 'أصغوا إلىَّ وإلا سوف أَصُبُّ عليكم اللعنات باسم الملايين الثلاثة من العظام'." كان ذلك الشخص الخفى لديه قطعًا سهمٌ أو سهمان فى جَعْبَتِهِ. فأضاف "لست إلا مُعَلِّمًا لحروف الهجاء. فقد تعلمتُ حكمة السادة كلها".

وقال الصوت الصادر من الهودج "السادة لا يبلغون الشيخوخة قط. فهم يرقصون ويلعبون كالأطفال عندما يصبحون أجدادًا".

"وعندى أيضًا أدويتِنا التى تطلق 'أمزجة' الرأس فى الغاضبين ذوى الطبع الحاد، فعندى 'سينا' المركَّب خير تركيب عند وصول القمر إلى 'البرج' الصحيح؛ وعندى مساحيقُ صفراءُ، مثل 'أربلان' من الصين الذى يجدد شباب الرجل ويجعله يُدْهِشُ أهله، وزعفران من كشمير، وأفضل 'ساليب' من كابول. وقد مات من الناس الكثير...".

فقال كيم "هذا أصدقه بلاشك".

"قبل أن يعرفوا قيمة أدويتى. أنا لا أعطى مرضاى مجرد الحبر الذى تكتب به التميمة، بل عقارات حامية قادرة على التمزيق، وهى التى تنزل وتصارع الشر".

وتنهدت السيدة العجوز قائلة "بل تصارعه بكل قوة".

واندفع الصوت يحكى قصة هائلة عن سوء الحظ والإفلاس، 'مُرَصَّعَةً' بعدد كبير من الالتماسات المرفوعة للحكومة. "ولولا قَدَرِى الذى أخضع له، لكنت الآن موظفًا فى الحكومة. فأنا أحمل شهادة من المدرسة العظيمة فى كالكتا... وربما التحق بها ابن هذا البيت".

"وسوف يلتحق بها فعلاً. إذ استطاع 'الولد الشقى' ابن جيراننا أن يحصل على ليسانس الآداب، بعد بضع سنوات، بمرتبة الشرف الأولى". واستخدمت العجوز التعبير الإنجليزى الذى سمعته كثيرًا، وأضافت "كم يزداد عدد الأطفال النابهين مثل بعض من أعرفهم والذين سوف يفوزون بالجوائز فى كالكتا الغنية".

وقال الصوت "لم أر فى حياتى قط مثل هذا الطفل! لقد ولد فى ساعة سعد، ولولا ذلك المغص الذى يتحول مع الأسف إلى ضروب من الغضب الأسود والذى يهدده بالاختطاف مثل حَمَامَةٍ، وقُدِّر له العَيْشُ به سنوات كثيرة، لكان جديرًا بالحسد!".

وقالت العجوز "فعلاً! لولا أن امتداح الأطفال يجلب النحس لاستمعت إلى

حديثك. ولكن مؤخرة المنزل ليست عليها حراسة، وحتى فى هذا الهواء العليل يظن الرجال أنهم رجال، والنساء، كما نعرف... والد الطفل مسافر أيضًا، ولابد أن أتولى أنا الحراسة فى شيخوختى. ارفعوا! ارفعوا! ارفعوا الهودج. فليتناقش الطبيب والكاهن الصغير حتى يفصلا فى القضية ويحددا ما له تأثير أنجع، هل هى التمائم أم الأدوية؟ هيا! تحركوا يا تافهين، وأحضروا المزيد من التبغ للضيوف، واتجهوا بى صوب المنزل".

وانطلق الهودج يتبعه عدد من حاملى المشاعل فى غير نظام، وحشد من الكلاب. كانت عشرون قرية تعرف السيدة الوقور، وتعرف نقاط ضعفها، ولسانها، وإحسانها الفياض. وكانت عشرون قرية تَغُشُّها وَفْقًا للعادات السائدة منذ زمن سحيق، ولكنْ لم يكن أحد يجرؤ أن يسرق شيئًا أو يسطو على شخص فى نطاق 'ولايتها القضائية' مهما تبلغْ قيمةُ الشيء على الإطلاق. ومع ذلك فقد كانت تقوم بجولاتها التفتيشية الرسمية فى استعراضات عظيمة، وكان الضجيج الصادر عنها يُسمع حتى منتصف الطريق إلى محطة موسورى الجبلية (شرقي دلهى).

وهدأت أعصاب كيم، كما ينبغى أن تهدأ أعصاب كل عراف عند مقابلة نظير له. وكان الطبيب لايزال يجلس القرفصاء فقرب الشيشة بقدمه من كيم، وجعل كيم يتلذذ بتدخين التبغ الجيد. وكان المتفرجون يتوقعون مناظرة جادة بين اثنين من المحترفين، وربما قليلاً من العلاج المجانى.

وقال الطبيب "مناقشة الطب أمام الجهلاء تستوى مع تعليم الطاووس الغناء".

وأرجع كيم صدى الفكرة قائلاً "ما أكثر ما تتمثل المجاملة الحقيقية فى شرود الذهن". وليكن من المفهوم أن هذه كانت من أنماط السلوك الشائعة عند من يريدون إبهار أقرانهم.

وصاح أحد مساعدى الطهاة "أرجوكما! عندى قرحة فى ساقى. فانظرا فيها!".

وهتف الطبيب "ابتعدوا! غوروا! هل من عادات هـذا المكـان مـضايقة الضيوف المُكَرَّمين؟ لقد تجمعتم مثل الجواميس".

وشرع كيم يقول "لو عَرَفَتْ صاحبةُ المنزل...".

"نعم نعم! دع عنك هذا. إنهم طعامٌ لسيدتنا. فإذا شُفِيَ حفيـدُها الـشيطان الصغير فربما تعرضنا نحن الفقراء للمعاناة من...".

وتقدم الخادم العجوز قائلاً "سيدتك أطعمت زوجتك عندما دخلت الـسجن عقابًا على شَجٍّ رأس المرابى. فمن ذا الذى يجرؤ على انتقادها؟" وجعل يبـرم شاربيه البيضاوين بوحشية فى ضوء القمر الذى أشرق قبل قليل، مُضيفًا "**أنـا** هنا المسؤول عن شرف هذا المنزل. انصرفوا!" وانطلق خارجًا وهو يـسوق الأتباع أمامه.

وقال الطبيب بصوت خفيض يكاد ينحصر فى تشكيل الألفاظ بشفتيه "كيف حالك يا مستر أوهارا؟ ما أشد سرورى بمقابلتك من جديد".

وتصلبت يد كيم فى قبضتها على مبسم الشيشة. لو كانت المقابلة قد وقعت فى أى مكان آخر أثناء تجواله فربما لم تُدْهِشْهُ هذه الدهشة، وأمَّا هنا، فى هذه البِرْكة الراكدة بمحاذاة نهر الحياة، فلم يكن مستعدًا لملاقاة هورى البنغالى. كما أحس بالضيق أيضًا لوجود الغمامة على عينيه.

"آهَا! قلتُ لك فى لوكناو إننى سوف أنهض مرة أخـرى ولـن تعرفنـى عندها. ما مقدار ما رَاهَنْتَ به على صدقى؟ هه؟".

وجعل يمضغ بتمهل بعض الحبَّهان ولكنه كان ضَيِّقَ الأنفاس.

"ولكنْ لماذا جئت إلى هنا أيها الأفغانى؟".

"آه! هذا هو السؤال، كما يقول شيكسبير. جئتُ لتهنئتك علـى تـصرفك الممتاز الفَذِّ فى دلهى. آوه! دعنى أخبرك بأننا جميعًا فخورون بك. كان أداؤك مُحْكَمًا مُنَظَّمًا إلى حد بعيد. صديقنا المشترك من أصدقائى القدامى. ولقد مـر

ببعض الأزمات الشديدة، وسوف يمر الآن بالمزيد منها. وقد حكى لى ما جرى، فنقلت الخبر إلى المستر لورجان الذى سَرَّهُ تخرجك بامتياز. والجهاز كله مسرور".

ولأول مرة فى حياته يشعر كيم بالنشوة والزهو الصافى لسماع امتداح الجهاز الحكومى له، وإن كان ذلك يمكن أن يصبح سقطة قاتلة، إذ كان المديح كالشَّرَكِ ما دام صادرًا من زميل له فى العمل ويضمر تقدير زملاء المهنة. لم يكن على وجه الأرض شىء من النوع نفسه يَعْدِلُه. ولكن الرجل الشرقى فى أعماق كيم صاح قائلاً إن البنغاليين لا يقطعون هذه المسافات الطويلة فى أسفارهم لنقل المدائح.

وقال بنبرات السلطة "أَفْضِ بما عندك يا بنغالى".

"أوه! لا شىء. كل ما فى الأمر أننى كنت فى سيملا عندما وصلت البرقية التى تذكر ما خبأه صديقنا المشترك، وإذا بصاحبنا كرايتون..." ونظر ليرى كيف يتقبل كيم هذه الجرأة.

وجاءه تصحيح العبارة من خريج مدرسة القديس خافيير "بل السيد العقيد".

"طبعًا طبعًا. وجد أنى لم أُكلَّفْ بشىء فعهد إلىَّ بالذهاب إلى شيتور حتى أحضر الخطاب الملعون. وأنا لا أحب الجنوب، بسبب كثرة السفر بالقطار وإن كان بدل السفر المصروف لى كبيرًا. هاها! فإذا بى أقابل صديقنا المشترك فى طريق العودة. إنه يختفى حاليًا ويقول إن التنكر فى زى الساذو مناسب تمامًا له. وهناك سمعت أنك أَحْسَنْتَ التصرف، وبسرعة وتلقائيًا بوحى اللحظة. وقلتُ لصديقنا إنك بالغ المهارة وأُقْسِمُ على ذلك! كان العمل رائعًا فجئتُ لأخبرك".

وغمغم كيم.

كانت الضفادع تعمل بجد فى خنادقها، والقمر يميل إلى المغيب، وأحد

الخدم السعداء قد خرج للتناجى مع الليل ويدق طبلاً فى يده. وجاء سؤال كيم التالى باللغة المحلية:

"كيف اقتفيت أثرى؟"

"أوه! كان ذلك يسيرًا. عَرَفْتُ من صديقنا المشترك أنك ذاهب إلى سهارنپور، فاتجهت إليها. ليس اللامات الحمر أشخاصًا يَخْفَى وجودُهم. فاشتريتُ لنفسى صندوقَ عقاقير، والواقع أننى طبيب بارع إلى حد بعيد. ثم ذهبتُ إلى أكرولا ذات المخاضة، وسمعت كل شىء عنكما، وتكلمت هنا وتكلمت هناك. إن العامة كلهم يعرفون ما تفعلان. وعَرَفْتُ عندما أَرْسَلَتْ السيدةُ العجوزُ المضيافُ هَوْدَجَها لكما. والناس تتذكر بوضوح هنا زياراتِ اللاما العجوز. ولمّا كنتُ أعرف أن العجائز لا يستطعن الابتعاد عن الأدوية، أصبحتُ طبيبًا... هل سمعتَ أنت حديثى؟ أعتقد أنه كان ممتازًا. صدقنى يا مستر أوهارا، إنهم يعرفون أمرك وأمر اللاما على بعد خمسين ميلاً... أقصد العامة. وهكذا أتيت. هل تمانع؟".

وقال كيم وهو ينظر إلى الوجه العريض المبتسم قائلاً "اسمع يا بنغالى. إننى سيد ".

"مستر أوهارا يا عزيزى...".

"وأرجو أن ألعب اللعبة الكبرى".

"أنت مرؤوس لى فى الجهاز حاليًا".

"إذن لماذا تتحدث مثل قرد على الشجرة؟ الرجال لا يقتفون أثر شخص من سيملا من أجل بضع كلمات عذبة. لستُ طفلاً. تكلم باللغة الهندوستانية ودعنا نصل إلى مُخِّ البيضة. ها أنت ذا هنا – لم تَصْدُقْ فى كلمة واحدة من كل عشر كلمات. ما سبب وجودك هنا؟ أَجِبْ إجابةً مباشرة".

"هذا ما يحيرنى حيرة شديدة من جانب الأوروبيين يا مستر أوهارا. لا يليق بك ذلك على الإطلاق فى هذه السن".

وقال كيم ضاحكًا "لكننى أريد أن أعرف. فإذا كانت اللعبة، فربما ساعدت فيها. كيف أستطيع أن أفعل أى شيء وأنت تثرثر دون الدخول في صلب الموضوع؟".

ومَدَّ هورى البنغالى يَدَهُ فأمسك بمبسم الشيشة وظل يسحب الأنفاس منه حتى عاد صوت القرقرة.

"سأتكلم الآن باللغة المحلية. لا تتحرك يا مستر أوهارا... الأمر يتعلق بأصالة نسب فحل من فحول الخيل البيضاء".

"إلى الآن؟ إنّا انتهينا من ذلك من زمن بعيد".

"لا تنتهى اللعبة إلا عندما يموت الجميع. لا قبل ذلك. أصغ لى حتى النهاية. كان خمسة ملوك يستعدون لحربٍ فجائية منذ ثلاث سنوات، عندما أعطاك محبوب على الرسالة الخاصة بأصالة نسب فحل الخيل. وبناءً على هذه الأنباء، انقض عليهم جيشنا قبل استكمال استعدادهم".

"نعم. ثمانية آلاف رجل مسلحين بالمدافع. أذكر تلك الليلة".

"ولكن الجيش لم يواصل الحرب. فتلك عادة الحكومة. إذ أصدرت الأمر بعودة الجنود إلى الثكنات لأنها رأت أنها قد أفزعت الملوك الخمسة، كما إن تكاليف إطعام الجنود فى الممرات الجبلية ليست زهيدة. وتعهد اثنان من الراجات المزودين بالمدافع، وهما هيلاس وبونار، بمهمة حماية مناطق الممرات ضد أى هجوم من الشمال. وأبدى كل منهما الخوف ومَدَّ يَدِ الصداقة". وضحك وهو يتحول إلى الحديث باللغة الإنجليزية قائلاً "إنى أقول لك هذا طبعًا بصورة غير رسمية إيضاحًا للموقف السياسى يا مستر أوهارا. وأما رسميًّا فمحظور علىَّ انتقادُ أىِّ إجراءٍ يتخذه رؤسائى. دعنى الآن أواصل ما بدأته: كان هذا التعهد مُرْضيًا للحكومة، الحريصة على تجنب النفقات، ومن ثم عُقِدَ اتفاقٌ بدفع عدد معين من الروبيات كل شهر على أن يتولى هيلاس وبونار حماية الممرات بمجرد انسحاب قوات الدولة فى ذلك الوقت. وكان ذلك

بعد أن التقينا، وكنت آنذاك أبيع الشاى فى 'ليه' ثم عُيِّنْتُ كاتب حسابات فى الجيش. وخلفنى الجيش وراءه لأدفع أجور العمال الذين شقوا طرقًا جديدة فى الجبال. وكان شق هذه الطرق يمثل جانبًا من جوانب العقد المبرم بين هيلاس وبونار وبين الحكومة".

"ثم ماذا؟ ماذا حدث؟".

"صدقنى كان البرد قارسًا أيضًا فى تلك الجبال بعد انصرام الصيف"، وكانت نبرات هورى البنغالى توحى بأنه يُفْضى بأسرار إلى كيم "كنت أخشى كل ليلة أن يقوم رجال بونار بذبحى حتى يسرقوا صندوق الأجور. وكان أبناء جلدتى من حراسى المحليين يضحكون علىَّ! أقسم لك! كنت خائفًا خوفًا شديدًا. ولكن فلننس هذا، سأواصل الحديث باللهجة العامية... أرسلت عدة مرات أقول إن هذين الملكين قد اشتراهما الشمال، وقام محبوب على الذى كان فى الشمال آنذاك بتأكيد صحة كلامى تأكيدًا مستفيضًا. ولكنْ لم يُتَّخَذْ أىُّ إجراء. لم أنل إلا تجميد أقدامى وفقدان أصبع من أصابع قدمى. أرسلتُ أقول إن الطرق التى دفعنا الأجور للعاملين بإنشائها كانت تُنْشأُ لأقدام الأغراب والأعداء".

"لمن؟"

"للروس. كان الأمر فكاهة صريحة بين العمال. ثم استُدْعِيتُ للإدلاء بما أعرف بكلمات لسانى. وحضر محبوب إلى الجنوب أيضًا. وانظر النتيجة! ففى الممرات هذا العام، بعد انصهار الثلج" – وارتجف من جديد – "إذا بغريبين يتجولان متسترين بصيد الماعز البرى. وهما يحملان البنادق، ولكنهما يحملان أجهزة قياس المسافات والمساحة الهندسية والبوصلات".

"أوهو! الأمر يزداد وضوحًا".

"وهما موضع الترحيب الحار من جانب هيلاس وبينار. وهما يقدمان الوعود العظمى ويتحدثان باسم قيصر روسيا، بالهدايا. وهما يذرعان الوديان

جيئة وذهابًا قائلين 'هذا مكان مناسب لإقامة حائط الصد، هنا يمكن إنشاء حصن، هنا يمكن سد الطريق فى وجه الجيش' والطريق المشار إليه هو نفسه الذى كنت أدفع الروبيات كل شهر من أجل إنشائه. والحكومة تعرف ولا تفعل أى شيء. وأما الملوك الثلاثة الأُخر الذين لم يدفع لهم المال لحراسة الممرات فيخبرون الحكومة بخيانة بونار وهيلاس. وبعد أن وقع الشر، وانتبهْ لما أقول، بعد أن جاء الغريبان بأجهزة المساحة والبوصلات فجعلا الملوك الخمسة يعتقدون أن جيشا عظيما سوف يكتسح الممرات غدًا أو بعد غد، وأنت تعرف أن رجال الجبال كلهم مغفلون، بعد هذا كله، يَصْدُرُ الأمرُ إلىَّ أنا هورى البنغالى قائلاً "اذهب إلى الشمال فانظر ما يفعل الغريبان هناك". فقلت للسيد العقيد 'ليست هذه قضية مرفوعة فى المحكمة نجتهد فيها لجمع الأدلة.' "
وعاد هورى إلى لغته الإنجليزية بحركة مفاجئة قائلاً "قلت له 'لم لا تصدر أوامر شبه رسمية بأن يذهب رجل شجاع فَيَدُسَّ السم لهما حتى يكونا عبرة؟ هذا، إذا سمحت لى بإبداء هذه الملاحظة، تهاونٌ ذميمٌ لأقصى حَدٍّ من جانبكم'. ولكن العقيد كرايتون ضحك منى! كل هذا بسبب كبريائكم الإنجليزية الفظيعة، إذ لا تتصورون أن أحدًا يجرؤ على التآمر! لكن ذلك كله هراء".

وجعل كيم يدخن ببُطْءٍ وهو يُقَلِّبُ المسألة على وجوهها، فى حدود ما فهمه منها، فى ذهنه اللماح.

"إذن سوف تتجه شمالاً لملاحقة الغريبيْن؟".

"لا! بل لمقابلتهما. فهما قادمان إلى سيملا ليبيعا قرون ورؤوس ما صاداه حتى يجهزها المتخصصون فى كالكتا. إنهما من ممارسى الرياضة وحسب، والحكومة تسمح لهما بتسهيلات خاصة. ونحن دائمًا نفعل ذلك بطبيعة الحال. إنها كبرياؤنا البريطانية".

"إذن ما الذى تخشاه منهما؟".

"اسمعنى! ليسا من السود، إذ أستطيع أن أفعل شتى الأمور مع السود، ولكنهما روسيان، وهما ممن لا يكترثون لوازع من ضمير أو خلق. وأنا – أنا لا أريد أن أختلط بهما من دون شاهد".

"هل سيقتلانك؟".

"أوه! ذلك لا يهم! فأنا مؤمن تمامًا بمبادئ الفيلسوف الإنجليزى هربرت سپنسر، فيما أعتقد، وأستطيع مواجهة الصغائر، كالموت، وهو مكتوب علىَّ على أية حال ولكن كما تعرف – لكنهما قد يَضْرِبَانِى".

"لماذا؟"

وضرب هورى البنغالى كفًا بكفٍ فى ضيق، قائلاً "بطبيعة الحال، سوف ألتحق بمعسكرهما فى وظيفة هامشية، كالقيام بالترجمة، أو ربما باعتبارى عاجزًا ذهنيًا ولا أجد الطعام، أو شىء من هذا القبيل. وعندها يجب علىَّ أن أجمع ما أستطيع جمعه من معلومات، كما أتصور. وهذا يسيرٌ بالنسبة لى مثل تمثيل دور السيد الطبيب أمام العجوز. والمشكلة – المشكلة – كما ترى، يا مستر أوهارا، أنى للأسف آسيوى، وذلك مصدر أذى خطير لى من بعض الجَوانب. كما إننى، **إلى جانب ذلك**، بنغالى، رجل خَوَّاف".

وقال كيم، مقتطفًا المثل السائر، "خلق الله الأرنب والبنغالى. أى عار فى هذا؟".

"أعتقد أن مرجع ذلك مسارُ التطور – أو النشوء والارتقاء – بسبب الضرورة الأولى، ولكن الحقيقة الثابتة التى لا تتغير فى الجميع هى من يستفيد بهذا؟ إننى فى الحقيقة، قطعًا، شديد الخوف! أذكر ذات مرة أرادوا قطع رأسى فى الطريق إلى لهاسا (عاصمة التيبت) ولكننى لم أبلغ لهاسا قط، بل ظللت جالسًا أبكى يا مستر أوهارًا متوقعًا ضروب التعذيب الصينى. لا أفترض أن هذين السيدين سوف يعذبانى، ولكنى أريد أن أحتاط للطوارئ بوجود مساعد أوروبى إن دعت الحاجة". وسعل وبصق الحبّهان ثم قال "إنه طلبٌ غير

رسمى على الإطلاق ولك أن تقول لى 'لا أيها البنغالى'. إن لم يكن لديك ارتباط عاجل مع صديقك العجوز، فربما استطعت أن تلهيه، وربما استطعت أنا أن أغوى خياله، إذ أريدك ألا تقطع صلتك بى فى إطار جهازنا الحكومي حتى أعثر على هذين الرياضيَّيْن. لقد ارتفعت مكانتك فى نظرى منذ أن قابلتُ صديقى فى دلهى. ولسوف أدرجُ اسمك أيضًا فى تقريرى الرسمى عندما يجرى التحكيم آخر الأمر فى القضية. ستكون غُرَّةً ناصعةً فى جبينك. وهذا هو سبب قدومى فى الواقع".

وغمغم كيم ثم قال "نهاية القصة فى رأيى صحيحة. ولكن ما شأن القسم الأول؟".

"تعنى أمر الملوك الخمسة؟ أوه! إنه صحيح إلى حد بعيد، بل إلى أبعد مما تتصور بكثير". وكانت نبرات هورى جادة وهو يضيف "هل ستأتى؟ إنى سأمضى من هنا مباشرة إلى وادى 'ضُوْن'، وبه مروج زاهية الخضرة رائعة الألوان. سأذهب إلى موسورى، إلى موسورى الصخرية التى نحبها، كما يقول كل مهذب من الرجال والنساء. ثم أسير عبر رامپور (مدينة شرقى دلهى على نهر 'قوصى') وأدخل بعدها قرية شينى (شمال شرقى سيملا). هذا هو السبيل الوحيد الذى يستطيعان القدوم منه. لا أحب الانتظار فى البرد، لكننا لابد أن ننتظرهما. فأنا أريد أن أحادثهما فى سيملا. فالواقع أن أحد الروسيين رجل فرنسى، وأنا أتحدث الفرنسية بطلاقة، ولى أصدقاء فى 'شاندرناجور' (على نهر هوجلى، شمالى كالكتا)".

وقال كيم بنبرات تأمل "سوف يَسْعَدُ اللاما قطعًا برؤية الجبال من جديد، لم يكن حديثه فى الأيام العشرة الماضية يدور إلا عنها تقريبًا. إذا ذهبنا معًا...".

"لنا أن نتظاهر بعدم معرفة بعضنا بعضًا أثناء المسير، إذا كان اللاما صاحبك يفضل ذلك. لن أسبقكما إلا بأربعة أميال أو خمسة. فليس هورى فى عجلة، ولكما أن تلحقا بى فيما بعد. فى الوقت متسع، إذ لابد لهما من التدبير

ومسح المنطقة ورسم خريطتها، بطبيعة الحال. سأرحل غدًا، وارحلا أنتما فى اليوم التالى إذا شئتما. موافق؟ اذهب ففكر فى الأمر حتى الصباح. أُقْسِمُ إنَّ الصبح قريب! وتثاءب بتمهل ومضى من دون كلمة متحضرة واحدة وفى تثاقل إلى مرقده. ولكن كيم لم ينم طويلاً، وارتادته الخواطر باللغة الهندوستانية على النحو التالى:

"أصاب من قال إن اللعبة كبيرة! لقد عملت مساعد طاه أربعة أيام فى 'قيطا'، أخدم زوجة رجل سَرَقْتُ دفتره. وكان ذلك جزءًا من اللعبة الكبرى. ومن الجنوب، ولا يعلم إلا الله من أى مكان ناءٍ فيه، جاء المهراتا، وهو يمارس اللعبة الكبرى خائفًا على حياته. وسوف أمضى الآن فأضرب فى أقاصى الشمال فى إطار اللعبة الكبرى. حقًّا! إنها تجرى كالمكُّوك فى نسيج الهند كلها. وأما نصيبى ومتعتى" وابتسم للظلام الدامس "فأدين بهما للاّما هنا. وكذلك لمحبوب على، وأيضًا للسيد كرايتون، ولكن أولاً للرجل الربانى. إنه على صواب، فهذا عالم كبير رائع. وأنا كيم - كيم - كيم - وحيد - شخص واحد - فى خضم ذلك كله. لكننى سوف أرى هذين الغريبين وأجهزة المساحة والقياس فى أيديهما...".

وقال اللاما بعد أن أدى صلواته "ماذا كنت نتيجة ثرثرة الليل؟".

وأجاب كيم "جاء بائع جوال للعقاقير، ممن يتطفلون على السيدة. فمسحت وجوده بالحجج والصلوات، مثبتًا أن تمائمنا أجدى من مياهه الملونة".

"وا أسفا على تمائمى! ألا تزال المرأة الفاضلة تريد تميمة جديدة؟".

"وبكل إصرار".

"لابد من كتابتها إذن وإلا أصَمَّتْنِى بضجيجها" وجعل يبحث عن علبة أقلامه.

فقال كيم "السهول دائمًا مزدحمة، لكنني أتصور أن عدد الناس أقل فى الجبال".

"أيْنَ مِنِّى الجبالُ والثلوجُ فوق الجبال!" وقطع اللاما مربعًا صغيرًا من الورق يمكن طيه داخل علبة التميمة، مضيفًا "لكن ما الذى تعرفه عن الجبال؟"

"إنها قريبة جدًّا" وفتح كيم الباب ونظر إلى الصف الطويل الهادئ من جبال الهيملايا، وقد غمرتها أشعة الصباح الذهبية وقال "باستثناء اليوم الذى كنت أرتدى فيه ثياب الإنجليز لم تطأها قدمى من قبل".

وأخذ اللاما ينشق الهواء الذى أثار أشجانه.

وطرح كيم سؤاله وأشعة الشروق تخطو فوق الجبال قائلاً "إذا ذهبنا إلى الشمال، فهل نستطيع تجنب حر الظهيرة بالسير وسط الجبال المنخفضة على الأقل؟... هل كتبت التعويذة أيها الربانى؟".

"كتبت أسماء سبعة شياطين بلهاء، لا يستحق أحدها ذرة تراب فى العين. وهكذا تجرنا بلاهة النساء إلى الانحراف عن **الطريق!**".

وخرج هورى البنغالى من خلف برج الحمام، وهو ينظف أسنانه بطقوس متصنعة. وأخذ كيم يتأمل بدنه الممتلئ، وأردافه الثقيلة، ورقبته الغليظة كرقبة الثور، وصوته العميق، فلم يَبْدُ له 'رجلاً خَوَّافًا'. وأشار كيم إشارة لا تكاد تُلْحَظُ وتعنى أن كل شيء على ما يرام، وعندما انتهى هورى من تزينه الصباحى جاء بحديثه المنمق لتحية اللاما بألفاظ التكريم، ثم تناول الطرفان إفطارهما كل على حدة، بطبيعة الحال، وبعد ذلك عادت العجوز – محتجبة إلى حد ما خلف إحدى النوافذ – إلى الموضوع المهم، وهو المغص الذى يعانيه الصغار عند أكل المانجو الخضراء. وكانت معرفة اللاما بالطب تقتصر طبعًا على الإيحاء. كان يعتقد أن مزج روث حصان أسود بالكبريت ولفه فى جلد ثعبان علاج ناجع للكوليرا، ولكن الرمزية كانت أهم لديه من العلم الطبيعى. وأعرب هورى البنغالى بأدب أخّاذٍ عن موافقته على هذه الآراء، حتى قال اللاما إنه طبيب مهذب. وقال هورى إنه يشغل نفسه وحسب من دون خبرة بالأسرار العليا، ولكنه على الأقل يعرف متى يكون فى حضرة أستاذ ويشكر الأرباب على ذلك. وأضاف إنه تلقى العلم على أيدى السادة الذين لا تهمهم

التكاليف فى قاعات كالكتا الفاخرة، لكنه أول من يعترف بوجود حكمة وراء الحكمة الأرضية، ألا وهى حكمة التراث السامى للتأمل المنفرد. وتطلع إليه كيم فى حسد. كان هورى البنغالى الذى يعرفه قد اختفى – ذلك المداهن المتوتر طليق اللسان – كما اختفى كذلك بائع العقاقير الصفيق الذى صاحبه الليلة البارحة. وبقى هنا ابن الخبرة والمحن، العاقل المثقف – والمهذب المؤدب اليقظ – الذى يجنى ثمار الحكمة من شفتى اللاما. وأَسَرَّتْ العجوز إلى كيم أن هذه المستويات النادرة المثال تستعصى على إدراكها، قائلةً إنها تحسب التعاويذ المكتوبة بكثير من الحبر الذى يمكن للمرء أن يذيبه فى الماء ويشرب الماء فينتهى الأمر، وإلا فما فائدة الأرباب؟.

وقالت إنها تحب الرجال والنساء، وتحدثت عنهم، عن ملوك صغار عرفتهم فى الماضى، وعن شبابها وجمالها، وعن هجمات الفهود الفتاكة وغرائب الحب الآسيوى، وعن العمل بنظام الضرائب، وإيجارات المساكن، والشعائر الجنائزية، وزوج ابنتها وإن أشارت إليه فى ثنايا الحديث وحسب، إشارات لا يصعب فهمها ورعاية الأطفال وافتقار هذا العصر إلى التأدب. وكان كيم المهتم بالحياة فى هذه الدنيا التى سرعان ما ترحل عنها هى، يجلس القرفصاء واضعًا قدميه تحت طرف ثوبه، ويحاول استيعاب كل كلمة قالتها، واللاما مشغول بهدم نظريات شفاء الأبدان التى يطرحها هورى البنغالى نظرية نظرية.

وعند الظهر لف البنغالى شرائط حول صندوق عقاقيره النحاسى، وحمل حذاءه المصنوع من الجلد اللماع الذى يرتديه فى المناسبات الرسمية فى إحدى يديه، وفى يده الأخرى مظلة بهيجة تجمع بين اللونين الأبيض والأزرق، وانطلق شمالاً نحو وادى 'ضُونْ' قائلاً إن وجوده مطلوب بين الملوك الصغرى فى تلك المناطق.

وقال اللاما "نرحل نحن فى برد المساء يا تلميذى! فذلك الطبيب العليم بالأدوية وأصول المجاملة يؤكد أن الناس فى الجبال المنخفضة أتقياء أسخياء

وفى حاجة ماسة إلى مُعلِّم. ولن نلبث، كما يقول الطبيب، أن نصل إلى الهواء البارد ورائحة الصنوبر".

وارتفع صوت المرأة العجوز الحاد قائلاً "تذهبان إلى الجبال؟ ومن طريق كولو! ياللسعادة المضاعفة! لولا أننى مشغولة برعاية المنزل لركبت الهودج... ولكن ذلك يجافى الحياء ويعرض سمعتى للأقاويل. هوووه! أنا أعرف الطريق، كل شبر من الطريق أعرفه. لسوف تقابلون الإحسان فى كل مكان، فالناس هناك لا تمنع الإحسان عن ذوى المظهر الحَسَن. لسوف أُصْدِرُ الأوامر بتجهيز زاد الطريق لكما. أتريدان خادمًا يصحبكما حتى أول الطريق؟ لا؟... إذن سوف أطبخ لكما على الأقل أطعمةً شهية".

وقال رئيس الخدم ذو اللحية البيضاء، عندما ارتفعت الجلبة فى أرجاء المطبخ: "يا لها من امرأة، سيدتى! لم تنس قط صديقًا، ولم تنس قط عَدُوًّا فى سنوات عمرها الطويل. وأما طهوها الطعام... واه!" ومر بيديه على بطنه النحيل.

كانت الأطعمة تتضمن الفطائر والحلوى والدجاج البارد الذى طُبِخَ حتى غدا شرائح وضعت مع الأرز والقراصيا، وكان كيم يحمل أثقالها كالبغل!

قالت المرأة "إنى عجوز لا نفع لى. لا أحد يحبنى الآن، ولا أحد يحترمنى، لكن ما أقل مَنْ يَعْدِلْنَنِى عندما أدعو الأرباب وأجلس القرفصاء أمام أوانى الطهى. زورونا مرة أخرى يا ذوى النوايا الطيبة. يا أيها الربانى والتلميذ عودا إلينا. الغرفة جاهزة على الدوام والترحيب قائم دائمًا... احرصْ على ألا تلاحقَ النساءُ تلميذك ملاحقةً مكشوفة، فأنا أعرف نساء كولو. حذار أيها التلميذ أن يفر من يديك عندما يشم رائحة جباله من جديد... اسمع! لا تحمل حقيبة الأرز مقلوبة... بارك البيت أيها الربانى، واغفر للخدم حماقاتهم".

ومسحت عينيها الحمراوين العتيقتين بطرف خمارها وأصدرت صوتا كقوقأة الدجاج.

وقال اللاما أخيرًا "النساء يتكلمن. ولكن هذه آفة كل امرأة. أعطيتُها رُقْيَةً. فإنها مربوطة بالعجلة مستغرقة استغراقًا كاملاً فى مظاهر هذه الدنيا، ومع ذلك يا تلميذى فإنها فاضلةٌ عطوفٌ مضيافٌ، ولها قلب سليم عامر بالتقوى. من ذا الذى يقول إنها لا تكتسب الامتياز؟"

وقال كيم وهو يعيد تعليق المؤن على كتفيه "لا أنكر أنا ذلك يا ربانى. وقد حاولت فى ذهنى، من وراء عينىَّ، أن أتصور مثل هذه وقد تحررت تمامًا من العجلة، فلم تعد ترغب فى شىء ولا تتسبب فى شىء، كأنها راهبة".

وقال اللاما ضاحكًا بصوت يكاد يكون عاليًا "والنتيجة أيها العفريت؟"

"لا أستطيع رسم الصورة".

"ولا أنا. ولكن أمامها ملايين كثيرة كثيرة من الحيوات، وربما نالت قليلاً من الحكمة فى كل حياة، منها".

"وهل ستنسى كيف تطهو اللحم بالخضراوات والزعفران فى ذلك الطريق؟".

"ذهنك مشغول بأمور تافهة. لكنها تتمتع بالمهارة. إذ أشعر بتجديد نشاطى تمامًا. وعندما نصل إلى الجبال المنخفضة سأزداد قوة على قوة. لقد صدق الطبيب هذا الصباح عندما قال لى إن نسمة واحدة من الثلوج تلغى عشرين عامًا من عمر الإنسان. لسوف نصعد الدروب الجبلية – فى الجبال العالية – حتى نسمع خرير مياه الثلوج وحفيف الأشجار، فترة قصيرة. وقال الطبيب إننا نستطيع فى أى وقت أن نعود إلى السهول، إذ نقتصر على الطواف بالأماكن الممتعة. الطبيب لديه علم غزير لكن ليس مَزْهُوًّا على الإطلاق. لقد كلمته أثناء محادثتك مع السيدة عن دُوَارٍ معين يصيب قفاى بالليل، فقال إنه ناشئ عن الحرارة الشديدة، وعلاجه الهواء البارد. وعندما قَلَّبْتُ الأمر فى ذهنى عجبتُ كيف لم يخطر هذا العلاج البسيط ببالى".

وقال كيم بلمسة غيرة "وهل أخبرته بمسألة بحثك؟" كان كيم يفضل أن

يسيطر على اللاما بحديثه هو لا من خلال أحابيل هورى البنغالى.

"بكل تأكيد. أخبرته بحلمي، وبالأسلوب الذى اكتسبتُ بـــه امتيـــازًا بـــأن جَعَلْتُكَ تكتسب الحكمة".

"لم تقل له إننى من السادة؟".

"ماذا قلت؟ ذكرتُ لك مراتٍ كثيرة أننا مجـــرد روحـــين يـــسعيان إلـــى الهروب. وقال لى – وهو محق فى قوله – إن نهر الشفاء سوف يتفجر حتـــى فى منامى، وعند قدميّ إن لزم الأمر. أعلمُ أننى اهتديت إلى **الطريـــق** الـــذى سوف يحررنى من العجلة، فهل أرى ما يدعو إلى مكابدة الاهتداء إلى طريقى وسط حقول الأرض وحسب، وهى **وهم**؟ لو حدث لكـــان غبـــاءً. إن عنـــدى أحلامى التى تتكرر ليلة بعد ليلة، وعندى القصة البوذية الحكيمة، وعندى أنت يا صديق العالم كله. كان مكتوبًا فى طالعك أن ثورًا أحمر فى حقل أخضر – لم أنس ذلك – يرفعك إلى مرتبة الشرف. ومَنْ غيرى عَمِلَ على تحقيق تلـــك النبوءة؟ حقًّا كنت أنا الوسيلةَ وحسب. ولسوف تعثر لى علي نهـــرى، فأنـــت بدورك وسيلة تحقيق ذلك. البحث مؤكد النجاح!".

ويَمَّمَ وجهه ذا اللون الأصفر العاجى، الوادع الذى تغشاه السكينة، صوب الجبال التى كانت تدعوه، وقد امتد ظله طويلاً خلفه فى التراب.

الفصل الثالث عشر

مَنْ عَرَفَ الشَّوْقَ إلى البَحْرِ المُتَرَامِى الأَرْجَاءْ؟
والأَمْوَاجِ المُتَعَجْرِفَةِ الشَّمَّاءْ؟
والرَّجْفَةِ فى المَرْكَبِ وتَعَثُّرِهَا إذْ تَنْجَرِفُ مَعَ الأَنْوَاءْ
مِنْ قَبْلِ ظُهُورِ مُقَدَّمِها الطَّاعِنِ لِنُجُومِ الخَضْرَاءْ؟
والسُّحُبِ المُنْتَظِمَةِ فى أيْدِى رِيحِ التُّجَّارْ؟
وهَدِيرِ الفَيْرُوزِ علَى الجُرْفِ بِعُمْقِ المَاءْ؟
والثُّغْرَاتِ المُخْتَفِيَةِ تحتَ صُخُورٍ جَرْدَاءْ
لا يُعْلِنُ عَنْها شَىْءٌ، والرَّعْدِ القَاصِفِ بالأَشْرِعَةِ البَيْضَاءْ؟
مَنْ تَاقَ ولاَ عَجَبَ إلى ذَلِكَ أَجْمَعَ فى كُلِّ عَجِيبْ
وَجَدَ البَحْرَ هُوَ البَحْرُ ومَا غَيْرُ البَحْرِ غَرِيبْ
فالبَحْرُ كَفِيلٌ، لا شىءَ سِوَاهُ، أن يَمْلأَ كُلَّ كِيَانِهْ
وكذاكَ يَتُوقُ رِجَالُ الجَبَلِ إلى الجَبَلِ وأرْكَانِهْ!

(البحر والجبال)

"من يذهبْ إلى الجبال يذهبْ إلى أمه". كانا قد عبرا تلال سيواليك (فى جنوب كشمير) ووادى 'ضُون' شبه الاستوائى، تاركين 'موسورى' وراءهما، واتجها شمالاً فى الطرق الجبلية الضيقة. وكان يزيدان من تعمقهما يومًا بعد يوم فى الجبال المتراكم بعضها فوق بعض، وفى كل يوم كان كيم يلاحظ أن اللاما يستعيد عنفوان الرجال. كان اللاما أثناء عبورهما المصاطب الزراعية فى وادى 'ضُون' يستند إلى كتف الصبى، ويرحب بالوقوف للراحة فى المحطات على جانب الطريق. وتحت الربوة العظمى المؤدية إلى موسورى وقف ليستجمع شتات قوته مثل صياد عريق يواجه ربوة يذكرها تمامًا، وبدلاً

من أن يتهادى مرهقًا ألقى أطراف أثوابه الطويلة حوله، ونشق نشقة عميقة ملأت رئتيه من الهواء الماسى، وانطلق يمشى مشية لا يستطيعها إلا أهل الجبال. وكان كيم الذى نشأ فى السهول وغذته السهول، يتفصد عرقًا ويلهث فى دهشة من صاحبه. وقال اللاما "هذا بلدى **أنا**، وإذا قورن هذا بمرتفعات سوخزين بدا أشد انبساطًا من حقول الأُرز" وجعل يخطو خطواته الواسعة بدَفعاتٍ منتظمة من عضلات ظهره. وأما عند الهبوط من المرتفعات ذات الزوايا القائمة، مسافة ألف متر فى ثلاث ساعات، فقد ابتعد اللاما تمامًا عن كيم، الذى شعر بأوجاع فى ظهره نتيجة مقاومة التدحرج فى المنحدرات، كما كان الأصبع الكبير فى قدمه يوشك أن يقطعه رباط صندله الذى جُعِلَ للسير على الكلأ. إذ انطلق اللاما يمشى دون أن يبدو عليه التعب خلال الظلال الرقشاء لغابات دوح الدردار، وأشجار البلوط التى تعلقت بها نصال نبات السرخس كالزغب والريش؛ وأشجار الصنوبر، والبتولا، والبلوط الأخضر، وأشجار'الوردية'، حتى جوانب التلال الجرداء إلا من الكلأ الذى لوحته الشمس وتنزلق عليه الأقدام، والعودة من جديد إلى برد الأدغال وحيث تتخلى أشجار البلوط عن أماكنها للخيزران ونخيل الوادى.

وكان يلقى نظرة خلفه فى الشفق على كل جرف هائل عبراه، وعلى الطريق الذى قطعاه وقد غدا خطًّا رفيعًا شاحبًا، ثم يبدأ فى التخطيط، بما يتسم به ابن الجبال من اتساع نطاق الرؤية، لمسيرات جديدة فى اليوم التالى، أو يتوقف فى عنق ممر جبلى يؤدى إلى نهر 'سـبـيتى' فىالهيملايا ومدينة كولو، كى يمد يديه فى شوق إلى الثلوج السامقة على حافة الأفق. وكان منظرهما فى الفجر يشبه لهبًا أحمر يتراقص أمام السماء الزرقاء، عند هبوط أول أشعة للشمس على قمم جبل كيدارناث وجبل بدريناث، ملكى تلك البرية. وكان الجبلان طول النهار يبدوان كالفضة المصهورة تحت الشمس، ثم يلبسان حُلِيهما من جديد فى المساء. كانت أنفاس الجبلين معتدلة على المسافريْن، رياحٌ يطيب تلقيها والمرء يزحف فوق ظهر خنزير ضخم، ولكن بعد بضعة أيام، وعلى ارتفاع ثلاثة آلاف متر أو أكثر، أصبحت تلك النسائم لاذعة،

وتعطف كيم فسمح لقرية من رجال الجبال باكتساب الامتياز بإعطائه معطفًا كالبطانية خشن الصوف. وأحس اللاما بالدهشة إلى حد ما من أن يعترض أحد على النسائم الحادة كالسكين التى أزاحت سنوات من أثقال العمر عن كاهله.

"ليست هذه يا تلميذى غير تلال منخفضة. لن تشعر بالبرد إلا حينما نأتى إلى الجبال الحقة".

وقال كيم "لا بأس بالهواء والماء، والناس أتقياء فعلاً، ولكن الطعام بالغ السوء". ومضى كيم فى تذمره فأضاف "ونحن نسير كأننا من المجانين أو الإنجليز. وتهبط الحرارة ليلاً إلى درجة التجمد، أيضًا".

"ربما إلى حد ما. ولكن إلى الدرجة التى تجعل العظام العتيقة تستمتع بالشمس. ينبغى ألاَّ ننعم دائمًا بالسُّرُرِ اللَّيِّنَةِ والطعام الدسم".

"دعنا على الأقل نلتزم بالطريق".

كان كيم يكن حب ابن السهول للدرب المعتاد الذى يتلوى كالثعبان بين الجبال وإن لم يكن عرضه غير مترين أو أقل، وأما اللاما، ابن التيبت، فلم يكن يستطيع الامتناع عن سلك طريق مختصر فوق الأشواك وأطراف المنحدرات المفروشة بالحصى. وعلى نحو ما أوضحه لتلميذه المتعثر، يستطيع من نشأ وترعرع وسط الجبال أن يتنبأ دائمًا بمسار طريق جبلى، وعلى الرغم من أن السحب المنخفضة قد تمثل عقبة للغريب الذى ينشد الطرق المختصرة، فإنها لا تعنى كثيرًا أو قليلاً لرجل متوقد الذهن. وهكذا وبعد ساعات طويلة مما يدخل بالحق فى باب تسلق الجبال فى أى بلد متحضر، إذ بهما يلهثان فوق صخرة بين قمتين، ويسيران حذريْن لتحاشى بعض الانهيارات الأرضية، ثم يهبطان إلى غابة بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة عائديْن إلى الدرب. وعلى امتداد مسيرتهما كانت تقوم قرى أبناء الجبال، - أكواخٌ من الطين والتراب، والألواحُ الخشبيةُ المنحوتة أحيانًا بالفأس نحتًا ساذجًا - متعلقةٌ مثل أعشاش طيور الخطاف بالصخور الشاهقة، أو مختبئةٌ فوق مساحات محدودة من الأرض المنبسطة فى منتصف مُنْزَلَقٍ على

الجليد الجبلى ارتفاعه ألف متر، أو مُنْدَسَّةٌ فى مضيق بين الصخور يمر به النسيم العابر فيزداد اندفاعًا وتركيزًا، أو قابعةٌ - طلبًا لمراعى الصيف - فى زاوية يغطيها الثلج فى الشتاء إلى ارتفاع يزيد عن مترين، والناس ذوو الوجوه الشاحبة اللامعة بما يشبه الزيت، يلبسون معاطف صوفية بطول الركبة، ويتميزون بأرجل قصيرة عارية ووجوه تشبه الإسكيمو، ويحتشدون خارج المساكن للصلاة. كان رجال السهول الذين يتسمون بالعطف واللطف قد عاملوا اللاما معاملة رجل ربانى بين رجال ربانيين، ولكن رجال الجبال كانوا يعبدونه باعتباره حاملاً لأسرار جميع الشياطين. كان دينهم يكاد يكون بوذية مطموسة بعد أن كستها طبقات من عبادة الطبيعة، غريبة مثل أراضيهم، معقدة مثل تسوية المصاطب اللازمة لحقولهم الصغيرة، ولكنهم تعرفوا على القبعة الضخمة، والمسبحة المُقَعْقِعَة، والنصوص الصينية نادرة المثال التى توحى بالثقة الهائلة، وأبدوا احترامهم للابس القبعة.

وقال رجل من مقاطعة 'بيتا' (على خليج كراتشى) "شاهدناك مقبلاً من المرتفعات السوداء فى 'إيوا' "، وقدم لهما الجبن واللبن الحازر والخبز ذا الصلابة الحجرية ذات مساء قائلاً "إننا لا نرتاد تلك المنطقة كثيرًا إلا عندما تشرد فى الصيف الأبقار أثناء وضع عجولها. إذ تهب الريح فجأة بين أحجار تلك المرتفعات فتطرح الرجال أرضًا حتى فى أشد الأيام سكونًا. ولكن لم يحفل هؤلاء الناس بشيطان 'إيوا'! ".

كان كيم يشعر بالأوجاع فى كل جسمه، وبالدُّوار من النظر إلى أسفل، وقدماه تؤلمانه بسبب حشر أصابعهما فى زوايا ضيقة، لكنه أحس عندما سمع هذه الكلمة بالفرحة، مثلما كان التلميذ فى مدرسة القديس خاڤيير يفرح حين يفوز بسباق ربع الميل على الأرض المنبسطة لسماع مدائح أصدقائه. كانت الجبال قد فَصَدَتْ من جسمه العرق فأخرجت السمن والحلوى الدهنية من عظامه، وكان الهواء الجاف. الذى أسال دمع عينيه فى قمم الممرات القاسية، قد بَثَّ الصلابة فى أضلاعه العليا وأكمل بناءها، كما أدت السهول المائلة إلى إضافة عضلات متينة جديدة إلى ساقيه وفخذيه.

وكثيرًا ما كانا يتأملان عجلة الحياة، وكان يزيد من ذلك، كما قال اللاما، تحررهما من إغراءاتها البارزة، إذ كانا وحدهما مع الرياح والكلأ الذى يغنى فى الريح، باستثناء العقبان الغبراء، ودب يُرَى على البعد أحيانًا وهو يعتلف مستخرجًا جذور النباتات على جانب الجبل، ومقابلة فهد ضارٍ غريب الألوان يلتهم عنزًا، ورؤية طائر ذى ألوان براقة من وقت لآخر. وأما النسوة فى الأكواخ التى يتصاعد منها الدخان والتى كانا يمشيان فوق سقوفها وهما يهبطان الجبال، فلم يكُنَّ يتسمن بالجمال أو النظافة، زوجات أزواج كثيرة، ويعانين من تضخم الغدة الدرقية. وكان الرجال يعملون بقطع الأخشاب أو الزراعة، ويتسمون بالوداعة وبساطة لا تُصدق. ولكن القدر أراد للمنطق النجاح فأرسل لهما الطبيب البنغالى المهذب الذى أدركاه وأدركهما أثناء الطريق، وكان يدفع ثمنَ طعامه مراهمَ لمعالجة الغدة الدرقية ونصائح للمصالحة بين الرجال والنساء. وكان فيما يبدو يعرف هذه الجبال ولهجات أهلها، وقدم للاما خريطة الأراضى فى اتجاه 'لاداخ' (منطقة حدودية شرقى كشمير) والتيبت. وقال إنهم يستطيعون العودة إلى السهول فى أية لحظة، وقد يجدون الطريق البعيد ممتعًا ماداموا يحبون الجبال. ولم يبح بهذا كله فى حديث واحد بل فى عدة لقاءات مسائية فى ساحات الأجران الحجرية بعد أن يصرف الطبيب المرضى ويبدأ التدخين، وحين يجلس اللاما لنشق السعوط، وكيم يتأمل الأبقار الصغيرة ترعى على أسطح المنازل، أو يهوى بروحه بعد عينه عبر الخلجان العميقة الزرقاء بين سلاسل الجبال. كما كانت تدور أحاديث جانبية فى الغابات الظلماء التى يجمع الطبيب منها الأعشاب، وعلى كيم، باعتباره طبيبًا ناشئًا، أن يصحبه.

"كما ترى يا مستر أوهارا، لا أعرف بحق الشيطان ما سوف أفعله عندما أجد صديقيْنا الرياضيين، لكننى سأشعر بارتياح كبير لو تكرمتَ وظللتَ على مرأى من مظلتى وهى نقطة ثابتة صالحة للمساحة التفصيلية للعقارات".

وألقى كيم بصره عبر غابة القمم ثم قال "ليس هذا موطنى أيها الطبيب. وأظن أنه من الأيسر العثور على قملة فى فراء الدب".

"أوه! هذه نقاط قوتى. ليس هورى فى عجلة. كان الاثنان فى 'ليه' منذ فترة غير طويلة، وقالا إنهما هبطا من سلسلة جبال 'قَرَقُرَمْ' ومعهم الرؤوس والقرون وما إلى ذلك. كل ما أخشاه أن يكونا قد أرسلا كل خطاباتهما والأشياء التى تدينهما من 'ليه' إلى الأراضى الروسية. ولسوف يبتعدان فى اتجاه الشرق، بطبيعة الحال، إلى أقصى حد ممكن، لكى يُثْبِتَا أنهما لم يكونا فى الولايات الغربية قط. ألا تعرف الجبال؟" وجعل يخط بغصن صغير على الأرض قائلاً "انظر! لا بد أنهما أقبلا من طريق سريناجار أو 'أبوتأباد'، فهذا أقصر الطرق المتاحة لهما، وبحذاء النهر مرورًا ببلدتى بونـــچـــى و'آستور'. لكنهما يعرفان ما ارتكباه من شر فى الغرب، ومن ثَمَّ" – ورسم خطًّا عميقًا من الشمال إلى اليمين – "فهما يسيران ويسيران مبتعديْن شرقًا حتى 'ليه' (آه! الجو بارد هناك) ثم بحذاء نهر 'إندوس' حتى 'هان لى' (وأنا أعرف ذلك الطريق) ثم إلى بوشهر (رامـــپـــور باشهر، بلدة فى جبال الهيمالايا) ووادى 'شينى'. واسْتَنْبَطْتُ ذلك من خلال استبعاد ما هو غير محتمل وتيقنتُ منه بطرح الأسئلة على الذين أعالجهم بنجاح. لقد قضى صاحبانا وقتًا طويلا 'يلعبان' ويرسمان الرسوم، ولذلك وصل صيتهما إلى أقصى مكان. ولسوف ترانى وأنا أصيدهما فى مكان ما بوادى 'شينى'. أرجو ألا تغفل عينك عن المظلة".

وحنت المظلة رأسها مثل زهرة عصفت بها الريح فى الوديان وعلى جوانب الجبال، وقال اللاما وكيم إنهما سيصلحانها فيما بعد، وهما يسيران مهتدييْن بالبوصلة فى يد كيم، لبيع المراهم والمساحيق فى المساء. وقال اللاما "جئنا من هذا الطريق وذاك!" مشيرًا بأصبعه دون اهتمام إلى الوراء، حيث الأخاديد، وعندها كانت المظلة تتفانى فى الثناء والإطراء!

وعبرا ممرا جبليًّا تغمره الثلوج فى ضوء القمر البارد، وإذ ذاك بدأ اللاما – من باب الممازحة الخفيفة لكيم – يسير فى الثلوج التى وصلت إلى ركبتيه، مثل جمل 'بكتيرى'، من النوع الذى نشأ وترعرع فى الثلوج، والغزير الشعر،

الذى كان يأتى إلى سراى كشمير. وكانا يغمسان أقدامهما فى أحواض من الثلج الخفيف، وفوق الأحجار التى انتشر عليها الثلج، حيث كانا يحتميان من الفورة 'العصبية' التى اجتاحت مُخَيَّمًا لأبناء التيبت الذين كانوا يسوقون فى عجلة أغنامًا ضئيلة الجرم، وكل منها يحمل كيسًا من ملح البوراكس. وخرجا إلى جانب فى الجبل ينمو عليه الكلأ ومازالت الثلوج تنتثر فوقه، ثم عبرا غابة حتى وصلا إلى الكلأ من جديد. ورغم هذه المسيرات التى قطعاها كلها، لم يتغير شىء فى جبلى 'كيدارناث' و'بدريناث'، ولم يُقَدَّرْ لكيم إلا بعد أربعة أيام من الترحال، وهو مستلق فى سرير شبكى حقير معلق على ارتفاع ما يزيد على ثلاثة آلاف متر، أن يشهد أن الشكل الخارجى لعقدة على جانب الجبلين – الملكين العظيمين – أو لجلمود من جلاميدهما، قد تغير ولو تَغَيُّرًا طفيفًا.

وأخيرًا دخلا إلى عالم فى جوف عالم آخر، واد عرضه فراسخ، حيث تشكلت التلال العالية من الركام والأنقاض نفسها المتساقطة من وسط الجبال. وفى هذا العالم لم يتقدما بعد مسيرة يوم كامل، فيما يبدو، إلا كما يحاول الحالم بأقدام مقيدة أن يتقدم فى كابوس. سارا ساعات أليمة بحذاء جانب جبلى فإذا هما لدهشتهما، لايزالان بجوار نتوء فى ركيزة بارزة من ركائز الكومة الرئيسية! وعندما وصلا إلى أحد المروج المستديرة إذا به هضبة شاسعة تمتد إلى أقاصى الوادى. وبعد ثلاثة أيام لم تكن تلك سوى طية من طيات الأرض فى اتجاه الجنوب.

وقال كيم "الأرباب تعيش هنا قطعًا!" بعد أن غلبه الصمتُ ورُعْبُ امتداد ظلال السحب وانقشاعها بعد المطر. "ليس هذا مكانًا للبشر!"

وقال اللاما كأنما يحدث نفسه "منذ زمن بعيد بعيد سئل المولى إن كان هذا العالم خالدًا. ولم يجب الواحد الممتاز عن هذا السؤال... وعندما كنت فى سيلان، أكد لى ذلك باحث حكيم استنادًا إلى الكتاب المقدس المكتوب باللغة

الـــپــــاليِّة. وقطعًا ما دمنا نعرف الطريق إلى الحرية، فالسؤال لا نفع فيه، ولكن... انظر واعرف الوهم يا تلميذى! هذه هى الجبال الحقة! إنها مثال جبالى فى سوخزين. ليس فى الدنيا نظير لهذه الجبال!"

ومن فوقهما، كانت الأرض ترتفع بأبعاد لاتزال هائلة متجهة نحو خط الثلوج، حيث تقف آخر أشجار البتولا الجسورة، التى تمتد صفوفها من الشرق إلى الغرب عبر مئات الأميال، منتظمة كأنها رسمت بمسطرة. وكانت الصخور فوق هذه تبرز فى سفوح شديدة الانحدار وجلاميد، مكافحة حتى تشرئب رؤوسها فوق الدثار الأبيض الخانق. ومن فوق هذه أيضًا كانت الثلوج السرمدية التى لم تتغير منذ بداية العالم، وإن كانت تتغير وفقًا للأمزجة المتفاوتة للشمس والسحب. كانا يستطيعان رؤية بقع ولُطَخٍ على وجهها حيث انقضت العواصف والشآبيب المنهمرة الجوالة. ومن تحتهما فى موقفهما كانت الغابة تنزلق مبتعدة كأنها ملاءة انبسطت من اللون الأخضر الضارب للزرقة، ميلاً من بعد ميل، وتحت الغابة شاهدا قرية تتناثر فيها الحقول على المصاطب وأراضى الرعى السامقة. وكانا يعرفان بوجود مساحة يصل طولها إلى نحو ٤٠٠ أو ٥٠٠ متر، على الرغم من هدير عاصفة رعدية مقلقة فى تلك اللحظة، تؤدى إلى الوادى البليل حيث تجتمع الجداول التى يخرج من رحمها نهر سوتلوچ الوليد.

وكما هو معهود كان اللاما قد قاد كيم فى دروب الأبقار والطرق الفرعية، بعيدًا عن الطريق الرئيسى الذى كان هورى البنغالى، ذلك 'الرجل الخواف'، قد انطلق مسرعًا فيه على ظهر جواده قبل ثلاثة أيام محتملاً عاصفة يفضل معظم الإنجليز تحاشيها. لم يكن هورى البنغالى يجيد الصيد بالبندقية – وكان ضغط الزناد يغير لون وجهه – لكنه، كما كان يمكن أن يقول هو نفسه، كان 'بارعًا فى المطاردة'، وكان قد أجرى 'مسحًا' للوادى الهائل بمنظاره المُقَرِّب الرخيص لغرض ما. أضف إلى ذلك أن اللون الأبيض للخيام المصنوعة من الخيش البالى وسط اللون الأخضر تسهل رؤيته من مسافات بعيدة. وكان هورى البنغالى قد شاهد كل ما أراد حين جلس فى ساحة جرن فى زيجلاور،

التى تبعد بمسافة ثلاثين كيلو مترًا إن طرت إليها مباشرة كالعُقاب، ونحو ٦٤ كيلومترًا من الطرق، لكنه لم يشاهد غير نقطتين صغيرتين كانتا ذات يوم تحت خط الثلوج تمامًا، وفى اليوم التالى هبطتا على جانب الجبل نحو ست بوصات. كان بعد أن يغتسل ويتهيأ للعمل، يجد أن ساقيه العاريتين السمينتين قادرتان على قطع مسافات طويلة إلى حد مدهش، وكان هذا ما يفسر ما حدث. فبينما كان كيم واللاما يكمنان فى كوخ فى زيجلاور ينتظران مرور العاصفة، كان بنغالىٌ مداهن بلله المطر، وإن ارتسمت بسمة دائمة على شفتيه، يتكلم أرقى لغة إنجليزية، مستخدمًا عبارات بالغة الفظاظة، وهو يتزلف متوددًا إلى اثنين من الأجانب قد أغرقتهما العاصفة وبدا أنهما يعانيان من الروماتيزم إلى حد ما. كان قد وصل وهو يقلب فى ذهنه الكثير من الخطط الخيالية، فى أعقاب عاصفة فلقت شجرة صنوبر فوقعت على مخيمهما، فأقنعت عشرة أو عشرين من عمال نقل الأمتعة الذين يعملون بالسخرة بأن اليوم مشئوم لا يسمح السفر إلى أبعد من هذا، وهكذا ألقى الجميع أحمالهم ورفضوا العمل. كانوا من رعايا أحد راجــات الجبال الذى كان يستغل جهودهم، كما جرت عليه العادة، لتحقيق مكاسب شخصية، وزاد من أحزانهم أن السيدين الغريبين كانا قد هَدَّدَاهما بالبنادق، وكان معظمهم يعرف البنادق والسادة القدماء، الذين كانوا يمارسون المطاردة والصيد فى الوديان الشمالية، وينشدون صيد الدببة، والماعز الجبلى، لكنهم لم يُعَامَلُوا قط على هذا النحو فى حياتهم. وهكذا احتضنتهم الغابة، وعلى الرغم من جميع الأيمان والضجيج رفضوا العودة. لم يجد البنغالى ما يدعو إلى التظاهر بالجنون، بل دبر وسيلة أخرى لضمان الترحيب به. فعصر ملابسه المبتلة وجففها، ولبس حذاءه المصنوع من الجلد اللامع، وفتح فوق رأسه المظلة ذات اللونين الأبيض والأزرق، وتقدم يتبختر بقلب يدق دقًا عنيفًا صعد إلى حلقه، وظهر فى صورة "وكيل صاحب السمو الملكى، راجــا رامــپـــور، أيها السيدان. أنا فى خدمتكم!".

كان الرجلان سعيدين. كان أحدهما بوضوح فرنسيًا، والآخر روسى. لكنهما كانا يتحدثان الإنجليزية بإتقان لا يقل عن إتقان البنغالى لها وطلبا منه

بذل مساعيه الحميدة. قالا إن خدمهما المحليين تركوهما بسبب المرض فى 'ليه'، وإنهما واصلا السفر مسرعين لحرصهما على الوصول بالغنائم إلى 'سيملا' قبل أن تصيب العُثَّةُ الفراء. وكانا يحملان خطاب توصية عام (حياه البنغالى التحية الرسمية بالأسلوب الشرقى) موجهًا إلى جميع المسؤولين الحكوميين. وأنكرا أنهما صادفا أى صيادين أُخر فى طريقهما، وقالا إنهما يعتمدان على أنفسهما ولديهما مؤن كثيرة. وكل ما يطمحان إليه مواصلة السير فى أقرب فرصة. وعند ذلك تربص البنغالى بأحد أبناء الجبال، وكان قابعًا فى خوف بين الأشجار، وبعد محادثةٍ لمدة ثلاث دقائق ودفع قليل من الفضة - فالمرء لا يملك الاقتصاد فى النفقات فى خدمة الدولة، وإن كان قلب هورى ينزف لذلك الإهدار - عاد العمال الأحد عشر والمتطفلون الثلاثة إلى الظهور، قائلين إن البنغالى سوف يكون شاهدًا على ظلمهم، على الأقل.

"سيدى 'الملكى' سوف يشعر بالضيق ولكن ليس هؤلاء إلا من العامة ولديهم جهل شديد. وإن تعطفتما يا صاحبى السمو فتغاضيتما عن هذا الحادث المؤسف، فلسوف يسعدنى ذلك سعادة بالغة. سيتوقف المطر بعد قليل ونستطيع عندها مواصلة المسير. كنتم تصيدان؟ هذا أداء رائع!".

وجعل يتنقل بخفة من سلة إلى سلة متظاهرًا بتصحيح أوضاع كل سلة مخروطية. من المعروف أن الإنجليزى ليس، بصفة عامة، على علم بالآسيوى، ولكنه لن يوجه ضربة لمعصم البنغالى العطوف إذا أسقط عرضًا سلة مغطاة بمشمع أحمر. ومن ناحية أخرى لن يلح فى دعوة بنغالى إلى الشراب، مهما يكن ما يضمره من الود له، ولن يدعوه إلى تناول اللحم. وقد فعل الغريبان ذلك كله وطرحا أسئلة كثيرة - معظمها عن النساء - وأجاب البنغالى عنها فى مرح إجابات غير مدروسة. وقدما إليه شرابًا أبيض يشبه 'الــچــين'، ثم المزيد منه، فما لبث أن تخلى عنه وقاره. وأصبح يتحدث حديثًا ينم على الخيانة الفظة، مستخدمًا ألفاظًا ذات بذاءة شاملة عن الحكومة التى أرغمته على تلقى تعليم الرجل الأبيض من دون أن تكافئه بأجر الرجل الأبيض. وجعل يثرثر بحكايات عن القهر والظلم حتى سالت الدموع على

خديه لذكر الشقاء والتعاسة فى البلاد. ثم مضى يترنح وهو يغنى أغانى الحب الشائعة فى البنغال السفلى حتى انهار فوق جذع شجرة مبلل. لم يسبق أن أُلْقِىَ بمثل هذه الثمرة البائسة للحكم الإنجليزى فى الهند بهذا الأسلوب المؤسف على اثنين من الأجانب.

وقال أحد الرياضيين للآخر بالفرنسية "كلهم على هذا النسق تمامًا. وعندما ندخل الهند نفسها سترى. أود أن أزور الراچـا رئيس هذا الرجل، فربما زكيناه للراچـا. ومن الممكن أن يكون قد سمع عنّا ويود التعبير عن نواياه الطيبة".

وأجاب رفيقه قائلاً "ليس لدينا وقت. لابد أن ندخل سيملا فى أقرب وقت ممكن. وأما أنا فأقول ليتنا كنا أرسلنا تقاريرنا مـن هيلاس، أو حتى مـن 'ليه' ".

"البريد الإنجليزى أفضل وأسلم. تذكر أنهم قدموا لنا كل التسهيلات – واسم الرب! – منحونا ذلك أيضًا! هل هو غباء لا يصدق؟".

"إنها الكبرياء. الكبرياء التى تستحق العقاب وسوف تلقاه".

"نعم. محاربة زميل أوروبى فى لعبتنا أمر عظيم. وفيه مخاطرة، ولكن هؤلاء الناس... بَرْحَى! إنه أيسر مما ينبغى".

"إنها الكبرياء، ذاك كله من الكبرياء".

وقال هورى وهو يغط فاتحًا فاه فوق العشب المبلل "ولكن ما فائدة قرب شاندر ناجور من كالكتا، لو لم أكن أستطيع أن أفهم لغتهما الفرنسية؟ إنهما يتكلمان بسرعة شديدة. كان من الأفضل كثيرًا أن أقطع رقابهما اللعينة".

وعندما عاد إليهما من جديد كان يعانى صداعًا، ويبدى الندم، ويعلن بألفاظ لا حد لها عن أمله فى ألاّ يكونَ سُكْرُهُ قد جعله يبوح بما لا ينبغى له. قال إنه يحب الحكومة البريطانية، فهى مصدر كل رخاء وشرف، وإن سيده فى رامـپـور يرى الرأى نفسه. وعندما قال ذلك بدأ الرجلان السخرية منه

وتذكيره بما قاله من قبل، حتى انهزم البنغالى المسكين وتراجع خطوة خطوة، وتخلى عن دفاعه، واضطُرَّ ببسمات استنكار متكلفة، وضحكات مداهنة، ونظرات لا حد لخبثها ومكرها، إلى أن يقول الحق. وعندما سمع لورجان القصة فيما بعد، أعلن بصوت عالٍ عن حزنه لأنه لم يكن فى مكان العمال الغافلين العنيدين الذين وضعوا حُصُرًا من الكلأ فوق رؤوسهم وشاهدوا قطرات الماء تملأ الحُفَرَ التى حفرتها أقدامهم، وجعلوا ينتظرون تغير الطقس. كان كل السادة الذين يعرفونهم رجالا يلبسون ملابس خشنة ويعودون عامًا من بعد عام إلى خنادقهم المفضلة، وكانوا يستأجرون خدمًا وطهاة وأتباعًا بل بعض رجال الجبال فى أحيان كثيرة. وأما هذان السيدان فكانا يقومان بأسفارهما من دون أية حاشية. وهكذا فقد كانا سيدين شديدى الفقر، وجاهلين، إذ لا يقدم سيد عاقل على العمل بنصيحة بنغالى. ولكن البنغالى الذى ظهر من مكان ما، أعطاهم نقودًا وتحايل حتى فهم لهجتهم. ولما كانوا قد اعتادوا سوء المعاملة الشامل من أبناء جلدتهم فقد اشتبهوا فى وجود فخ منصوب لهم فى مكان ما، وظلوا على استعداد للفرار إذا لاحت الفرصة.

ثم انطلق الجميع فى الهواء الذى غسلته الأمطار لتوها، والذى تنتشر فيه أبخرة تحمل الروائح اللذيذة للأرض والبنغالى يقود الطريق فى المنحدرات، ماشيًا أمام العمال فى كبرياء، وفى الخلف يسير الأجنبيان فى تواضع. كانت خواطره كثيرة منوعة. وكان أهونها قادرًا على إثارة رفيقيه إلى درجة لا توصف. لكنه كان مرشدًا لطيفًا، حريصًا فى كل آن على الإشارة إلى محاسن مملكة سيده، قائلاً إن الجبال يعيش فيها كل حيوان يرغبان فى صيده، كالوعل، أو تيس الجبال، والماعز الهيمالايى، والدب، وبأعداد مضاعفة. وتحدث فى علم النبات، وفى علم الأعراق، فكان يجانب الصواب من دون أن يثير أدنى شك فيما يقول، وأما مخزونه من الأساطير المحلية فكان لا ينفد بعد أن قضى فى عمله الموثوق به فى خدمة الدولة خمس عشرة سنة.

وقال أطول الأجنبيين لصاحبه "هذا الفتى أصيل دون شك. يشبه الكابوس الذى ينتاب مرسالاً من ڤينا".

وأجاب الروسى قائلاً: "إنه صورة مصغرة للهند فى المرحلة الانتقالية، أى الهجين الشائه الجامع بين الشرق والغرب. وإنما **نحن** الذين نستطيع التعامل مع الشرقيين".

فقال الآخر "لقد فقد وطنه ولم يكتسب غيره. لكنه يضمر أكمل كراهية لمن انتصروا عليه. اسمع. لقد أَسَرَّ لى بهذا ليلة أمس".

وتحت المظلة المخططة كان هورى البنغالى يجهد أذنه وذهنه فى متابعة الكلمات الفرنسية المتدفقة بسرعة، مركزًا عينيه على سلة مليئة بالخرائط والوثائق، سلة بالغة الضخامة عليها غطاء مزدوج من المشمع. لم يكن يريد أن يسرق شيئًا ولكنه كان يريد أن يعرف ما يسرق وأسلوب الفرار به. بعد أن يسرقه، لو أمكن. وشكر جميع أرباب هندوستان، وهربرت سبنسر، على أن بعض الأشياء القيِّمة مازالت متاحة للسرقة.

وفى اليوم الثانى كان الطريق صاعدًا بزاوية حادة ويؤدى إلى نتوء يغطيه الكلأ فوق الغابة، وفى هذه البقعة، عند الغروب تقريبًا، قابلا لاما عجوزًا – لكنهما أشارا إليه باسم الكاهن البوذى – جالسًا القرفصاء، بساق من تحت ساق، ينظر فى خريطة غامضة ثبتها فى مكانها ببعض الأحجار، منهمكًا فى شرح ما فيها إلى يافع ذى جمال فريد وإن لم يغتسل، وكان من الواضح أنه كاهن مبتدئ. كان كيم قد لمح المظلة المخططة فى منتصف مسيرة الركب فاقترح التوقف هنا حتى تأتى إليه.

وصاح هورى البنغالى "ها!" وكانت سعة حيلته قد هدته إلى أحبولة جديدة، كشخصية القط فى حكاية القط ذى الأحابيل، "هذا رجل ربانى محلىٌّ بارز، وربما يكون من رعايا سيدى الملك".

"ماذا يفعل؟ الأمر بالغ الغرابة".

"إنه يشرح صورة مقدسة، رسمها كلها بيده".

ووقف كل من الرجلين برأسه العارى فى ضوء الشمس ساعة الأصيل، وهو الذى مالت أشعته فكست الكلأ بلون ذهبى. وأما العمال الممتعضون الذين فرحوا بهذه المصادفة فقد توقفوا وأنزلوا أحمالهم.

وقال الفرنسى "انظر! إنها تشبه صورة لميلاد أحد الأديان، فها هو المعلم الأول والتلميذ الأول. هل هو بوذى؟"

وأجابه الآخر "من بعض الأنواع المنحطة. لا يوجد بوذيون حقيقيون بين الجبال. ولكن انظر إلى طيات ثيابه. انظر إلى عينيه! ما أشد وقاحتهما! لماذا يجعلنا هذا المنظر نشعر بأننا أناس صغار جدًّا؟" وجعل المتحدث يضرب بحماس قصبة طويلة.

ثم أضاف "لم نترك فى أى مكان أثرًا لنا حتى الآن. على الإطلاق! **وهذا**، هل تفهمنى، هو ما يقلقنى". وقطب جبينه وهو ينظر إلى وجه اللاما الهادئ، وإلى السكينة المثالية لجلسته.

"اصبر. لسوف نترك أثرًا لك معًا، أنت ونحن الشباب. أما الآن، فعليك أن ترسم صورته".

وتقدم البنغالى فى مشية متعالية، وكان ظهره يتناقض تناقضًا شديدًا مع نغمة التواضع والمجاملة فى حديثه، أو مع غمزة عينه إلى كيم.

"أيها الربانى! هذان أجنبيان. كانت أدويتى قد عالجت أحدهما من الإسهال، ولسوف أدخل سيملا للإشراف على شفائه. وهما يرغبان فى مشاهدة صورتك...".

وقال اللاما "شفاء المرضى خيرٌ دائمًا. هذه عجلة الحياة، العجلة نفسها التي أريتها إياك فى الكوخ فى زيجلاور عندما سقطت الأمطار".

"وأن يسمعوا شرحك لها".

وبرقت عينا اللاما لوجود مستمعين جدد، وقال "شرح الطريق ذى الامتياز الفائق خير. هل لديهما أية معرفة باللغة الهندوستانية، مثل الأمين على الصور؟"

"ربما إلى حد ما".

وعند ذلك، ومثل طفل مستغرق فى لعبة جديدة وحسب، أرجع اللاما رأسه إلى الوراء وبدأ بلسانٍ طليق يُنْشد الدعاء الذى يُنْشده أستاذ اللاهوت قبل أن يقدم المذهب الكامل. ووقف الغريبان مستندين إلى عصىّ التسلق يسمعان. وأما كيم، الذى كان يجلس القرفصاء فى تواضع فكان يتطلع إلى ضوء الشمس الأحمر على وجهيهما وامتزاج ظليهما المديدين وانفصالهما. كانا يلبسان أردية غير انجليزية للسيقان، وأحزمة عجيبة مشدودة للداخل ذكَّرته، إلى حد ما، بالصور التى شاهدها فى كتاب فى مكتبة مدرسة القديس خاڤيير عنوانه **مغامرات عالم طبيعة شاب فى المكسيك** (من تأليف فرانك كولينز بيكر، ١٨٩٥). نعم كانا يشبهان إلى حد كبير مستر سوميكراست العجيب الذى نشر قصة تحمل اسمه (كان مؤلفًا لكتب عن حيوانات المكسيك) ولا يشبهان على الإطلاق "الأشخاص الذين لا دافع لهم من ضمير أو خلق" والذين يصورهم خيال هورى البنغالى. وكان العمال الصامتون المكتسون بلون الأرض يقبعون فى إجلال على بعد عشرين أو ثلاثين مترًا، والبنغالى الذى تخفق أطراف ثيابه الخفيفة خفق الراية فى النسائم الباردة، واقف فى ناحية وقد لاحت عليه مخايل السعادة لامتلاك كل شىء.

وهمس البنغالى قائلاً "هذان هما الرجلان"، أثناء مواصلة الطقوس والرجلان الأبيضان يتابعان نصل الكلأ فى يد اللاما وهو يتنقل ما بين النار والجنة، وأضاف 'همسًا' "كل دفاترهما فى السلة الكبيرة ذات الغطاء الأحمر – الكتب والتقارير والخرائط – كما شاهدت خطابًا ملكيًا كتبه 'هيلاس' أو 'بونار'. وهما يحرسانه حراسة مشددة. لم يرسلا أى شىء إلى الوطن من هيلاس أو من 'ليه'. هذا مؤكد".

"ومن معهما؟"

"عمال السخرة فقط. ليس عندهما خدم. ولقد بلغ من حرصهما أن يقوما بطهى أطعمتهما بأنفسهما".

"ولكن ما الذى علىَّ أن أفعله؟"

"فلنصبر وننظر. وما إن تأتنى أية فرصة حتى تعرف أين تطلب الأوراق".

وقال كيم برنة احتقار "كان الأفضل أن يتولى 'محبوب على' هذا، لا البنغالى".

"للوصول إلى المحبوب وسائل أخرى غير هدم سور من الأسوار".

وتحمس اللاما فى الشرح قائلاً "انظر! هذه هى الجحيم المخصصة للبُخْلِ والشَّرَه. وعلى أحد الجانبين تقف الرغبة، وعلى الجانب الآخر الكلالة". وكان أحد الغريبين يرسم له صورة فى الضوء الذى يخبو بسرعة.

وأخيرًا قال أحدهما بغلظة "يكفى هذا. لا أستطيع أن أفهمه، لكننى أريد تلك الصورة. إنه أفضل منى فى فن الرسم. سَلْهُ إن كان على استعداد لبيعها".

وأجابه البنغالى قائلاً "إنه يرفض يا سيدى". ولم يكن اللاما على استعداد، بطبيعة الحال، للتخلى عن خريطته لعابر سبيل مجهول، إلا لو كان رئيس الأساقفة على استعداد لرهن الأوانى المقدسة للكاتدرائية! والواقع أن التيبت تنتشر فيها نسخ منقولة رخيصة لصورة العجلة، ولكن اللاما كان فنانًا إلى جانب كونه رئيس دير ويتمتع بالثراء فى موطنه.

"ربما استطعت بعد ثلاثة أيام أو أربعة، أو عشرة، إذا وجدت أن الأجنبى باحث وقادر على الفهم الصحيح، أن أرسم له بنفسى صورة أخرى. ولكن هذه الصورة قد استُخْدِمت لتلقين أحد المستجدين. قل له ذلك أيها الطبيب".

"إنه يريدها الآن، فى مقابل المال".

وهز اللاما رأسه ببطء وبدأ يطوى صورة العجلة. وأما الروسى فلم يكن يرى أكثر من رجل عجوز قذر يساومه حول قطعة ورق قذرة. فأخرج حفنة من الروبيات واختطف – بحركة شبه هازلة – تلك الخريطة التى تمزقت فى قبضة اللاما. وعلت تمتمات استنكار من العمال، وكان بعضهم من طائفة 'ســپــيتى' التى تنتمى فى جوهرها إلى البوذية الصحيحة. ونهض اللاما اعتراضًا على الإهانة، واتجهت يده إلى علبة أقلامه الحديدية الثقيلة، سلاح الكاهن، وكان البنغالى يتلوى ألمًا.

"ها أنت ترى – ترى لماذا أردتُ الشهود. هذان لا وازع لهما من ضمير أو خلق!"

ثم التفت إلى الروسى وقال "سيدى! سيدى! يجب ألا **تضرب** الرجل الربانى!".

"يا تلميذى! لقد دَنَّسَ الكلمة المكتوبة!".

كان الوقت قد فات. فقبل أن يتمكن كيم من منع الروسى، إذا به يَلْطِمُ الرجل العجوز لطمة فى وجهه. وسرعان ما كان الروسى يتدحرج ويتدحرج على جانب الجبل وكيم آخذ بخناقه. كانت اللطمة قد أيقظت كل شيطان أيرلندى مجهول فى دم الصبى، وقامت السقطة المفاجئة لعدوه بباقى المهمة. وهوى اللاما على ركبتيه فى نصف ذهول، وانطلق العمال بأحمالهم هاربين صاعدين الجبل بالسرعة التى يجرى بها أبناء السهول فى أرض منبسطة. كانوا قد شاهدوا تدنيسًا لا يوصف للقداسة، وكان حَرِيًّا بهم أن يفروا قبل أن تتولى أرباب الجبال وشياطينها الأخذ بالثأر. وأُهْرَعَ الفرنسى تجاه اللاما، باحثًا عن مسدسه وقد خطر له أن يحتجزه رهينة فى سبيل إنقاذ رفيقه. ولكن وابلاً من الأحجار الساقطة – فرجال الجبال مهرة فى إصابة المرمى – أبعدته، وقام عامل من منغوليا باختطاف اللاما لينقذه من الفرار الجماعى. وقد حدث ذلك كله بالسرعة التى حل الظلام بها.

وصرخ الفرنسى وهو يطلق النار بصورة عشوائية فى الغسق "أخذوا المتاع وجميع الأسلحة".

وقال هورى "لا بأس يا سيدى! لا بأس! لا تطلق النار. سأذهب لإنقاذه"، وهو يتواثب هابطًا المنحدر، فألقى بجسده على كيم الذى شعر بالفرحة والدهشة معًا أثناء ضرب رأس عدوه الذى تقطعت أنفاسه فى جلمود صخر.

وهمس البنغالى فى أذنه "ارجع إلى العمال. لديهم المتاع. الأوراق فى السلة ذات الغطاء الأحمر، ولكن فتش السلال كلها. خذ أوراقهما، وخصوصًا خطاب الملك. اذهب الآن! الرجل الآخر مقبل!".

وانطلق كيم صاعدًا التل. وسمع صوت اصطكاك رصاصة مسدس بصخرة إلى جواره فقبع فى مكانه قبوع طائر الحجل.

وصرخ البنغالى قائلاً "إذا أطلقت النار فسوف يهبطون ويقضون علينا. لقد أنقذت السيد ياسيدى. هذا أمر خطر إلى أقصى حد".

ودارت الأفكار المتزاحمة بالإنجليزية فى رأسه "أقسم إن هذا مأزق حقيقى، لكننى أراه دفاعًا عن النفس". وتحسس صدره للعثور علي هدية محبوب. لم يكن – باستثناء عدة طلقات للتدريب على استخدام المسدس فى صحراء بيكانير – قد سبق له استخدام المسدس الصغير، وهكذا، ودون ثقة فيما يفعل ضغط على الزناد.

"ماذا قلتُ لك يا سيدى؟" كان صوت البنغالى يوحى بأنه يبكى. "تعال هنا وساعدنى فى إحيائه. إننا معلقون فى شجرة. صدقنى".

وتوقفت الطلقات. وعلا صوت خطوات تتعثر، وأُهْرَعَ كيم صاعدًا فى الظلام، والشتائم تنهمر من شفتيه كالمرأة السليطة، أو أحد أبناء البلد.

وصاح اللاما من فوقه "هل جَرَحَاكَ يا تلميذى؟".

"لا! وأنت؟" وارتمى فى أجمة من أشجار السرو القصيرة.

"لم أُجرح. هيا بنا. سنذهب مع هؤلاء الرجال إلى 'شملة-تحت-الثلج' ".

وصاح صوت "ولكن ليس قبل أن ننتصف لأنفسنا. لقد استوليتُ على أسلحة الأجنبيين الأربعة كلها. فلنهبط".

"لقد لطم الرجل الربانى... شاهدنا ذلك! أبقارنا ستغدو عقيمة، وزوجاتنا ستتوقف عن حمل الأطفال! وسوف تنهار الثلوج فوقنا أثناء عودتنا للبيت... وذلك فوق كل قهر آخر!".

وامتلأت أجمة السرو الصغيرة بالعمال الذين يحدثون جلبة وقد أصابهم الفزع، وكانوا فى رعبهم قادرين على أن يفعلوا أى شىء. وكان المنغولى يفتح مؤخرة بندقيته ويغلقها بأصوات فرقعة ونفاد صبر، ثم نهض قاصدًا هبوط الجبل.

ثم قال "انتظر قليلاً أيها الربانى. لن يستطيعوا الابتعاد كثيرًا. انتظر حتى أعود".

وقال اللاما ويده على جبينه "إن هذا الشخص هو الذى تعرض للإساءة".

وكانت الإجابة "ولهذا السبب نفسه".

"فإذا تغاضى هذا الشخص عنها، اتسمت يداك بالطهر. زد على ذلك اكتسابك امتيازًا بالطاعة".

وأبدى الرجل الإصرار قائلاً "انتظر وسوف نذهب إلى 'شملة' معًا".

وللحظة واحدة، للوقت اللازم لحشو خرطوشة فى مؤخرة البندقية، أبدى اللاما تردده. ثم نهض واقفًا ووضع أصبعه على كتف الرجل قائلاً:

"هل سمعت؟ أقول **أنا** يجب ألا يُقْتَلَ أحد، أنا الذى كنت رئيس دير فى سوخزين. هل لديك اشتهاء فى أن تولد من جديد فى صورة فأر، أو ثعبان يتسلل تحت طُنُفِ السقوف، أو دودة فى بطن أحقر الحيوانات؟ هل لديك الرغبة فى أن...".

وركع المنغولى على ركبتيه، إذ كان الصوت يُدَوِّى مثل صنج الشياطين فى التيبت.

وصاح ابن طائفة ســپــيتى "حقًّا حقًّا! لا تستمطر اللعنات علينا، ولا عليه. كان مجرد حماس من جانبه، أيها الربانى... اخفض البندقية أيها الأحمق!".

"غضب على غضب! شر من فوق شر! لن يقتل أحد. فليذهب ضاربو الكهان فى الأغلال إلى ما ارتكبته أيديهم. ما أعدل العجلة وأوثقها إذ لا تنحرف قِيدَ شعرة! لسوف يولدون عدة مرات، فى عذاب". وتدلى رأسه، واستند بشدة إلى كتف كيم.

وهمس فى السكون المطبق تحت أشجار الصنوبر قائلاً "لقد اقتربتُ من شر عظيم يا تلميذى. تعرضتُ للإغراء بإطلاق الرصاصة، وبالحق كانوا سَيَلْقُوْنَ لو كانوا فى التيبت موتًا بطيئًا أليمًا... لقد لطمنى فى وجهى.. على اللحم..." ثم انزلق إلى الأرض، وهو يتنفس بصعوبة، وكان كيم يسمع القلب المجهد يتعثر ويتوقف.

وقال المنغولى "هل آذوه إلى حد الموت؟" والصمت يلف الآخرين.

وانحنى كيم على الجسد فى خوف قاتل ثم هتف بإحساس دافق "لا! إنه وَهَنٌ وحسب". وتذكر عند ذلك أنه رجل أبيض، وله أن ينتفع بما يحق للرجل الأبيض من معدات المخيم، فقال "افتح السلال! قد يكون عند الأجنبيين دواء".

وقال المنغولى ضاحكًا "أوهوه! إذن أعرفه. لم أقض خمس سنوات صيادًا فى خدمة سيدى القديم يانكلنج من دون أن أعرف ذلك الدواء. وقد ذُقته بنفسى. ها هو ذا!".

وأخرج من صدره زجاجة من الويسكى الرخيص، مثل الذى يباع للمستكشفين فى مدينة 'ليه'، وبمهارة صب قطرات معدودة بين أسنان اللاما.

"هذا ما فعلته عندما التوت قدم سيدى بعد مدينة 'أستور'. آها! لقد فتشت سلالهما من قبل، لكننا سوف نقسم الغنائم بالعدل فى 'شملة'. أعطه مزيدًا من الدواء، فهو فعَّال. انظر! دقات قلبه انتظمت الآن. اخفض رأسه ودلِّكْ صدره بقليل من الدواء.. لو كان قد انتظر بهدوء ريثما أوضح الأمر للسيدين ما حدث ذلك قط. ولكن ربما يقتفى السيدان آثارنا إلى هنا. لن نخطئ إذن إذا قتلناهما ببنادقهما أنفسها، صحيح؟".

وقال كيم وهو يصر على أسنانه "أظن أن أحدهما نال جزاءه بالفعل، إذ ركلته فى ملتقى الفخذين ونحن نهبط الجبل. ليتنى كنت قتلته!".

وقال الرجل الذى كان يقيم فى كوخ لا يبعد عن قصر الراچا إلا بضعة أميال: "لا بأس بالشجاعة ما دمت لا تعيش فى 'رامپور'. لو ساءت سمعتنا وسط الأسياد الأجانب فلن يوظفنا أحد للعمل صيادين بعدها".

"نعم ولكنَّ هذيْن ليسا من السادة الإنجليز، ليسا من ذوى المرح مثل السيد فوستوم والسيد يانكلنج، بل إنهما من الأجانب، ولا يستطيعان الحديث بالإنجليزية مثل السادة".

وهنا سعل اللاما وجلس، وأخذ يبحث عن مسبحته.

وجعل يتمتم "لن يُقْتَلَ أحد. ما أعدل العجلة! شر على شر...".

وقال المنغولى "لا أيها الربانى. كلنا هنا". ثم ربت بحذر على قدميه قائلا "لن يُقتل أحدٌ إلا إذا أمرتَ بذلك. فلتسترح قليلاً، سوف نقيم مُخَيَّمًا صغيرًا هنا، وعندما يشرق القمر نذهب إلى 'شملة ـ تحت ـ الثلوج' ".

وقال رجل من طائفة سپيتى كأنه يلقى بحكمة "لا أفضل من النوم بعد تلقى لطمة!".

"أشعر بما يشبه الدوار فى قفاى، وبوخز فيه. فلأضع رأسى فى حجرك يا تلميذى. إنى رجل عجوز لكنى لم أتحرر من العاطفة... لابد أن نفكر فى سبب الأشياء".

"أعطه بطانية. لن نجرؤ على إشعال نار وإلا شاهدنا الأجنبيان".

"الأفضل أن نذهب إلى 'شملة' (وهى بلدة 'شاملى'، شمال دلهى) فلن يتبعنا أحد إلى 'شملة' ".

كان المتحدث ابن مدينة رامــــپـــور المتوتر.

"كنتُ صيادًا عند السيد فوستوم، وأنا اليوم صيّاد السيد يانكلنج. وكان ينبغى أن أكون مع السيد يانكلنج الآن لولا هذه السُّخْرَةَ الملعونة. فليراقب رجلان المنطقة السفلى حاملين البنادق خشية أن يرتكب الأجنبيان حماقات أخرى. أما **أنا** فلن أترك هذا الرجل الربانى".

وجلسوا على مسافة قريبة من اللاما، وبعد أن أصغوا قليلاً أتوا بشيشة كان وعاؤها قارورة قديمة من قوارير الصبغة السوداء التى تنتجها شركة داى ومارتن، وكلما شدوا الأنفاس منها توهج الجمر فوق التبغ، وهى تنتقل من مُدَخِّنٍ إلى مُدَخِّن، وكان ضوء الجمر يضئ العين الضيقة التى تَطْرِفُ، وعظام الخدود البارزة الصينية، والرقاب التى تشبه رقاب الثيران والتى تذوب فى طيات الأوشحة المصنوعة من الصوف الغليظ التى تلف الأكتاف. كانوا يشبهون العفاريت التى خرجت من منجم مسحور ما، أو الأقزام الخرافية الجبلية فى منطقة محصورة. وأثناء حديثهم كانت أصوات قطرات الماء الساقطة من الثلوج حولهم تخفت وتتوقف صوتًا صوتًا كلما خنق صقيع الليل إحدى القنوات وجمدها.

وقال رجل من طائفة ســـپـــيتى فى إعجاب "انظر كيف تحدانا! مازلت أذكر كيف تحدانا وَعْلٌ عجوز مثل هذا التحدى، بعد أن أطلق عليه النار السيد ديـــپـــون فى طريق 'لاداخ' فلم يصبه وهو يسند البندقية إلى كتفه منذ سبعة مواسم. وكان السيد ديـــپـــون صيادًا ماهرًا".

وقال المنغولى "ليس فى مهارة السيد يانكلنج" ورشف رشفة من زجاجة

الويسكى وأمَرَّها على الآخرين، مضيفًا "أصغوا إلىّ، إلا إن كان أحدكم يظن أنه يعرف المزيد".

ولم يتقدم أحد زاعمًا ذلك فقال المنغولى:

"أقترح أن نذهب إلى 'شملة' عند بزوغ القمر. وهناك نتولى توزيع الأمتعة بالعدل بيننا. وأكتفى أنا بهذه البندقية الصغيرة الجديدة بكل ذخيرتها من الخرطوش".

وقال أحد رفقائه ومبسم الغليون فى فمه "هل الدببة مفترسة فى أرضك أنت فقط؟".

"لا ولكن غدد المسك فى الغزلان تباع الواحدة منها بست روبيات اليوم، ويمكن لنسائك الحصول على أقمشة الخيام وبعض معدات الطهى. وسوف نفعل ذلك كله فى 'شملة' قبل انبلاج الفجر. ثم نفترق ونمضى، على أن نتذكر أننا لم نر هذين الأجنبيين من قبل أو خدمناهما، فقد يزعمان حقا أننا سرقنا أمتعتهما".

"لا بأس بهذا لك ولكن ما عسى أن يقول حاكمنا الراچـــا؟".

"ومن ذا الذى يشى بنا إليه؟ هذان الأجنبيان اللذان لا يستطيعان الحديث بلغتنا أم البنغالى الذى أعطانا النقود لتحقيق غاياته الخاصة؟ وأى أدلة سوف تبقى؟ ما لا نحتاجه سوف نُلْقِيهِ فى قمامة 'شملة' التى لم تطأها قدم بشر من قبل".

"ومن يعيش فى 'شملة' هذا الصيف؟" لم يكن المكان غير مركز للرعى ولا يزيد عدد الأكواخ فيه عن ثلاثة أو أربعة.

"امرأة 'شملة'. وهى لا تحب السادة الأجانب، كما نعرف. والآخرون نستطيع إرضاءهم بهدايا صغيرة، وفى الأمتعة ما يكفى الجميع". وربت بيده على الجوانب المنتفخة لأقرب السلال إليه.

"ولكن... ولكن...".

"قلت إنهما ليسا من السادة الحقيقيين، فجميع الجلود والرؤوس معهم مشتراة من السوق فى 'ليه'. أعرف سماتها المميزة. وقد أريتها لك فى مارس الماضى".

"صحيح. إنها جلود ورؤوس مشتراة. بل إن بعضها أصابته العُثّة".

كانت الحجة قائمة على رأى ثاقب، كما كان المنغولى يعرف رفاقه خير المعرفة.

"فى أسوأ الظروف سوف أخبر السيد يانكلنج، فهو ذو روح مرحة وسوف يضحك. إننا لا نسئ إلى أى أجنبى نعرفه، وهذان من ضاربى الكهنة. أخافونا ففررنا! من ذا الذى يعلم أين وضعنا الأمتعة؟ هل تظن أن السيد يانكلنج سوف يسمح لشرطة السهول بالتجوال فى الجبال لتفتيشها فتعكر صفو رياضته؟ فالمسافة هائلة ما بين سيملا وشينى، وأطول وأشق ما بين 'شملة' وموقع قمامة شملة".

"فليكن، على أن آخذ أنا السلة الكبيرة، السلة ذات الغطاء الأحمر التى يتولى الأجنبيان تعبئتهما بأيديهما كل صباح".

وقال الرجل ابن 'شملة' بلباقة "وهكذا ثبت أنهما سيدان لا وزن لهما. من ذا الذى سمع بالسيد فوستوم، أو السيد يانكلنج، أو السيد پـيل الصغير الذى يسهر الليالى لصيد الأيائل الآسيوية... أقول من ذا الذى سمع عن هذين الأجنبيين اللذين دخلا الجبال من دون طباخ من السهول، ومن دون حمال، وفى أذيالهم شتى ضروب الرجال الظالمين القساة ذوى الأجور المرتفعة؟ كيف يستطيع **هذان** إثارة المتاعب؟ والآن ما شأن تلك السلة؟".

"لا شيء. لكنها مليئة بالكلمات المكتوبة، كراسات وأوراق كتبوا فيها أشياء، وبعض الأدوات الغريبة، مثل التى تستخدم فى العبادة".

"قمامة شملة تتسع لها كلها".

"صحيح! ولكن ألا يحتمل أن نسيء بذلك إلى أرباب الأجنبيَّيْن؟ لا أحب أن أعامل الكلمة المكتوبة بهذا الأسلوب. وأصنامهما النحاسية تستعصى على إدراكى. إنها ليست من الأسلاب فى نظر أبناء الجبال البسطاء".

"مازال العجوز نائمًا. هُسْ. سنسأل تلميذه". وجدد المنغولى نشاطه وقد امتلأ فخرًا بتوليه الزعامة.

وهمس قائلاً "لدينا هنا سلة نجهل طبيعتها".

وقال كيم بحذر "لكنى أعرف"، وهو يسمع أنفاس اللاما فى نومه الطبيعى المطمئن، وآخر كلمات 'هورى' تشغل فكره، وباعتباره لاعبًا فى اللعبة الكبرى كان يميل فى تلك اللحظة تحديدًا إلى احترام البنغالى، فأضاف "إنها السلة ذات الغطاء الأحمر، المليئة بأشياء بالغة الروعة، ويجب ألا يتعرض لها الحمقى".

وصاح الرجل الذى كان مكلفًا بحملها "هذا ما قلته! هذا ما قلته! هل تظن أنها سوف تكشف سرنا؟"

"كلا إذا أعطيتمونى إياها، إذ أستطيع إخراج السحر منها وإلا تسببت فى أذى عظيم".

وقال المنغولى الذى فَتَّ الويسكى فى عَضُدِه "الكاهن دائمًا ينال نصيبه".

وأجاب كيم بمكر وطنه الأم "الأمر لا يعنينى، تقاسموها بينكم وانظروا ما يحدث لكم!".

"لن أفعل أنا ذلك! كنتُ أتفكَّه وحسب. أصدر الأوامر. يوجد ما يكفى ويزيد لنا جميعًا. سوف نتفرق فى 'شملة' عند الفجر".

واستغرقوا ساعة فى وضع خططهم الصغيرة الساذجة وتعديلها، وكيم يرتعد بردًا وزهوًا. كان العنصر الفكاهى فى الموقف مثيرًا للجانبين الأيرلندى والشرقى فى نفسه. فهنا كان مبعوثا الدولة المهيبة فى الشمال، وربما كانت

مكانتهما رفيعة فى وطنهم مثل محبوب أو العقيد كرايتون، وقد أصبحا فجأة بلا حَوْلٍ ولا طَوْل. وكان يعرف، دون غيره، أن أحدهما سيستمر عرجه فترة ما. كانا قد قدما الوعود لبعض الملوك. وفى هذه الليلة كانا يرقدان فى مكان ما أسفل موقعه، بلا خرائط، وبلا طعام، وبلا خيام، وبلا أسلحة، وبلا مرشد سوى هورى البنغالى. كما إن هذا الانهيار للعبتهما الكبرى (وتساءل كيم فى نفسه عَمَّ عساهما أن يبلغا رؤوساهما بعدما حدث) أو هذه الصاعقة المحفوفة بالذعر التى نزلت بالليل، لم يكن الفضل فيها لمهارة هورى أو لتدبير كيم، بل حلَّتْ ببساطة وجمال وحتمية، مثل القبض على '**الفقيرين**' المتآمريْن على محبوب بأيدى رجل شرطة جرفه الحماس فى أومبالا.

وقال فى نفسه "إنهما هناك، مجرديْن من كل شىء! وأقسم إن الليلة باردة! وها أنذا هنا ومعى كل أمتعتهم. أوه؟ لسوف يغضبان؟ يؤسفنى موقف هورى البنغالى".

وربما كان على كيم ألا يأسف على هورى، فعلى الرغم من أنه يعانى بَدَنِيًّا معاناةً شديدة فقد كان يشعر بالزهو والرفعة. كان الجميع على مسافة ميل أسفل الجبل، على حافة إحدى غابات الصنوبر، وكان اثنان منهما يكادان أن يتجمدا بردًا، وأحدهما يشكو المرض الشديد على فترات مُتقطعة، وكانا يتجاذبان اتهامات متبادلة، ويقذفان البنغالى بشتائم حادة لاذعة، وقد بدا عليه الذهول رعبًا. وطلبا منه وضع خطة للعمل، فأوضح أنه من حسن حظهما حقيقةً أن ظلاَّ فى قيد الحياة، وأن عمالهما، إذا لم يكونوا يتربصون بهما الآن فمن المحال استرجاعهم، وأن سيده الراجــا بعيد عنهما بمسافة ١٥٠ كيلومترًا، ومن ثم فهو أبعد ما يكون عن إقراضهما المال والحاشية اللازمة للرحلة إلى 'سيملا'، ولسوف يُدْخِلُهما السجن قطعًا إذا سمع أنهما ضَرَبا كاهنًا. وبالغ هورى فى تضخيم هذه الخطيئة وعواقبها حتى طلبا منه تغيير موضوع الحديث. فقال إن أملهما الوحيد أن يفرا فى خَفَاءٍ من قرية إلى قرية حتى يصلا إلى الحَضَر، وانطلق يبكى للمرة المائة سائلاً النجوم العليا عن سبب 'ضرب السيدين للرجل الربانى'.

كان بوسع هورى أن يخطو عشر خطوات وسط الظلام الذى يئز أزيزًا فيستحيل عليهما قطعًا الوصول إليه، فيجد المأوى والطعام فى أقرب قرية، حيث يندر وجود الأطباء ذوى الألسنة الذربة، ولكنه فضل أن يكابد البرد، وأن يعضه الجوع بنابه، وأن يسمع الشتائم، ويتلقى اللكمات من حين إلى آخر فى صحبه رفيقه المكرَّمين، فقبع مستندًا إلى جذع شجرة ينشج نشجًا مؤسيًا.

وقال الرجل الذى لم يُصَبْ بْالجروح منهما بانفعال "وهل خطر لك كيف يبدو منظرنا ونحن نجوس خلال تلك الجبال بين هؤلاء السكان الأصليين؟" لم يكن هورى البنغالى قد خطر له شيء آخر تقريبًا لعدة ساعات، ولكن الملاحظة لم تلق هوى فى نفسه.

وقال الذى ضربه كيم "لن ندهش لذلك! لا أكاد أستطيع السير".

"ربما أبدى الرجل الربانى الرحمة، حُبًّا وكرامةً، يا سيدى، وإلا...".

وكانت الإجابة المنتهكة لروح المسيحية "وَعَدْتُ نفسى بأن أجد متعة خاصة فى تفريغ مسدسى فى رأس الكاهن البوذى الشاب عندما نلتقى مرة أخرى".

"المسدسات! الانتقام! كهان البوذية الشبان!" وزاد هورى من انكماشه حيث يقبع. كانت الحرب توشك أن تندلع مرة أخرى. "ألم تنظر فى خسارتنا! المتاع!" كان يستطيع أن يسمع المتحدث وهو يتلوى دون مبالغة فوق الكلأ. "كل ما كنا نحمله! كل ما حصلنا عليه! مكاسبنا! عمل ثمانية أشهر! هل تعرف ما يعنى هذا؟ هل نسيت قولك: 'إنما **نحن** الذين نستطيع التعامل مع الشرقيين!؟ أوه! حقا لقد أحسنت فعلاً".

وانطلقا يتحدثان بعدة لغات، وهورى يبتسم. كان كيم مع السلال، وفى السلال يكمن نتاج ثمانية أشهر من الدبلوماسية الفعالة. لم يكن أمام هورى سبيل للاتصال بالصبى، لكن الصبى يمكن الوثوق به. وأما البقية، فيستطيع هورى تدبير أمر الرحلة خلال الجبال حتى تستطيع ولايتا هيلاس وبونار،

و ٦٤٠ كيلومترًا من الطرق الجبلية أن تحكى القصة على مدى جيل كامل. فالذين لايستطيعون السيطرة على عمالهم لا يحظون باحترام فى الجبال، وابن الجبال يتمتع بحِسٍّ فكاهىٍّ بالغ الحدة.

وقال هورى فى نفسه "لو كنت دبرت هذا بنفسى ما أتيت بنتيجة أفضل، وأقسم، إذا تأملت ما حدث فى الواقع، إننى اتخذت الترتيبات اللازمة بنفسى... طبعًا! ما أسرع بديهتى! خطرت لى الخطة وأنا أهرع هابطًا الجبل! لقد وقعت الإساءة البالغة عَرَضًا، ولكنى أنا الذى كَفَلَ نجاحها - آه - بغَضِّ النظر عن قيمة ذلك كله. انظر فى الأثر المعنوى الذى تَرَكْتُهُ فى هذه الشعوب الجاهلة! لامعاهدات، لا أوراق، لا وثائق مكتوبة على الإطلاق، وأنا **وحدى** الذى يترجم ويفسر لهم. كم سأضحك مع العقيد! ليتنى حصلت على أوراقهم أيضًا، لكنك لا تستطيع أن تشغل مكانين فى الفضاء فى وقت واحد. هذا بديهى".

الفصل الرابع عشر

يَقُولُ شَاعِرُنا ’كَبِيرٌ‘ قَدْ جِئْنَا أَخِي

أَمَامَ أَصْنَامٍ مِنَ الأَحْجَارِ والنُّحَاسِ الفَانِي

لكننى سَمِعْتُ فى صَوْتِ أَخِي

أَصْدَاءَ مَا لَمْ يُسْتَجَـــبْ عِنْدِي مِنَ الأَنَّاتِ

فَمَا قَضَتْ أَقْدَارُهُ بِهِ عَلَيْـــهِ رَبُّهُ الحَانِـــي

وصَلاَتُهُ كَصَلاَةِ كُلِّ العَالَمِـــينَ صَـــلاَتِي

(البحر والجبال)

عندما أشرق القمر انطلق العمال الحريصون سائرين. وأما اللاما الذى أنعشه النوم و’الروح‘، فلم يكن يحتاج إلا إلى أن يستند إلى كتف كيم حتى ينطلق صامتًا مسرعًا واسع الخطوات. وسارا على الكلأ الذى تناثرت فيه الأحجار ساعة، ثم دارا حول أحد أضلاع صخرة خالدة، صاعديْن فى منطقة جديدة لا يرى السائر فيها أى أثر من آثار وادى شيني. وشاهدا ساحة مرعىً شاسعة صاعدة على شكل مروحة إلى الثلوج الحية. وكان فى قاعدتها ما يقرب من نصف فدان من الأرض المنبسطة، وفوقها ينتصب عدد ضئيل من الأكواخ المبنية بالطين والأحجار. كانا يجلسان مثل أهل الجبال على حافة أعلى مكان، وتمتد من خلفهما الأرض هابطة إلى مسافة تصل إلى نحو ٦٦٠ مترًا حتى موقع قمامة ’شملة‘، وهو المكان الذى لم تطأه من قبل قدم بشر.

ولم يُبْدِ الرجال أية بادرة لتقسيم الغنائم حتى شاهدوا اللاما ينام فى فراشه فى أفضل غرفة فى الكوخ، وكيم يغسل قدميه ويدلكهما وفق عادة المسلمين.

وقال المنغولى "سنرسل لكما الطعام والسلة ذات الغطاء الأحمر. وبحلول الفجر لن يبقى إنسان يشهد على ما فعلناه بأية صورة من الصور. وإذا لم تكونا تحتاجان إلى شيء فى السلة – فانظرا!".

وأشار من النافذة – التى كانت تطل على الساحة التى يغمرها ضوء القمر الذى انعكس من الثلوج – ثم رمى منها زجاجة الويسكى الفارغة.

وواصل حديثه قائلاً "لا داعى للاستماع إلى صوت السقوط. هذا آخر حد من حدود العالم" ثم خرج. وأطل اللاما من النافذة، واضعا يديه على قاعدتها، وعيناه تتلألآن مثل العقيق الأصفر. وفى الهوة التى لا قاع لها تحته كانت ترتفع قمم بيضاء مشتاقة إلى ضوء القمر، وأما سائر المكان فكان فى ظلمة الفضاء الذى تسبح فيه النجوم.

وقال ببطء "هذه حقًّا جبالى. هكذا ينبغى أن يعيش المرء، جاثمًا فوق الدنيا، منفصلاً عن المباهج، متأملاً أمورًا شاسعة".

"نعم، إن كان لديه تلميذ يتولى إعداد الشاى له، ويطوى البطانية فوق رأسه، ويطرد البقرات الحوامل".

كان مصباح له دخان مشتعلاً فى كوة ولكن نور القمر الغامر غلبه سطوعًا، وكان كيم، مهتديًا بضوء هذا وذاك، ينحنى على أطباق الطعام وعلى الحقائب ويتنقل مثل الشبح.

"فعلاً! لكنى بعد أن أتحت لدمى أن يبترد مازلت أشعر فى رأسى بمطارق وطبول، وأحس أن حبلاً يلتف حول قفاى".

"لا غرابة فى ذلك فقد كانت لطمة شديدة. ألا ليت الذى سددها..."

"لولا انفعالاتى أنا ما وقع الشر".

"أى شر؟ لقد أنقذت الأجنبيين من الموت الذى كانا يستحقانه مائة مرة".

"لم تتعلم الدرس جيدًا يا تلميذى". وأتى اللاما ليستريح على بطانية مطوية، وكيم يواصل ما اعتاد فعله كل مساء. "لم تكن اللطمة إلا ظلاً على ظل. أما الشر نفسه – ما أسرع ما تكل ساقاى فى الأيام الأخيرة! – فقد التقى بِشَرٍّ فى نفسى: بِغَضَبٍ وحَنَقٍ وشَهْوَةٍ إلى رَدِّ الشر. وقد أثارت هذه الانفعالات

دمى، وأيقظت الصخب فى بطنى، وأذهلت أذنىّ". وهنا شرب كوبًا من الشاى الأسود الذى يغلى، بأسلوب رسمى، متناولا الكوب الساخن من يد كيم. "ولو كنتُ بلا انفعالات، لاقتصر تأثير اللطمة الشريرة على الشر البدنى – على ندبة أو كدمة – وهو وهم. ولكن ذهنى لم يكن صافيًا، إذ انْدَفَعَتْ فيه مباشرةً شهوةً لترك رجال 'ســپــيتى' يرتكبون القتل. وفى غمار مجالدتى لهذه الشهوة تمزقت روحى وانْخَلَعَتْ بصورة تتجاوز ألف لطمة. ولم أستطع استعادة السكينة حتى تلوثُ البركات" – وكان يقصد التطويبات البوذية – "ولكن الشر الذى غُرس فى نفسى بسبب لحظة الإهمال المذكورة لايزال يفعل فعله حتى النهاية. ما أعدل العجلة! إنها لا تنحرف قِيدَ شَعْرَةٍ! فَتَعَلَّمْ الدرس يا تلميذى".

وتمتم كيم "إن ذلك يتجاوز مداركى سموًّا، ومازلت مضطربًا، ويسعدنى أنى آذيت ذلك الرجل".

"كنت أشعر بذلك وأنا نائم فوق ركبتك فى الغابة السفلى. واضطرابك أدى إلى إقلاقى فى أحلامى، إذ إن الشر فى نفسك كان ينفذ إلى نفسى. ومع ذلك كله" – وأطلق هنا مسبحته – "فقد اكتسبتُ امتيازًا بإنقاذ روحين، أى روحى اللذين أساءا لى. والآن علىّ أن أنظر فى **سبب الأشياء**. فإنّ قارب روحى يتخبط".

"ثم تكتسب القوة. هكذا أحكم ما ينبغى".

"بل أستغرق فى التأملات. فحاجتى إليها أكبر مما تعلم".

وساعةً من بعد ساعة حتى مطلع الفجر، حتى شحب ضوء القمر علىٍ القمم العالية واتضح أن السواد الذى كان يجلل جوانب الجبال البعيدة غابةٌ ذاتُ لون أخضرَ رقيق، ظل اللاما يحدق بثبات فى الحائط، ويئن من وقت لآخر. وأما خارج الباب الموصد، حيث جاءت الأبقار القلقة تطلب حظيرتها القديمة، فكانت 'شملة' تشارك العمال الانهماك فى النهب والصخب والهياج. كان زعيم الرجال هو المنغولى، وما إن فتحوا عُلَبَ الطعام المحفوظ فى أمتعة

الأجنبيين ووجدوه شهى المذاق حتى انطلقوا يأكلون دون أن يجرؤ أحدهم على التوقف. وكانوا يلقون العلب الفارغة ولوازم تغليف المتاع فى قمامة المطبخ.

وعندما تسلل كيم، بعد ليلة من الأحلام المفزعة، لتنظيف أسنانه بالفرجون فى برد الصباح، جَرَّتْهُ من يده امرأة شقراء على رأسها وشاح محلىً بالفيروز.

وقال المرأة "ذهب الآخرون وتركوا هذه السلة وفاءً بالوعد. أنا لا أحب الأجانب، لكنك سوف تصنع لنا تميمة فى مقابل هذا. لا نريد إساءة سمعة 'شملة' بسبب الحادثة. أنا التى أُدعى امرأة شملة". وجعلت تنظر إليه بعينين براقتين جسورتين، نظرات تختلف عن اللمحات المختلسة المعتادة من عيون نساء الجبال.

"بكل تأكيد. ولكن لابد أن يكون ذلك سرًّا".

ورفعت السلة الثقيلة كأنها لعبة وألقتها فى كوخها.

وقال كيم "اخرجى وأغلقى الباب! لا تدعى أحدًا يقترب حتى تنتهى".

"لكننا يمكن فيما بعد... أن نتكلم؟"

وأمال كيم السلة على الأرض، فتدفق منها شلال من أدوات المساحة، والكتب، والمفكرات، والخطابات، والخرائط، ومراسلات محلية ذات شذًا غريب. وفى قاع السلة حقيبة مطرزة فى داخلها وثيقة مزركشة ملونة ومغلقة بخاتم من الشمع، كالتى يرسلها ملك إلى ملك آخر. والتقط كيم أنفاسه المتهدجة من الفرحة، وجعل يستعرض الموقف من وجهة نظر أحد 'السادة'.

"الكتب لست فى حاجة إليها. أضف إلى ذلك أنها لوغاريتمات... كتب فى علم المساحة فى ظنى". فنحَّاها جانبًا. "الخطابات لا أفهمها ولكن العقيد كرايتون سوف يفهمها. يجب الاحتفاظ بها جميعًا. والخرائط؟ إنهما أبرع منى فى رسم الخرائط، طبعًا. وجميع الخطابات المحلية، وخصوصًا الخطاب الملكى". وتشمم الحقيبة المطرزة قائلاً "لابد أن الخطاب من هيلاس أو بونار،

وصدق هورى البنغالى فيما ذكره. أقسم إنه كنز عظيم. كم أتمنى لو عرف هورى... ولابد من إلقاء الباقى من النافذة". وتحسس بوصلة دقيقة رائعة، والرأس اللامع لمقياس الزوايا. ولكنه لا يجوز للسادة أن يسرقوا، وقد تصبح هذه الأشياء أدلة تثير المتاعب فيما بعد. فانكب يصنف كل قطعة من المخطوطات، والخرائط، والخطابات المحلية. وجمعها معًا فى ربطة متماسكة لينة. وأما الدفاتر المغلقة ذات الظهر الحديدى فقد نحَّاها جانبًا مع خمس كراسات بالية.

"لابد أن أحمل الخطابات والخطاب الملكى داخل سترتى وتحت حزامى، وأن أضع الكراسات المكتوبة بخط اليد فى حقيبة الأغذية. سَيَثْقُلُ وزنُها كثيرًا. كلاَّ. لا أعتقد أن بالسلة شيئًا آخر، ولو كان فيها غير هذا فقد ألقاه العمال فى الوادى العميق، وإذن، فلا بأس. وحان الآن وقت الخلاص منكِ أنتِ أيضًا!" وأعاد إلى السلة كل ما قرر التخلص منه ورفعها إلى قاعدة النافذة. وكان أسفلَ النافذة على مسافةٍ تزيد على ٣٠٠ متر تلٌ من الضباب: كان طويلاً لا يكاد يتحرك وذا أركان مستديرة ولم تصل إليه بعد شمس الصباح. وتحت هذا الضباب بمسافة ٣٠٠ متر أخرى غابة صنوبرية عمرها مائة عام. وكان يستطيع أن يلمح القمم الخضراء فى صورة حوض من الطحالب عندما تهب ريح دوامية فتخفف من كثافة الضباب.

"لا! لا أظن أن أحدًا سوف يحاول العثور عليكِ!"

وأَفْرَغَتْ السلةُ محتوياتها أثناء سقوطها السريع. وارتطم مقياس الزوايا بطرف صخرة ناتئة فانفجر كالقذيفة، وكانت الكتب والمحابر وصناديق الألوان والبوصلات والمساطر تبدو مثل سرب من النحل لثوان معدودة، ثم اختفت، وعلى الرغم من أن كيم كان يشحذ أذنيه اليافعتين وقد تَدَلَّى إلى نصفه من النافذة، فلم يصعد إليه صوت واحد من الهوة السحيقة.

وقال فى نفسه آسفًا "لا تكفى خمسمائة روبية، ولا ألف روبية، لشرائها. كان إهدارًا شديدًا، لكننى أخذت كل شىء عندهما – وثمرة كل ما فعلاه –

فيما أرجوه! مشكلتى الآن كيف أخبر هورى البنغالى، وماذا علىَّ أن أفعل؟ وصديقى العجوز مريض. لابد أن أربط الخطابات فى مشمع. هذا ما يجب أن أفعله أولاً، وإلا بلَّلها العرق. وأنا وحدى!" وربط الخطابات فى حزمة مُحْكمة، مغلقًا أطراف المشمع اللزج ولاصقًا إياه عند الأركان، إذ جعلته حياة التجوال منهجيًّا مثل الصياد الخبير فى كل ما يتعلق بالمسير فى الطرق. ثم ضاعف من عنايته وحرصه عند وضع الدفاتر فى قاع حقيبة الأغذية.

وطرقت المرأة الباب.

وجعلت تتفحص الغرفة ثم قالت "لكنك لم تصنع التميمة".

فرد قائلاً "لا داعى لها" وكان قد تجاهل تمامًا ضرورة بعض الثرثرة. ولكن المرأة ضحكت على ارتباكه ضحكة لا تنم على الاحترام قائلة:

"لا داعى، من وجهة نظرك. فأنت تستطيع عمل السحر بمجرد غمزة من عينك، ولكن انظر إلينا نحن الفقراء بعد رحيلك! لقد لعبت الخمر برؤوس الجميع ليلة أمس فمنعتهم أن يصغوا لامرأة. لستَ سكران؟".

قال كيم "أنا كاهن". كان قد استعاد رباطة جأشه، ولما كانت المرأة فاتنة، فقد قرر أن يلتزم بوظيفته 'الرسمية'.

وقالت المرأة "حذرتهم من غضب الأجنبيين اللذين سوف يجريان التحقيق ويرفعان تقريرًا إلى الراچـا. والبنغالى معهما أيضًا. والموظفون الكتابيون ألسنتهم طليقة".

وقال كيم "هل هذا ما يقلقك كله؟" وبرزت الخطة فى ذهنه بكل تفاصيلها فابتسم ابتسامة الظفر.

"ليس كله" ومدت المرأة يدًا سمراء صلبة مغطاة بفصوص الفيروز المركب فى الفضة.

وقال بسرعة "أستطيع أن أنتهى من ذلك بكلمات معدودة: البنغالى هو

الطبيب نفسه – ألم تسمعى عنه ؟ – الذى كان يتجول فى الجبال بجوار 'زيجلاور'. وأنا أعرفه".

"سوف يُفْشىِ السر فى مقابل مكافأة. والأجانب لا يستطيعون التمييز بين رجال الجبال، ولكن البنغاليين لهم نظرات صادقة فى الرجال... والنساء".

"احملى رسالة منى إليه".

"لا يوجد ما لا أفعله من أجلك".

وتقبل مديحها بهدوء، كما ينبغى للرجال فى البلاد التى تفاتح المرأة الرجل بحبها فيها، وقطع ورقة من كراسة والتقط قلم رصاص خطه واضح لا يُمْحى، وكتب بحروف منفصلة كبيرة – مثل الحروف التى يستخدمها الصغار المشاغبون عندما يكتبون كلمات قذرة على الجدران – "**عندى كل شىء كتباه: صورهما للبلاد، ورسائل كثيرة، وخصوصًا الخطاب الملكى. قل لى ماذا أفعل. أنا فى 'شملة'-تحت- الثلوج. والرجل العجوز مريض**".

"خذى هذا إليه. فسوف يغلق فمه تمامًا. لا يمكن أن يكون قد ابتعد".

"لم يبتعد فعلاً. مازالوا فى الغابة عبر النتوء الجبلى. وقد ذهب أطفالنا لمشاهدتهم عندما أشرق النور، وجعلوا يذيعون النبأ وهم يتنقلون".

وبدت دهشة كيم على وجهه، لكنه سمع نداءً حادًّا يشبه صوت الحدأة يصعد من حافة مرعى الأغنام، وكان الطفل الذى يشرف على الأبقار يردده بعد أن سمعه من أخ له أو أخت فى الجانب الأقصى للجبل الذى يطل على وادى شينى.

"خرج زوجاى أيضًا إلى تلك المنطقة لجمع الحطب". وأخرجت حفنة من ثمار الجوز من صدرها، وقسمت إحداها إلى نصفين كاملين، وبدأت تأكل لُبَّها. وتظاهر كيم بالجهل التام.

وقالت بدلال "ألا تعرف معنى الجوز أيها الكاهن؟" ثم أعطته نصفى القشرة.

وقال لها "أحسنت التفكير" ثم وضع قصاصة الورق بينهما قائلاً "ألديك بعض الشمع حتى أُغلق النصفين على هذا الخطاب؟"

وتأوهت المرأة بصوت عالٍ فَلاَنَ موقفُ كيم وقال:

"لا يكون الدفع إلا بعد تأدية الخدمة. احملى هذا إلى البنغالى وقولى له إنه مرسل من عند ابن التميمة".

"حقا! فعلاً فعلاً! من ساحر... ويشبه السادة".

"لا بل من ابن التميمة. واسألى إن كان لديه رد على الخطاب".

"ولكن إذا عرض أمرًا قبيحًا؟ إنى... إنى خائفة".

وضحك كيم وقال "لا شك أنه شديد التعب شديد الجوع، والجبال تصنع رفقاء فراش باردين. فعلاً يا..." كان يوشك أن يقول يا أمى ثم غيرها إلى يا أختى "أنت امرأة حكيمة ذكية. أترين أن القرى جميعًا قد علمت بما حدث للأجنبييْن؟"

"صحيح. كانت الأنباء قد بلغت 'زيجلاور' بحلول منتصف الليل، وبحلول الغد تكون فى بلدة 'كوتجارث' (شمالى سيملا). والقرى خائفة وغاضبة".

"لا داعى لذلك. أخبرى القرى أن تُطْعم السيديْن وتُيَسِّرَ لهما المرور فى سلام. ينبغى أن نجعلهما يبتعدان عن ودياننا فى هدوء. فالسرقة شيء والقتل شيء آخر. وسوف يفهم البنغالى ذلك، ولن نسمع شكاوى لاحقة. أسرعى. ولابد أن أبقى لرعاية أستاذى عندما يصحو".

"فليكن. بعد أداء الخدمة تأتى المكافأة؟ ألم تقل هذا؟ إننى امرأة 'شملة'، وقد وهبنى الراچـا عقارًا وسلطة، فلست امرأة عادية ممن يحملون الأطفال. 'شملة' ملك يمينك، بأظلافها وقرونها وجلودها، ولبنها وزبدها. خذها أو اتركها".

وحَوَّلَتْ وجهها بعزم وتصميم نحو الجبل وبدأت تصعده، وقلائدها الفضية

تقعقع فوق صدرها العريض، لمواجهة شمس الصباح فى موقع يعلوها بخمسمائة متر، وجرت الأفكار فى ذهن كيم هذه المرة باللغة المحلية وهو يغلق بالشمع أطراف المشمع الذى يكسو لفائفه.

"كيف يستطيع المرء أن يتبع **الطريق** أو يلعب اللعبة الكبرى ما دام يتعرض للإزعاج دائمًا من جانب النساء؟ جاءت أولاً فتاة 'أكرولا-ذات-المخاضة'، وتلتها زوجة مساعد الطاهى خلف برج الحمام – إذا لم نحسب الأخريات – وأخيرًا تأتى هذه! عندما كنت طفلاً، لم يكن فى ذلك بأس، لكننى غدوت الآن رجلاً ولا يُرِدْنَ اعتبارى رجلا! ثمار الجوز حقًا! هُو! هُو! إنه اللوز فى السهول!"

وخرج ليحصل على الطعام من القرى، لا بقصعة التسول التى قد تصلح للسهول بل بأسلوب أحد الأمراء. لم يكن سكان 'شملة' فى الصيف يزيدون على ثلاث أسرات: أربع نساء وثمانية رجال أو تسعة. وكانوا جميعًا متخمين باللحوم المعلبة والمشروبات المختلطة، من الكوينين الفوار إلى الفودكا البيضاء، إذ كانوا جميعًا قد حصلوا على نصيبهم كاملاً من غنائم الليلة البارحة. وأما الخيام الأوروبية الجميلة فقد قُطِّعَتْ وتقاسمها الكل منذ وقت طويل، وظهرت فى المساكن أوان ألومينيوم براقة.

ولكنهم كانوا يعتبرون أن وجود اللاما يحميهم حماية كاملة من أية عواقب وخيمة، ودون إحساس بالندم قدموا أفضل ما لديهم إلى كيم، حتى مشروب 'شانج'، وهو جعة الشعير المجلوبة من طريق 'لاداخ'. ثم استلقوا يستدفئون فى الشمس، جالسين بأرجل مدلاة فوق مهاوٍ لا قَاعَ لها، وهم يثرثرون ويضحكون ويدخنون. كانت أحكامهم على الهند لا تستند إلا إلى خبرتهم بالسادة الجوالين الذين كانوا يستخدمونهم أو يستخدمون أصدقاءهم صيادين. وأصغى كيم إلى قصص رُوِيَتْ عن طلقات لم تصب الأيائل أو الوعول أو الماعز البرى، وكان من أطلقها سادة ماتوا ودفنوا منذ عشرين سنة، وكان كل من هذه التفاصيل يومض خلفه مثل الأغصان على ذُؤَابَاتِ الأشجار إن

شوهدت لحظة وميض البرق فى السماء. حدثوه عن أمراضهم الصغيرة، وعمّا هو أهم منها، ألا وهو أمراض أبقارهم الضئيلة ذات الخطو الثابت، وعن الترحال حتى 'كوتجار'، حيث يعيش المبشرون غريبو الأطوار، وحتى سيملا الرائعة نفسها، حيث رُصِفَتْ الشوارع بالفضة، قائلين إن أى فرد يمكنه أن يحصل على عمل مع السادة الذين يتنقلون فى عربات ذوات عجلتين وينفقون النقود بالجاروف. وبعد فترة جاء اللاما، جاد الملامح وقد بدا عليه التحفظ وهو يمشى بتثاقل شديد، فالتحق بموقع الثرثرة تحت طُنُفِ الأسقف، فأفسحوا له مكانًا كبيرًا، وشعر بالانتعاش فى الهواء الخفيف وجلس على حافة الهوة مع أفضلهم، وعندما تراخت الأحاديث أخذ يلقى الحصى فى الفراغ. كانت سلسلة الجبال التالية تقع على مسافة خمسين كيلومترًا، لمن يطير إليها كالعُقاب فى خط مستقيم، وكانت جبالاً مضمومًا بعضها إلى بعض، تجرى فيها القنوات، وتنتثر فيها أجمات صغيرة من النباتات البرية، غابات طول كل منها مسيرة يوم كامل. وكان جبل 'شملة' ينتصب خلف القرية فيحجب الرؤية تمامًا عن مناطق الجنوب. كان الموقع يشبه الجلوس فى عش طائر الخطاف تحت طُنُفِ سقف العالم.

وكان اللاما يمد يده من حين لآخر، وبعد تشجيعه قليلاً بصوت منخفض يشير إلى الطريق الخارج إلى منطقة 'سـبـيتى' وشمالاً عبر 'بـارونجولا'.

وقال "وخلف ذلك حيث تتكدس الجبال يقع دير 'ديشن'، وكان يقصد 'هانلى'، ذلك الدير العظيم الذى بناه 'تانجستان راسشين'، الذى يحكون حكايته التالية" وانطلق يحكيها، وكانت قصة خيالية متراكمة الأحداث حافلة بالسحر والمعجزات التى جعلت 'شملة' تشهق دهشة. واستدار إلى الغرب قليلاً تجاه الجبال الخضراء فى كولو، وجعل يبحث بعينيه عن 'كايلونج' تحت الأنهار الجليدية، قائلاً "إذ إننى ذهبت إلى هناك فى وقت مضت عليه دهور. جئت من 'ليه'، فوق ممر 'بارالاشى' (على حدود كشمير)".

وقال أهل 'شملة' الذين يسافرون لمسافات شاسعة "نعم نعم، نعرفه".

"وبتُّ ليلتين مع كهنة 'كايلونج'. هذه جبال بهجتى! ظِلاَلٌ مباركة فوق كل الظلال الأخرى! وهناك تفتحت عيناى على هذه الدنيا، وهناك فُتحت عيناى على هذه الدنيا، وهناك وجدت التنوير. وهناك شمرت عن ساعدى للقيام ببحثى. من الجبال خرجت، من الجبال الشاهقة والرياح العاصفة. أوه! ما أعدل العجلة!" وجعل يبارك كل شىء تفصيلاً، الأنهار الجليدية العظمى، والجلاميد الجرداء، والصخور الركامية، والأحجار المتساقطة. والمرتفعات الجافة، والبحيرة المالحة الخفية، والأخشاب التى مرت عليها عصور وعصور، ووادى الفاكهة الذى يتساقط فيه الماء، وكان يبارك كلا منها على التوالى مثلما يبارك رجلٌ يُحْتَضَرُ أَهْلَه، وجعل كيم يَعْجَبُ لعمق عاطفة اللاما.

وقال أبناء 'شملة' "نعم، نعم، لا مكان يضارع جبالنا". وجعلوا يتعجبون كيف يمكن أن يعيش رجل فى السهول الحارة الفظيعة، حيث تكبر الماشية حتى تصبح فى حجم الأفيال فلا تصلح لجر المحراث على جوانب الجبال، وحيث تلامس القرى بعضها بعضًا، كما سمعوا، لمسافة مائة ميل، وحيث يخرج الناس عصابات للسرقة، فما يفلت من أيدى اللصوص تستولى عليه الشرطة.

وهكذا مر الضحى الساكن، وعندما انتهى عادت رسول كيم، هابطة من المرعى السامق، هادئة النفس كما انطلقت.

وقال كيم موضحًا "أرسلتُ أستدعى الطبيب"، أثناء أدائه التبجيل للاَّما.

"هل التحق بالكُفَّار؟ لا! أذكر أنه عالج أحدهم. لقد اكتسب امتيازًا، على الرغم أن من شُفِىَ استخدم قوته فى الشر. ما أعدل العجلة! ماذا قلت عن الطبيب؟".

وقال كيم "خشيت أن تكون مصابًا بكدمات و... كنت أعلم أنه حكيم". ثم تناول قشرة الجوزة الملصقة بالشمع وفتحها وقرأ ما كُتب بالإنجليزية على

ظهر رسالته: "**تلقيت هديتك. لا أستطيع التخلى عن رفيقىَّ المصاحبيْن لى فى الوقت الحاضر، لكننى سوف أصحبهما إلى سيملا. وبعدها أرجو أن ألحق بك. ملاحقة الغاضبيْن غير مستحبة. ارجع بالطريق نفسه الذى أتيت منه، وسوف ألحق بك. سعيد إلى حد بعيد بشأن المراسلات، بسبب بعد نظرى**". وقال كيم "يقول أيها الربانى إنه سوف يهرب من الكافريْن ويعود إلينا. هل ننتظر قليلاً فى 'شملة' إذن؟".

وجعل اللاما يتطلع طويلاً وبحبٍّ إلى الجبال ثم هَزَّ رأسه.

"ذاك محالٌ يا تلميذى. أريد ذلك فعلاً من أعماق عظامى، ولكنه مُحَرَّم، فلقد رأيت سبب الأشياء".

"ولماذا؟ ما دامت الجبال تعيد إليك قوتك يومًا بعد يوم؟ تذكر أننا كنا نشعر بالضعف والخور هناك فى وادى 'ضون' ".

"زادت قوتى على فعل الشر والنسيان. كنت أبدو من المتشاجرين المتفاخرين على جوانب الجبال". وعض كيم شفته ليحبس بسمة. فعاد اللاما يقول "ما أعدل العجلة وما أكملها، لا تنحرف قِيد شعرة. عندما كنت شابًا – منذ زمن بعيد – قمت بالحج إلى جورو (المرشد الروحى) شوان (دير على حدود بوتان) بين أشجار الحور" وأشار تجاه مملكة بوتان الهندوسية شبه المستقلة، على الحدود بين الهند والتيبت "حيث يحتفظون بالحصان المقدس".

وقال أهل 'شملة' في صوت واحد "الصمت! اسكتوا! إنه يتحدث عن چـــاملين ــ نينكور" الحصان الذى يستطيع أن يلف العالم فى يوم واحد".

وقال اللاما فى عتاب رقيق "إننى لا أتحدث إلا إلى تلميذى". فتفرقوا مثلما ينقشع الصقيع على طُنُفِ الجنوب فى الصباح. "لم أكن أنشد الحقيقة فى تلك الأيام بل الحديث عن العقيدة. كله وهم! شربت الجعة وأكلت خبز جورو شوان. وفى اليوم التالى قال أحدهم سنذهب لمحاربة 'سنجور جوتوك' فى الوادى حتى نكتشف أى رئيس للدير سوف يتولى الحكم ويظفر بأرباح

الصلوات التى يطبعونها فى سنجور جوتوك! فانظر من جديد كيف ترتبط الشهوة بالغضب! وذهبت، وتقاتلنا يومًا".

"ولكن كيف أيها الربانى؟".

"بعلب أقلامنا الطويلة كما كان يمكن أن أبين... أقول، تقاتلنا تحت أشجار الحور، رئيسا الديرين وجميع الرهبان، وشق أحدهم شقًّا فى جبينى حتى بدا العظم. انظر!" وأزاح قبعته إلى الخلف فأظهر ندبة فضية التأمت فيها البشرة. "ما أعدل العجلة وأكملها! كنت أشعر يوم أمس بحكة فى الندبة، وبعد خمسين عامًا تذكرت كيف أُصِبْتُ بها ووَجْهَ الذى أصابنى بها، إذ عِشْتُ قليلاً فى الوهم. وقد تبع ذلك ما رأيت من الصراع والغباء. ما أعدل العجلة. جاءت لطمة الكافر على الندبة، وعندها أحسست بهزة فى نفسى، وأظلمت روحى، وجعل زورق روحى يتخبط فى مياه الوهم. لم أستطع قبل القدوم إلى شملة أن أستغرق فى تأملاتى حول سبب الأشياء، أو أن أرصد مسار جذور الشر وأصله. وكافحت على امتداد الليل الطويل كله".

"ولكنك أيها الربانى برىء من كل شر. فلأكن قربانك!".

كان كيم يشعر بالكرب حقًّا لحزن الرجل العجوز، وأفلتت عبارة محبوب على منه دون أن يدرى.

وواصل اللاما حديثه بنبرات جادة أعمق والمسبحة تعلو قعقعتها بين عباراته البطيئة قائلاً "جاء التنوير. إنه هنا... أنا رجل عجوز... نشأت فى الجبال، وتغذيت فى الجبال، ولم أجلس بين الجبال قط... قضيت ثلاثة أعوام فى الترحال فى ربوع الهند ولكن هل يمكن أن يكون التراب أقوى من الأرض الأم؟ كان جسدى الغبى يتوق للجبال وثلوج الجبال من مكانى أسفلها. قلت، وهو صحيح، إن بحثى مؤكد النجاح. وهكذا يممت وجهى، فى منزل امرأة كولو، صوب الجبال، بل بالغت فى إقناع نفسى. لا لوم على الطبيب، فإنه - مُتَّبِعًا الرغبة - تنبأ بأن تمنحنى الجبال القوة. فزادت من قوتى على فعل الشر، وأن أنسى بحثى. لقد وجدت المتعة فى الحياة وشهوة الحياة، ورغبت

فى تسلق مرتفعات شاقة، وجعلت أطلبها هنا وهناك، وأقيس قوة جسدى، وهذا شر، بقوة الجبال الشاهقة. وسخرتُ منك عندما تقطعت أنفاسك تحت 'چـــامنوطرى'. وضحكتُ عندما رفضت مواجهة ثلوج الممر الجبلى".

"ولكن ما الضرر؟ **كنتُ** خائفًا. وهو أمر طبيعى. فلستُ من أبناء الجبال، وأحببتك لقوتك الجديدة".

وقال اللاما مُسْنِدًا خده بحزن على يده "أذكر أننى أكثر من مرة كنتُ أنشد المديح منك ومن الطبيب لمجرد قوة ساقىَّ. وهكذا تلاحقت الشرور حتى امتلأت الكأس. ما أعدل العجلة! إن الهند كلها جعلت تُكَرِّمُنِى لمدة ثلاث سنوات. من نبع الحكمة فى بيت العجائب إلى" – وابتسم – "طفل صغير يلعب بجوار مدفع كبير. لقد أَعَدَّتْ الدنيا طريقى. ولماذا؟"

"لأننا أحببناك. هذه حُمَّى اللطمة وحسب. وأنا نفسى لا أزال أشعر بالغثيان والصدمة".

"لا! بل لأننى كنت على **الطريق**، منضبط النغمة مثل الصنج لما يقصده **القانون**. وانحرفت عن ذلك الفرض. فانكسرت النغمة وتلا ذلك العقاب. ففى جبالى نفسها، على حافة موطنى نفسه، وفى المكان نفسه الذى شهد رغبتى الشريرة، جاءت اللطمة... هنا!" ولمس جبينه "ومثلما يُضرب الغلام عندما لا يضع الأكواب فى مكانها ضُربت أنا، وأنا الذى كنت رئيس دير سوخزين. لاحظ أنها لم تكن لكمةً بل لطمة يا تلميذى".

"ولكن الأجنبيين لم يكونا يعرفانك أيها الربانى؟".

"كنا فى كفتين متعادلتين، فالجهل والشهوة قابلا الجهل والشهوة على الطريق، وأنجبا الغضب. كانت اللطمة إشارة لى – ولست أفضل من ثور برى – بأن مكانى ليس هنا. من يستطع إدراك سبب فعل يقطع نصف الطريق إلى الحرية! اللطمة تقول لى 'عد إلى الطريق القويم. ليست الجبال لك. لا تستطيع أن تختار الحرية ثم تنحدر إلى عبودية متع الدنيا' ".

"ليتنا ما قابلنا ذلك الروسى الملعون قط!".

"مولانا نفسه لا يستطيع أن يجعل العجلة ترجع إلى الخلف. وبسبب الامتياز الذى حققته اكتسبت علامة أخرى". وأدخل يده فى صدره فأخرج عجلة الحياة قائلاً "انظر! رأيت هذا بعد الانتهاء من تأملاتى. لم يَسْلَمْ من تمزيق الكافر إلا عرضُ ظفر من أظافرى".

"فهمت".

"هذا إذن مدى قِصَرِ حياتى فى هذا الجسد. لقد خدمت العجلة طول عمرى. والآن تخدمنى العجلة. لولا الامتياز الذى اكتسبته بهدايتك إلى الطريق، لأُضِيفَتْ إلىَّ حياة أخرى قبل عثورى على نهرى. هل هذا واضح يا تلميذى؟".

وجعل كيم يحدق فى الخريطة الممزقة بوحشية. كان القَطْعُ يجرى مائلا من اليسار إلى اليمين، من المنزل الحادى عشر حيث تلد الرغبة الطفل – فى الرسم الذى وضعه أهل التيبت – عبر عالم الإنسان وعالم الحيوان، إلى المنزل الخامس، المنزل الخالى للحواس. كان المنطق يستعصى على الرد.

"قبل أن يفوز مولانا بالتنوير" – وطوى اللاما كل شىء وأبعده فى إجلال – "تعرض للإغراء. وتعرضت أنا للإغراء أيضًا، لكن هذا انتهى. لقد سقط السهم فى السهول، لا فى الجبال. ومن ثم فماذا نفعل هنا؟".

"ألا ننتظر الطبيب على الأقل؟".

"أعرف مدى العمر الذى سأحياه فى هذا الجسد، فماذا يستطيع الطبيب أن يفعل؟".

"لكنك مريض مضطرب، ولا تستطيع السير".

"كيف أكون مريضًا وأنا أرى الحرية؟" ونهض فوقف فى غير ثبات على قدميه.

فقال كيم "إذن لابد أن أحضر الطعام من القرية. يالمشاق المسير!" كان كيم يحس أنه يحتاج، هو أيضًا، للراحة.

"هذا مشروع. فلنأكل ونذهب. سقط السهم فى السهول... لكننى استسلمت للرغبة. فلتستعد يا تلميذى".

وعاد كيم إلى المرأة ذات الوشاح المُحلَّى بالفيروز، وكانت تتسلى بقذف الحصى من فوق الصخرة السامقة، فابتسمت له فى حنان بالغ.

وقالت المرأة "وجدته مثل جاموس شارد فى حقل قمح، ذلك البنغالى، ينخر ويعطس من البرد. كان جائعًا إلى الحد الذى جعله ينسى وقـــاره، ويغازلنى. لا يملك الأجنبيان شيئًا". وبسطت راحتيها الفارغتين. "أحدهما يعانى من مرض شديد فى بطنه. وعملك؟".

وأومأ كيم، ببريق فى عينيه.

"كلمت البنغـــالى أولاً، وأهالى قرية قريبة بعد ذلك. سيقدمون للأجنبيين ما يحتاجانه من طعام ولن يطلبوا نقودًا منهم. سبق توزيع الغنائم. والبنغالى يكذب على الأجنبيين. لم لا يتركهما؟".

"لأن له قلبًا كبيرًا".

"لم يُخلق بنغالى قط بقلب أكبر من ثمرة جوز جافة. ولكن هذا غير مهم. والآتى تأتى مسألة الجوز. قُلْتَ إن الدفع بعد أداء الخدمة. وقلتُ أنا القرية ملك يمينك".

فقال كيم "إن فى هذا خسارة لى إذ كنت، حتى لحظة قريبة، أتأمل فى قلبى مُتَعًا ولذائذَ نابعَةً من -" ولا حاجة بنا إلى تفصيل القول فى الغَزَل اللازم لهذه المناسبات - وتأوه آهاتٍ حَرَّى وقال "ولكن أستاذى جاءته رؤيا تأمره بأن".

"هه! ماذا تستطيع عيونه العجوز أن ترى إلا قصعة تسول مليئة؟".

"بأن يغادر هذه القرية عائدًا إلى السهول".

"اطلب منه أن يبقى".

وهز كيم رأسه قائلاً "أعرف صديقى الربانى خير المعرفة. وأعرف سَوْرَةَ غضبه إذا عارضه أحد". فى نبرات قاطعة حاسمة، مضيفًا "لعناته تهز الجبال".

"لكنها لم تنقذْه، للأسف، من شج رأسه! سمعتُ أنك كنت صاحب قلب النمر الذى ضرب الأجنبى. دعه يحلم فترة أطول. ابق هنا!".

وقال كيم بصرامة لم تستطع أن تنال من رقة ملامح وجهه الفتىّ البيضاوى: "هذه أمور سامية تتجاوز مداركك".

"فلتشفق الأرباب بنا! ومتى لم يكن الرجال والنساء إلا رجالاً ونساءً؟".

"الكاهن كاهن. ويقول إنه يرحل فى هذه الساعة. وأنا تلميذه وأرحل معه. نحتاج إلى طعام نتناوله فى طريقنا. إنه يحل ضيفًا مُكَرَّمًا فى كل القرى ولكن..." وافتر ثغره عن بسمة طفولية صافية - "الطعام هنا طيب. أعطنى قليلاً منه".

"وماذا لو أننى لم أعطك؟ إننى امرأة هذه القرية".

"إذن سألعنك - قليلاً - لا كثيرًا، ولكن بما يكفى لِتَذكُّرِهِ". ولم يستطع أن يغالب الابتسام.

"لقد لعنتنى فعلاً بالأهداب المسبلة والذقن المرفوعة. اللعنات؟ لِمَ أكترث لمجرد كلمات؟" وعقدت يديها المقبوضتين على صدرها وأضافت "لكننى لن أرضى أن ترحل غاضبًا، وأن تقسو فى خاطرك علىّ، باعتبارى جامعة للروث والكلأ فى 'شملة'، وإن كنت كذلك امرأة ذات ثراء".

وقال كيم "ليس فى خاطرى شىء سوى حزنى الشديد على الرحيل، فلقد بلغ بى الإرهاق مبلغه، ونحن نريد الطعام، هذه هى الحقيبة".

واختطفتها المرأة بغضب قائلة "كنت حمقاء. ما نوع نساء السهول؟ شقراوات أم سمراوات؟ كنت شقراء ذات يوم. هل تضحك؟ ذات يوم، من زمن بعيد، إذا استطعت التصديق، أحبنى أحد السادة، وذات يوم، من زمن بعيد، لبست ملابس أوروبية فى دار البعثة (التبشيرية) هناك". وأشارت بيدها إلى مدينة 'كوتجارث'. "وذات يوم، من زمن بعيد، كنت مسيحية وأتحدث الإنجليزية، مثلما يتحدثها السادة. نعم، وقال حبيبى الإنجليزى إنه سوف يعود ويتزوجنى – نعم يتزوجنى. وسافر – كنت أقوم على رعايته عندما مرض – لكنه لم يعد قط. وعندها رأيت أن أرباب المسيحيين يكذبون، فرجعت إلى عشيرتى... ولم تقع عينى على أجنبى منذ ذلك الحين قط! لا تضحك منى. فالنوبة انتهت أيها الكاهن الصغير! إن وجهك ومشيتك وأسلوبك فى الحديث ذكرنى بحبيبى الإنجليزى، ولو أنك مجرد شحاذ جوال أتصدق أنا عليه. تريد أن تلعننى؟ أنت لا تستطيع أن تَلْعَنَ أو تُبَارِك!"، ووضعت يديها على رِدْفَيْها وضَحِكَتْ بمرارة. "أربابُك أكاذيب؛ أعمالك أكاذيب؛ كلماتك أكاذيب. لا توجد أرباب تحت كل السماوات، وأنا واثقة من هذا... لكننى ظننت فترة ما أن حبيبى الإنجليزى قد عاد، وكان ربى أنا. نعم، كنت ذات يوم أعزف الموسيقى على البيانو فى دار البعثة فى 'كوتجارث'. والآن أُعطى الصدقات للكهنة **الوثنيين**" واختتمت حديثها بالكلمة الإنجليزية، ثم ربطت فتحة الحقيبة الكبيرة.

وقال اللاما مستندًا إلى عمود الباب "إنى أنتظرك يا تلميذى".

"يريد أن يمشى؟ لن يستطيع السير نصف ميل. أين تمضى به عظامه الهرمة؟".

كان كيم مرتبكًا بسبب تدهور صحة اللاما وإدراكه لثقل الحقيبة، وعندما سمع ما قالته المرأة فقد السيطرة على أعصابه فصاح قائلاً:

"وما الذى يعنيك أيتها المرأة المشئومة فى المكان الذى يمضى إليه؟".

"لا شىء، ولكنه يعنيك أنت أيها الكاهن ذو الوجه الأجنبى. هل ستحمله على كتفيك؟".

"سأمضى إلى السهول، ولن يعوق شىء عودتى إليها. لقد صارعت نفسى حتى نفدت قوتى. الجسد الغبى مستهلك، ونحن بعيدان عن السهول".

وقالت المرأة ببساطة "انظر!" وانتحت جانبًا حتى تتيح لكيم أن يرى عجزه التام. "العننى! فربما وهب ذلك القوة له. اصنع تعويذة! ادع ربك العظيم، فأنت كاهن". ثم استدارت وخرجت.

كان اللاما قد جلس القرفصاء بصعوبة وهو لايزال قابضًا على عمود الباب. من المحال أن يتلقى رجل عجوز لطمة شديدة ثم يستعيد قوته بسرعة مثل الشباب فى ليلة واحدة. كان الضعف يُقْعِدُهُ ولكن عينيه اللتين تعلقتا بكيم كانتا براقتين تتوسلان وترجوان.

قال كيم "كل شىء على ما يرام. الهواء الخفيف هو الذى يُضْعِفك. بعد قليل نمضى! إنه دُوار الجبال، وأنا أيضًا أشعر بغثيان فى بطنى..." وانحنى وجعل يواسى اللاما بالكلمات الهزيلة التى وردت أولاً إلى شفتيه. ثم عادت المرأة بقامة أشد انتصابًا عن ذى قبل.

وقالت "أربابك لا نفع لها؟ هه؟ جرب أربابى! إننى امرأة 'شملة'." ونادت بصوت مبحوح فخرج من حظيرةِ أبقارٍ زوجا المرأة وثلاثة آخرون وأقبلوا يحملون مِحَفَّةً، وهى هودج ساذج محلى يستخدمونه فى الجبال لنقل المرضى وفى الزيارات الرسمية. وقالت "هؤلاء الثيران" دون أن تتعطف فتنظر إلى الرجال "ملكُ يمينك ما دمت محتاجًا إليهم".

وصاح الزوج الأول "لكننا لن نذهب إلى طريق سيملا. لن نقترب من الأجانب".

فقالت المرأة "لن يفروا هاربين مثل الآخرين ولن يسرقوا الأمتعة. أعرف الضعف فى اثنين منهم. يا سونو ويا تارى قفا عند العمود الخلفى". وأطاعا مسرعين. "اهبطوا بالمحفة الآن وارفعوا الرجل العجوز وأجلسوه فيها. وسوف أشرف على القرية وعلى زوجاتكم الفاضلات حتى ترجعوا".

"ومتى يكون ذلك؟".

"اسألوا الكاهنين. لا تضايقونى. ضعوا حقيبة الطعام فى المؤخرة، لإحكام التوازن".

وصاح كيم "أيها الربانى! جِبَالُكَ أشد عطفًا من سهولنا". وأحس كيم بالارتياح عندما تحامل اللاما على نفسه حتى ركب المحفة، فقال "إنه سريرٌ ملكىٌّ فعلاً... مكان تكريم وراحة. ونحن ندين به إلى...".

"امرأة مشئومة! إنى أحتاج إلى بركاتك مثلما أحتاج إلى لعناتك. وهو ما آمر به أنا لا أنت. ارفعوا وانطلقوا! اسمع! هل لديك نقود لمصاريف الرحلة؟"

وأشارت إلى كيم فتبعها إلى كوخها حيث انحنت على صندوق نقود انجليزى قديم تحت فراشها.

وقال كيم "لا أحتاج إلى شيء" وبدا عليه الغضب حيث كان ينبغى الامتنان، فأضاف "لقد غمرتنى بأثقال من الأفضال فعلاً إلى حد لا يحتمل".

ونظرت إليه وقد ارتسمت بسمة غريبة على شفتيها ووضعت يدها على كتفه قائلة "إذن فاشكرنى على الأقل. إنى ذات وجه قبيح ومن نساء الجبال ولكننى، كما تقولان بتعبيركما، قد اكتسبت الامتياز. هل أريك كيف يقدم الأجانب الشكر؟" ولانت حدة النظرة فى عينيها الجامدتين.

وقال كيم وعيناه تبرقان أثناء إجابته "لستُ إلا كاهنًا جوالاً. وأنت لا تحتاجين إلى بَرَكَاتى أو لَعَنَاتى".

"اصبر. ابق معى لحظة قصيرة – تستطيع أن تدرك المحفة فى عشر خطوات – **لو كنتَ** سيدًا أجنبيًّا، فهل أريك ما يمكنك أن تفعله؟".

وقال كيم "وكيف بى إذا حدستُ إذن؟" وهو يحيط خصرها بذراعه، ثم قبلها فى خدها، مضيفًا بالإنجليزية "شكرًا جزيلاً لك يا عزيزتى".

التقبيل مجهول بصورة شبه مطلقة بين الآسيويين، وربما كان هذا هو السبب الذى جعلها تميل بجذعها إلى الخلف وقد فتحت عينيها فى دهشة وارتسم الذعر على وجهها.

وواصل كيم حديثه قائلاً "فى المرة المقبلة، ينبغى ألا تثقى كل الثقة بكهانك الوثنيين. والآن أقول وداعًا لك". ومد يده بالأسلوب الإنجليزى وصافحته بطريقة آلية. "الوداع يا عزيزتى".

"الوداع و... و..." كانت تتذكر ألفاظها الإنجليزية لفظًا لفظًا. "سوف تعود مرة أخرى؟ الوداع و... بارك الله فيك".

وبعد نصف ساعة، والمحفة لاتزال تصعد بحركات متقطعة وأصوات قعقعة فى الدرب الجبلى الذى يخرج من 'شملة' فى اتجاه الجنوب الشرقى، لمح كيم شخصًا ضئيلاً على البعد عند باب الكوخ يلوح بخرقة بيضاء.

وقال اللاما "لقد فاقت الجميع فيما اكتسبته من امتياز. فإن وضع رجل على الطريق إلى الحرية يتسم بنصف عظمة اكتسابها الحرية لنفسها".

وغمغم كيم، وخواطره تتزاحم متأملاً الماضى، فقال فى نفسه "ربما كنت اكتسبت امتيازًا أنا أيضًا... على الأقل لم تعاملنى معاملة الأطفال". وشد مقدمة ثوبه، حيث كان يحفظ حزمة الوثائق والخرائط، وأعاد وضع حقيبة الأغذية عند قدمى اللاما، ووضع يده على طرف المحفة، ثم تباطأ ليجارى سرعة الزوجين المتأففين.

وبعد خمسة كيلومترات قال اللاما "وهذان أيضًا يكتسبان الامتياز".

وقال كيم "بل أكثر من ذلك. سوف تُدفع أجورُهما فِضَّةً". كانت امرأة شملة قد أعطته النقود الفضية، وقال كيم فى نفسه إن العدل يقضى بأن يعمل الزوجان حتى يعيدا اكتساب المال.

الفصل الخامس عشر

لنْ أُخلِيَ الطَّريقَ لامْبراطُورٍ يَمُرّ -
ولنْ أَحِيدَ إكْرَامًا لمَالكٍ عَنِ السَّبيلِ الحُرّ.
ولنْ تَرَانِى رَاكِعًا أمَامَ صَاحِبِ التَّاجِ المُضَاعَفْ
لكنَّ ما أمَامِى هَا هُنَا أمْرٌ مُخَالِفْ!
ولَسْتُ عَازِمًا علــى قِتَالِ أىٍّ مِــنْ قُوَى الهَوَاءْ!
"أَخْلُوا لهُ الطَّريقَ أيُّها الحُرَّاسُ كىْ يَمُرَّ فى هَنَاءْ
"مُدُّوا لَهُ جِسْرَ العُبُورِ إنَّهُ يَسُــودُنَا بالحَــقِّ كُلَّنا
"فإنَّهُ لَحَالِمٌ تحقَّقَتْ أَحْلامُـــهُ ونَالَ أَطْيبَ المُنَـــى

(البحر والجبال)

على مسافة ٣٢٠ كيلومترًا شمالى شينى، وعلى الأحجار الزرقاء فى لاداخ، كان يرقد السيد يانكلنج، الرجل المرح، وهو يتطلع بمنظاره المقرب فى غضب عبر النتوءات الصخرية بحثًا عن المنغولى الذى يحبه والذى يعمل لديه باقتفاء آثار الحيوان. ولكن ذلك 'الخائن' المزود ببندقية ألمانية جديدة ومائتى خرطوشة كان فى مكان آخر، مشغولاً بصيد غزلان المسك ليبيعها فى السوق، وسوف يحكى للسيد يانكلنج فى الموسم المقبل عن مدى المرض الذى كان يعانيه.

وكان رجل بنغالى يصعد أحد أودية بوشهر، وعِقْبَانُ جبال الهيملايا ذات البصر الحاد تحوم فوق مظلته المثقوبة ذات اللونين الأبيض والأزرق، وقد نَحُلَ جسمه وعمل الزمهرير فيه عمله، بعد أن كان سمينًا جذاب المظهر يومًا ما. وكان قد تلقى الشكر لتوه من أجنبيين رفيعى المكانة، بعد أن هداهما باقتدار إلى نفق 'ماشُبرا'، شمالى سيملا، الذى يؤدى إلى عاصمة الهند، تلك المدينة العظمى البهيجة. كان قد تبرأ من الخطأ الذى وقع فيه حين حاصرته

سجوف الضباب فتجاوز في مسيرته معهما مكتب التلغراف، ومستعمرة 'كوتجارث' الأوروبية. كما تبرأ من خطئه، مُرجعًا إياه إلى الأرباب الذين كان يتحدث عنهم حديثًا ساحرًا، حين دخل بهما حدود بلدة 'ناهان'، شمال شرقي أمبالا، حيث ظن الراجـا حاكم الولاية أنهما جنديان بريطانيان هاربان. وأوضح هورى البنغالى ما يتمتع به رفيقاه من مجد ومن سؤدد فى وطنهما، حتى ابتسم الملك الصغير الذى كان النعاس يغالبه. وكان يوضح ذلك لكل من يسأل، عدة مرات، بصوت مرتفع، وبألفاظ مختلفة. وكان يتسول الطعام ويتولى ترتيب المبيت لهما، وأثبت مهارته فى علاج جرح أُصيب به أحدهما بين فخذيه، بسبب ما تعرض له وهو يتدحرج على جبل تغطيه الصخور فى الظلام، كما غدا لا غنى عنه فى كل شيء. وكان المنطق الذى يستند إليه وداده مُشَرِّقًا، إذ قال إنه تعلم مع الملايين غيره من أقنان الأرض أن يتطلع إلى روسيا بصفتها المُخَلِّصَ العظيم فى الشمال. وقال إنه رجل 'خواف'، فكان يخاف أن يعجز عن إنقاذ الشهيرين اللذين يعمل لديهما من غضب الفلاحين الهائجين. وقال إنه هو نفسه لا يمانع فى ضرب رجل رباني ولكنه... كان يشعر بامتنان عميق وفرح صادق لأنه استطاع بذل 'جهوده المحدودة' لإنجاح مغامرتهما، باستثناء فقدان الأمتعة. وقال إنه نسى الضربات التى تلقاها، بل وأنكر توجيه أية ضربات لأحد فى تلك الليلة القبيحة تحت أشجار الصنوبر. وقال إنه لا يريد معاش تقاعد أو مكافأة على العمل لكنه يرجو أن يكتبا له خطاب تزكية إن كانا يريانه جديرًا بها. وأوضح أن ذلك قد يفيده فى المستقبل، إذا أقبل آخرون، من أصدقائهما، إلى الممرات الجبلية. وتوسل إليهما أن يذكراه فى المستقبل الزاهر الذى ينتظرهما، إذ إنه كان يعتقد أنه – وزعم أن اسمه 'موهندرو لال دوط'، حامل الماجستير من جامعة كالكتا – قد أدى للدولة بعض الخدمات.

وأعطياه شهادة يمتدحان فيها أدبه واستعداده للمساعدة ومهارته التى لا تخطئ فى الإرشاد. ووضع الشهادة فى حزام خصره وأخذ ينهنه فى انفعال، قائلاً إنهم تعرضوا لأخطار كثيرة معًا، ثم قادهما عندما انتصف النهار عبر

سوق سيملا المزدحم إلى مصرف 'ألايانس' فى سيملا، حيث أرادا إثبات هويتهما، ثم اختفى فجأة مثل سحابة فجر فوق مدينة چـــاكو.

وها هو ذا، صاعدًا جبل شملة، لا يسمح له توتره بأن يعرق، ولا وقت لديه للتباهى بالعقاقير فى صندوقه المغلف بالنحاس، كأنما هو رجلٌ بَرٌّ بلغ الكمال. وانظر إليه وقد تنحى تمامًا عن صفته البنغالية، يدخن فى الظهيرة أمام كوخ، وامرأة تضع على رأسها وشاحًا مزركشًا بالفيروز وتشير إليه أن يذهب فى اتجاه الجنوب الشرقى فوق الكلأ. وهى تقول إن المحفات لا تسير بسرعة الرجال المفردين، ولكنّ طُلبته لابد أن تكون الآن فى السهول. وأضافت إن الرجل الربانى رفض البقاء على الرغم من إلحاحها. وزفر البنغالى زفرة ثقيلة، وشمر عن ساعديه، واستأنف رحلته. لم يكن يريد المسير بعد غروب الشمس، ولكن ترحاله النهارى، وإن لم يسجله أحد، كفيل بإدهاش الذين يسخرون من جنسه. وها هم أولاء القرويون الطيبون يذكرون بائع العقاقير الذى طاف بديارهم قبل شهرين، وها هم أولاء يوفرون له المأوى الذى يحميه من شياطين الشر فى الغابة. وهو يحلم الآن بأرباب بنغالية، بكتب التعليم الجامعى، وبالجمعية الملكية فى لندن، بانجلترا. وعند الفجر إذا بالمظلة ذات اللونين الأبيض والأزرق تمضى قدمًا.

وعلى حافة وادى "ضُوْن" استقرت المحفة، وكان الركب قد ابتعد كثيرًا عن 'موسورى'، فامتدت أمامه السهول بترابها الذهبى. وكان يرقد فى المحفة البالية – بشهادة الجبال كلها – لاما مريض يبحث عن نهر يشفيه. وكان القرويون يكادون يتقاتلون فى سبيل الفوز بشرف حمل المحفة، إذ لم يكونوا ينالون البركات من اللاما فقط بل الأجور المجزية من تلميذه أيضًا، ثلث ما يتقاضونه من الأجانب تمامًا. وكانت المحفة تقطع مسافة ١٩ كيلومترًا كل يوم، كما تشهد على ذلك أطراف عموديها التى أبراها طول الاحتكاك وكساها العرق، فى طرق لا يكاد يستخدمها الأجانب. وعبر الركب ممر 'نيلانج' وسط جبال الهيملايا (فى كشمير) أثناء هبوب عاصفة ثلجية عاتية ملأت كل طية من طيات ملابس اللاما بنثار الثلج دون أن يُعَلِّقْ؛ كما سار الركب بين قرنى

'راينج' الأسودين حيث سمع أفراده صفير الماعَز البرى وسط السحاب؛ واندفع مكافحًا ليعبر المنطقة الحجرية السفلى؛ وجعل حاملو المحفة يشددون قبضتهم عليها فوق أكتافهم مصرين على أسنانهم وهم يذرعون المنحنيات البشعة فى الطريق الذى شُقَّ أسفل 'باچيراتى'، منبع نهر الجانـــچـــيز فى جبال الهيملايا (قرب الحدود الصينية)، وكانوا يتمايلون مصدرين صوتا كالصرير المتناغم مع هرولتهم وهم يهبطون فى وادى المياه، ثم يواصلون زحفهم على طول سهول ذلك الوادى المغلق؛ ويعودون للصعود مرة أخرى لمواجهة هدير الرياح بالقرب من 'كيدارناث'؛ ويستريحون ظهر كل يوم فى الظلام الدامس لغابات البلوط الحانية، منتقلين من قرية إلى قرية فى برد الفجر، حين كان يمكن الصفح عن الجميع حتى الأتقياء إذا شتموا رجال الدين نافدى الصبر؛ أو يتقدمون فى ضوء المشاعل حين كان أقلهم خوفًا يفكر فى الأشباح، وهكذا وصلت المحفة إلى مرحلتها الأخيرة. فإذا برجال الجبال ذوى القامات الضئيلة يتفصدون عرقًا فى الحرارة النسبية للمناطق السفلى من 'سيواليك'، ويلتفون حول الكاهنين لنيل بركاتهم وأجورهم.

ويقول اللاما "لقد اكتسبتم امتيازًا، وهو امتياز أكبر مما تعرفون" ثم يتأوه قائلاً "وسوف تعودون إلى الجبال".

ويجيء الرد "قطعًا. الجبال السامقة وبأسرع وقت ممكن". ويحك الرجل الذى كان يحمل المحفة كتفه، ويشرب بعض الماء ثم يبصقه ويصلح صندله الخفيف. ويقوم كيم – بوجهه الشاحب مشدود القسمات إرهاقًا – بدفع قطع فضية بالغة الصغر من حزامه ثم يرفع حقيبة الأغذية، ويضبط وضع اللفافة التى يكسوها المشمع – فهى كتابات مقدسة – فى صدره، ويساعد اللاما على الوقوف. لقد عاد الاطمئنان مرة أخرى إلى عينى العجوز ولم يعد يتمنى أن تسقط الجبال فوقه فتسحقه كما تمنى فى تلك الليلة الرهيبة التى فاض فيها النهر فأخرهم.

ويحمل الرجال المحفة ويختفون عن الأنظار بين الأحراج الملتفة.

ويرفع اللاما يده تجاه حافة جبال الهيملايا قائلاً "لم يسقط بينكن أيتها الجبال المباركة سهم مولانا! ولن أنشق أنسامكن ما عشت!"

ويقول كيم "ولكنك أقوى عشر مرات فى هذا الهواء الطيب"، إذ إن السهول الشفوق العامرة بالمحاصيل كانت تبدو جذابة لنفسه المنهكة، ويضيف "هنا، فى مكان ما، سقط السهم، نعم. سوف نتقدم ببطء شديد، وربما نكتفى بفرسخ واحد فى اليوم، فالبحث مؤكد النجاح. ولكن الحقيبة ثقيلة".

"نعم، بحثنا مؤكد النجاح. لقد خرجتُ من غواية شديدة".

*   *   *

لم يعودا يقطعان أكثر من ثلاثة كيلومترات فى اليوم الآن، وكانت كتف كيم تتحمل ثقل ذلك كله – عبء رجل عجوز، وعبء حقيبة الأغذية المثقلة بالكتب الموصدة، وعبء الكتابات الرازحة على صدره وتفاصيل نظام الحياة اليومية: كان يتسول فى الفجر، ويبسط البطاطين اللازمة لتأملات اللاما، ويحتمل الرأس المرهقة على ركبته فى أوقات الظهيرة الحارة، مستخدمًا المروحة فى طرد الذباب حتى يؤلمه معصماه، ويعود للتسول فى المساء، وتدليك قدمى اللاما الذى كان يكافئه بوعد بالحرية اليوم، أو غدًا، أو على الأكثر بعد غد.

"ما شهدت الدنيا تلميذًا مثلك من قبل. أشك أحيانًا إن كانت رعايةُ أناندا لمولانا تفوق رعايتك إياى. وأنت من السادة؟ عندما كنتُ رجلاً من زمن بعيد، كنت أنسى ذلك. والآن كثيرًا ما أتطلع إليك وأذكر فى كل مرة أنك من السادة. أمر غريب".

"قلتَ ذات مرة لا يوجد أسود ولا أبيض. فلماذا تبتلينى بهذا الحديث أيها الربانى؟ فلأُدَلِّكْ قدمك الأخرى. هذا الحديث يغيظنى. لست من السادة، بل تلميذك ورأسى ثقيل فوق كتفىَّ".

"اصبر قليلاً! سوف نصل إلى الحرية معًا. وعندها نقف معًا، أنا وأنت،

على الضفة البعيدة للنهر، ونستعرض ما فات من حياتنا مثلما رأينا فى الجبال مسيراتنا مرسومة خلفنا، ربما كنتُ أنا من السادة يومًا ما".

"لم يوجد قط أجنبى مثلك، وأقسم".

"إنى واثق أن حارس الصور، أمين بيت العجائب، كان فى حياة سابقة رئيسًا بالغ الحكمة لأحد الأديرة. ولكننى لا أستطيع الإبصار حتى بنظارته، إذ تمتد الظلال حين أنظر بثبات. لا يهم. نعرف ألاعيب الجسد المسكين الغبى، فالظل يتحول إلى ظل آخر. وأنا محدود بوهم الزمان والمكان. ما طول المسافة التى قطعناها اليوم بأبداننا؟".

"ربما نصف فرسخ" – أى ثلاثة أرباع ميل، وكان المسير شاقًّا مرهقًا.

"نصف فرسخ؟ ها! لقد قطعت عشرة آلاف ألف بالروح. كم تُلفُّنا وتربطنا وتحصرنا هذه الأشياء الصماء!" ونظر إلى يده النحيلة ذات العروق الزرقاء التى تستثقل المسبحة وقال "تلميذى، ألم تراودك يومًا ما الرغبةُ فى تركى؟"

وتذكر كيم اللَّفة المكسوة بالمشمع والكتب فى حقيبة الأغذية. وقال فى نفسه لو أن أحدًا يتمتع بالتفويض اللازم قد تولى توصيل هذه الأشياء لما اكترثت بما تؤول إليه اللعبة الكبرى! كان مرهقًا يشعر بارتفاع درجة حرارة رأسه، وقلقًا بسبب سعال صادر من بطنه.

وقال فى صرامة "لا! لست كلبًا أو ثعبانًا حتى أعض بعد أن تعلمت الحب".

"أنت تبدى الرقة البالغة تجاهى".

"لا! ولا ذلك أيضًا! لقد اتخذت خطوة فى أمر ما دون استشارتك، إذ أرسلت رسالة إلى امرأة كولو، وحملتها المرأة التى أعطتنا لبن الماعز هذا الصباح، أقول فيها إنك تعانى من بعض الوَهَن وتحتاج إلى محفة. إنى ألوم نفسى الآن لأننى لم أفعل ذلك عندما دخلنا وادى 'ضون'. وإذن نبقى فى هذا المكان حتى تأتى المحفة".

"أنا راضٍ. إنها امرأة ذات قلب من ذهب، كما تقول، لكنها ثرثارة، أو قل تحب الثرثرة".

"لن ترهقك. فقد توليت هذا الأمر أيضًا. يا أيها الربانى! إن حزنًا بالغًا يرين على قلبى بسبب إهمالى رعايتك مرات كثيرة". وتهدج صوته كأنما غُصَّ به حلقه برغم أنفه وهو يقول "جعلتك تمشى مسافات طويلة، ولم أكن آتيك بأطيب الأطعمة فى كل مرة، ولم أعمل حسابًا لحرارة الجو، وكنت أحادث الناس أثناء المسير تاركًا إياك وحدك، كما إننى... إننى... ألا توافقنى؟ لكننى أحبك... وقد تأخرت أكثر مما ينبغى... كنت طفلاً... أوه، لِمَ لمْ أكن رجلاً؟" وانهار كيم تحت أثقال التوتر والتعب والعبء الذى يتجاوز سنوات عمره، فسقط ينهنه عند قدمى اللاما.

وقال العجوز بنبرات رقيقة "ما هذا اللغط الآن؟ أنت لم تبتعد شعرة واحدة عن طريق الطاعة. تجاهلتنى؟ اسمع يا ولدى، لقد عشت على قوتك مثلما تعيش شجرة عجوز على أحجار جدار جديد. كنت أسلبك القوة يومًا بعد يوم منذ أن غادرنا 'شملة'. **ولذلك** فأنت لم تضعف بسبب أية خطيئة ارتكبتها أنت. إن الجسد – الجسد الأبله الغبى – هو الذى يتكلم الآن. لا الروح الواثقة. اطمئن! اعرف على الأقل الشياطين التى تحاربها. إنها وُلدت فى الأرض، وهى من أبناء الوهم. سوف نذهب إلى امرأة كولو. وسوف تكسب امتيازًا باستضافتنا، وخصوصًا برعايتى. فانطلقْ دون قيود حتى تستعيد قوتك. إنى نسيت الجسد الغبى. وإن كان ثَمَّ ملام فأنا أتحمله. لكننا اقتربنا من أبواب الخلاص اقترابًا لا يسمح بحساب الملام. لى أن أمتدحك، ولكن ما الحاجة لذلك؟ فبعد قليل، بل بعد قليل جدًا، سوف نتجاوز الحاجة بشتى ضروبها".

وهكذا أخذ يلاطف كيم ويسرى عنه بالحكم والأمثال والنصوص الجادة عن ذلك الحيوان الذى لا نفهمه الفهم الكامل، أى جسدنا، الذى لا يزيد عن وهم خادع، ويصر على التظاهر بأنه الروح، وذلك ما يؤدى إلى إظلام الطريق، وتكاثر أعداد الشياطين التى لا لزوم لها تكاثرًا هائلاً.

"حقًّا حقًّا! فلنتحدث عن امرأة كولو. هل تظن أنها ستطلب تميمة أخرى لأحفادها؟ عندما كنت شابًّا، من زمن سحيق، كنت أُبتلى بهذه الأبخرة – وغيرها – فذهبت إلى رئيس أحد الأديرة، وكان رجلاً بالغ الربانية وباحثًا عن الحقيقة، وإن كنت حينذاك أجهل ذلك. اجلس واستمع يا طفل روحى! وقصصت قصتى. فقالت لى "اعلم هذا يا تلميذى: فى الدنيا أكاذيب كثيرة، وعدد غير قليل من الكذابين، ولكنه لا يوجد كذابون مثل أجسادنا، إلا إن كانت أحاسيس أجسادنا". وتفكرت فى هذا فوجدت التسرية والسلوى، وغمرنى بعطف بالغ إذ سمح لى بشرب الشاى فى حضرته. وأرجو أن تسمح لى الآن بشرب الشاى لأننى عطشان!".

وببسمة وسط الدموع قَبَّلَ كيم قدمى اللاما وشرع فى إعداد الشاى.

"أنت تستند إلىَّ جسديًّا أيها الربانى لكننى أستند إليك فى أمور أخرى. هل تعرف ذلك؟".

"ربما حدستُ ذلك" وأضاف بعينين تتلألآن "لابد من تغيير ذلك".

وهكذا بدأ اللاما يتخذ تدابيره الخاصة، عندما وصل الهودج المفضل نفسه للسيدة المهيبة، قاطعًا مسافة تزيد على ثلاثين كيلومترًا، مصحوبًا بالمنازعات والاحتكاكات والأصوات العالية الموحية بالأهمية، وعلى رأس حامليه الخادم الهرم ذو الشعر الأشيب من طائفة أوريا (الأوريسى) نفسه، ودخل الجميع المبنى الأبيض الطويل الذى تنتشر أطرافه دونما نظام محدد خلف سهارنـــپـــور.

وقالت السيدة المهيبة بنغمة مرحة من شباك بالطابق العلوى، بعد الإطراء والثناء، "ما فائدة نصيحة امرأة عجوز إلى رجل عجوز؟ قلت لك، قلت **فعلاً** لك أن تراقب التلميذ. فكيف فعلت ذلك؟ لا تجبنى قط! فأنا أعرف. كان يخالط النساء. انظر إلى العيون الجوفاء الغائرة، وإلى الغَضَنِ الكاشف من الأنف إلى أسفل الوجه! لقد صَفَّيْنَهُ تمامًا! تبًا له تبًّا له! وهو إلى ذلك كاهن!".

ورفع كيم بصره إليها، وإرهاقه الشديد يمنعه من الابتسام، وهز رأسه مُنْكِرًا.

وقال اللاما "دعك من الهزل. فات وقت ذلك. فنحن هنا لأمور عظمى، إذ اجتاحنى مرض الروح فى الجبال، واجتاحه مرض الجسد. ومنذ ذلك الحين أعيش على قوته، ألتهمه التهامًا".

ونشقت قائلة "طفلان معًا، صغير وكبير" لكنها كَفَّتْ عن المزيد من الفكاهات، وأضافت "ليت كرم ضيافتى الحاضر يشفيكما معًا. انتظرا قليلاً وسوف أعود للثرثرة حول الجبال السامقة الصالحة".

وكان زوج ابنتها قد عاد فى المساء فلم تكن فى حاجة إلى القيام بجولات التفتيش فى المزرعة، بل دخلت إلى لب الموضوع الذى شرحه اللاما بصوت منخفض. وكان الرأسان العجوزان يومئان معًا إيماءات حكيمة. وأما كيم فقد أهرع إلى غرفة فيها سرير، وجعل يغالب النوم كأنه سكران. وكان اللاما قد نهاه عن بسط البطاطين أو الحصول على الطعام.

وقالت المرأة "أعرف، أعرف، ومن سواى يدرى؟ نحن الذين اقتربنا من محرقة الجثث نتشبث بأيدى الخارجين من نهر الحياة بقوارير ماء ممتلئة، نعم، ممتلئة إلى الحافة. لقد أسأت إلى الصبى. تقول إنه أعارك قوته؟ صحيح أن الكبار يأكلون الصغار كل يوم. وإذن علينا الآن أن نشفيه".

"لقد اكتسبتِ أنتِ الامتياز عدة مرات...".

"الامتياز لى أنا؟ وما هو؟ إنى عجوز نحيلة أطهـــو الطعام الشهى لرجال لا يسألون من طها هذا؟ لكننى لو كنت ادخرته لحفيدى...".

"الذى أصيب بالمغص؟".

"كيف تذكر الرجل الربانى **ذلك**؟ لابد أن أخبر أمه. إنه لشرف رفيع فريد! قال الربانى 'الذى أصيب بالمغص؟' مباشرة، فلقد كان الربانى يذكره. لسوف تعتز بهذا وتزهو".

"تلميذى فى نظرى بمنزلة الولد عند غير المتنورين".

"بل بمنزلة الحفيد. لا تتمتع الأمهات بحكمة شيخوختنا. فإذا بكى الطفل قُلْنَ إن السماوات تتهاوى. ولكن الجدة تبتعد بمسافة كبيرة عن آلام الحمل ومتعة الرضاعة بحيث تستطيع أن ترى إن كان البكاء ثمرة شر خالص أو بسبب ريح فى الأمعاء. وما دمت عدت للحديث عن المغص الناشىء عن الريح، عندما كنت أيها الربانى هنا آخر مرة، فربما كنت أسأت إليك بإلحاحى على الحصول على تمائم".

وقال اللاما "اسمعى يا أخت" مستخدمًا اللفظ الذى يخاطب الراهب البوذى به أحيانًا إحدى الراهبات "إذا كانت التمائم ترضيك..."

"إنها أفضل من عشرة آلاف طبيب".

"قلت إن كنت تجدين فيها الراحة فإننى، وقد كنت رئيس دير سوخزن، سوف أصنع لك أى عدد ترغبين فيه. لم أشاهد وجهك قط...".

"يعتبر ذلك مكسبًا حتى فى نظر القرود التى تسرق الفواكه الصينية! هئ هئ هئ!".

وقال اللاما مومئًا إلى الباب المغلق لغرفة الضيوف عبر الفناء الأمامى "ولكنك، كما قال الراقد هناك، تتمتعين بقلب من ذهب... وهو روحيًّا 'حفيد' حقيقى لى".

فقالت "جميل! وأنا إذن بقرة الرجل الربانى". كانت تلك لفتة هندوسية خالصة ولكن اللاما لم يعرها أدنى اهتمام. فعادت تقول "إننى عجوز، حملت أبناء فى جسدى، نعم، وكنت يومًا أستطيع إرضاء الرجال! وأستطيع اليوم أن أشفيهم". وسمع اللاما صليل الأساور فى ساعدها كأنما شمرت عنه للعمل، إذ قالت "سأتولى رعاية الصبى وأعطيه الجرعات اللازمة، وأملأ بطنه طعامًا، وأعيد إليه العافية. حقًّا حقًّا! ما زلنا نحن العجائز نحيط ببعض العلم".

وهكذا فعندما فتح كيم عينيه، شاعرًا بالألم فى عظام جسمه كلها، وأراد

أن يذهب إلى باب الطاهى ليحضر طعام مُعلِّمه، وجد قهرًا شديدًا يحيط به، وشاهد عجوزًا على وجهها خمار لدى الباب، وبجانبها الخادم ذو الشعر الأبيض، وكانا ينهيانه بكل دقة عما يجب أن يمتنع عن عمله امتناعًا تامًّا.

"ماذا قلت إنك تريده؟ لن تنال شيئًا. ماذا؟ صندوق مغلق تحفظ فيه كتبًا مقدسة؟ آه. هذا أمر آخر. لا قدرت السماوات أن أحول بين الكاهن وبين صلواته! لابد من إحضاره لك إذن، وعليك الاحتفاظ بمفتاحه".

ودفعا الصندوق تحت سريره، حيث وضع كيم فيه مسدس محبوب، وربطة الخطابات الملفوفة فى المشمع، والكتب المغلقة والمذكرات، مصدرًا آهة تنم عن ارتياحه. ولسببٍ لا يدريه كان يشعر أن ثقلها على كتفيه لم يكن شيئًا إن قورن بثقلها على ذهنه المكدود. بل إن رقبته كان يوجعها ذلك العبء أثناء الليل.

وقالت السيدة: "مرضك غير مألوف فى شبان هذه الأيام منذ أن توقف الصغار عن رعاية من هم أفضل منهم. وعلاجه النوم، وبعض العقاقير". وأسعده أن يستسلم للْخَوَاء الذى كان يتهدده ويريحه فى آن واحد.

وقامت بتخمير بعض المشروبات فى غرفة تحفها الأسرار وتعتبر المعادل الآسيوى لغرف التقطير الأوروبية، فأعدت جرعات رائحتها بشعة ومذاقها أبشع. وكانت تقف عند رأس كيم حتى يشربها، وتسأل أسئلة مستفيضة بعد أن تصعد إلى حلقه. وفرضت على الفناء الأمامى حَظْرًا دعمته بحارس مسلح. صحيح أنه كان فى السبعين من عمره، وأن سيفه المغمد كان لا يتجاوز مقبضه، لكنه كان يمثل سلطان السيدة المهيبة، وكانت العربات المحمَّلة، والخدم المثرثرون، والعجول، والكلاب، والدجاج، وما إلى ذلك ينتشر انتشارًا واسعًا فى تلك الأرجاء. وعندما تماثل الجسد للشفاء – وكان هذا أفضل ما فعلته – اختارت من بين كل الأقارب الفقراء الذين تكدسوا فى مؤخرة المبنى – وندعوهم باسم 'كلاب المنزل' – أرملة ابن عم لها، ماهرة فيما يسميه الأوروبيون، الذين لا يعرفون أى شىء عنه، 'التدليك'. وهكذا وضعتاه ممددًا

من الشرق إلى الغرب، بحيث يكون لمجرى التيارات الأرضية الغامضة التى تمنح الحيوية لصلصال الجسد تأثير" مُوَاتٍ لا معوق. وهكذا انقضتا عليه ذات يوم في ساعات العصر الطويلة، فدلكتاه عظمًا عظمًا وعضلة عضلة ومفصلاً مفصلاً، وأخيرًا، عصبًا عصبًا. أحس بأنه قد عُجِنَ فأصبح هُلاَمًا لا شكل له، وكان شبه مُخَدَّرٍ بالحركات المستمرة وإعادة ضبط 'الشادور' فوق أعينهما، حتى لا يبصراه، فغاص فى النوم عشرة آلاف ميل – سِتًّا وثلاثين ساعة – وكان نومًا بليلاً كالمطر بعد الجفاف.

ثم جاءته بالطعام، وضج المنزل بالحركة أمام صرخاتها. أمرت بذبح الطيور وأرسلت تطلب الخضراوات، وكان البستانى العاقل البطىء التفكير الذى تقترب سنه من سنها يتصبب عَرَقًا فى غضون ذلك، وجاءت بالبهارات واللبن والبصل وقليل من أسماك الجداول، ثم أتت بالليمون لإعداد المشروبات، وبالسمان السمين من الأوجار، وتلت ذلك أكباد الدجاج المشوية مع شرائح الزنجبيل فى أسياخ على الفحم.

وقالت عندما قُدِّمَتْ الصوانى التى تكدست فيها الأطعمة "شاهدت الكثير فى هذه الدنيا التى لا تضم إلا نوعين من النساء: نوع يسلب الرجال قوتهم، ونوع يعيدها إليهم. كنت يومًا ما من النوع الأول، والآن أصبحت النوع الآخر. لا! لا تلعب دور الكاهن معى. كنت أتفكه وحسب. فإذا لم تثبت لك صحة ما أقول الآن، فسوف يثبت ذلك عندما تعود إلى الترحال". ونظرت إلى قريبتها الفقيرة التى لا تمل من إطراء إحسان مضيفتها قائلة "انظرى يا بنت العم! إن بشرته تكتسب نضرة حصان حديث التدريب. وإنما يشبه عملنا صقل الجواهر التى تُلْقَى إلى الراقصات. صحيح؟".

واعتدل كيم فى جلسته وابتسم. كان قد تخلص من ضعفه الشديد كأنه حذاء قديم، ولسانه يتحرق شوقًا إلى الانطلاق من جديد، بعد أن كانت أخف كلمة تَعْقِدُهُ مثل الرماد. وكان الألم فى رقبته – ولابد أنه انتقل إليه من اللاما – قد زال مع حُمَّى المستنقعات بأوجاعها الشديدة ومذاقها الخبيث فى فمه.

وزادت العجوزتان الآن قليلاً – لا كثيرًا – من حرصهما على الخمار، وأخذتا تَقِيقَانِ مَرَحًا مثل الدجاجات التى دخلت من الباب المفتوح لالتقاط الطعام بمناقيرها.

وقال كيم "أين صديقى الربانى؟".

وصاحت المرأة بنبرات حادة "تسمعين ما يقول؟ الرجل الربانى بخير، وإن كان موقفه لا يكسبه **هو** امتيازًا. لو كنت أعرف طريقةً لمنحه الحكمة لبعت جواهرى واشتريتها! إنه رفض الطَعام الطيب الذى طهوته بنفسى، وانطلق يتجول فى الخلاء ليلتين طاوىَ البطن، ثم سقط فى جدول آخر الأمر، فهل تسمى ذلك قداسة؟ وبعدها، عندما كاد يحطم ما بقى من فؤادى قلقًا عليه، عاد ليقول إنه اكتسب امتيازًا! أوه، ما أشبه الرجال بعضهم ببعض! لا لم يكن الأمر كذلك، بل إنه يقول لى إنه تحرر من جميع الخطايا. كان يمكن أن أخبره بذلك قبل أن يغمره ما غمره من البَلَل. لقد تحسن حاله الآن، إذ حدث ذلك منذ أسبوع. ولكن أبئس بهذه القداسة! إن طفلاً فى الثالثة لا يفعل فعله. لا تقلق على الربانى. فإنه لا يرفع بصره عنك إن لم يكن يخوض فى جداولنا".

"لا أذكر أنى رأيته. أذكر أن النهار والليل كانا يتتابعان مثل أبواب من اللونين الأبيض والأسود تنفتح وتنغلق. لم أكن مريضًا بل مرهقًا".

"إنه الخمول الطبيعى الذى يصيب المرء بعد عقود طويلة. لكنه ذهب الآن".

وناداها كيم قائلاً "أيتها المهرانية" أولاً، لكنه عندما لمح نظرات الحنان فى عينيها عاد يقول "والدتى! إنى مدين لك بحياتى. كيف أشكرك؟ عشرة آلاف بركة على بيتك وعلى...".

"فليُحْرَمْ البيتُ من البركة!" والواقع أن نقل ما قالته المرأة على وجه الدقة عسير، وأضافت "اشكرْ الأرباب بصفتك كاهنًا إذا أردت، ولكن اشكرنى إذا أردت بصفتك ابنًا لى. ياللسماوات العُلاَ! هل كنتُ أنقلك وأرفعك وأضرب

وألوى أصابع رجليك العشرة حتى تُلْقى النصوص على رأسى؟ لابد أن امرأة حملتك فى مكان ما حتى تحطم قلبها. ماذا كنت لها – ابنًا؟".

فقال كيم "ليس لى أم يا أمى. يقولون لى إنها ماتت وأنا صغير".

"هكذا! إذن لا يستطيع أحد أن يقول إننى سلبتها أى حق إذا... أقصد، عندما تعود للترحال من جديد، ويصبح هذا البيت واحدًا من ألف بيت يؤويك وتنساه، بعد منحه بركة ملقاةً بيسر. غير مهم. لست فى حاجة إلى بركات. ولكن... ولكن..." ودقت الأرض بقدمها تجاه قريبتها الفقيرة صائحة "أعيدى الصوانى إلى المنزل. ما فائدة وجود الطعام البارد فى الغرفة أيتها المرأة المشئومة؟".

وقالت القريبة الفقيرة فى نشيج متقطع وقد بدت فى صورة الأخت من خلف الشادور وهى تنحنى لتنفيذ الأمر "لقد حملت فى بطنى طفلاً يومًا ما، أنا أيضًا، لكنه مات. وتعرفين أنه مات! لم أكن أنتظر إلا أن تأمرى بإعادة الصوانى".

وقالت المرأة العجوز بنبرات الندم "إننى أنا المرأة المشئومة. إن الذين يوشكون على الذهاب إلى محرقة الجثث يتعلقون بشدة بحاملى ماء الحياة من الشباب. وعندما لا يستطيع المرء أن يرقص فى المهرجان فلا ينبغى له أن يطل من النافذة. والقيام بعمل الجدة يستغرق وقت المرأة كله. الآن يقدم لى مُعلِّمك كل التمائم التى أطلبها لابن بنتى الأكبر، والسبب – هل هو السبب؟ – أنه تحرر تمامًا من الخطيئة. وأما الطبيب فقد انخفض شأنه كثيرًا هذه الأيام، إذ يصف 'السم' لخدمى لأنه لم يجد أفضل منهم".

"أى طبيب يا أمى؟".

"الرجل ابن مدينة داكا نفسه الذى أعطانى الحبة التي قسمتنى ثلاثة أقسام. حل لدينا مثل البعير الشارد منذ أسبوع. وأخذ يقسم إنك كنت أخًا صادقًا له فى طريق كولو، وتظاهر بالقلق الشديد على صحتك. كان بالغ النحول شديد الجوع فأصدرت أوامرى بأن يُتخم بالطعام والشراب أيضًا! بُعدًا له ولقلقه!".

"أود أن أراه إن كان هنا".

"إنه يأكل خمس مرات فى اليوم، ويكثر من سباب خدمى حتى لا تصيبه سكتة دماغية، بل لقد اشتد قلقه على صحتك حتى غدا يلتصق بباب المطبخ ويقيم أوده بالفتات. لسوف يبقى. لن نستطيع التخلص منه أبدًا".

وقال كيم، وقد عاد البريق إلى عينه لحظة واحدة "أرسليه إلى هنا يا أمى، وسوف أحاول".

"سوف أرسله. لكننى لا أحبذ طرده. فلقد أبدى من العقل، على الأقل، ما جعله يخرج الرجل الربانى من الجدول، وهكذا - كما لم يقل الربانى - اكتسب امتيازًا".

"إنه طبيب بالغ الحكمة. أرسليه يا أمى".

"كاهن يمتدح كاهنًا؟ معجزة! إذا كان حقًّا من أصدقائك - بعد أن تشاجرتما فى لقائكما الأخير - فلسوف أَجُرُّه إليك جَرًّا بحبال الخيل، وأقدم له عشاءً فاخرًا فيما بعد، يا ولدى... انهض وشاهدْ الدنيا! هذا الرقاد فى الفراش أم لسبعين شيطانًا... ولدى! ولدى!".

وأسرعت خارجة لتثير زوبعة فى المطبخ، وما لبث أن دخل البنغالى، وملابسه حتى الكتفين ملابس امبراطور رومانى، بفك يشبه فك الامبراطور تيتوس، ورأس عار، وحذاء من الجلد اللامع، وجسم امتلأ شحمًا، ويفيض سعادة وتحايا.

"أقسم يا مستر أوهارا ما أسعدنى برؤيتك. لو سمحت لى سأغلق الباب. يؤسفنى أنك مريض. هل مرضك شديد؟".

وقال كيم "الأوراق... الأوراق التى كانت فى السلة - الخرائط والخطاب الملكى!" ودفع إليه بالمفتاح بصبر نافد، إذ كان ما يحتاجه الآن نفسيًّا هو التخلص من الغنيمة.

"أنت محق تمامًا. هذه هى النظرة الحكومية الصحيحة. هل لديك كل شىء؟".

وقال كيم "أخذت كل ما كان مكتوبًا بخط اليد فى السلة. ورميت الباقى من الجبل". وكان يستطيع أن يسمع صرير المفتاح وهو يدور فى القُفل، وصوت تمزيق المشمع اللزج ببطء، وخشخشة الأوراق التى يتفحصها الرجل. إذ كان كيم يشعر بضيق فاق كل الحدود المعقولة لإدراكه أنها كانت قابعة تحته طيلة أيام مرضه العاطلة، وكانت تمثل له عبئًا لا يمكنه التعبير عنه. ولهذا السبب اندفعت الدماء فى عروقه عندما وثب هورى كالفيل إليه وصافحه مرة أخرى.

"هذا بديع! بل هذا أبدع ما يمكن! يا مستر أوهارا! لقد اختلست – ها! ها! – كل ما كان فى الجعبة، بقضه وقضيضه! قالا لى إن عمل ثمانية أشهر قد أُهدر! وأقسم كم تلقيت من ضرب!... انظر، هذا هو الخطاب المرسل من هيلاس!" وأخذ يقرأ بالنغم الصحيح سطرًا أو سطرين من الكلمات المكتوبة بالفارسية الخاصة بالبلاط الملكى، وهى اللغة المستخدمة فى الدبلوماسية المسموح بها وغير المسموح بها، قائلاً "قد وقع السيد الراجـــا المحترم بقدمه فى الحفرة تقريبًا. وسوف يكون عليه أن يفسر سبب كتابته خطابات غرامية إلى قيصر روسيا. وهذه خرائط بالغة البراعة... كما تُدين هذه المراسلات ثلاثةً أو أربعة من رؤساء وزارات تلك المناطق. قسمًا بالله يا سيدى! لسوف تغيِّر الحكومة البريطانية من كانا قد عُيِّنَا لخلافة ملكى هيلاس وبونار وتعين ولى عهد جديد لكل منهما. 'خيانة بالغة البشاعة'!... لكنك لا تفهم، هه؟".

وقال كيم "هل هى فى يديك؟" لم يكن يعبأ بغير ذلك.

فقال هورى "ثق تمامًا فى ذلك!"، ثم وزع الكنز فى مخابئ متفرقة فى جسده، بالأسلوب الذى لا يستطيعه غير الشرقيين، مضيفًا "وسوف تُرفع جميعها إلى المكتب. السيدة العجوز تظن أننى مَعْلَمٌ ثابت من معالم المكان، لكننى سأرحل فورًا بكل هذه مباشرة، ودون إبطاء. سيشعر المستر لورجان بالفخر. أنت رسميًّا مرؤوس لى، لكننى سوف أبرز اسمك فى تقريرى

الشفوى. من المؤسف ألا يسمحوا لنا بكتابة تقارير. فنحن البنغاليين نتفوق فى ذلك العلم الدقيق". وألقى بالمفتاح داخل الصندوق الذى أُفرغ مما فيه.

"جميل. هذا جميل. كنتُ شديد الإرهاق. وكان الربانى صاحبى مريضًا أيضًا. قل لى هل سقط حقًا...".

"فعلاً! وكنتُ له نعم الصديق، ثق فى ذلك. كان سلوكه بالغ الغرابة عندما جئت أطلبك، وقلت فى نفسى ربما كانت الأوراق معه. تابعته فى تأملاته، وكذلك لمناقشة بعض المسائل العرقية. فأنا كما ترى شخص ضئيل المكانة إلى حد بعيد هنا فى هذه الأيام، بالمقارنة بصاحب التمائم الكثيرة. وأقسم لك يا أوهارا إنه مصاب بمرض ينتابه من آن لآخر. نعم، وأؤكد لك. إنها نوبات تشنج، إن لم تكن أيضًا صرَعًا. عثرت عليه ذات مرة فى هذه الحال تحت شجرة فى لحظة الوفاة فإذا به ينهض ثم يثب فى مياه الجدول ويسير فيه حتى كاد أن يغرق لولا أن تدخلت وأخرجته".

وقال كيم "لأننى لم أكن موجودًا! كان من المحتمل أن يموت".

"نعم كان يمكن أن يموت، لكنه قد جف الآن، ويزعم أنه قد تعرض لتغيير صورته". ونقر البنغالى بأصبعه على جبهته وقال بلهجة العليم "سجلت أقواله فى مفكرتى حتى أكتب عنها للجمعية الملكية، أو قل إنى قد أفعل ذلك. لابد أن تسرع باسترداد عافيتك وتعود إلى سيملا، وسوف أقص عليك قصتى فى منزل لورجان. كان ذلك رائعًا! كانت ذيول سراويلهما ممزقة، وظن الراجـا ناهان العجوز أنهما كان من الجنود الأوروبيين الهاربين من الجيش".

"آه! تقصد الروسييْن؟ كم يومًا قضيا معك؟".

"كان أحدهما فرنسيًا. أوه! أيامًا وأيامًا وأيامًا! أصبح الآن جميع أهل الجبال يعتقدون أن الروس كلهم متسولون! وأقسم! لم يكن معهما شىء واحد لم أعطه لهما. وكم ذكرتُ للعامة من قصص وحكايات! وسوف أروى لك فى منزل لورجان كل شىء عند قدومك. قل إننا سوف نستمتع بليلة عطلة!

ستكون غرة في جبيني وجبينك معًا! نعم ومنحاني شهادة. وتلك فكاهة ما بعدها فكاهة. ليتك شاهدتهما في مصرف 'ألايانس' وهما يثبتان هويتهما! والحمد لله القدير أنك حصلت على أوراقهما بهذه البراعة! أنت لا تضحك كثيرًا، لكنك سوف تضحك عندما تتعافى. والآن سأذهب مباشرة إلى محطة السكة الحديدية وأنطلق. لسوف تلقى شتى ألوان التقدير لمهارتك في اللعب. متى تنتوي القدوم؟ إننا نعتز كثيرًا بك وإن كنت قد تسببت في لحظات رعب شديد لنا، وخصوصًا لمحبوب".

"نعم، محبوب. وأين هو؟"

"يبيع الخيول في هذه الناحية بطبيعة الحال".

"هنا؟ لماذا؟ تكلم ببطء. مازال في عقلي ضباب".

وخفض البنغالي بصره في خجل وقال "يعني، كما تعلم، أنا رجل خَوَّاف ولا أحب المسؤولية. وكنت أنت مريضًا، تفهمني؟ ولم أكن أعرف مكان تلك الأوراق جميعًا، وإذا كانت موجودة فكم عددها. وهكذا فعندما أتيت إلى هنا أرسلت برقية سِرًّا إلى محبوب، وكان إذ ذاك في ملعب سباق الخيل في 'ميروط' (شمال شرقي دلهي) وأخبرته بتفاصيل الوضع الراهن. فحضر مع رجاله، وجعل يتحدث مع اللاما، ثم إذا به يتهمني بالحمق، ويُغلظ لي في القول...".

"ولكن لماذا؟ لماذا؟".

"هذا ما أريد أن أعرف. لم أقل إلا إنه إذا سرق الأوراق أحد، فأود الاستعانة برجال أشداء شجعان حتى يسرقوها من جديد، فأنت ترى مدى أهميتها الحيوية، ولم يكن محبوب علي يعرف أين أنت".

وقال كيم في غضب "تريد أن يسطو 'محبوب علي' على منزل السيدة الفاضلة؟ أنت مجنون يا بنغالي".

"كنت أريد الأوراق. فلنفترض أنها سرقتها؟ لم يكن ذلك إلا اقتراحًا عمليًّا، في نظري. لا يسرك هذا، هه؟".

واستعان كيم بمثل شعبى – لا يليق إيراده – للدلالة على عمق رفضه.

وهز هورى كتفيه قائلاً "يعنى. الذوق لا منطق له. كان محبوب غاضبًا هو الآخر. لقد باع الخيول فى كل مكان هنا، ويقول إن العجوز امرأة بالغة الكمال ولا تهبط إلى مستوى هذه الأفعال التى يأنفها السادة. الأمر لا يهمنى، فقد حصلت على الأوراق، وسرنى كثيرًا أن ألقى الدعم المعنوى من محبوب. أقول لك إننى رجل خوَّاف، ولكن الغريب هو أننى كلما ازداد خوفى ازدادت المآزق التى أقع فيها. وهكذا سُرِرْتُ بأن أتيت معى إلى شينى، ويسرنى أن محبوب كان قريبًا. وأحيانًا تُغلظ السيدة العجوز القول لى وتبدى غضبها على حُبُوبى الجميلة".

وقال كيم مستندًا إلى مرفقه "فليرحمنا الله!" وأضاف فى مرح "ما أشد ما يشبه البنغالى حيوانًا غريبًا! بل إن هذا الرجل قد سار وحده – إن كان قد سار وحده – مع اثنين من الأجانب اللذين تعرضا للسرقة ويشعران بالغضب!".

"أوه، كان الأمر هينًا بعد أن فرغا من ضربى. أما لو كنت أضعت الأوراق فلابد أن تكون العاقبة وخيمة، بل كاد محبوب يضربنى هو الآخر، وذهب وجعل يتحدث مع اللاما حديثًا لا نهاية له. لسوف أقتصر منذ الآن على بحوثى العرقية. دعنى أودعك الآن يا مستر أوهارا. أستطيع أن أستقل قطار الساعة ٤,٢٥ مساءً إلى أومبالا إذا تحركتُ بسرعة. لسوف نقضى وقتًا ممتعًا عندما نقص جميعًا هذه القصة فى منزل المستر لورجان. لسوف يكون تقريرى الرسمى عنك أفضل. إلى اللقاء يا صديقى العزيز، وعندما تغلبك هذه المشاعر مرة أخرى أرجوك ألا تستخدم مصطلح الدين الإسلامى وأنت ترتدى ثياب التيبت".

وصافح كيم مرتين – فهو بنغالى أصيل حتى كعب حذائه الطويل – وفتح الباب. وقال كيم فى نفسه "لقد خدعهما. وكذب عليهما شأن كل بنغالى. ومنحاه شهادة تزكية. وجعلهما أضحوكة مخاطرًا بحياته نفسها، وأما أنا فكان من المحال أن أعود إليهما بعد طلقات المسدس، وبعد هذا يقول إنه خَوَّاف... وهو فعلاً خواف. لا بد أن أدخل الدنيا من جديد".

كانت رجلاه فى البداية تنحنيان انحناء جذع الغليون، وكان التعرض المفاجئ للهواء الدافق الذى غمره ضوء الشمس يبهر عينيه. فجلس القرفصاء بجانب الجدار الأبيض، والذهن يفتش الأحداث التى صاحبت رحلة المحفة الطويلة، وحالات ضعف اللاما، وإلى جانب هذا - بعد زوال الدافع على الكلام- كان الرثاء لحاله، وكان لديه كالمرضى مخزون كبير منه. وابتعد ذهنه الخائر عن العالم الخارجى كله، مثل حصان لم يروض، ما إن يُهْمَزْ حتى يتفادى المهماز. كان يكفيه، بل يكفيه إلى حد كبير، أن غنيمة السلة قد انطلقت - ولم تعد فى يديه - وغير معهود بها إليه. حاول التفكير فى اللاما، والتعجب من تعثره فى الجدول، ولكن ضخامة الدنيا البادية بين أبواب الفناء الأمامى أطاحت بكل خاطر يتعلق باللاما. ثم جعل ينظر إلى الأشجار والحقول المترامية، والأكواخ المسقوفة بالقش مختبئة وسط المحاصيل، وكان يبصر بعينين غريبتين عاجزتين عن استيعاب أحجام الأشياء ونِسَبها وما جُعلت له، فأخذ يحدق فى سكون نصف ساعة. وكان يشعر فى ذلك الوقت، وإن لم يكن يستطيع التعبير عن ذلك، بأن روحه لم تكن متناغمة مع ما يحيط بها، فكأنها ترس غير مرتبطة بأية آلة، مثل الترس المُسَنَّنِ لعجلة سَحْق السكر العاطلة، من نوع 'بيهية'، الواقفة فى زاوية الفناء. كانت الأنسامُ تهب عليه، والببغاوات تصيح حوله، والأصوات فى المسكن الذى تقيم فيه الأسرة خلفه - من المهاترات إلى الأوامر والمعاتبات - تصل إلى أذن صماء.

ثم قال: "أنا كيم، أنا كيم، فما كيم؟" وكررت روحه ذلك عدة مرات. لم يكن يشعر بالحاجة إلى البكاء، بل لم يكن أشد عزوفًا عن البكاء مما كان فى هذه اللحظة، ولكنه فجأة وجد عبراتٍ بلهاءَ تنسابُ فى يُسْرٍ على أنفه، وأن عجلات كيانه عادت بصوت يكاد يسمع إلى الارتباط من جديد بالعالم الخارجى. فإذا بالأشياء التى كانت 'تركب' بلا معنى متن عينيه منذ لحظة واحدة قد اتخذت أبعادها الصحيحة. فالطرق قد جُعِلَتْ للمشى فيها، والمساكنُ للإقامة، والماشيةُ لتساق، والحقولُ لتُفْلَح، والرجال والنساء للحديث معهم. أصبح ذلك كله حقيقيًا وصادقًا، مغروسًا بثبات تحت قدميه، مفهومًا خير الفهم،

صلصالا من صلصاله، لا أكثر ولا أقل. وانتفض جسده انتفاض كلب فى أذنه برغوث، وانطلق خارجًا من الباب يتجول. وعندما أبلغت العيونُ التى كانت ترقبه ما فعل إلى السيدة المهيبة قالت "دعوه يذهب. ساهَمْتُ بما أستطيع وعلى أُمِّنا الأرض أن تقوم بالباقى. وعندما يعود الرجل الربانى من التأمل، أخبروه".

كانت عربةٌ خالية من العربات التى تجرها الثيران واقفةً فوق كثيب صغير على مسافة نصف ميل، ومن خلفها شجرة تين هندى يافعة، كأنها موقع مراقبة يعلو بعض الأراضى المنبسطة التى حُرثت من عهد قريب، فأحس أن جفنيه يثقلان فى الهواء العليل وهو يقترب منها. وكان يكسو الأرضَ ترابٌ نظيفٌ طيب، وكان خاليًا من الأعشاب النابتة التى ما إن تعرف الحياة حتى تشرف على الموت، لكنه كان ترابًا عامرًا بالأمل قادرًا على احتضان بذور الحياة كلها. وأحس به بين أصابع قدميه، وربت عليه براحتيه، ثم استلقى عضوًا عضوًا على الأرض، زافرًا زفرة تَنَعُّم، وتمدد طوليًّا فى ظل العربة المربوطة إلى الوتد الخشبى. وكانت الأرض الأم مخلصة إخلاص السيدة، فنفخت فيه من روحها ليستعيد ما فقده من اتزان أثناء رقاده فى سرير حُرم تياراتها الطيبة. ألقى برأسه دون حراك على صدرها، واستسلمت يداه المفتوحتان لقوتها. كانت الشجرة ذات الجذور الكثيرة من فوقه، بل والأخشاب الميتة التى صَنَّعَها البشر إلى جواره، تعرف ما يسعى إليه، وهو ما لم يكن يعرفه. ومرت الساعات عليه وهو راقد فى حالٍ أعمق من النوم.

وعندما اقترب المساء، والأبقار العائدة تثير الغبار الذى ملأ الآفاق جميعًا بالدخان، جاء اللاما ومحبوب على، سيرًا على الأقدام. كانا يمشيان بحذر، إذ أخبرهما من فى المنزل بالمكان الذى قصده.

وتمتم تاجر الخيول "ياالله! أى لعبة حمقاء يلعبها هذا فى الخلاء! يمكن إطلاق النار عليه مائة مرة، ولكننا لسنا على الحدود هنا".

وقال اللاما، مكررًا ما ردده كثيرًا "لم تشهد الأرض تلميذاً كهذا قط!

حليم، عطوف، حكيم ، لا يضمر حقدًا، مرح أثناء المسير، لا ينسى، مثقف، صادق، مهذب. ما أعظم ثوابه!".

"أعرف الصبى، كما قلت من قبل".

"وكان يتصف بهذه الصفات كلها؟".

"ببعضها. لكننى لم أعثر بعد على تميمة ربانى ذى قبعة حمراء تجعله يكثر من الصدق، لا شك أن لقى الرعاية الصحيحة فى مرضه".

وقال اللاما بنبرات الجد "السيدة ذات قلب من ذهب. تعتبره ولدًا لها".

وغمغم محبوب قائلاً "يبدو أن نصف الهند تشاركها ذلك. لم أكن أريد إلا الاطمئنان إلى أن الصبى لم يُصَبْ بسوء وحُرٌّ فيما يفعل. فأنت تعرف أننا كنا أصدقاء خلصاء فى الأيام الأولى لرحلتكما".

وجلس اللاما وهو يقول "هذا رباط بينى وبينه. وقد بلغنا خاتمة الرحلة".

"لم يكن لك فضل فى عدم انقطاع حبل حياتك إلى الأبد منذ أسبوع! سمعت ما قالته السيدة لك عندما حملناك إلى الفراش" وضحك محبوب مداعبًا لحيته التى صبغها من جديد.

"كنت أتأمل أمورًا أخرى فى ذلك الوقت. كان الطبيب البنغالى هو الذى قطع حبل تأملاتى".

وقال محبوب بلغة الـــپـــاشتو الأفغانية من باب الأدب "وإلا لأنهيت تأملاتك على الجانب الخانق من الجحيم، ما دمت كافرًا ووثنيًّا، برغم بساطة طفلك. ولكن قل يا صاحب القبعة الحمراء، ماذا ينبغى فعله؟".

وأجاب اللاما ببطء، والكلمات تنبض برنة النصر "فى هذه الليلة نفسها، سوف يتحرر مثلى من كل شائبة للخطيئة، مطمئنًّا مثلى، عندما يترك هذا الجسد، إلى التحرر من عجلة الأشياء. عندى علامة" ـــ ووضع يده فوق الخريطة الممزقة فى صدره ـــ "تقول إن أجلى قصير، لكننى سأكون قد حميتُه

على مر الأعوام. تذكر أننى بلغت المعرفة، كما قلت لك منذ ثلاث ليالٍ فقط".

وقال محبوب في نفسه "لابد أن يكون صحيحًا – كما قال كاهن عقيدة 'طيره' عندما سَرَقْتُ زوجة ابن عمه – أننى ذو فكر حر؛ فها أنذا جالس أجرع جرعات تجديف فى الدين لا يقبلها العقل... أذكر القصة. وعلى ذلك إذن يدخل هذا جنات عدن. ولكن كيف؟ هل ستقتله أم تغرقه فى ذلك النهر الرائع الذى أخرجك منه البنغالى؟".

وقال اللاما ببساطة "لم يخرجنى أحد من أى نهر. أنت تنسى ما حدث. إنى وجدته من طريق المعرفة".

وتمتم محبوب قائلاً "نعم نعم صحيح". وكان يتنازعه الغضب الشديد والمرح الطاغى. "نسيتُ التسلسل الدقيق للأحداث. فلقد عثرت أنت عليه بالمعرفة".

"والقول بأننى أزهق روحًا قول... ليس خطيئة بل جنون وحسب. إذ إن تلميذى ساعدنى على بلوغ النهر. ومن حقه أن يتطهر من الخطيئة.. معى".

"نعم. يحتاج إلى التطهر. ولكن ماذا بعد ذلك أيها العجوز.. بعد ذلك؟"

"وماذا يهم ذلك تحت كل السماوات؟ لقد بلغ التنوير قطعًا... مثلى".

"أحسنت. كنت أخشى أن يركب البراق النبوى ويطير!".

"لا، بل لابد أن ينطلق باعتباره مُعَلِّمًا".

"آها! فهمتُ الآن! هذه هى المِشْيَةُ المناسبة للمُهْر! بالقطع لابد أن ينطلق بصفته معلمًا. لكن الدولة فى حاجة مُلِحَّةٍ إليه الآن للعمل كاتبًا، مثلاً".

"لقد اكتمل إعداده لهذه الغاية. واكتسبتُ الامتياز أنا بالإحسان من أجله. العملُ الصالح لا يموت: ساعَدَنى فى بحثى وساعَدْتُه فى بحثه. ما أعدل العجلة يا تاجر الخيول ابن الشمال! فليصبحْ معلما أو يصبح كاتبًا، ما أهمية ذلك؟ لسوف يكون قد حقق الحرية فى النهاية. والباقى وَهْم".

"ما أهمية ذلك؟ كيف إذا كنتُ ملزمًا باصطحابه معى إلى ما وراء بلخ بعد ستة أشهر؟ إنى حضرت بعشرة خيول عرجاء وثلاثة رجال أشداء – بسبب البنغالى الجبان – حتى أخرج غلامًا مريضًا من منزل امرأة عجوز. يبدو أننى لا بد أن أقف مكتوف اليدين أثناء قيام صاحب القبعة الحمراء الهرم برفع صبى إنجليزى إلى سماء وثنية لا يعلمها إلا الله! وأنا أعتبر نفسى لاعبًا فى هذه اللعبة أيضًا! ولكن المجنون مغرم بالصبى، ولابد أن أكون أنا أيضًا مجنونًا فى حدود المعقول جدًّا!".

وقال اللاما "وما الصلاة؟" أثناء همهمة الأفغانى الفظ للحيته الحمراء.

"لا شىء على الإطلاق. لكننى وقد فهمت أن الصبى بعد أن ضمن الجنة يستطيع مع ذلك الالتحاق بخدمة الحكومة، أشعر بالاطمئنان – لابد أن أذهب إلى خيولى. بدأ الظلام يهبط. لا توقظْه. لا أرغب فى أن أسمعه يناديك بلقب المعلم".

"لكنه تلميذى فعلاً. وهل هو غير ذلك؟".

وكظم محبوب غيظه ونهض ضاحكًا وهو يقول "أَخْبَرَنِى بذلك". ثم أضاف "لستُ على الإطلاق من أتباع دينك، يا صاحب القبعة الحمراء، إذا كانت هذه المسألة التافهة تهمك".

"ذلك ما تصورتُه. ومن ثم فلن يؤثر فيك، بعد أن طَرَحْتَ الخطايا، وتطهرتَ بالماء وكنتَ على وشك الغرق أيضًا، أن أصفك بالصلاح، بل بالصلاح البالغ. لقد تحادثنا معًا أربع أمسيات أو خمس، وعلى الرغم من كل ما يقال عن تجار الخيول، مازلت أستطيع – كما يقولون – أن أدرك القداسة فيما يتجاوز قوائم الخيل. نعم، وأستطيع أن أدرك أيضًا كيف وضع صاحِبُنَا، صديق العالمِ أجمع، يدَه فى يدك فى البداية. عامِلْه معاملةً طيبة، واجتهدْ حتى يعودَ إلى الدنيا مُعَلِّمًا، من بعد أن تغسلَ رجليه، إذا كان ذلك هو العلاج الصحيح للمُهْر".

"ولماذا لا تتبع الطريق أنت نفسك، وهكذا تصاحب الصبى؟".

وحدق محبوب مشدوهًا من الوقاحة 'الجليلة' التى اتسم بها السؤال، ولو وقع ذلك عبر الحدود لرد عليه بأكثر من لكمة. ثم وجدت فكاهة الموقف طريقًا إلى روحه الدنيوية.

وقال محبوب "بهدوء، بهدوء، خطوة خطوة" أثناء مرور حصان اللاما فى طريق أومبالا الوعر، وأضاف "يمكن أن آتى الجنة فيما بعد فلدىَّ مهامٌّ عظمى فى ذلك السبيل، أفكارٌ عظمى، وأنا أَدين بها إلى بساطتك. ألم تكذبْ فى حياتك قط؟".

"وما حاجتى إلى الكذب؟".

"يا الله! اسمع ما يقول! 'ما حاجتى' فى عالمك هذا؟ ألم تؤذ رجلاً قطٍ؟"

"مرة واحدة، بعلبة أقلامى، قبل بلوغ الحكمة".

"وإذن؟ فَلْتَتَحَسَّنْ صورتُك فى نظرى. تعاليمك صالحة. ولقد صَرَفْتَ رجلاً أعرفه عن طريق الصراع" وضحك ضحكًا شديدًا وأضاف "كان قد جاء إلى هنا ليرتكب السطو المصحوب بالعنف. نعم، للاقتحام والسطو والقتل والظفر بما يبغى".

"حماقة كبرى!".

"نعم! وعار أسود أيضًا. وهذا ما خطر له بعد أن رآك، ولفيفًا من الآخرين، ذكورًا وإناثًا. وهكذا نبذ مشروعه وانصرف ليهزم بنغاليًّا سمينًا ضخم الجرم".

"لا أفهم".

"لا قدر الله ذلك! بعضُ الرجال أقوياء بالمعرفة يا صاحبَ القبعة الحمراء. ولكن قوتك أكبر. حافظْ عليها، وسأظن أنك ستنتجح فى ذلك. وإذا لم يُحْسِنْ خدمتك فامْلَخْ أذنيه".

وشَدَّ الأفغانى حزامه العريض على وسطه وانطلق يتبختر فى الغسق، وهبط اللاما من سحابه إلى الحد الذى أتاح له أن ينظر إلى ظهره العريض.

"هذا الشخص يفتقر إلى الأدب، ويخدعه ظل المظاهر. لكنه امتدح تلميذى الذى حان له أن يظفر بمكافأته. فلأودِّ الصلاةَ اللازمة!... استيقظْ يا من يفوق سعده سعد كل من ولدته امرأة. اصح الآن! لقد عثرت عليه!".

وخرج كيم من تلك الآبار العميقة، وشهد اللاما تثاؤبه فى سرور، ثم أصدر اللاما فرقعة بأصابعه لحراسة كيم من الأرواح الشريرة.

"نمت مائة سنة. أين...؟ هل قضيت أيها الربانى وقتًا طويلاً هنا؟ كنتُ خرجت لأبحث عنك، ولكنى" وضحك ضحكة يغالبها النعاس "نمت فى الطريق. أصبحت الآن بخير تمامًا. هل أكلت؟ فلنذهب إلى المنزل. أهملتُ رعايتك منذ أيام كثيرة. وهل كانت السيدة تأتيك بالطعام الكافى؟ من كان يُدَلِّكُ قدميك؟ وما شأن أوجاعك، فى البطن والرقبة، والطنين فى الأذنين؟".

"ذهبت. كلها ذهبت. ألا تعرف؟".

"لا أعرف شيئًا، إلا أننى لم أشاهدك منذ زمن طويل. أعرف ماذا؟".

"غريب ألا تبلغك المعرفة، وأفكارى كلها مركزة عليك".

"لا أستطيع أن أرى الوجه، ولكن الصوت يدوى مثل الصنج. هل أحالتك السيدة شابًا بفنون طهوها؟".

وتطلع محدقًا فى الشخص الذى يجلس القرفصاء، برجلٍ تحت الرجل الأخرى، وقد ظهرت خطوط ظله الأسود الفاحم أمام الضوء ذى اللون الليمونى، كأنه تمثال بوذا الحجرى الذى يطل على المداخل الدوارة البراقة، ذات التسجيل الذاتى، لمتحف لاهور.

وصمت اللاما، وباستثناء قعقعة المسبحة الخافتة، وأصوات أقدام محبوب المبتعدة، كان صمت المساء الحانى الذى يغشاه الدخان فى الهند يلفهما تمامًا.

"أصغ إليَّ! أحمل أنباءً لك".

"لكن دعنا...".

وامتدت فجأة اليد الصفراء الطويلة لتفرض الصمت. وأطاع كيم وهو يغطي قدميه بأطراف ثوبه.

"أصغ إليَّ. أحمل أنباءً لك. انتهى البحث. والآن تأتي المكافأة. وهكذا، عندما كنا وسط الجبال، كنت أعيش على قوتك حتى انحنى الغِصْنُ الفتيُّ وكاد ينكسر. وعندما خرجنا من الجبال كنت مهمومًا عليك وعلى أمور أخرى كتمتها في صدري. كان زورق روحي ضالاً، إذ لم أكن قادرًا على النفاذ ببصري إلى سبب الأشياء. وهكذا أسلمتك تمامًا إلى المرأة الفاضلة. لم أتناول أي طعام، ولم أشرب أي ماء. ومع ذلك فلم أكن أرى الطريق. كانوا يلحون عليَّ في تناول الطعام ويصرخون عند بابي المغلق. فانتقلت إلى منخفض في الأرض تحت شجرة. لم أتناول طعامًا. لم أشرب ماء. وجلست في حالة التأمل يومين بليلتين، مجردًا ذهني، مواظبًا على الشهيق والزفير بالأسلوب المطلوب... وفي الليلة الثانية – ما أعظم ما كان ثوابي! – تَحلَّلتِ الروحُ الحكيمة من عِقَال الجسد الأبله وانطلقت حرة. ولم أكن قد أنجزت ذلك من قبل قط، رغم بلوغي عتبته. فانظر وتأمل، إنها أعجوبة!".

وقال كيم بصوت خفيض "أعجوبة حقا. يومان بليلتين من دون طعام! أين كانت السيدة؟".

"نعم، تحررت روحي، وجعلت تحلق مثل عُقاب، فتأكدت فعلاً من عدم وجود اللاما ولا غيره! ومثلما تقترب القطرة من الماء اقتربت روحي من الروح العظمى التي تتجاوز كل شيء. وفي تلك اللحظة، التي رفعتني تأملاتي فيها، رأيت الهند كلها، من سيلان في البحر إلى الجبال، وصخوري الملونة نفسها في سوخزن؛ فرأيت كل مخيم وقرية حللنا فيها للراحة، حتى أصغرها حجمًا، ورأيتها في وقت واحد ومكان واحد، إذ إنها كانت داخل الروح. ومن ذلك عرفت أن الروح قد تخطت فتجاوزت وهم الزمان والمكان والأشياء.

ومن هذا عرفت أننى حر. رأيتك راقدًا فى سريرك، ورأيتك وأنت تهوى على الجبل تحت الكافر، فى وقت واحد، ومكان واحد، فى روحى، وهى التى كانت، كما قلت، قد لامست الروح العظمى. وشاهدت الجسد الغبى للاما تيشو راقدًا، والطبيب البنغالى راكعًا بجواره، يصرخ فى أذنه. ثم أصبحت روحى وحدها تمامًا، ولم أعد أرى شيئًا، لأننى كنت كل شىء، بعد أن بلغت الروح العظمى. واستغرقت فى التأمل ألف ألف عام، دون انفعال واعيًا كل الوعى بأسباب جميع الأشياء. ثم هتف بى هاتف "ماذا عسى أن يحدث للصبى إذا مُتّ أنت؟" فجعلت أنتفض إلى الأمام وإلى الخلف فى نفسى إشفاقًا عليك، وقلت "سوف أعود إلى تلميذى خشية أن يتوه عن الطريق". وعندها وجدت روحى، وهى روح اللاما تيشو، تنسحب من الروح العظمى بما لا يحصى من الأشواق والمجالدة والتهوع والألم. ومثلما تخرج البيضة من السمكة، والسمكة من الماء، والماء من السحاب، والسحاب من الهواء الكثيف، انْطَلَقَتْ بل وَثَبَتْ، بل انسحبت، بل تبخرت روح اللاما تيشو من الروح العظمى. ثم صاح بى صوت يقول "النهر! انتبه إلى النهر!" فألقيت نظرة على العالم كله، فإذا هو كما كنت أشاهده من قبل، واحدًا فى الزمن واحدًا فى المكان، ورأيت بوضوح نهر السهم عند قدمىَّ. فى تلك الساعة كان يعوق روحى شَرٌّ لم أكن تطهرت منه تمامًا، وكان يَجْثُمُ على ذراعىَّ ويلتف حول وسطى، لكننى طرحته جانبًا، وانطلقت كالعُقاب فى طيرانه إلى الموقع عينه فى النهر. وجعلت أُنَحِّى عالمًا من فوق عالم من أجلك. شاهدت النهر يجرى من تحتى، نهر السهم، وعندما نزلته غمرتنى المياه، فإذا بى من جديد فى جسد اللاما تيشو، ولكنْ متحرر من الخطيئة، ورفع الطبيب البنغالى رأسى فوق سطح ماء النهر. إنه هنا! إنه خلف أجمة أشجار المانجو هنا... هنا فعلاً!".

"الله كريم! الحمد لله أن البنغالى كان قريبًا! هل أُصِبْتَ بالبلل الشديد؟".

"ولماذا أكترث بذلك؟ أذكر أن الطبيب كان قلقًا على جسد اللاما تيشو. فأخرجه من المياه المقدسة بيديه، ثم جاء بعد ذلك تاجر الخيول ابن الشمال بنقالة وبعض الرجال، ثم وضعوا الجسد على النقالة وحملوه إلى منزل السيدة".

"وماذا قالت السيدة؟".

"كنت مستغرقًا فى تأملاتى، وأنا فى ذلك الجسد، فلم أسمع. وهكذا انتهى البحث، ولقاء ما أحرزت من امتياز وجدت نهر السهم. بل إنه تفجر تحت أقدامنا، كما قلت، لقد وجدته. يا ابن روحى، إنى انتزعت نفسى انتزاعًا من عتبة الحرية عائدًا إليك لتحريرك من كل الخطايا، ما دمتُ حُرًّا، وبلا خطيئة! ما أعدل العجلة! خلاصنا مؤكد! هيا!".

وعقد يديه فى حجره وابتسم، مثلما يحق لرجل فاز بالخلاص لنفسه ولحبيبه أن يبتسم.

قائمة المراجع الأجنبية

التى استُشهد بها أو ورد ذكرها فى المقدمة

Allen, Charles. *Kipling Sahib : India and the Making of Rudyard Kipling*, (Pegasus Books, New York, ٢٠٠٩).

Amis, Kingsley. *Rudyand Kipling and His World.* London : Thames and Hudson, ١٩٧٥.

Auden, W.H. "The Poet of Encirlement (Rudyard Kipling)." ١٩٤٣. In *Literary Opinion in America*, ed. Morton Dauwen Zabel; ٣rd edn. Rev., NY, ١٩٦٢, pp. ٢٥٩-٢٦٥.

Anderson, Benedict. *Imagined Communities : Reflections on the Origin and Spread of Nationalism.* (London : Verso, ١٩٩١ [١٩٨٣]).

Annan, Noel, "Kipling's Place in the History of Ideas," *Victorian Studies* ٣(١٩٥٩-١٩٦٠), pp. ٣٢٣-٣٤٨.

Bancom, Ian. *Out of Place : Englishness, Empire, and the Locations of Identity*, (Princeton, N.J., Princeton University Press, ١٩٩٩), pp. ٩٣-٩٩.

Bayley, John. "The Puzzles of Kipling." *The Uses of Division : Unity and Disharmony in Literature.* New York : Viking, ١٩٧٦, pp. ٥١-٨١.

Bayly, C.A. *Empire and Information : Intelligence Gathering and Social Communication in India,* ١٧٨٠-١٨٧٠ (Cambridge : Cambridge University Press, ١٩٩٦).

Bennington, Geoff. "Postal Politics and the Institution of the Nation", in *Nations and Narration,"* p. ١٢١.

Bhabha, Homi. "DissemiNation", in *Nation and Narration*, p. ٣٠٥.

Chauduri, Nirad. "The Finest Story about India – in English [Kim]." In *The Age of Kipling : The Man, His work, and His World*, ed. John Gross. New York, ١٩٧٢, pp. ٢٨-٣٥.

Edney, Matthew H., *Mapping an Empire : The Geographical Construction of British India,* ١٧٦٥-١٨٤٣ (Chicago: University of Chicago Press, ١٩٩٧), pp. ٣٠٨-٣٠٩.

Eliot, Charles. *Hinduism and Buddhism : A Historical Sketch*, ٣ vols. (١٩٢١, rep. ١٩٦٢, ١٩٨٣).

Eliot, T.S., "Rudyard Kipling", in *A Choice of Kipling's Verse* (١٩٤١; Garden City, NY : Doubleday Anchor Books, ١٩٦٢).

Farquhar, J.N. *An Outline of the Religious Literature of India*, ١٩٦٧ (rep. ١٩٨٩).

Gilbert, Elliot, ed. *Kipling and the Critics*. New York : NY University Press, ١٩٦٥.

Gilmour, David. *The Long Recessional : The Imperial Life of Rudyard Kipling* (New York, ٢٠٠٢).

Hollington, Michael. "Kim and Kipling ...", in Q/W/E/R/T/Y (١٩٩٤).

Hopkirk, Peter. *The Great Game : On Secret Service in High Asia*. London : John Murray, ١٩٩٠.

Hopkirk, Peter. *Quest for Kim : In Search of Kipling's Great Game* (London : Jphn Murray, ١٩٩٦), ١٢٠ ff.

Howe, Irving. Introduction to *The Portable Kipling*. New York : Penguin, ١٩٨٢, pp. Ix-xxxix on *Kim*.

Humphreys, Christmas. *Buddism : An Introduction and Guide* (London, Penguin, ١٩٥١).

Jan Mohamed, Abdul R. "The Economy of Manichean Allegory : The Function of Racial Difference in Colonialist Literature", *Critical Inquiry*, Vol. ١٢. No. ١, Autumn ١٩٨٥, pp. ٥٩-٨٧.

Jarrell, Randall. *Kipling, Auden & Co.: Essays and Reviews, ١٩٣٥-١٩٦٤*. New York : Farrar, Straus and Giroux, ١٩٨٠, pp. ٣٣٢-٣٦٤.

Kinkead-Weekes, Mark. "Vision in Kipling's Novels", in *Kipling's Mind and Art*, ed. Andrew Rutherford (Stanford, Calif.: Stanford University Press, ١٩٦٤; rpt. ١٩٦٦), pp. ٢٢٨-٢٣٤.

Kipling, Rudyard. *Something of Myself : For My Friends Known and Unknown* (Garden City, NY : Doubleday, Doran, ١٩٣٧).

Kipling, Rudyard. *Complete Verse*, Definitive Edition, Anchor Books, New York, ١٩٨٩ (For 'The White Man's Burden', p. ٣٢١).

Kling, Blair B. "*Kim* in Historical Context", in *Kim*'s Norton edn. ٢٠٠٢, by Sullivan, pp. ٢٩٧-٣٠٩.

Maugham, W. Somerset. Introduction to *A Choice of Kipling's Prose*. London : Macmillan, ١٩٥٢, pp. V-xxvii.

Martin, A. Michael. "The Hun is at the Gate" : Historicising Kipling's Militaristic Rhetoric, from the Imperial Periphery to the National Center", a two-part article in *Studies in the Novel* ٣١. ٣ (Fall ١٩٩٩), pp. ٣١٧-٥٦ and ٤ (Winter ١٩٩٩), pp. ٤٣٢-٤٧٠.

McClure, John A. *Kipling and Conrad : The Colonial Fiction* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, ١٩٨١), pp. ٣٠-٨١.

Meyers, Jeffrey. Introduction to *The Best Short Stories of Rudyard Kipling*. New York : Signet, ١٩٨٧, pp. Vii-xvi.

Meyers, Jeffrey. "Introduction" to *Kim* (Barnes & Noble Classics, New York, ٢٠٠٣).

Orwell, George. "Rudyard Kipling". ١٩٤٢. In *A Collection of Essays*. Garden City, NY : Doubleday Anchor Books, ١٩٥٤, pp. ١٢٣-١٣٩.

Parry, Benita. *Delusions and Discoveries : Studies on India in The British Imagination,* ١٨٨٠-١٩٣٠. London : Allen Lane, ١٩٧٢, pp. ٢٤٢-٢٥٥ on *Kim*.

Renan, Ernest. "What is a Nation ?" in Nation and Narrative, ed. Homi K. Bhabha (London and New York : Routledge, ١٩٩٠), p. ١٣.

Roy, Parama. *Indian Traffic : Identities in Question in Colonial and Postcolonial Literature.* (Berkeley : University of California Press, ١٩٩٨).

Rutherford, Andrew, ed. *Kipling's Mind and Art.* Edinburgh and London : Oliver and Boyd, ١٩٦٤, pp. ٢١٦-٢٣٤ on *Kim*.

Said, Edward W. "Introduction" to *Kim*, (Harmondsworth, Eng.: Penguin Books, ١٩٨٧), pp. ٣٠-٤٦. (Earlier Parts cited too).

Seymour-Smith, Martin. *Rudyard Kipling : A Biography* (New York : St. Martin's Press, ١٩٨٩), p. ٣٣١.

Suleri, Sarah. *The Rhetoric of English India* (Chicago, University of Chicago Press, ١٩٩٢), pp. ١٢٧-١٣١.

Sullivan, Zohreh T., ed. *Kim : Authoritative Text, Backgrounds, Criticism*. New York : W.W. Norton, ٢٠٠٢.

Sullivan, Zohreh T., "What Happens at the End of *Kim* ?", in *Kim* ed. Sullivan, ٢٠٠٢, pp. ٤٤١-٤٥٢.

Tompkins, J.M.S. *The Art of Rudyard Kipling*, ١٩٥٩.

Williams, Patrick. *Kipling Reconsidered*, ed. Phillip Mallett, ١٩٨٩, pp. ٣٣-٣٥.

Wilson, Angus. *The Strange Ride of Rudyard Kipling (Harmondsworth: Penguin Books, ١٩٧٩), pp. ٢٠-٢١.*

Wilson, Edmund. "The Kipling that Nobody Read," in *The Wound and the Bow : Seven Studies in Literature* (١٩٤١; New York : Oxford University Press, ١٩٦٥).

Wurgaft, Lewis D. *The Imperical Imagination : Magic and Myth in Kipling's India.* (Middletown, Conn.: Wesleyan University Press, ١٩٨٣), pp. ٥٤-٤٩, *Passim.*

Yule, Henry, and A.C. Burnell. *Hubson-Jobson : The Anglo-Indian Dictionary,* ١٨٨٦. Ware, Hertfordshire : Wordsworth, ١٩٩٦.

المؤلف فى سطور

BOLD رديارد كيـــپـلنج: (١٨٦٥-١٩٣٦) أول كاتب إنجليزى يفوز بجائزة نوبل فى الآداب (١٩٠٧) وقد اشتهر بأنه 'شاعر الإمبراطورية' الذى يتغنى بأمجادها فى شعره ونثره، الأمر الذى جعله خلافيًا من الزاوية العقائدية فى القرن العشرين، فكثرت الدراسات التى تتناول فكره وفنه، أحدثها كتاب كامل عنه صدر عام ٢٠٠٩، وتعددت وجهات النظر إلى شعره ونثره ما بين مادحٍ وقادحٍ، على امتداد ما يزيد على قرن كامل، حتى بعد أن تغير موقفه وعدل عن فكره القديم.

ويختلف كيـــپـلنج عن غيره فى أنه شاعر وناثر معًا، لا يستطيع الفصل بين هذا وذاك، ولذلك لا تخلو رواياته من أشعار يكتبها من وحى أحداث العمل المنثور، كما تظهر فى شعره آثار مذهبه الروائى القائم على الوصف الحىّ 'الواقعى ' والمذهب 'الرمزى ' الوليد (آنذاك).

المترجم فى سطور

د. محمد عنانى:، ولد عام ١٩٣٩، أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة، والأديب والناقد، له خمسة دواوين شعرية وثمانى عشرة مسرحية، وأصدر نحو ٧٥ كتابًا ما بين مؤلف ومترجم من بينها تسع عشرة مسرحية لشيكسبير، ترجمها شعرًا ونثرًا وفقًا للأصل، وملحمتى **الفردوس المفقود** و**عودة الفردوس** للشاعر ميلتون، وملحمة **دون چــوان** للشاعر بايرون، وتتضمن كل من هذه مقدمة وافية وحواشى ضافية. وله كتب فى النقد الأدبى أهمها **المصطلحات الأدبية الحديثة**، ومجموعة كتب قيمة فى مبحث دراسات الترجمة، من أهمها **نظرية الترجمة الحديثة**.

حاز وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى (١٩٨٥)، واختير خبيرًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٩٦)، وفاز بجائزة التفوق فى الآداب (١٩٩٩) وجائزة الدولة التقديرية فى الآداب (٢٠٠٢).



رواية "كيم" المنشورة عام 1901 تحكى قصة صبى يتيم ولد فى الهند فى عهد الاستعمار، فنشأ ممزقًا بين حبه الراسخ للهند التى ينتمى إليها مولدًا ونشأةً وبين واجب ولائه لانتمائه العرقى (الأيرلندى - الإنجليزى) الذى يفرض عليه العمل لصالح جهاز الاستخبارات البريطانى فى آسيا، ومن ثَمَّ يصور المؤلف رديارد كيپلنج ذلك الصراع فى نفسه بين دوافع الانتماء الثقافى (الهندى) والانتماء العرقى (البريطانى) وكيف كان فى الحقيقة يمثل البحث عن هويته. وتعتبر الرواية أفضل ما كتبه المؤلف، كما كانت العامل الأساسى فى حصوله على جائزة نوبل فى الآداب عام 1907.

والنص مترجم بدقة متناهية، تتيح للقارئ أن يتذوق أسلوب الكاتب لا فكره فحسب، ويقدم المترجم للنص بمقدمة وافية عن المؤلف والرواية والأحوال التاريخية آنذاك (فى أواخر القرن التاسع عشر) وأديان الهند وما إلى ذلك؛ مما يساعده على التمتع بالرواية.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح